توفيق فضل الله ضعون

سيرة حياتي

كتاب يتضمن اهم ما جرى لي من الحوادث
في سوريا ومصر والسودان وسواها من
البلدان في قالب روائي فكاهي
اصدره بمناسبة بلوغي
الخمسين من
العمر



توفيق فضل الله ضعون

صاحب مجلة البلبل

سيرة حياتي

كتاب يتضمن اهم ما جرى لي من الحوادث
في سوريا ومصر والسودان وسواها من
البلدان في قالب روائي فكاهي
أصدره بمناسبة بلوغي
الخمسين من
العمر

طبع في سان باولو - برازيل

سنة ١٩٢٢

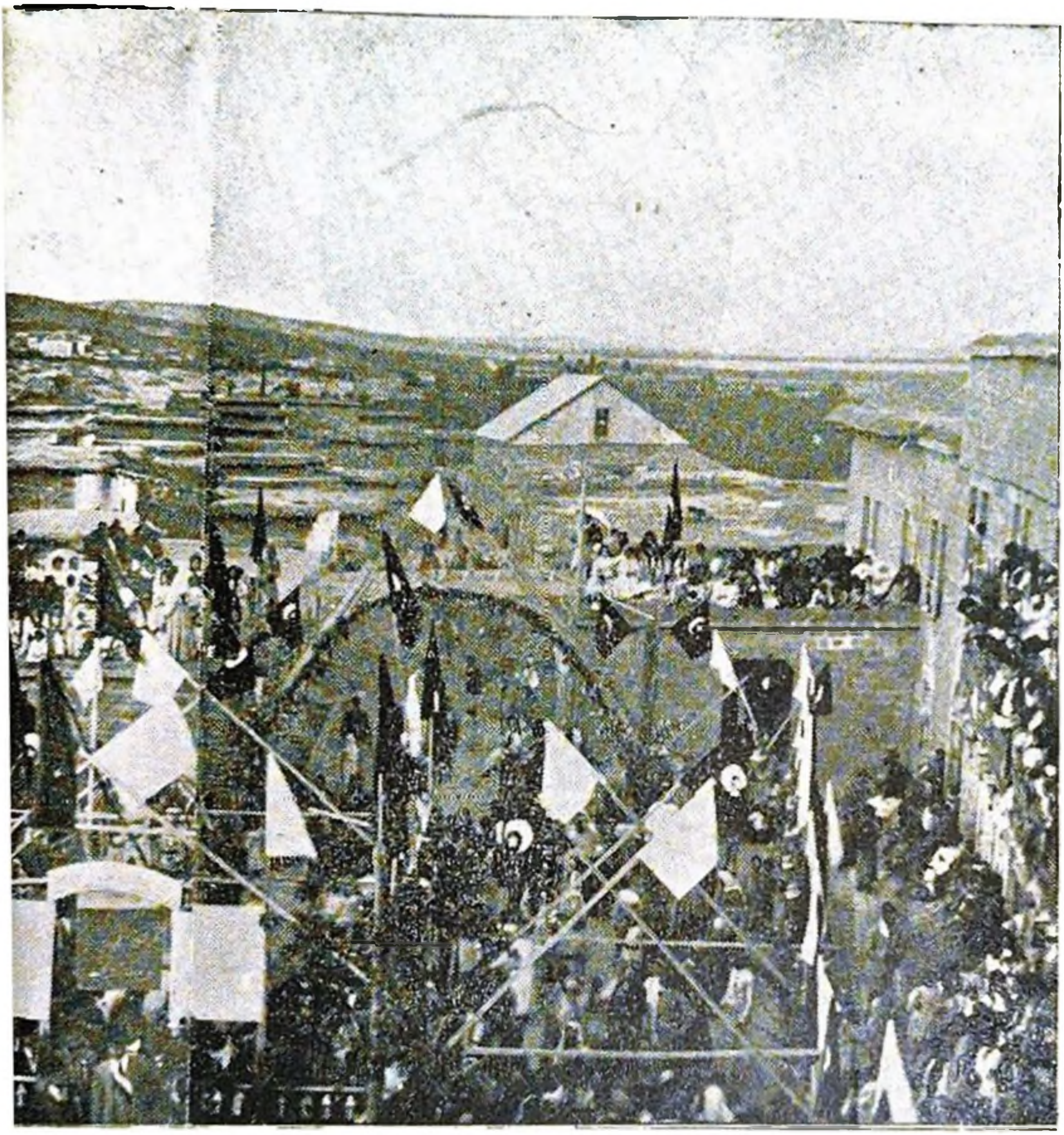
الرسومُ التذكاريّة

ذات العلاقة بموضوعات هذا الكتاب

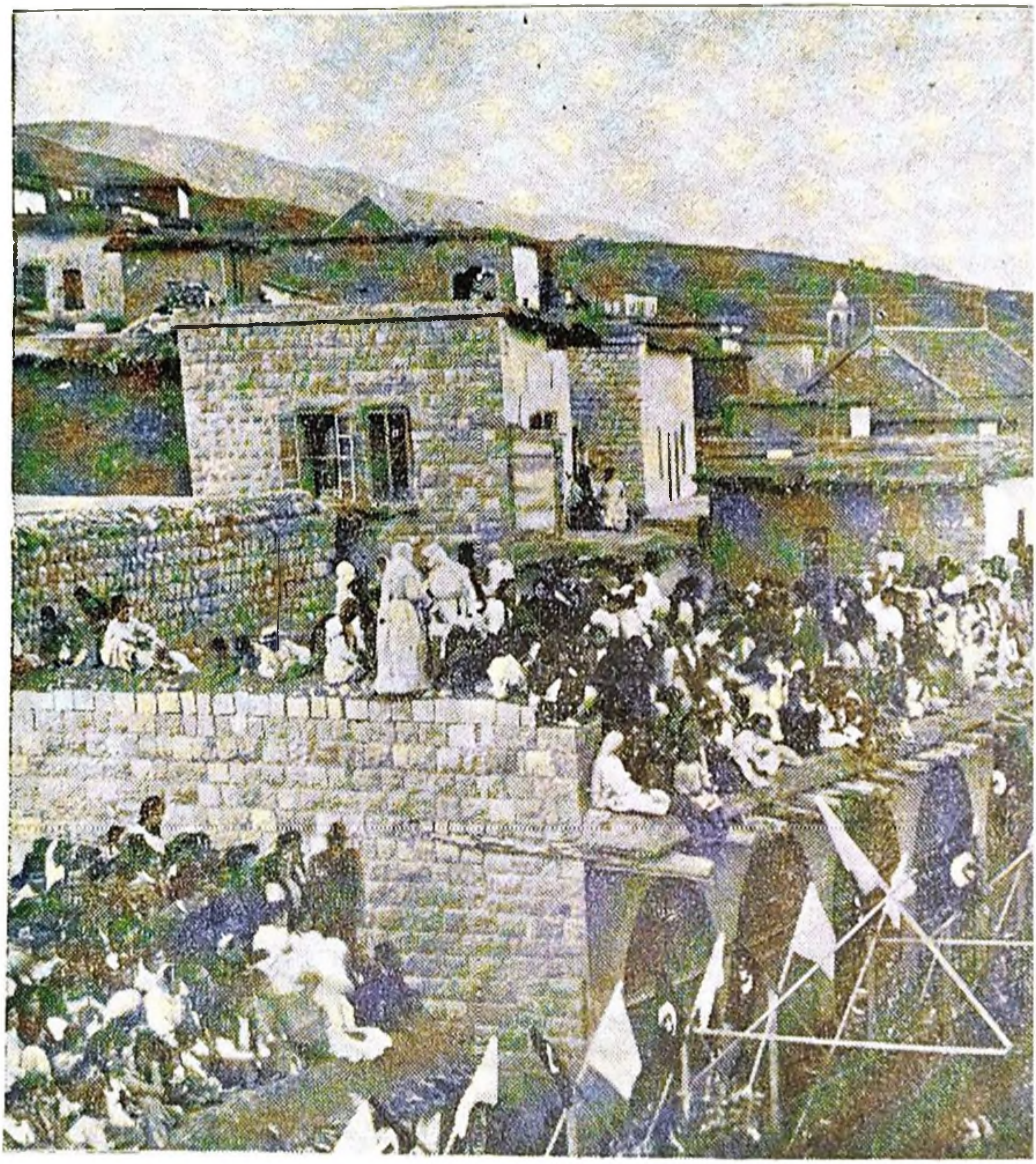




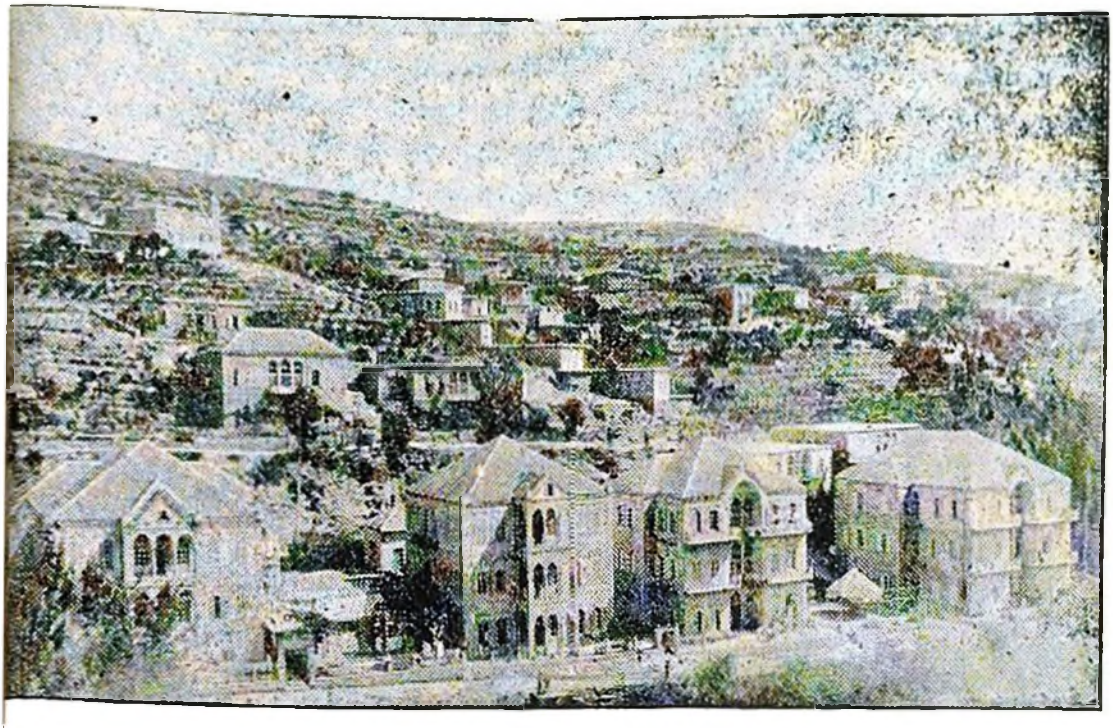
المؤلف في الخامسة والعشرين وفي الخمسين

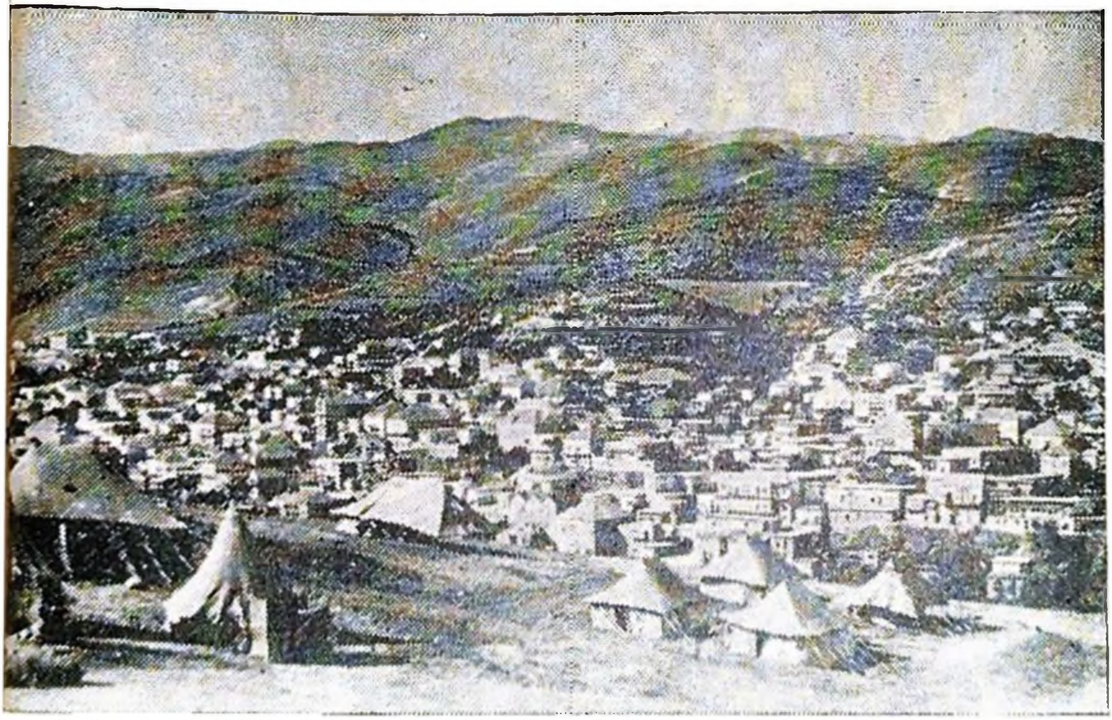


الرسم الوحيد الذي وجدته لمعلقة زحله وقد أخذه صديقي
المصوّر البارع اسعد مرهج في أثناء حفلة
شائقة أقيمت في الساحة العمومية
احتفاءً باعلان الدستور
سنة ١٩٠٨

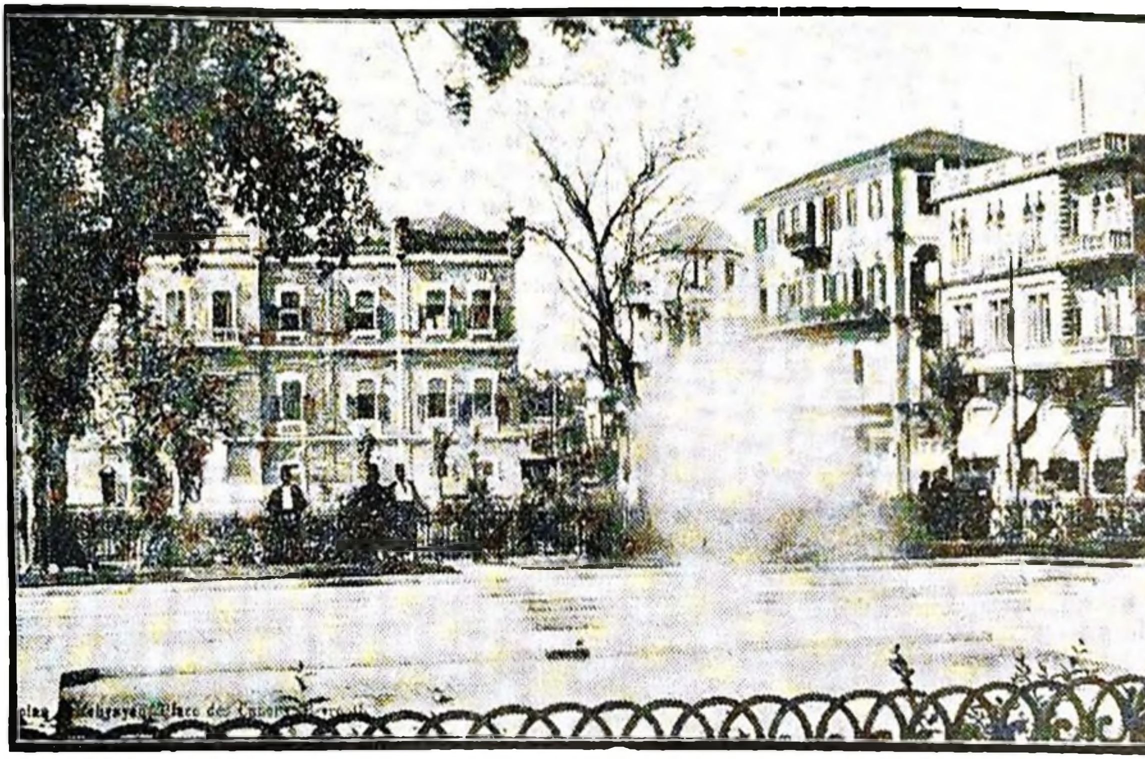


تظهر في هذا الرسم كنيستا الموارنة والبروتستانت وفي غوره
البيادر والكروم وقرية ابلح وفي مقدمته صديقي
الاديب داود مجاعص وقد وقف خطيباً
وعلى صدره شعار جمعية
الاتحاد والترقي

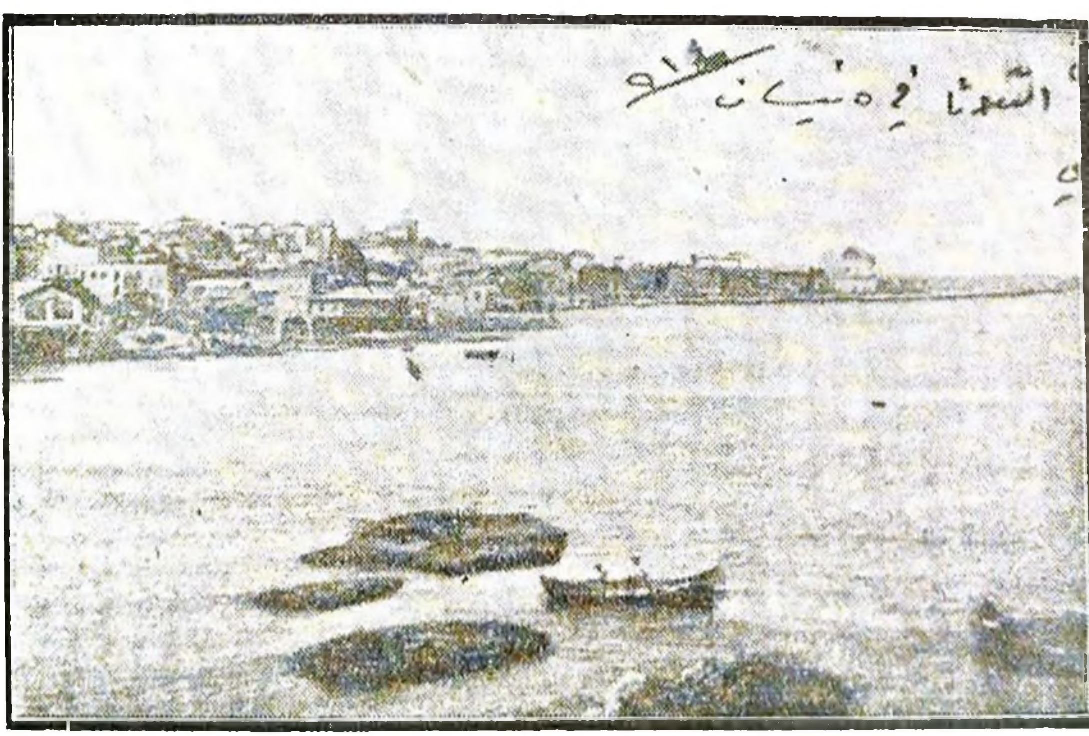




منظران من مدينة زحلة الملقبة بحق « عروس الوادي »



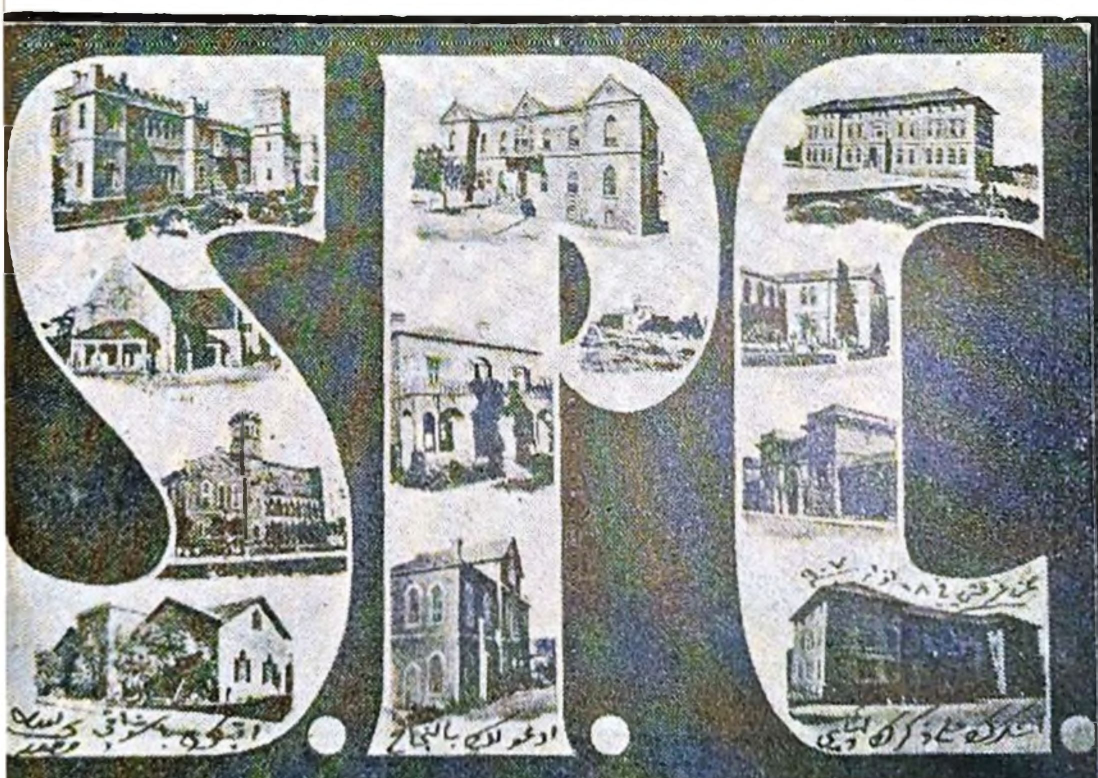
ساحة البرج في مدينة بيروت ، وتعرف اليوم بساحة الشهداء



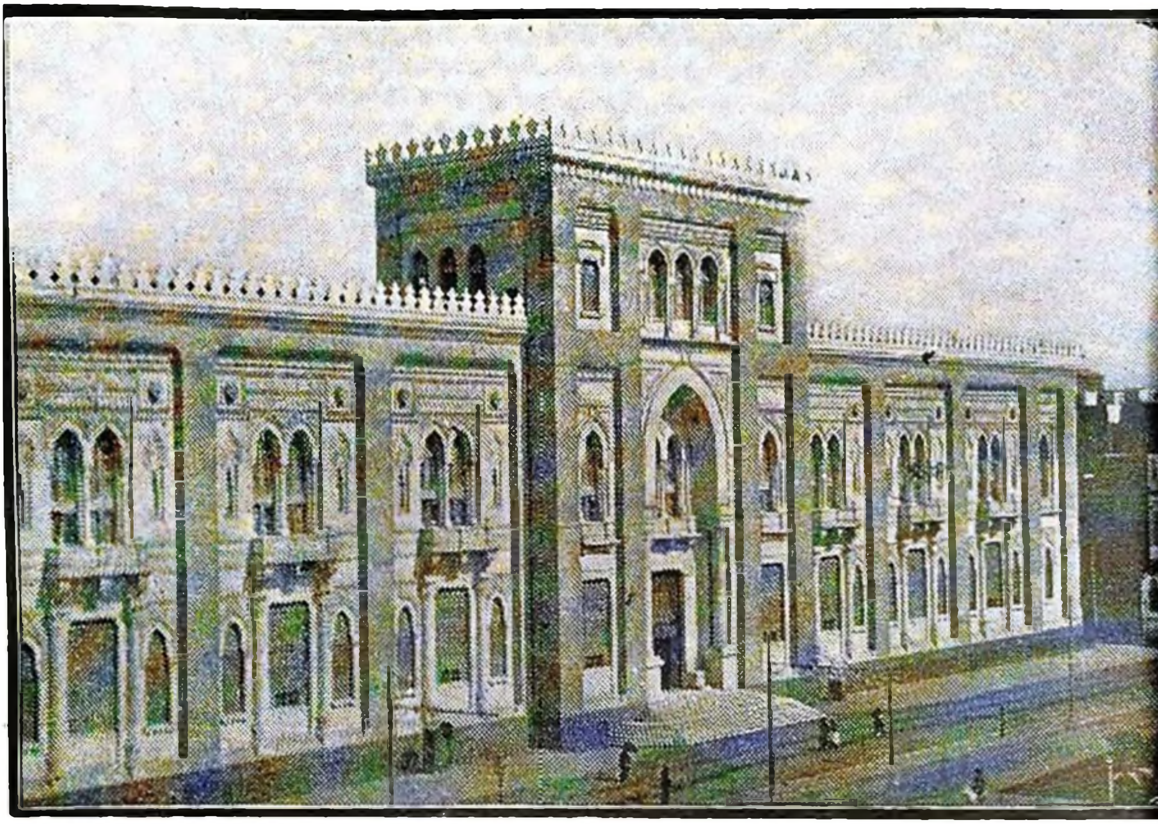
جانب من مدينة بيروت تظهر فيه الكلية الاميركية



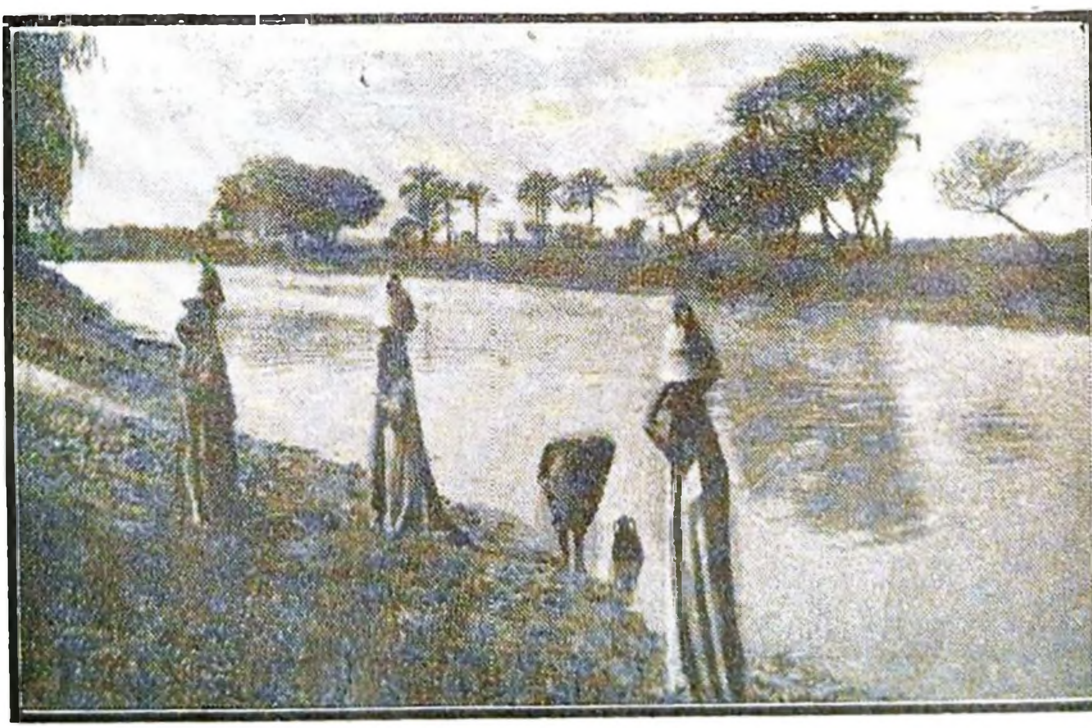
ساحل بيروت ووراءه جبل لبنان وبعض قراه



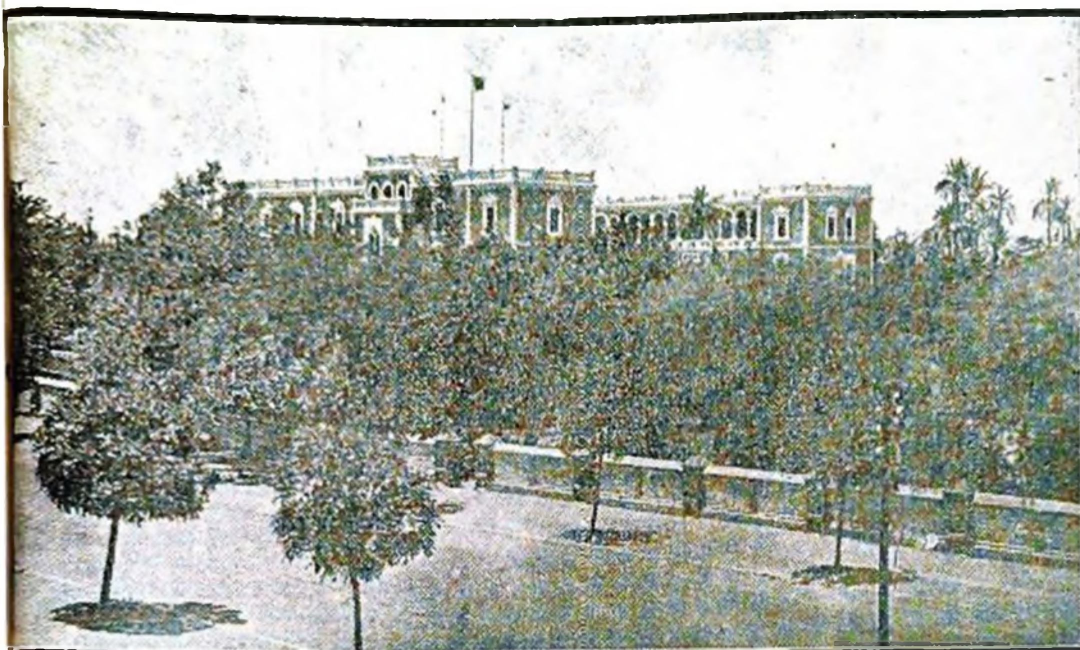
رسم ابنية الكلية ضمن الحروف الاولى المقتطعة من اسمها



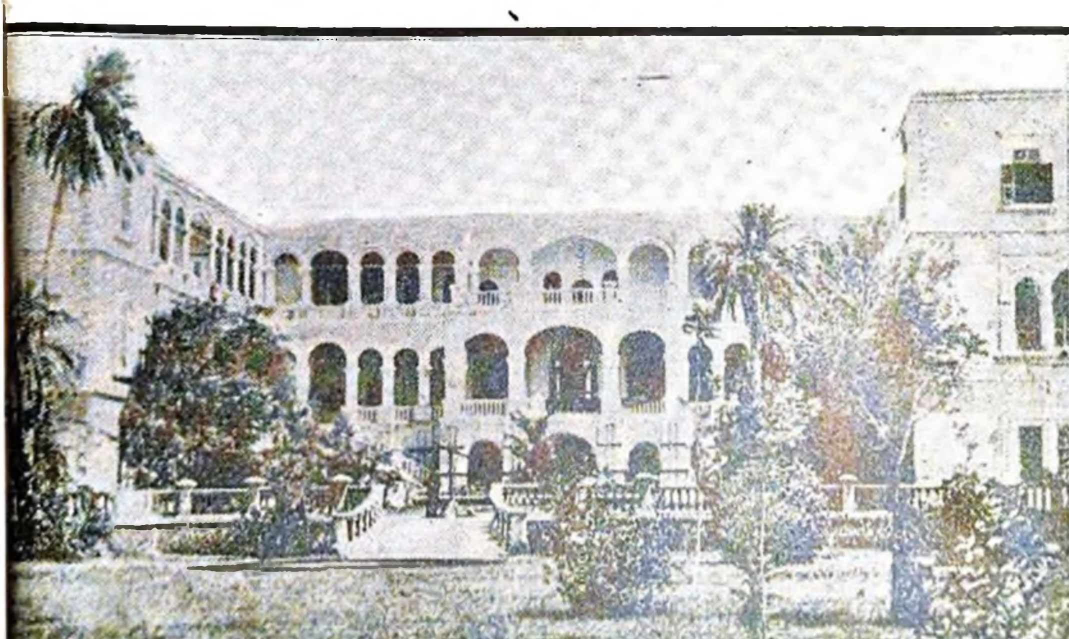
دار الكتب الخديوية في القاهرة



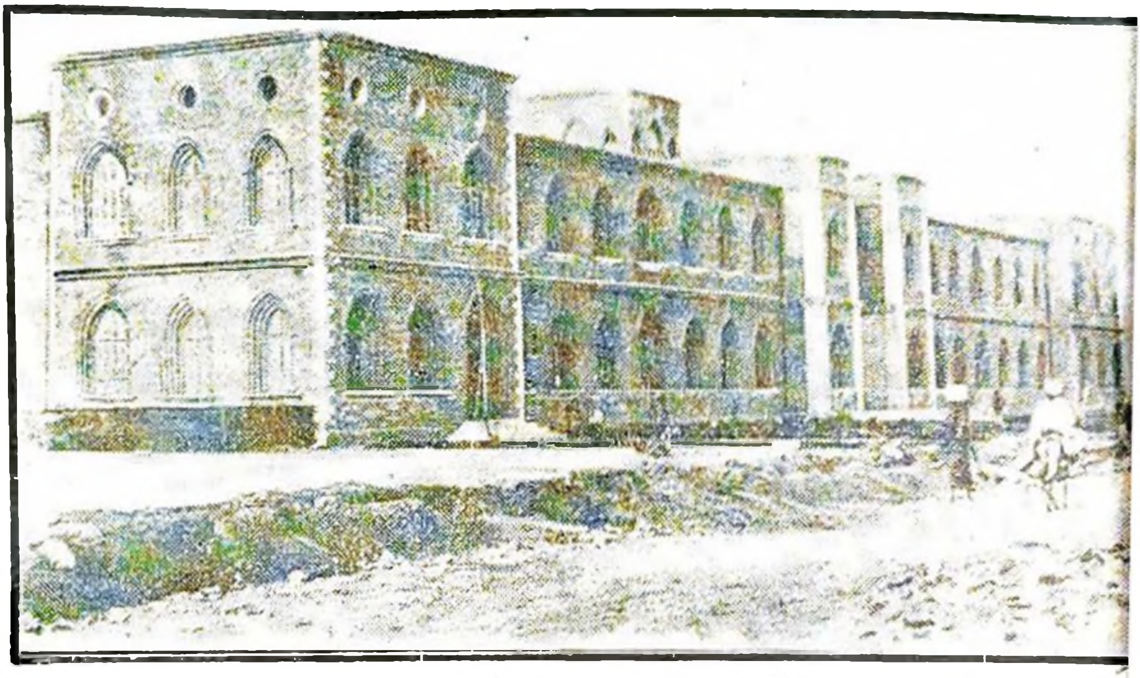
المستقيات المصريات على ضفة النيل



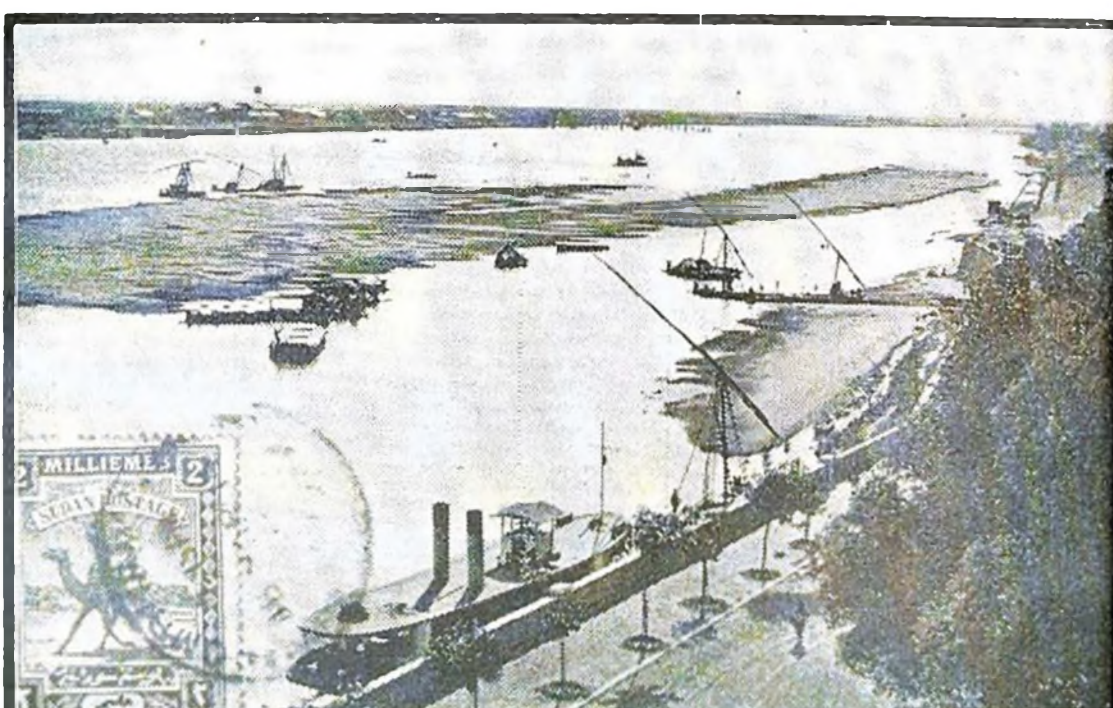
قصر الحاكم العام في الخرطوم من خارج الحديقة



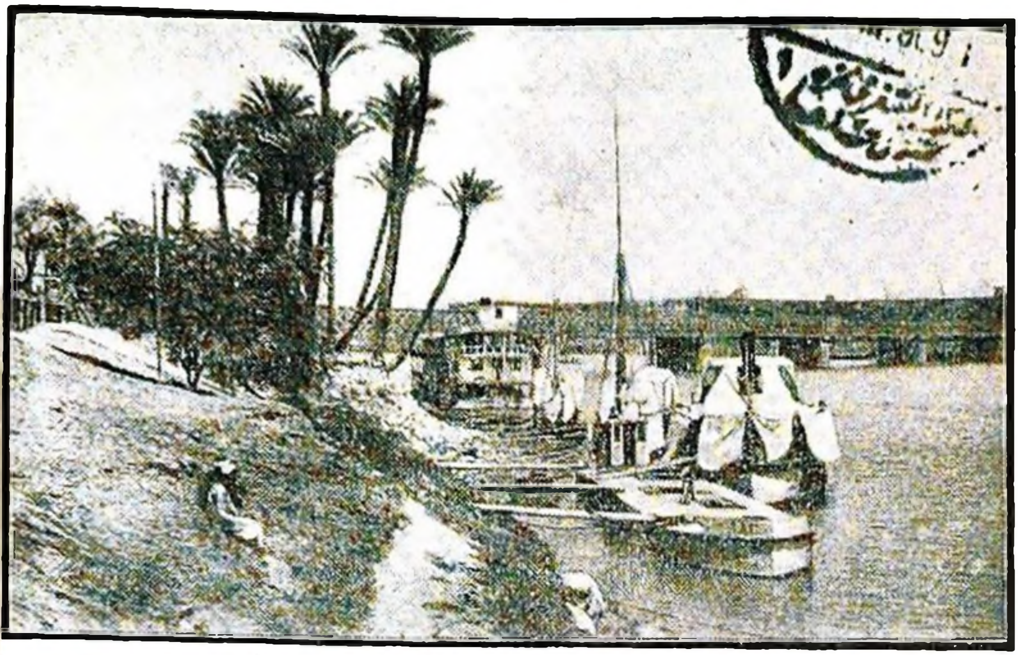
قصر الحاكم العام في الخرطوم من داخل الحديقة



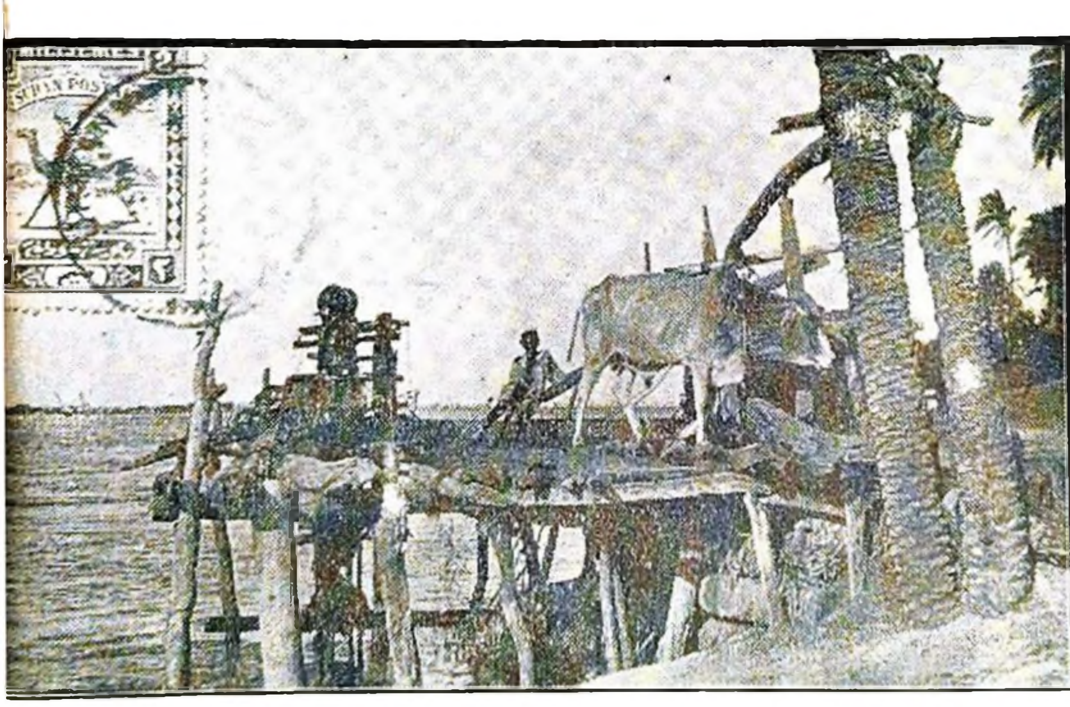
كلية غوردن في الخرطوم



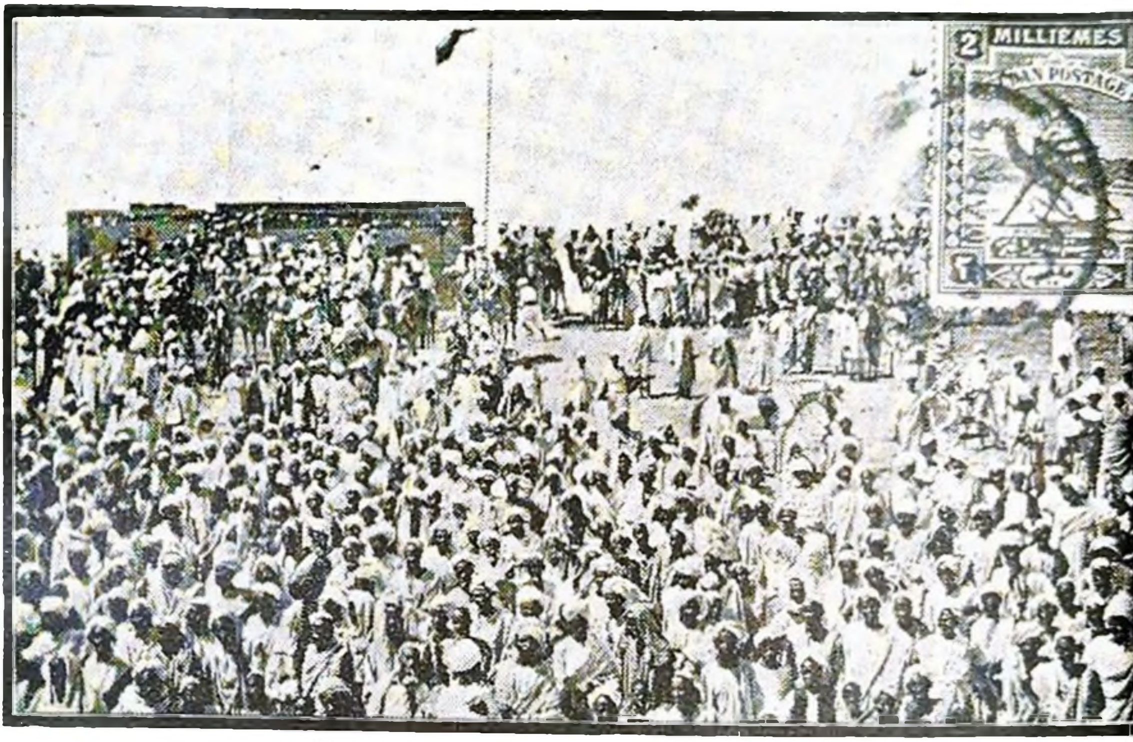
النيل الازرق في إبان انحساره وجانب من شارع الرصيف في الخرطوم



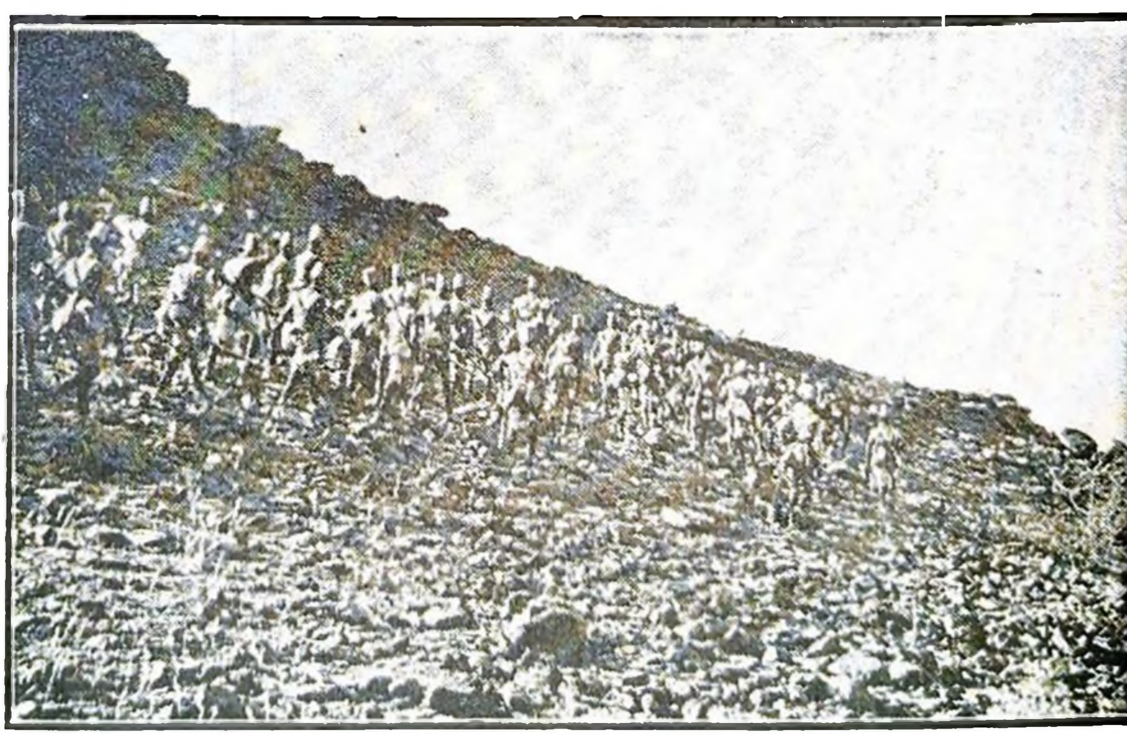
النيل والبواخر التي تمخر فيه والاطواف التي تُناط بها



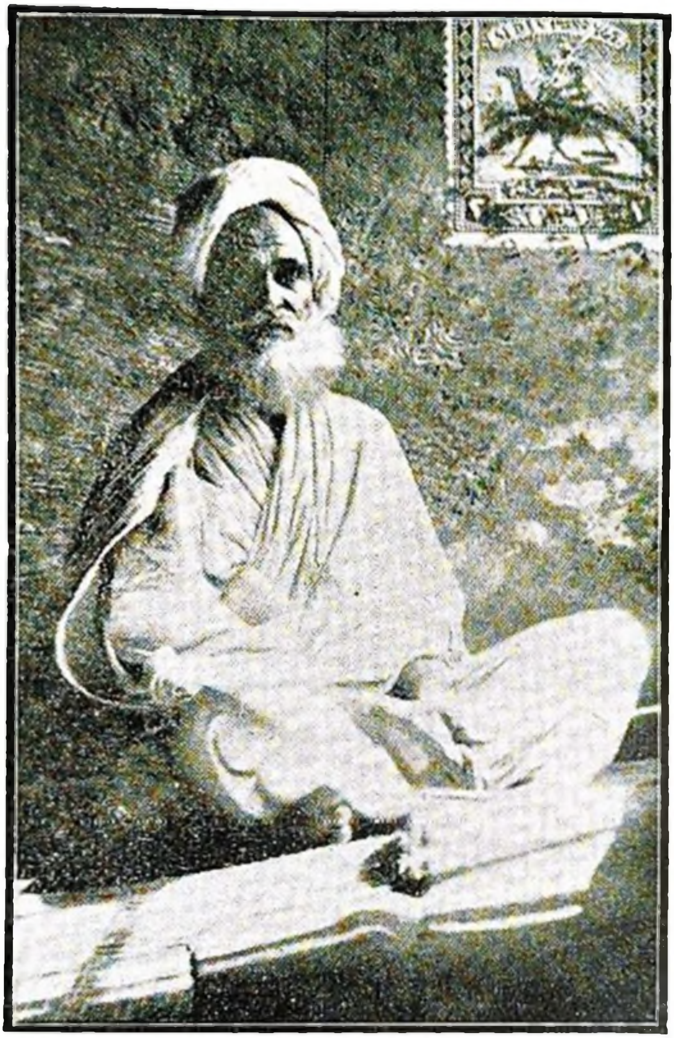
رسم ساقية عَلَى النيل في السودان



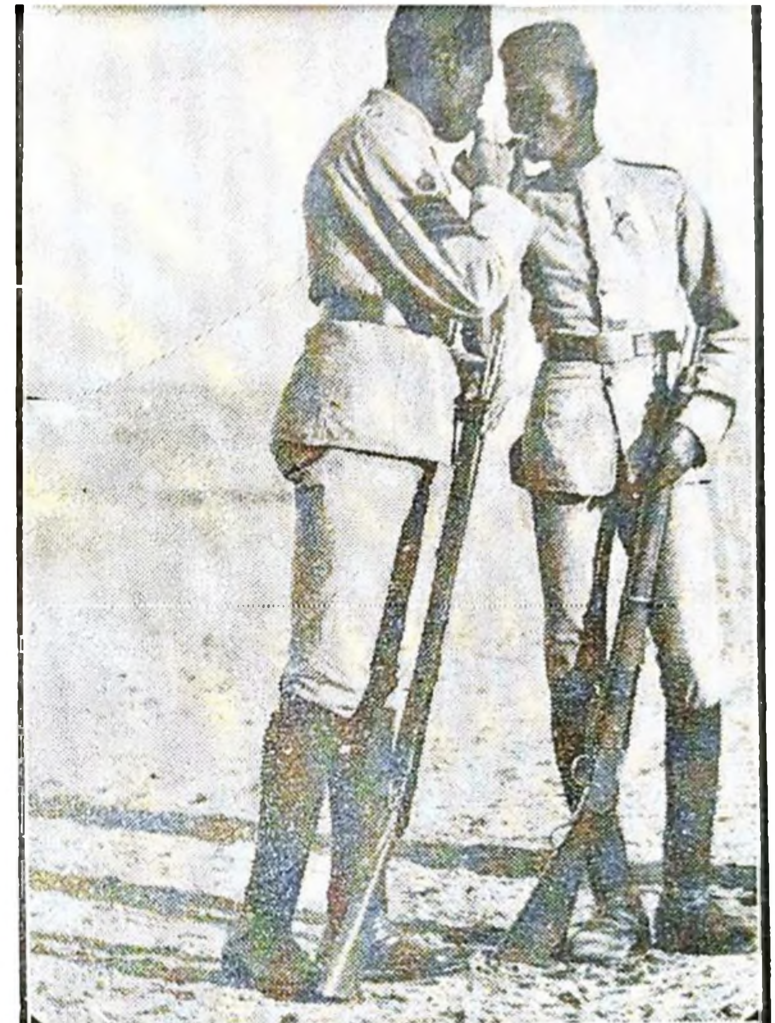
حشد من الوطنيين في السودان يستقبل الحاكم العام



الفرقة التاسعة السودانية في معركة أم درمان



البطل السوداني عثمان دقنه سجيناً في سواكن . وخير ما يؤثر عنه أنه كان يشدد عزائم جيشه بقوله إنه مستعد أن يشرب النيل فيميت الانكليز عطشاً . وبلغ وعيده هذا للورد كتشنر فلما انتصر عليه أمره بأن يشرب سطل ماء واحد فلم يستطع !



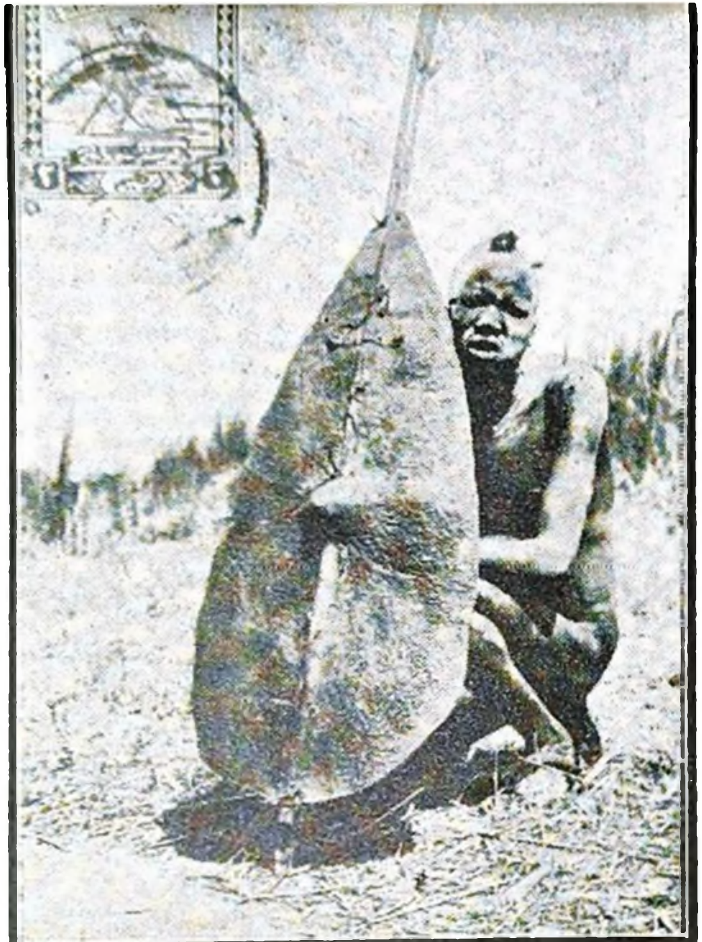
جنديان سودانيان



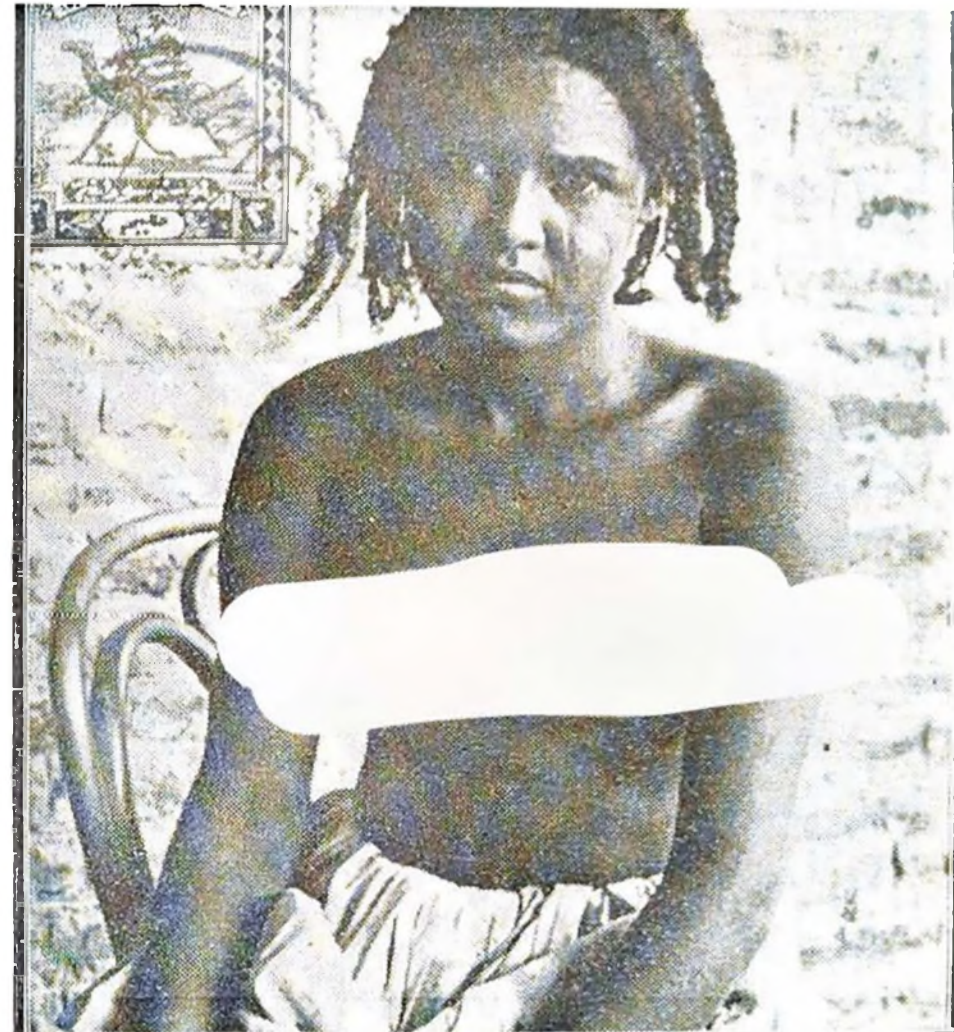
شحاذ سوداني ينقر دفه و ينشد



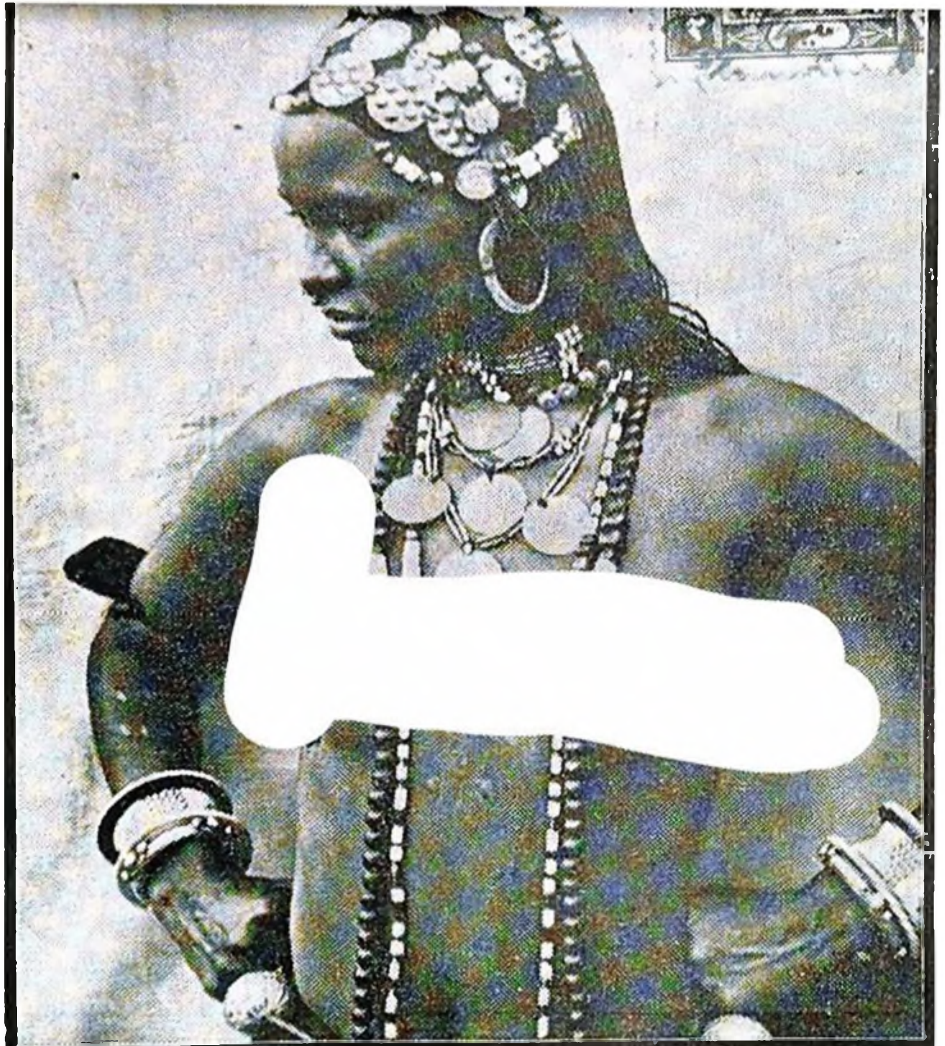
محارب سوداني بزي شعره المستغرب



محارب آخر سوداني بكامل عدته



حسناء سودانية دون حلى



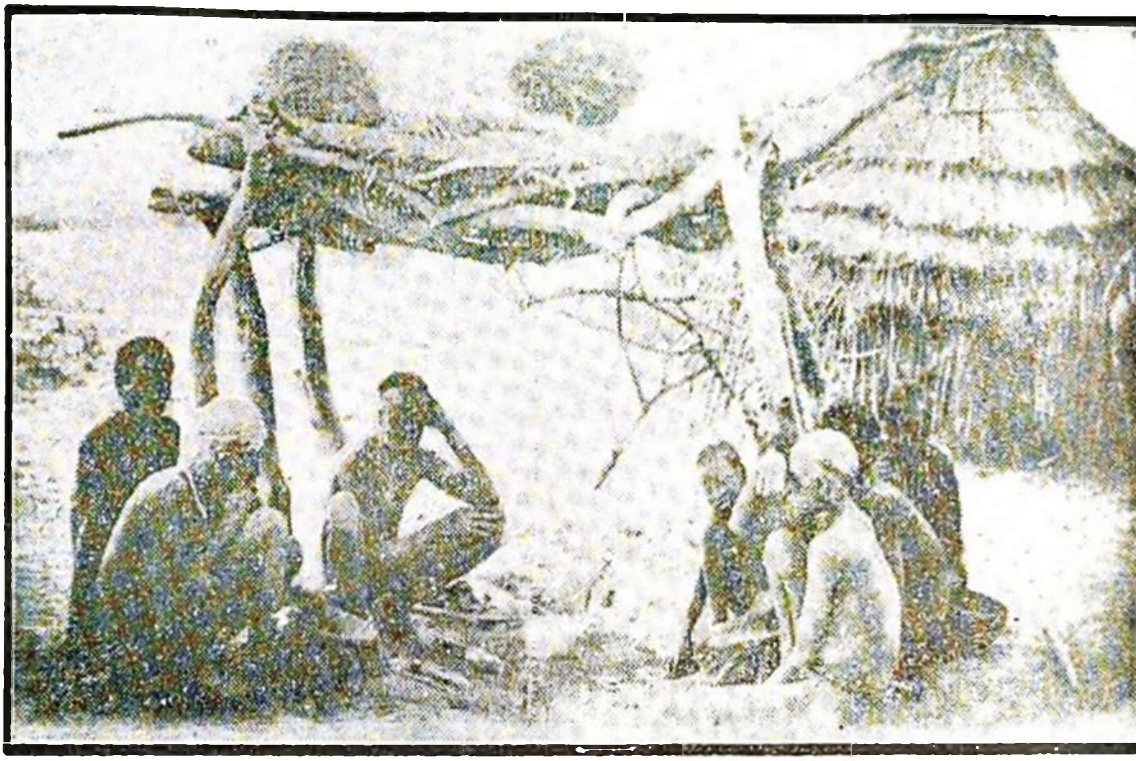
غانية سودانية حالية



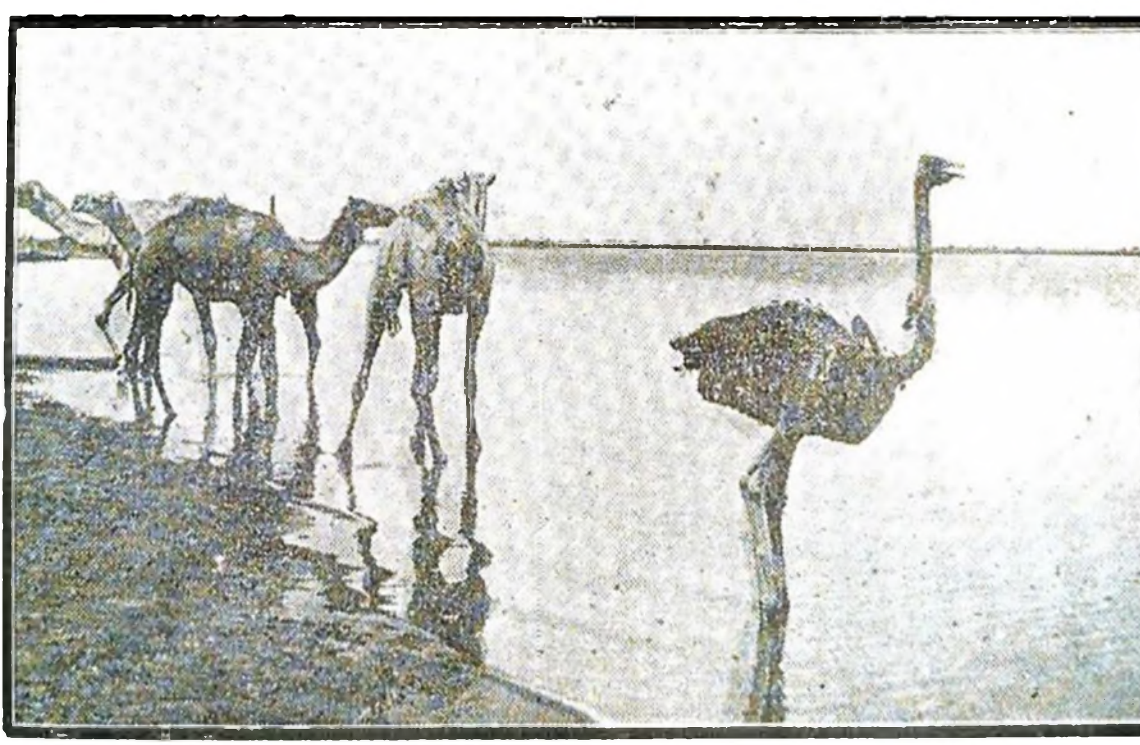
ام سودانية تحمل طفلها



أم سودانية وصغيرها يحملان طعام



نفر من الدنكا عراة جالسون بجانب كوخهم وخيمتهم



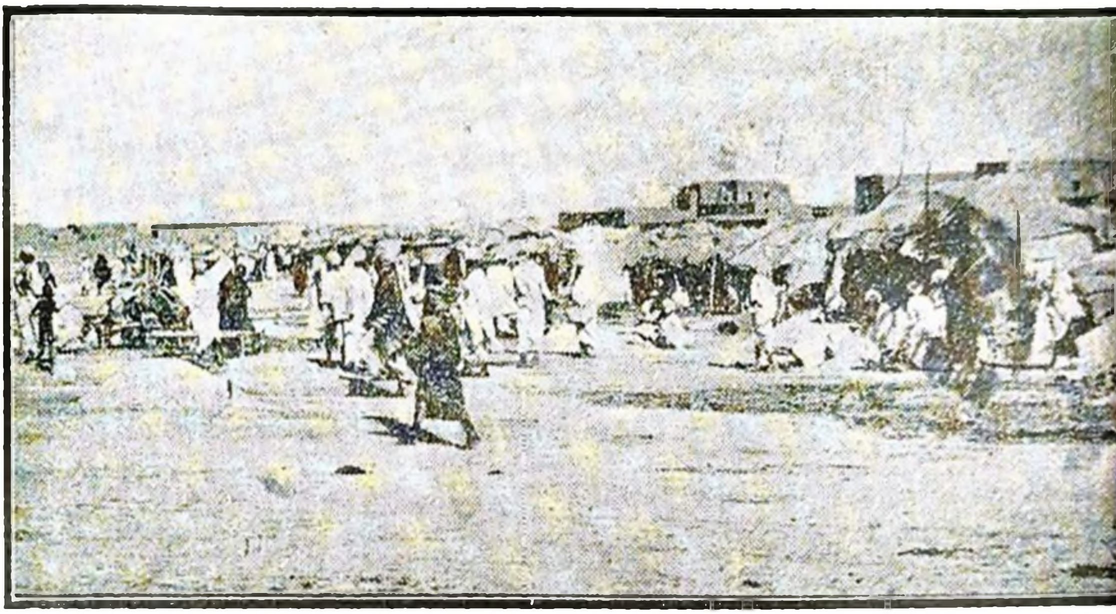
جمال شاربة ونعامة منتوفة الريش



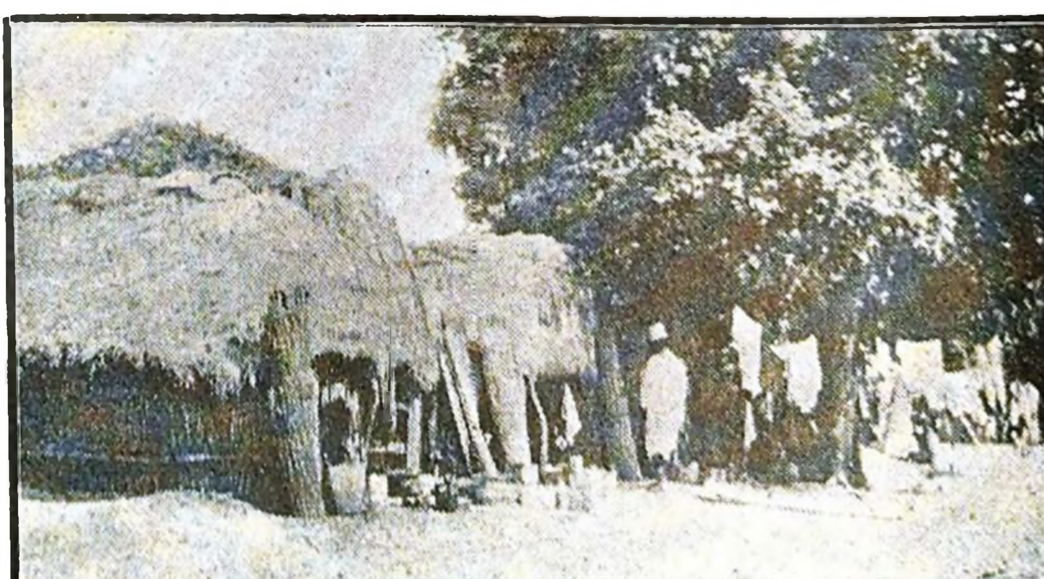
الماشطة



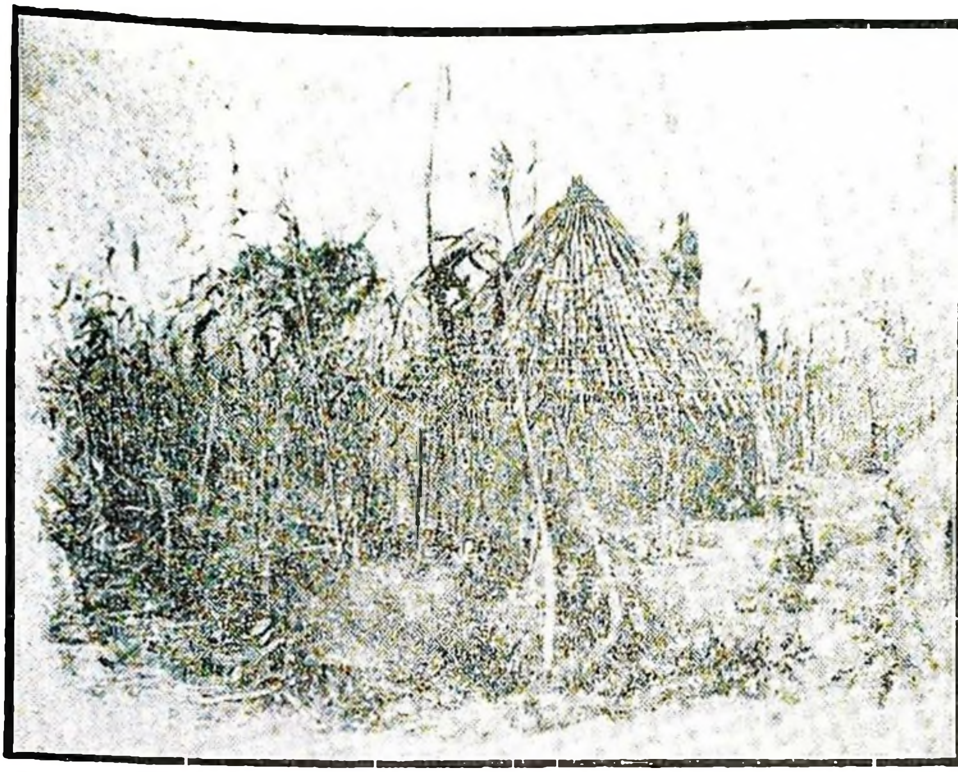
نساء سودانيات يطحن الذرة ليصنعن منه خبزاً



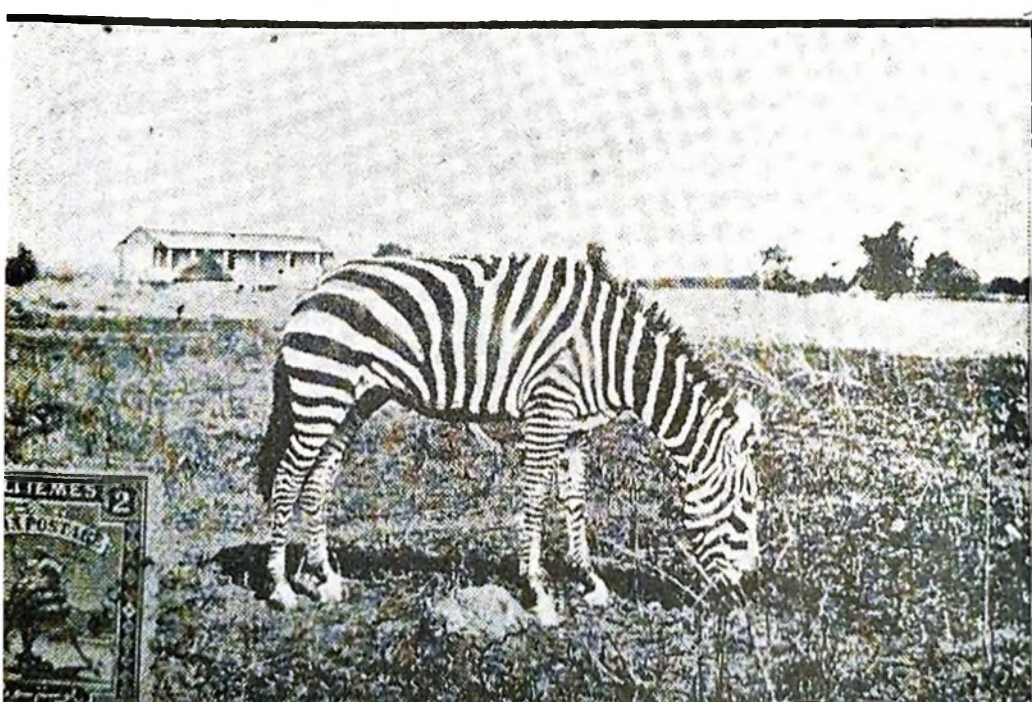
سوق الخرطوم



سوق التوفيقية على النيل الابيض



كيفية بناء وسقف الكوخ الوطني ويُسمى «تُكل»

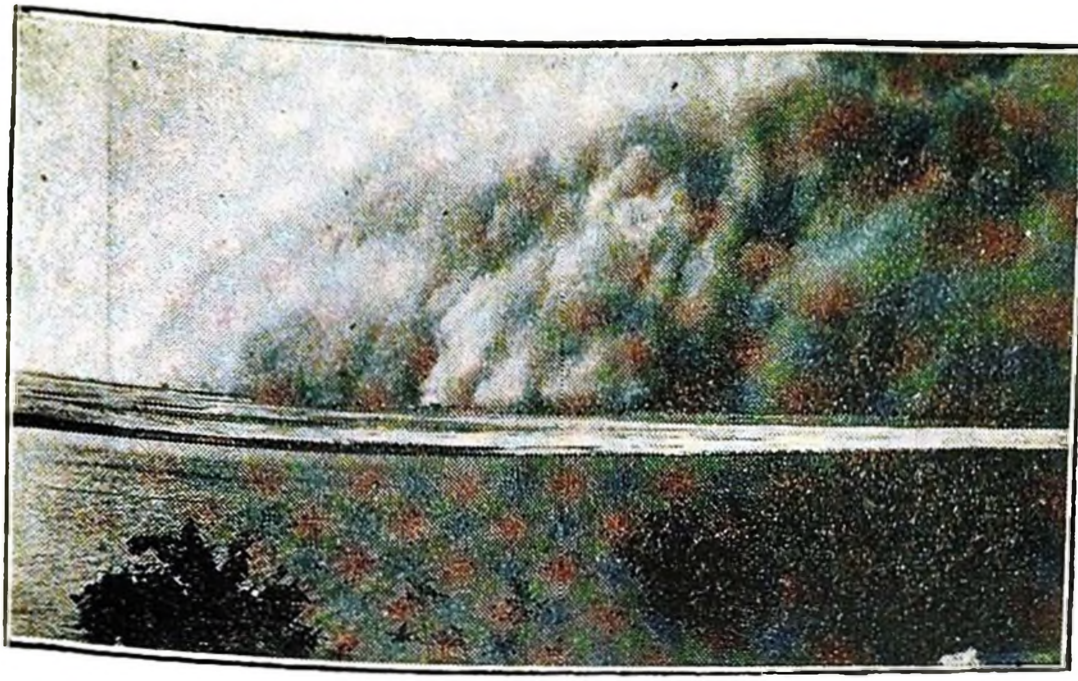


حمار الوحش يرعى في الفلاة



رسم رمزي بعث به اليّ صديقي المرحوم هنري غرزوزي من مصر
الى الخرطوم ، وهو في صمته ابلغ من المتنبي في قوله :

وفي النفس حاجات وفيكَ فطانةٌ   سكوتي جوابٌ عندها وخطابُ



الهبوب

(ومعناه عاصفة رملية)

وهو كناية عن إعصار او ريح لولبية تهبُّ في فصلي الصيف والخريف فتثير رمال الصحارى وتحمل ما دقّ منها مسافات شاسعة حتى ليخيّل لرائيها أنها غيوم متلبدة او جبل متنقل يروع مرآه . ورماله شديدة النفوذ عَلَى أنه يكون في الاغلب مقدمة لمطر غزير يعتدل بعده الهواء ويبرد ويصحو الجوّ ويصفو . وقد قلت في وصفه من قصيدة نشرتها في جريدة السودان منذ خمسة وعشرين عاماً :

اذا هجم (الهبوبُ) تخالُ طوداً رفيعَ الروقِ قد جدَّ المسيرا

يحاولُ أن يسدَّ الافقَ كِبراً ويبني منهُ (للخرطوم) سورا

وفيه النارُ يغشاها رمادٌ تولدهُ فيمنعها الظهورا

تلاطم مثلَ موجِ البحر لكن بلا صوتٍ اذا لطمَ الصخورا

وجاء بصمتهِ يوحي الينا عظاتٍ قد جهلناها غرورا:

« انا سخطُ الطبيعة لا أجاري وقد جاريتُ في سيري الطيورا »

« تشامختم عليَّ بصنعِ ايدٍ شكت من ضعفها ابداً قصورا »

« سأظلمكم فلا أبقي فتوءاً وأحرجكم فلا أبقي شكورا »

« وأملأُ جوفكم في يوم كربٍ مرارات وأصلي العينَ مورا »

« ولكن حاذروا انكارَ فضلي فيومي الحلوُ لم يبرح مطيرا »

« فهيا أوصدوا الابواب وادعوا اذا عجز الضعيفُ دعا القديرا »

. . . .

متى رأتِ السماء الارضَ مادت وقام النقعُ يسترها نحورا

تماجابا بغيثٍ مثلِ دمعٍ سواه قطُّ لم يَمحُ الشرورا



رسم مأخوذ على ضفة النيل في ام درمان عاصمة السودان القديمة عام ١٩١٠ :
في الوسط السيدة نلي ابكاريوس فيلبيدس ونجلها جورج
الى اليمين — الواقف : امين افندي رزق
القاعد : الدكتور صموئيل الخوري ، وكلاهما من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت . الى اليسار : المؤلف . المصور غير الظاهر في الرسم : المرحوم نسيب فيلبيدس



المؤلف واقف امام القطار في محطة الخرطوم



صدقاء المؤلف يودعونه في محطة الخرطوم وهم من اليمين :
اسكندر مزهر · اسكندر معلوف · ميشال صابا · اسكندر مرقص · سعيد سعاده

مقـدّمة

أُريد وقد بلغت الخمسين أن أتملص من ربقة الاستحياء الشرقي الموروث فأسرد سيرة حياتي بكل تجرد واخلاص لضميري وأروي الحقائق عارية، غير مراعٍ صديقاً ولا نسيباً، متخذاً لي عذراً في هذا الاتجاه المثل المشهور: «من ساواك بنفسه ما ظلمك»

عَلَى اني وقد اتفق لي أن رأيت في بعض رحلاتي نساء مصونات يكشفن ما وجب ستره ليسترن ما لم يحرم كشفه دين ولم ينكره عقل فقد عبت طبعاً ما لا يوجب فيه الاستحياء ومع ذلك أرى خاصة الشرقيين فضلاً عن عامتهم يحتذون النساء اللواتي ذكرت في صونه والمغالاة في كتمانه عَلَى تساهلهم في تعرية ما هو اجدر بالصون والكتمان كما وقع لبعض الادباء ودور الطباعة والنشر في ما نقلوه او اعادوا طبعه من آثار السلف فقدموا لقراء العربية في وعاء واحد أنيق ما جنوه من ازهار واثمار وما استخرجوه من نتن واقذار

وكما ان الوحيَ والالهام لم يستخرجا يوماً من الارض بل كان دائماً مهبطها العلاء كذلك ارى، عَلَى ضعف رأيي، ان استخراج العبرة للنصح والهداية لا يقتضي التبذل والتهتك اللذين تمرّغ في حمأتهما بعض الكتاب والمؤلفين فكان ما انتجوه جنايةً عَلَى الادب لا خدمةً له

اني على كثرة اختلاطي بالغربيين ومعايشتي اياهم نحو نصف عمري في بلادهم ما زلت متمسكاً بالآداب الشرقية التي افضلها واود من اجل الغربيين انفسهم ، على سبقهم ايانا في مضامير عديدة ، لو ان آدابنا المستحبة كانت مرعيةً عندهم كما هي مرعية عندنا

ونهاية ما توصلت اليه بالاستقراء والاستنتاج اني على تعشقي الاستقلال وتقديسي للحرية لا أرى من مستلزماتهما ان اسير عارياً ولا من مقتضياتهما ان اكون كاسياً

بهذا الاحتراس أقدم على ما يخيل اليّ بدعةً في الادب العربي لاعتقادي أن العبرة لا تسوغ وتجدي الا اذا هي سلمت من شوائب التكتم والاحتيال والصقل ، والغلوّ حتى في ذكر الحسنات ، لكي يجتمع للكاتب الوجهان الايجابي والسلبي اللذان بدونهما لا نورَ في عرف الكهربائيين ، ومن شأنهما ان يفسحا امام المطالع مجال المقابلة بين صحيح الامور وفاسدها فيقتدي حيناً ويتجنب آخر ، والا حسب نفسه الشيطان الوحيد بين ملائكة ويئس من اصلاح اخطائه لكثرة ما يراه في نفسه منها ، على سلامة سواد من يقرأهم او يقرأ عنهم من العيوب

وكتمان السيئات وخمول النشأة داء اصيل فينا نحن الشرقيين وندر بيننا من لا يستر شقاء ماضيه بنعيم حاضره او يلقي على نقص شبابه فضلةً من كمال شيخوخته . اما النقد الصحيح المنزه وهو السبيل الوحيد للاصلاح فيكاد يخلو منه ادبنا اذ قلّ بيننا المنتقدون المخلصون بقصد الاصلاح كما ندر من يقرأ انتقاداً ولا ينسبه الى التحامل الصادر عن عداء شخصي . فلم يبق اذن الا ان يقوم من يحطم قيود التقليد فينتقد نفسه قبل سواه ليخلص من تهمة التحامل او التشفي لمأرب ويقدّم لابناء العربية نهلةً من النقد الوافي الشافي .

نحن هنا في مهجر لم يؤمه في الغالب الا كل مظلوم معدم سعياً وراء الرزق والتماساً للتحرّر من اغلال العبودية والفقر ومع ذلك ندر ان يرى بيننا المستطاع الا كل من كان سلطاناً في وطنه فأصبح ، أياً كان ، خادماً للناس في مهجره فنثور حفيظته عَلَى المهاجرين الذين استبدلوا من بهاء العروش هباء القروش بدلاً من ان يغدق عليهم المديح لعلوّ همتهم وحسن جهادهم وايثارهم جحيم الغربة عَلَى نعيم الاقامة في وطن كان ولا يزال للغرباء نعيمه ولابنائه جحيمه

لذلك انا أعجب بالقليلين الذين لا يتكتمون وأجلّ الاول الذين يفاخرون بارتقائهم من نشأة وضيعة الى منزلة رفيعة بفضل ما بذلوه من تضحيات وما كابدوه من جهد ، واشفق عَلَى الكثيرين الذين يكتمون ماضيهم الخامل فيجردون انفسهم من الفضل ويعترفون من حيث لا يعلمون بأنهم عَلَى مقاماتهم مضض الغربة وتحملهم وقرّ الجهاد عادوا بالنسبة الى اسلافهم القهقرى

ومما اذكره في مجال الافتخار عبرةً للمتكتمين ان احدهم تناول يوماً بالتعيير وجيهاً منا اصاب بذكائه وجده ثروةً طائلة ، لغير سبب سوى انه عَلَى قول المتحامل من اسرة اشتهرت بالارتزاق من صيد الاسماك ، فجاء الوسطاء جرياً عَلَى المألوف ينصحون لذلك المثري الوجيه بأن يلقم ذلك المتحامل ما يسكته فأجابهم ان ليس عندي سوى الشفقة ابذلها لهذا الكبير الذي صغر فقام يعيرني لانني كنت صغيراً فكبرت ، والشكر لانه نبهني الى واجب سهوت عنه وهو أن اتخذ تيمناً رسم شبكة او سمكة شعاراً نحلي

وبديهيٌ انه مما تحمله الرياح من طيب او عطن نعلم مهابها ومسارحها . ولكن ليس هذا شأن ما نتنشقه من الازهار وما نأكله من الاثمار فان الادوار التي تمرّ بها والعوامل التي تطرأ عليها ربما كانت ابعد شيء في الظاهر

عن أن تولد ريحاً عطراً او تكسب نكهةً طيبة . وتزداد مسافة الخلف اذا ما بلغنا الاحياء البشرية ونقصينا العوامل التي ادت بها الى مصير معين لان الاصل الطيب قد يخلف فرعاً رديئاً وبالعكس . اذن كان للعوامل الطارئة والمكتسبة تأثيرها في الاحياء البشرية وتكيفها . ولا يمكننا ان نتقصى هذه العوامل وندرك كنهها ونقيس تأثيرها الا بدرس الاشخاص وتأثر خطواتهم منذ نشأتهم حتى اوج بلوغهم . وهل من هو اعرف بالانسان من نفسه واوفر اطلاعاً على ما استتر وراء مظاهره ، اذا هو شاء ان يخلص لضميره ويصارح الناس بحقيقته دون مواربة ولا تصنع ولا استحياء ؟

هذه عملية رأيت وقد بلغت الخمسين أن اجريها على نفسي لكي لا اظل كسواي من ادباء الشرق سفراً مقفلاً لا يتبين منه الناس سوى ضخامة حجمه وزخرف غلافه ، ولعلي متوفق الى الافادة المتوخاة فيتم لي حظ استدراج أعلام الادب العربي الى مثل ما اقوم به على ضعة شأني وتفاهة حوادث حياتي فأكون الدليل على عجزي ان اكون الهادي والله الموفق الى سواء السبيل .

مشاهد سريعة

مولود غير سعيد

بموجب تاريخ مدوّن في صفحة مهملة من توراة قديمة كانت عندنا وُلدت في الحادي والعشرين من الشهر العاشر من سنة ١٨٨٣ ولكن بعد عدة عقود من السنين قامت نسيبة لي حضرت ولادتي تقول ان هذا التاريخ مغلوط فيه واني وُلدت فعلاً في الشهر الثالث لا العاشر من ذلك العام فلم اتردّد في اقرار قولها والغاء التاريخ المدون في توراتنا القديمة ، اولاً لانني لا ارى شيئاً من الحكمة في التصابي واختزال اية مدة من العمر امامي ان كل ما يمكن ان اجتنيه من ارتكاب مثل هذه السخافة الشائعة لا يعدو أن اعيش ماعشت مخدوعاً وخادعاً واموت قبل اجلي المحتوم وأبكي شاباً وانا كهل أو كهلاً وانا شيخ ، وثانياً لان الفرق بين التاريخين زهيد ولا يمكن أن يهمّ احداً من الناس ان اكون قد وُلدت في النصف الاول او النصف الاخير من عام ١٨٨٣

المهم أنه في احد هذين التاريخين المتقاربين من ذلك العام امّ هذا الوجود الذي بفضله العدم المولود غير السعيد الذي عنيت به نفسي وكانت ولادتي في مدينة بيروت وُسميت تيمناً « توفيقاً » فكنت في عداد الكثيرين الذين تخالف اسماؤهم مسمياتهم .

في مماثلة زحلة

ولكن قبل انقضاء العام الثاني على ولادتي قضت الاقدار بأن تكون نشأتي في بلدة خاملة بدلاً من أن تكون في مدينة زاهرة لان المرحوم والدي كان قد اعتزل مضمار التجارة وآثر مكرهاً العيش من شق القصبة وكان في عهده وسيف محيطه من خيرة الكتاب والمنشئين حسن الخط عارفاً بالحساب مضطلعاً بالحقوق مما أهله للوظيفة الحكومية التي شغلها في المعلقة وأضاف اليها بدربته ونشاطه بضع مهام فرعية تدر عليه كسباً غير قليل علاوةً على راتبه الذي لم يكن يفي بحاجته ، وكان فوق كل ذلك محدثاً لسناً وراوية ذا حافظة نادرة يجيد الانشاد ويحسن الضرب على العود . ولكنني اذكر ان كسبه كان يتراوح تراوحاً هائلاً فيلعب احياناً بالذهب وتفوته في سواها الفضة ، وكنت انا وسواي من افراد العيلة ننعم ونشقى تبعاً لذلك التراوح .

كيف نشأت

وغني عن البيان أن المواهب التي ذكرتها لوالدي كانت تنعكس علي وينالني بسببها ما لم اكن استحقه من عطف ورعاية الجيران والاصدقاء والمعارف فقد كنت ابن الافندي وكفى

ولم اكن مقصراً في استغلال منزلة والدي في قلوب القوم فكنت منذ حداثتي احضر كل اجتماع ولا تفوتني وليمة او جلسة طرب ، واذا تبارى القوم في مضمار البحث او الجدل أسرعت الى خوضه على قلة بضاعتي وضعف رأيي وركاكة اسلوبي فينالني من والدي ما لا ارضاه ولكن على غير طائل ، وكنت في كل ذلك مستثنى عن اترابي من ابناء الموظفين الآخرين وسواهم من مختلف الطبقات . وهكذا نشأت مستقل الرأي بشيء كثير من الغطرسة والعناد والدعوى الضارة الممقوتة وهي داء خبيث فتاك قمت على معالجته منذ

بلغت من الادراك حتى اليوم ، وانا اعلم وان جهل او تجاهل الناس انه لا تزال فيّ منه بقية

اما الداء الاخر الذي تأصل في نفسي منذ حداثتي فهو ازدراء بيئتي والطموح الى العيش في البيئة البيرونية التي رسمت منها في ذهني ابهى صورة تستهوي الحدث الذي كنته وشدت لها في قلبي هيكلاً للعبادة متخذاً الوانها الخلابة مما كان يقع في سمعي من اوصافها بحيث كنت في معلقة زحلة العاثرة جسماً وظلاً وفي بيروت الزاهرة روحاً وعقلاً فما كان اشبهني بنبتة لم تكد تبرز الى الوجود وتستقبل اوراقها النور والهواء حتى اقتلعت وغرست في تربة غير تربتها . انها بالطبع لا يمكن ان تنمو النمو المطلوب وهذا ما حدث لي في مستهل عهدي بالنمو والتطور فلا عجب انني عندما بلغت العاشرة كنت اؤرخ رسائلي الى انسبائي البعيدين هكذا : « عن جهنم »

على مقعد الدرس

دخلت وانا بعد في الرابعة مدرسة ابتدائية فلم يكن الحفظ صعباً عليّ برغم عقم وسائل التعليم في ذلك العهد ولكنني كنت استنكف من جور اكثر المعلمين واضطراري في فصل الشتاء أن احمل قطعة من الفحم للايقاد والاستدفاء الذي كان المعلم يتمتع بالنصيب الاوفر منه ويسخر احدنا ليأتيه من السوق برغيف وقطعة من الجبن يدسها فيه او يطويه عليها ويلوحه على النار ويتلذذ بالتهام تلك اللقمة الشهية . فاذا ما انتهى بدا كأنه استمد من ذلك الغذاء نشاطاً ينفقه في ضربنا وتعذيبنا محصياً علينا انفاسنا وناظراً بالمجهر الى اقل هفوة نرتكبها في الدروس او السلوك فكأنه كان يتطلب منا العصمة في تلك والكمال في هذا

والذي كان يطمع المعلمين بنا بنوع خاص هو جهل معظم الآباء

والامهات الذين كانوا يأتون المعلم بالتلميذ الجديد او المكره على التوبة بعد فرار كأنهم يقتادون شاة للذبح ويخاطبونه قائلين : « لك اللحم ولنا الجلد والعظم » !

على ان زمن عبوديتي لم يطل لاني قبل ان ابلغ العاشرة اصبحت « فرخ معلم » فكان اذا تغيب احد المعلمين انابني عنه ومثلت دوره مع رفقائي المظلومين بالامس اثباتاً للقول المأثور : « ويل من عبد اذا ملك » !

آرائي ومبادئي

اما آرائي ومبادئي فقد استمددتها من سماء الخيال التي كنت دائماً وابداً محلقاً فيها ، وعلى هذا الشكل عشت غريباً في محيطي احدث الناس بلغة لا يفهمونها واسمع منهم ما لا اجد له في قاموسي مرادفاً او تفسيراً : كنت اكره الكذب وهو في عرفهم « ملح الرجال » والاخلاف وقاعدتهم المأثورة فيه « الف قلبه ولا غلبه » والعبودية ورأيتهم في احتمالها « اليد التي لا تقدر ان تعضها قبلها وادع عليها بالكسر » و « الارض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها » . فلا عجب اذن انني كنت بينهم عنوان البلاهة يشفقون بسببي على والدي وهو بدوره يشفق علي ويتنبأ لي بسوء المصير اذا انا لم أقلع عن عادي وأجار الناس في ما لا يرون سبيلاً الى العيش بدونه من المرونة الخلقية والرياء المألوف ، وقد صحت نبوءته علي ليس فقط في ذلك المحيط الساذج بل في كل مكان نزلته وصقع حللته ، ولا استثني بيروت عروس احلامي !

يكفي لاثبات ما تقدم كمثال على الشرود الذي كنت ارتكبه ويكتب لي كأكبر الجرائم ان والدي كان احياناً يوصيني بأنه اذا جاء فلان يطلبه ان اقول له إنه ليس في البيت فكنت بدلاً من ذلك اقول للقادم كل الحقيقة وهي إن والدي في البيت وقد اوصاني بأن انكر وجوده .

وكنت ابعد الناس عن المسايرة التي يعبر عنها بحسن السلوك فأكشف للناس كذبهم وزلاتهم واصارحهم بما تبدى لي فيهم من عيوب فأوقع والدي في مشاكل واسبب له عداوات ويناله مني منه التقريع واحياناً الضرب وانا راض كل الرضى عن احتمال كل انواع التعذيب في سبيل الحقيقة التي قلَّ نصراؤها في ذلك العهد ولا يزالون على ما رأيت وارى حتى اليوم قليلين

والانصاف يقضي بالقول إنني في ما تقدم عنيت السواد ولا بدَّ لي من استثناء بيوت كثيرة كريمة عريقة كنمور وفريجه والدبس وعزيز وكحيل وحجيج وتامر وخزعل والحاج موسى وشيبان ومقصود وسواهم ممن لا تحضرني اسماؤهم من الاسر والافراد الذين كانوا في طليعة الآخذين بأسباب الرقي القائمين على تهذيب اولادهم ذكوراً وأناثاً في الكليات والمدارس العالية في بيروت وسواها وكان الكثيرون منهم قد بدأوا يرتدون الملابس الافرنجية غير عابئين بما يصوّب اليهم من سهام النقد ويستهدفون له انفسهم من الرقاعة المحرجة بسبب تغييرهم زيهم الوطني · وفي طليعة ما اذكره كقياس لاستهجان الرأي العام ذلك التطوّر الذي كان جارياً بسرعة مدهشة بين طبقتي الوجهاء والموظفين في الحكومة ان لاعب النرد كان اذا سنحت له فرصة للتفوّق على خصمه بلعبة أعانه عليها « الزهر » يخاطب نفسه بلهجة تهكمية قائلاً : « لبسه يا صبي فرنجي » !

وقد عرفت الكثيرين من الشبان الذين اصابوا قسطاً وافراً من العلم وتحلوا بالأدب العالي والتهذيب الصحيح ونشأت بيني وبينهم صلات ودّ مكينة لم يقوَ البعد على فصمها ، ولا استثني الفراق الاخير الطويل الذي يبدو لي اليوم ابدياً

وكانت زحلة طبعاً الاسبق في الاخذ بأسباب الرقي لإقدام اهلها ومغامرتهم في سبيل الكسب وكثرة العيال المريقة فيها كالمعلوف وابو خاطر

ومسلم وغزة ومطران وسكاف وجعجع ، وبينها وبين الاخيرة صلة نسب .

الحقيقة

الحقيقة هي أني كنت على خطأ وقد اثبت لي الاختبار وأرتني عين العقل في كل مكان سكنته و استوطنته أن الناس على اختلاف مراتبهم ومظاهرهم كالناس الذين عرفتهم في ايام حداثتي ويختلفون كل الاختلاف عن الصورة التي كنت ارسمها منهم في ذهني . ولسوء طالعي وجدت في المدنيين كل عيوب القرويين ولكنني عهدت في هؤلاء خلالاً لم اجدها في اولئك وفي طليعة هذه الخلال السذاجة والمروءة وصدق الود . وبعد أن اصبحت بعيداً عن موطن حداثتي لا أؤمه الا كغريب عنه لا يجد سبيلاً الى استيطانه والعيش فيه ، تحول في نظري الى نعيم وغدوت اشعر شعور جدنا الاول بعد أن طرد من الفردوس .

الفردوس المفقود

والحق يقال إن المعلقة فردوس ارضي أفليست هي عروس السهل المتصلة بزحله عروس الجبل ؟ أليست آية الجمال والكمال بأبنيتها المدرجة وطرقها المصعدة المتعرجة ، ينساب الى يمينها فرع من البردوني قامت تحته الغياض الظليلة التي ينساب في وسطها البردوني نفسه فيشطرها شطرين ويجعل من اشجارها الباسقة صفين من العرائس الدائمة التراءي في صفحته الصافية او صفين من الجبابرة يذودان عن حياضه ويحفان به إكباراً واجلالاً وهم لا ينفك عن السير باندفاعه وتهداره الخفيف شتاء وبطئه وخريره العذب صيفاً ، جارياً على حصباء كالدر تداعب مياهه الصافية النسمات البليلة التي تتهادى الهوينا بين معاطف ذلك الوادي الفتان ؟ والى يسارها البيادر التي هي ملاعب لهو وأنس وصفو في معظم أيام العام وتصبح أوفر جمالاً وفتنة اذا ما جمعت

فيها اكداس المحاصيل وقام الفتيان والفتيات والاولاد يهدونها بنوارجهم ويوسعونها دوساً وضغطاً حتى تتحوّل الى اكوام حبوب ذهبية . ومـا كان احلى واشهى هاتيك الاكداس والاكوام يستظل بها المتعبون والقائلون والعاشقون

ووراء البيادر التلال المزركشة بالكروم البديعة التنسيق التائهة بمـا تحمله من العناقيد الدرية التي ذهبت الطبيعة في صوغهـا كل مذهب وخلعت عليها من زاهي الالوان وفاتنها حللاً لم يزدن بمثلها منكب

ومـا الطف هاتيك الخيام المعلقه المبثوثة في انحائهـا ينقطع اليهـا المصطافون يعيشون منهـا على سذاجتها في قصور فهي مقيلهم ومبيتهم لا يغادرونها إلا لاقتطاف الاثمار الشهية والتمتع بالصيد لاهين عن كل مـا يمرّ ر العيش وينقضّ المضاجع من التزاحم والتكالب الدائرة رحاهـا في الاوساط المتمدنة . فاذا ما شعروا بالظمإ وردوا خير ما يشفي الغليل من العيون الجارية في انحائها والمتبارية بصفائها وعذوبتها كما في سرعتها وابطائها

وامامها صفحة هي اجمل مـا ابتدعه الفكر البشري وابلغ مـا خطته يد الانسان على وجه ذلك السهل الخصيب من البساتين التي تنمو فيها أنواع الفاكهة والخضر الشهية تتلوهـا الزروع المتاوجة المتحولة رويداً رويداً من نضرة الرجاء وخضرته الى صفرة البلوغ او سمرته

والمقيمون ينامون على السطوح صيفاً تحت سمـاء صافية مرصعة بالبدر والنجوم وينهضون عنـد الفجر ويؤمون الساحة العمومية ليلتهموا الفواكه الشهية الآتية انوّها من السهل ، فاذا مـا جاء الشتاء أتى دور التمتع بالسهر والسمر في جوّ يملأه الصفو ويزينه ارتفاع الكلفة وراجت سوق الالعاب والاحاديث العائلية التي تنتهي بالتربع حول مائدة مثقلة بكل شهي من الحلوى والفاكهة

والعيش سهل والكسب الذي يفي بالحاجة ميسور لتوفر الصحة ووفرة النشاط ، واسباب الرغد تمدّ بالمثمرات والحبل على إملاء الحياة لا عداد لها ولا نفاد ، فمن سيارين على ضفاف النهر والجداول والسواقي والعيون ، في الكروم وعلى الصفة في زحله ، الى رحلات الى البلدان والقرى المجاورة وكلها تتبارى حسناً وتتيه جمالاً ، على الاخص في أيام المواسم والاعياد اذ تؤمها الجموع من مختلف الانحاء وفي جميعها يجد الزائر المأوى والقرى وحسن الوفادة كأنه تعوّض عن أهل بأهل واخوان باخوان في حين أنه كثيراً ما لا يعرف مضيفه . أفليس هذا هو التضامن الانساني الذي ينشده الغيريون والاشتراكية الحقة التي يتبجح بتمشقها الانانيون ؟

هذا هو الفردوس الذي غادرته لاحرز قسطاً من العلم وأدأب وأعيش في وسط متمدن ، ومع أني نزلت مختلف الاقطار في قارات ثلاث من هذا المعمور وعاشرت وعاملت شتى الطبقات التي احرزت نصيباً وافراً من العلم والغنى والجاه أراني وأنا في الخمسين من العمر الذي حدده داود بسبعين أو سبعين ووصف معظمه بالتعب والوجع ، في حين أن عصره كان سالماً من جلّ شوائب المدنية الحديثة خالصاً من معظم تكاليف الحياة في عصرنا هذا — أراني وقد بلغت الخمسين مفتشاً متلمساً لعلي اظفر ولو بخيال المدنية الصحيحة التي قضيت ربيع الحياة اتخيلها وصيفها وخريفها أنشدها

وبعد جهد قاتل وعناء متواصل ظفرت برأس مال زهيد من العلم زدته اضعافاً بالمطالعة والتنقيب والاقتباس والدرس على نفسي لكي احيي حياة مكتبية مؤلمة مضنية عائشاً لغيري خادماً مآرب ومصالح سواي لقاء أجر زهيد يكاد لا يفي بالكفاف او كسب ضئيل لا يعدو أن يمسك الرمق ويستر العري ، واذا ما تمتع منه المرء بفضلة غنماً لمطالب كمالي عاد عليه تمتعه بالحرمان حتى من الضروري أياماً

كنت حيثما ذهبت وفي أية خدمة دخلت أرى أن الرياء والمصانعة والخنوع والطاعة العمياء وإبهام النفس بأن القشر لباب وأن كأس الذل فيها أعذب شراب من ضروريات المعاش ، وأن الحكيم هو من أغضى على القذى وأبدى منتهى الرضى عما يسامه من جور وذل وتحقير لكي يظفر بلقمة او ينال نظرة عطف فيهما كل معنى الشفقة التي هي اوجع للنفوس الكبيرة من ضرب السياط

وقد وجدتُ حديثَ خرافةِ القول إن الصحافة مهنة حرّة . قد تكون كذلك ولكن عند الامم الحرة لا تلك التي قاست الذل والهوان اجيالاً ، واذا قُيض لشطر منها أن ينعم بالتحرر بفضل ابتعاده عن مواطن الذل وجهاده المضنك المتواصل اكتسابا لثمن عتقه فانه يظل ما عاش حديث عهدٍ بالحرية ، وبئس الحرية المكتسبة بالمادة لانها تبقى ما بقيت هذه وتزول بزوالها . واذا كان بعض افراد هذا الشطر المحظيا، واتفق لهم أن احرزوا ثروةً طائلة فندر بينهم من يبذل الشيء الزهيد الذي لا يساوي كلفة سؤال واحدة إلا لقاء نفس يستعبدها ويراها مرأى العين تنكب على اقدامه كالماء الملح الذي يغطي معظم هذه الكرة الشقية ولذلك انبهما الكثيرون من الحكماء بوادي الدموع للتجانس الكائن بين الدمع والماء الملح ولانه لو اتفق أن جمعت سيول الدموع التي سكبتها عيون الاشقياء والمتألمين لاربت عما في الاوقيانوسات من هذه المادة

هذا هو اختباري لذلك أراني نادماً لانني لم اتبع نصيحة والدي الذي أشار عليّ كخبير مخلص بأن انصرف الى صناعة تدرّ عليّ كسبا اعيش منه بهناءة بعيداً عن ضوضاء المدنية والعظمة الفارغة والاطماع الماثرة والمآرب الملتوية مما يتعرّض له كل طالب مجد في اي فرع من فروع الاعمال الخارجة عن نطاقي الصناعة والزراعة حيث الحرية الحقيقية

والكسب المشروع ، وإلا كان العمل عبودية والكسب بماء الوجه لا بعرق الجبين

والغريب أنني تعلمت صناعات عدة وبرعت في بعضها ولكنني أبيت الاشتغال بها عمليا إلا بنجارة لوالدي أرغمته اخيراً أن يلقي لي الحبل على الغارب ويبذل من جهده وكسبه لكي ينيلني بغيتي وهي أن اكون كاتبا حاسبا . اذكر من هذه الصناعات الصياغة والنجارة والخياطة وصناعة الاحذية ، وهذه تعلمتها في بيروت على طريقة نظرية ارستوقراطية ولم أزاولها واحذقها إلا على حساب والدي ومنها استفدت في القاهرة ولكن بكل تكتم لئلا يدري بي او يراني احد اصدقائي المتعلمين أو معارفي أو انسبائي القادرين فأذوب امامه خجلاً ! وقد كان ذلك الى امد قصير لم يتجاوز بضعة أسابيع وبفضل عاصفة استياء او ثورة قنوط هبت في نفسي بعد إخفاقي المتكرر في السعي وراء وظيفة في حكومة السودان لا لعجزي بل أنفة مني أن أباري او أزاحم المئات من الطلاب المتهافتين على وظيفة واحدة بعد مضي أشهر لم يذر فيها لوظيفة قرن ولم يفتح لها باب وليس بينهم إلا كل معدم تستثير حاله شفقتي وتحرّم علي ولو بالفكر أن انتزع تلك البلغة الحقيرة من فمه .

في الكلية الاميركية

حوالي الحادية عشرة كنت قد احرزت نصيبا من العلم يخوّلني حق دخول الكلية الاميركية في بيروت ولو في أدنى صفوفها وكانت لي صلة بالمبشرين الاميركيين الذين كانوا في البلدان الثانوية والقرى كوكلاء ولو غير رسميين لعمدتها ، فبعد السعي الحثيث والمساعدة بدفع نصف الراتب السنوي ضمنت دخولها ولبثت انتظر موعد افتتاح السنة المدرسية وكان ذلك في خريف

سنة ١٨٩٥ .

لم تكن لي اجنحة لأطير لذلك اكتفيت اضطراراً بركوب القطار فأممت أولاً بلدة عاليه حيث كان انسبائي وبلغت بيروت وانا اكاد لا اصدّق أنني فيها

بيروت كانت لي ما كانته أرض الميعاد لبني اسرائيل عَلَى أن عيشتي فيها عَلَى جمالها وجلالها وما لقيته فيها وفي عاليه قبلهـا من عطف الانسباء الاعزاء لم تكن تخلو من تنغيص سببه أنني كنت النسيب القروي والفتى الطائش الذي لم يكن يرضي احداً لا بسلوكه ولا بحديثه ولا بكيفية تناوله الطعام عَلَى المائدة ، ولم يكن يشفع بي سوى العاطفة التي تدفع انسبائي الى الرفق بي والعمل بمختلف الاساليب عَلَى إصلاح اخطائي وإزالة معائبي حتى أنني بتُّ في حيرة كيف اسلك لكي اتخلص من النقد والتنديد اللذين كانت تأباهما نفسي الحرة وتنكرهما نزعتي الاستقلالية . وطالما كنت اداوي جراح نفسي المتألمة بالاعتزال تخلصاً من الجلقة وايقار الآذان وإطلاق الالسنة . كل هذا وأنا لا ارى في ما آتيه امراً إدّاً لذلك شعرت بحيف لا يطاق بعد أن لقيت في بيروت عكسَ الجزاء الذي كنت أمني به نفسي نظراً الى المنزلة العالية التي احلتها البيروتيين المتمدنين من قلبي الصغير

اخيراً ازف اليوم السعيد الذي صحبني فيه عمي لي الى الكلية وسلمني لادارتها وعاد ادراجه بعد أن ودعني واوصاني بالاجتهاد وإحسان السلوك

بعد الفحص أُدخلت أدنى الصفوف ولم اتعلم فيه شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى النفقات الطائلة التي كبدتها والدي لانني كنت الولد الطائش المبذر

كان طعام المدرسة لا يعجبني فأعتاض عنه بما استجلبه خلسةً من مآكل المطاعم المجاورة الى غرفة البوّاب الذي كان شيخاً قروياً يمالئني وسواي من أضرابي عَلَى الإساءة الى انفسنا لقاء دريهمات نرشوه بها . وفي

غير اوقات الدرس القانونية لم اكن أرى إلا قرب الباب الخارجي مثنيّ الجيوب بالحلويات الشهية التي كنت اشتريها من بائع اعمى أقطع يدعى خايلاً يقعد في الباب وبضاعته مصرورة بأوراق ومرصوفة في قفة كبيرة

فوق ذلك كنت أضيع أيام الاسبوع انتظاراً ليوم السبت الذي كنت اؤم فيه المدينة واقضي عشيته ويوم الاحد وليله عند انسبائي وأعود صباح الاثنين كأنني عائد الى قفص فلا ينسيني حزني عليَّ العودة سوى تعليلي النفس بالرجوع الى المدينة عصر السبت التالي وهلما جرّا . ولم يكن يؤلمني كما قبتي بحرماني تلك الرحلة الاسبوعية

أما رسائلي الى والدي فكانت سطور سلام ونطمين وسطور تذكير بمطلب قديم لم يؤدّ بعد او المطالبة بسؤل جديد . ولم يكن يوم احد أصدقائنا مدينة بيروت قادماً من المعلقة إلا وهو يحمل لي من والدي قيمة مالية مع رسالة إضافية علاوةً عليَّ ما كان يأتيني به البريد من رسائله العديدة المتضمنة النصائح والارشادات واستثارة همتي للدرس والتحصيل ولكن لم يكن يستقرّ في ذهني منها سوى عبارات التلبية لمطالبي أو الوعود بإنجازها

وكانت سنة نجوت فيها من التقصير بأعجوبة فلما عدت الى المعلقة أفهمني والدي أن سلوكي لم يكن متفقاً في شيء واللهفة التي كنت أبديها لدخول الكلية وتحصيل العلم الذي كنت ادعي تعشقه ، لذلك كانت لهفة زائفة وأن العلامات الشهرية التي كان يتلقاها لم تكن تبرّر إعادتي الى ذلك الصرح العلمي فرضخت لإرادته مكرهاً واخذت اتلقى دروساً خصوصية عليَّ معلم نابه لعلني أصلح ما أفسدت واؤهل نفسي لدخول الكلية ثانيةً

ودام جهادي هذا حتى سنة ١٩٠٢ وهي السنة التي دخلت فيها الكلية للمرة الثانية والاخيرة وكان جهاداً مقترناً بمحاولة والدي إقناعي بالعدول

عن طلب العلم والانصراف الى صناعة أرغب فيها فتعلمت بضع صناعات علَى ما تقدم بيانه ٠

إعادة الكرّة

في سنة ١٩٠٢ حدثت عوامل لم تكن في حسباني قيّضت لي بلوغ مشتهاي وهو العودة الى الكلية ثانيةً وكانت الصلات قد تمكنت اكثر من ذي قبل بيني وبين المبشرين لما كنت قد استمددته من روح التقى بمطالعة الكتب المقدسة والمواظبة علَى الصلاة وحضور الاجتماعات الدينية حتى أني انتُخبت علَى حداثة سني رئيساً لجمعية الاجتهاد الروحي في زحله ، علَى ما هو مذكور في مكان آخر من هذا الكتاب ، فحصلت علَى شروط أفضل وأممت الكلية ثانيةً (الجامعة الاميركية اليوم) وكانت منذ إنشائها معروفة باسم الكلية السورية الانجيلية

أما مطلبي فقد كان دخول الصف الخامس من الدائرة الاستعدادية والفوز بشهادتها ، وكانت في أثناء تغيبي الطويل قد ازداد عدد صفوفها من اربعة الى خمسة ، فمثلت امام رئيسها إذ ذاك المرحوم الاستاذ هول الاميركي وأعربت له عن رغبتي فراجع سجل سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٦ فلم يتمالك أن انكر عليّ مطلبي لانني كنت في ادنى الصفوف وكنت بفضل كسلي وطيشي في المرتبة الثالثة والستين بين تلامذة ذلك الصف الذي لم يكن عدده على ما اذكر يبلغ السبعين ولكنني حاولت إقناعه تملقاً بأني درست علَى نفسي الشيء الكثير فرأى أن يجاريني فيستند الى محك الامتحان ليتحقق صدق مدعاي وهكذا اخذ يعرضني علَى معلمي الفروع المختلفة فلا يتلقى عني سوى اسوإ الشهادات ولذلك نصح لي بالوضوح لسنّة التدرّج فادخل الصف التالي لذاك الذي انتهيت منه فصارحته إذ ذاك بأن ليس في استطاعتي أن ابث

في الكلية اكثر من سنة واحدة أؤم بعدها القطر المصري طالباً الاستخدام في احدى دوائر الحكومة ولذلك كان لا بدّ لي من أن اكون عَلَى الاقل حاملاً شهادة الدائرة الاستعدادية ، وأن في صدري من صدق العزيمة ما يعينني عَلَى احرازها مهما يقم في سبيلي من العقبات

فلما رأى مني الاستاذ هول ذلك الاصرار المعزز بصدق اللهجة خاطبني باسلوب جدي ملوءه الثقة والتشجيع : « ما دام هذا سلاحك وهذه عزيمتك فلا تخشَ عدوّاً . دونك الصف الخامس أُدخله وإني واثق من احرازك الشهادة في نهاية السنة المدرسية ولا تبالِ ولو قصرت في الدروس كلها في الاشهر الاولى » !

وهكذا دخلت الصف الخامس وكنت اضحوكة رفاقي التلاميذ لضعفي وعدم أهليتي إذ برغم اجتهادي الخارق ومواظبتي عَلَى الدرس حتى في اوقات التنزه واللعب لم يكن يتسع لي الوقت لمطالعة الدروس التي كان اكثرها في الاشهر الاربعة الاولى مراجعات والتي ظللت فيها كلها مقصراً بأربعة فروع حتى جاء امتحان نصف السنة الذي قصرت فيه بفرع واحد هو الحساب ولكن بفرق عشرٍ واحد وأبى المعلم وهو الاستاذ ليب جريديني أن يجيزني رغبةً منه في تقويتي في هذه المادة وهكذا اضطرني الى البقاء في بيروت دارساً حتى استطعت تقديم امتحان آخر كانت نتيجته انني فزت بعلامة جيدة

بعد انتهاء العطلة نصف السنوية عرضت لي عقبة جديدة هي تأخري زهاء اسبوعين بسبب نطاق صحي كان قد ضُرب عَلَى ولاية الشام وعندما وصلت كان صفي قد انتقل من علم الحساب الرقمي الى الحساب الرمزي وهو الجبر فوجدت في بادئ الامر صعوبةً كلية في اللحاق ولكنني بفضل الاجتهاد والدرس المتواصل لحقت وسبقت وغدوت أُعين بعض رفاقي عَلَى تفهم ذلك العلم الصعب

واجتزت الامتحان النهائي بعلامات لا بأس بها وغادرت الكلية ولبثت في المدينة منتظراً بفارغ الصبر حلول اليوم الذي يجري فيه الاحتفال بتوزيع الشهادات ولكن شاءت الاقدار أن لا أتناول شهادتي عَلَى مرأى من الحشد الكبير المجتمع في الكنيسة لانني تأخرت وكان سبب تأخري إبطاء تحويل كنت انتظره من والدي وكان الحصول عَلَى الشهادة يقتضي ريالاً والصعود عَلَى المنبر والتعرض لانظار الجمهور النقادة يستوجب بدلةً لائقة .

ولم يكتشف انسبائي إلا في الساعة الاخيرة حاجتي التي كتمتها مختلقاً مختلف الاعذار لعدم ذهابي الى الكلية في طلب الشهادة فأنقدوني ريالاً وألبسوني برغمي بدلة مستعارة انسيب دوني طولاً فأفنيت حيلي لإيهام كل من تقع عليّ عينه بأني أقصر قامةً او أطول ثوباً

عندما بلغت الكنيسة كان الاحتفال قد انتهى والحشد آخذاً بالانصراف . وبينما كنت أهم بالعودة بخفي حنين بدلاً من الشهادة بصر بي الاستاذ هول فاقتادني الى قاعة العمدة وهناك سلمني شهادتي مهنئاً اياي ومبدياً ارتياحه للصدفة التي قضت عليّ بالتأخر بحيث تهيأ له أن يعطيني شهادتي عَلَى انفراد كما كان حديثنا بشأنها في مستهل تلك السنة المدرسية . وبالطبع كان شكري له حاراً ووعدي ثابتاً بأن ابذل جهدي لكي استحق ثقته وابرهن بأنني كنت اهلاً لها .

في القاهرة

كان لي بين تلامذة الصف صديقان الواحد يدعى عفيف فريجه والثاني يوسف كاترون ، وكانت صداقتي بالاول أعرق وأمتن لان ابوينا كانا صديقين حميمين . ومما زاد في إحكام صلات الود بيننا جميعاً سواء قصدنا فقد كنا ننوي الرحيل الى القاهرة عَلَى أمل الفوز بوظائف في حكومة السودان

اما اعتماد الاول فكان عَلَى شقيقه الاكبر الذي كان قد حذق اللغة الانكليزية في اوستراليا وتمكن من العربية في الكلية نفسها وسبقه الى القاهرة ودخل في خدمة حكومة السودان فيها . واعتماد الثاني عَلَى شقيق له أمّ القاهرة واستخدم فيها في إحدى الشركات ، واعتمادي انا عَلَى صهري عزيز قندلفت الذي كان قد عاد من الهند واتخذ القاهرة مقراً له يدأب فيه ويعيش مع شقيقتي وابنهما الصغير ، وكان قد سبق له الفضل في إعانتي عَلَى دخول الكلية ثانية

وكان الاسبق فريجه وتبعه كاترون ولحقت انا بهما بعد حين وكنا نحن الثلاثة نجتمع كل مساء تقريباً ونتمشى عَلَى ضفة ترعة العباسية متحدثين عن حاضرنا ومستقبلنا متشاكين همومنا متأففين لعدم توفقنا الى عمل يحرّرنا ويكفينا مؤونة العيش عيالاً عَلَى من ذكرت

وكان عفيف فريجه احوجنا الى الانفلات لان اخاه امين كان العماد الوحيد للعيلة المقيمة في زحله لان والده يوسف كان قد دفن جلّ ما جمعه في اوستراليا في ارض له واطئة في البقاع حاول أن يستغل فيها البطيخ الاصفر ولكنه عجز عن توفية نتاجها شرّ دودة تنخره فلا يعود صالحاً للبيع .

ولست أنسى كم غبطنا عفيفاً وهنأناه عندما اتانا ذات مساء يبشرى تعيينه متمرناً في مالية السودان في القاهرة براتب ١٥٠ غرشاً مصرياً في الشهر . وكم كانت تهنئتنا له اشدّ وأتمّ عندما بسمت له إلاهة الحظ فعُين في الخرطوم براتب سبعة جنيهات مصرية في الشهر

وبعد حين تبعه كاترون ولحقت انا بهما بعد اشهر واجتمعنا كلنا في عاصمة السودان وسكنا بيتاً واحداً و كلنا اغتباط بتحرّرنا وآمال بمستقبل بسام لنا جميعنا

وُنقل بعد ذلك صديقي امين فريجه الى الخرطوم ، وكنت كل مدة إقامتي فيها معايشاً له ولاخيه عفيف ، وبرغم تغيبي احياناً كان يظل مكاني في البيت محفوظاً بحيث أن صداقتي برفيقي الصغر هذين كانت اشبه شيء بصلات الاخاء بل اشد إذ لم تفصمها يوماً حدتي وشدة وطأتي عليهما في كثير من الاحيان لانني كنت لا اتجاوز عن أية هفوة يرتكبانها ولو عن غير قصد وأحصي عليهما انفاسهما ، وهما يقابلانني برفق ووداعة يستغرب صدورهما حتى عن أشقاء

تنقلي وتطوري

غادرت القاهرة قاصداً الخرطوم بعد أن أقمت في الاولى سنة كاملة تقريباً وبلغت هذه في الخامس والعشرين من الشهر السابع سنة ١٩٠٤ . وكنت في اول عهدي بالعمل في خزينة السودان العمومية كثير التسرع كثير الخطإ وطالما خجلت وندمت وتألمت بسبب اخطائي العديدة . ولست لا أنسى ارتباعي والتياعي عندما مُنيت بالخسارة الاولى الفادحة ولم تكن قد مرّت أيام على تسلمي مبلغ الفي جنيه اودعتها خزانتي الحديدية الخاصة وكانت تلك الخسارة مئة جنيه تماماً . كما انني لا أنسى لهفة زميلي الخازن الثاني محمد هاشم وهو يحاول أن يكتشف خطإي ولسانه لا يفتر عن التأكيد لي بانني مجنون وأن مئة جنيه قطعاً فضية موضوعة في كيس مربوط العنق لا يمكن أن تفقد ، وكان لحسن حظي مصيباً إذ كان خيراً لي الف مرة أن أرمى بالجنون من أن اضيع مئة جنيه قبل ان اكسب عشرة . وكان كل السرّ في ان احد الاكياس العشرين المرصوفة وُضع منها آخراً فأصبح عددها في الظاهر تسعة عشر ولم نهتدِ اليه إلا باخراج كل الاكياس من الخزانة

ودفعت في واو حاضرة مديرية بحر الغزال مئة جنيه كخمسين

وبالطبع نقصت خزانتي خمسين جنيهاً تماماً . وكم كدت ذهني لاتذكر مع من ارتكبت تلك الغلطة الفادحة وكم تصبب العرق البارد من جبيني لمجرد توهمي أن يكون ذلك الشخص غير امين فينكر عليّ حقي ويتمتع بثمرة جهادي عاماً كاملاً أو بالاحرى عامين اذ لم يكن يكفيني اقل من هذه المدة لكي اقتصد ما أضعت . ولكن لحسن حظي ايضاً استطعت استعادة القيمة على اهون سبيل لاني فطنت الى الشخص الذي ارتكبت معه تلك الغلطة الفادحة ولم يكن هو قد فتح بعد الكيس لكي اتعرّض لشر خيانته او اتثبت من أمانته

قضيت في السودان عشر سنوات أقمت جلّ السبع الاولى منها في الخرطوم والثلاث الاخيرة في بورت سودان . أستثني من الاولى اربعة عشر شهراً وهو الزمن الذي استغرقته مأموريتان وقتيتان قمت بهما : الاولى في واو حاضرة مديرية بحر الغزال والثانية في مركز رفاعه من اعمال مديرية النيل الازرق ، وعامٌ كامل هو مجموع العطلات الثلاث التي قضيتها في ربوع لبنان في سنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٧ و ١٩٠٩ . وأستثني من الاخيرة عطلة شهر قضيته في الخرطوم واربعة أشهر قضيتها في بروكسل عاصمة بلاد البلجيك سنة ١٩١٢ . وفي شهر شباط سنة ١٩١٤ اعتزلت الخدمة وغادرت السودان للمرة الاخيرة قاصداً بروكسل ثانيةً ومنها الى البرازيل

وكانت المأموريتان الوقتيتان اللتان قمت بهما خارج الخرطوم حلولاً مكان زميلين قضى عليهما المرض بالاعتزال الموقت . وقد قمت بالاولى بعد اشهر قليلة من وصولي الى الخرطوم وبالثانية على اثر عودتي من عطلتي سنة ١٩٠٧ . وما عدت من هذه حتى نُقلت بطلبي الى وظيفة كتابية في قلم المستخدمين حيث جرت لي حوادث تستحق التدوين وقد دوّنت أهمها .

وكيف استطيع ان اذكر هذا الانتقال دون ان اذكر باخبر الخازن الاول

محمد طه البربري الاسود الذي كان قلبه أنقى من الثلج فإنه ناضل نضال الابطال في سبيل تحويلي عن عزمي فلما أعيته الحيل لم يبخل بدموعه امام سعيد باشا شقير لكي يبقيني في الخزينة ويضمن لي المستقبل الذي كنت انتظره من اشتغالي بالكتابة والترجمة . فرعاك الله يا محمد طه حياً ورحمك ميتاً . إني عرفت فيك خلالاً لم أعرف مثلها في احد من البيض المتعلمين المتمدنين وعواطف نبيلة لا يمكن أن تتخذ مظهراً اسمى واجل من هاتيك الدموع التي ذرفتها من اجلي ، وثق بأنك لو كنت قارونا ووهبتني من نداك الذي لم يكن يعرف حداً قلادة من اندر اللآلئ امنتي لما ابقيت حتى اليوم عَلَى ذكراك في ذهني ومنزلتك في قلبي .

وبمناسبة إتياني عَلَى ذكر سواد البشرة مقترناً الى نقاء السريرة تحضرني حادثة تدل عَلَى شدة تعشق سواد الناس للظواهر واغترارهم بالرواء ولو كان منطوياً عَلَى الخبث والرياء وهو ما حذّر منه المسيح مشبهاً المرائين بالقبور المكلسة . ذلك ان والدي أحسن مرة وفادة قادم من مصر من أسرة الصباغه إذ كانت تجمعه به جامعة الفن ودعاه الى سيران أعدّه له في بقعة من وادي البردوني كانت تُدعى « البستنا » في ظل شجرة جوز كبيرة لا اعلم اذا كانت باقية حتى اليوم . وكان في جملة المدعوين ابرهيم بك الاسود صاحب جريدة لبنان في ذلك العهد واتفق أنه تأخر فلم يتمالك والدي ان شكا إبطاءه فسأله الصباغه من يكون فذكر له اسمه فما كان منه إلا ان قال بلهجته المصرية : — إسود ! نعوذ بالله من الإسود !

فقال له والدي مطمئناً :

— إن اسمه « اسود » ولكن تناه ابيض

فأجاب الصباغه :

إحنا عاوزينه ابيض ويكون تناه زي الزفت !

في مالية السودان

أما الباعث لي على طلب الانتقال من الدائرة المالية فقد كان مللي العراك الدائم الذي كان دائماً وأبداً ناشباً بيني وبين رؤساء الاقلام في تلك الدائرة وبنوع خاص قلم المستخدمين الذي كنت أعمل فيه . وكانت حجتي على هؤلاء أنهم يالثون ، لغير موجب ، كبار الرؤساء على ارهاق صغار الموظفين بسومهم البقاء في المكاتب بعد المواعيد القانونية وإكراههم على العودة ليلاً لغير موجب أيضاً سوى التظاهر بالاجتهاد الذي كان يجني ثماره الشهية كبار الموظفين ورؤساء الاقلام دون صغار المستخدمين الذين كان عليهم غرمه دون أن يكون لهم شيء من غنمه

وكانت لي في هذا السبيل مواقع حامية وعرائض نارية احمل سواي من المستخدمين على توقيعها وأرفعها الى سكرتير المالية الانكليزي الذي كان ارأف بنا من اخواننا الشرقيين المتسودين علينا . ولا ازال اذكر أني شفيت نفسي يوماً من احد المفتشين الانكليز والباشكاتب ورؤساء الاقلام جميعاً لان ذلك المفتش امضى منشوراً اعده هؤلاء يحظر على اي مستخدم مغادرة المكتب بعد الظهر قبل أن ينصرف السكرتير المالي . فعندما قدمت الى هذا مباشرة عريضة احتج فيها على ذلك المنشور انتزعه المشكون عن جدران المكاتب وأعفوا آثاره تكذيباً لي وأوعزوا الى المستخدمين بمغادرة المكاتب في الموعد القانوني ولكنني برغم كل الحاح ابيت الانصراف وأقنعت مستخدماً آخر بالبقاء معه على ما اذكر بوصف الاسمر وهكذا رآنا السكرتير عند خروجه وكان وراءه اولئك المتزلفون الذين برهنوا له بخلو المكتب من المستخدمين أن لا صحة لحكاية المنشور الذي احتججت عليه فقلت أمامه وشرحت له الواقع شفهياً فأكد لي أمام الجميع أنه يأبى كل الاباء أن ننتظر احد انصرافه لانه غير مرتبط كسواه بالمواعيد المكتبية . وانت اليوم

بنادم عَلَى جهادي في هـذا السبيل النبيل وإن يكن السبب الاكبر في تركي السودان الذي أحنّ الى أيامـه واستعذب ذكراه برغم شدة حره وشظف العيش فيه . واست اعلم اليوم أذلك القطر ابكي ام زهرة الشباب التي اذبلتها لوافحه وما كان يزين حياتي ويُحليها فيه من حب وعطف وإكرام الاصدقاء العديدين المخلصين من سوريين ومصريين وسودانيين برغم عدم استيهالي لما كانوا يغمرونني به من هذه النعم . يثبت إخلاصي في قولي هذا ابيات استهللت بها خطاباً موضوعه « الاجتماع » القيته منذ ثمانية وعشرين عاماً في النادي المصري في الخرطوم وفيها إشارة لحبي بنوع خاص لمصر والمصريين:

يشوقهُ قائلٌ في مصرَ ذي بلدي
وهو الشآمي وغيرَ الصدقِ لم يُردِ
فتىً من الشامِ يُهديكم تحيتهُ
وقلبهُ ليسَ يُهديهِ الى أحدِ
مخافةَ القولِ قد جادت بجيته
عالِ « هند » ولولا ذاك لم يَجُدِ
لا اكذبُ اللهَ قد أضحى لها أبداً
يا ويلَ صبٍّ بلا قلبٍ الى الأبدِ
لولا « اجتماعي » بصحبٍ عزّ صاحبهم
بكيتُ قلبي بُكاءَ الأمّ للولدِ

والغريب انني لا ازال اذكر هذه الابيات كما كتبتها والقيتها في تلك الحفلة في حين أني أضعت صورتها عَلَى اثر إلقائها ولم أروِها بعد ذلك إلا لصديقي الاديب الدكتور صموئيل الخوري في احدى الليالي القمراء في بلدة واو ولا ازال اذكر مداعبته اياي بتأويله لفظة « عزّ » الواردة في البيت الاخير !

وإني اغتنم هذه المناسبة للتأكيد بأن جل ما أوردته في هذا الكتاب نقلته عن صفحة الذاكرة لانني لم اعتمد الاعتماد على المفكرات

أما حكاية العمل ليلاً فهو أن السكرتير المالي وكبار أعوانه ، وفي مقدمتهم سعيد باشا شقير ، كانوا يفدون على الخرطوم ويقيمون فيها في أفضل فصولها وهو فصل الشتاء الذي يبتدئ في تشرين الثاني (نوفمبر) وينتهي في شباط (فبراير) وهو الفصل الوحيد الذي يتيسر فيه التمتع ويحلو التنزه فتكون نتيجة وجودهم في الخرطوم في هذا الفصل وبالاً على المستخدمين إذ يضطر هؤلاء الى انتظار انصرافهم الى ما بعد الساعة الثانية بعد الظهر واحياناً الثالثة فإذا خرجوا لم يجدوا في المطاعم سوى فضلات باردة يعافونها فتحتشم عليهم بهذا السبب التغذية الصحية الضرورية في بلاد حارة غير صحية . وفي المساء يعودون الى المكاتب أيضاً ويلبثون فيها الساعتين أو الثلاث انتظاراً لأوامر رئيس قد يكون منصرفاً الى نزهته مستغرقاً في لهوه بينما هم مسمرون في كراسيهم كالآلات الصماء فاذا ما خرجوا حل بهم ما لقوه في النهار . والانكى من ذلك أن الرؤساء لم يكونوا مرتبطين بمواعيد معينة فيأتون احياناً متغدين أو متعشين وعلى الجياع انتظارهم رضوا أم أبوا . أما مواعيد العمل الرسمية فقد كانت من الثامنة والنصف صباحاً حتى الواحدة والنصف بعد الظهر ولا عودة بعد ذلك للذين يتقيدون بهذه المواعيد إلا في صباح اليوم التالي ، ولم تكن تشذ عن هذه القاعدة سوى الدوائر او المكاتب التي تضم رؤساء شرقيين

لهذا السبب ، لا لسبب آخر ، كان الخلاف مستحكماً بين رئيس القلم وبيني فانني ما كنت البتة ارضخ للاحكام المتقدم ذكرها ، واذا أكرهت يوماً على التريث لأمر ضروري لا يمكن إرجاؤه اتيت في صباح اليوم التالي متأخراً بقدر ما طلب مني من الوقت في سابقه . وكان نصيري الوحيد

المثابر في ثورتي الشاب الناهض اسكندر خليل المعلوف الذي سبق لي ذكره وكنا نصرّ عَلَى امتيازنا هذا الكفاية لم يكن بنكرها علينا خصومنا انفسهم وطالما رشحتنا لرضى سعيد باشا شقير ، رئيسنا الأعلى ، برغم استيائه ضمناً من المثل السيء الذي نعطيه لسوانا من المستخدمين . اما هؤلاء فكان جلهم يقول ولا يفعل وعند احتدام المعمعة ينسحبون تائبين وينسبون توفيهم الاحتجاجات التي كنا ننشئها الى الاغترار او الانصياع الأعمى . واسكندر المعلوف هذا اعتزل الخدمة عام ١٩١٤ ايضاً وهاجر الى كوبا ، وقد كنت واياه دائماً مرفوعي الرأس دون أن يجرؤ احد عَلَى الحط من كرامتنا لأن سعيد باشا شقير كان يقدرنا ويحبنا ولكننا كنا نعاقب بالحرمان ونرى سوانا من المتزلفين الخانعين يتقدموننا وهم دوننا كفايةً واجتهاداً صحيحاً فنشكو أمرنا الى الباشا في اجتماعات خاصة ندبرها معه في منزله فلا ينكر علينا مقدرتنا واهليتنا ولكنه كان يكلفنا مثل سلوك الذين تقدمونا لكي لا نكون قدوةً سيئةً لسوانا . اما نحن فكنا نصارحه بأننا نفضل البقاء في منزلتنا من أن نتنزل عن مبادئنا

عَلَى انني برغم شكواي هذه كنت أحب سعيد باشا شقير واحترمه لتحليه بصفات نادرة اجتمعت الى ذكاء خارق ومقدرة فائقة . ولم تكن حدة الطبع التي اشتهر بها سوى دليل صفاء نيته ونبل عواطفه . والذي كان يعجبني فيه بنوع خاص أنه كان كداود « يذوب من الذين لا يفهمون » . ومما اكتبه له بمداد الامتنان أنه كان يقدرني ضمناً ولم يقبل يوماً شكاةً عليّ ايّاً كان مصدرها ، وطالما سمع شكاتي منه ما لا يرضيهم وعادوا بخفي حنين عاضين عَلَى اصابع الندم

ومما اذكره له فضل تيسير العمل للمئات من الشبان السوريين المتعلمين الذين كانوا يؤمون مثلي مصر للاستخدام في حكومة السودان ،

وقد كان يضمن لمواطنيه الشبان العمل لا بنفوذه فقط بل بمثله الصالح الذي اجتذب اليه قلوب الرؤساء الانكليز وأثبت لهم ذكاء السوري واجتهاده واستئهاله للثقة . وقد كان يهتم اهتماماً خاصاً بارضاء الانكليز واقناعهم باهلية السوري الى حد انه كان يوصي مروءوسيه بالمغالاة في تنقيح ما يكتبونه باللغة الانكليزية حتى أن اكثرنا اتبع مثله في إحسان السبك والتدقيق في هذه اللغة حتى اصبح بعضنا يفوق الكثيرين من اهلها في كتابتها . كما أني لا انسى كم كان يغضب ويؤنب ويحقر عندما يقرأ كتابة ركيكة وقد اشتد به الاستياء مرةً حتى انقلب به الى الدعابة والمجون فأخذ يجوّد رسالة ركيكة كتبها احد رؤساء الاقلام كما يجوّد في سوريا الشعر العامي المسمى « بالمعنى » !

المعيشة في الخرطوم

لم تكن الخرطوم خالية من المطاعم ولكن كان المألوف عند العزاب من محبي النظافة والترتيب اتباع الطريقة الانكليزية وهي إنشاء « مس » او منزل للعزاب يجتمع فيه عدد منهم تؤلف بينه الاذواق والمشارب والعادات فيوكلون امره الى طاه وخادم تحت إمرة احدهم بالمناوبة ويعيشون فيه كعائلة واحدة ، وهذا ما انتهى اليه امري بعد عودتي من بحر الغزال . ولكن الطهاة غير ربات البيوت فكان المتعارف أن العزاب لهم على اصدقائهم المتزوجين حق الضيافة لكي يتمتعوا بلمآكل البيتية الشهية ، وكانت الدعوات تتوالى عليّ فلا اتناول الطعام في المنزل إلا يومَ ادعو صديقاً . وكانت بعض الدعوات تتخذ شكل ضريبة مقرَّرة وترتبط بموعد معين : من ذلك غداء الاحد في منزل عزيز كفوري وشقيقيه المرحومين اسكندر وسليم ، وكان لاول على اتصال بمحل كرم الشهير في الاسكندرية فترى

وابتنى منزلاً فخماً جهزه بكل معدات الراحة والرفاهية واسباب اللهو والرياضة والتسلية فكان فيه بركة للسباحة وقاعة للبليار وفي فنائه ساحة للالعاب الرياضية على اختلافها . والعشاء مساء ذلك اليوم عينه في منزل صديقي المرحوم عزيز جهشان فأدعو بالاتفاق معه نخبةً من الشبان الذين تحلو عشرتهم فندوم جلستنا حتى منتصف الليل متنادمين ومتقارعين كؤوس الوسكي وملتهمين المآكل الشهية التي كانت تعدها حماته وقرينته اليونانيتين . ولا اذكر اني انصرفت ليلةً من منزله قاصداً منزلي واستطعت أن اسير في شارع فكتوريا البالغ عرضه خمسين متراً دون أن يكون لي شأن مع الحيطان . فاذا لم يكن صديقي المرحوم نسيب فيليبدس متغيباً كان غداؤه يوم الخميس عندي ويوم الجمعة بأكمله عنده في أم درمان الى حيث كنت اصطحب نخبةً من الاصدقاء ، وإلا ظهيت لاصدقائي بيدي لاني اخذت هذا الفنّ عن والدي الذي اخذه عن جدتي والدته . وكنا نصرف بقية أيام الاسبوع في منازل مختلفة وكان صديقي فيليبدس رفيقي الدائم في معظمها وعلى الاخص في منازل المشايخ من مصريين وسودانيين

في بورت سودان

في بورت سودان كان سكني في احدى غرف المستشفى في الجناح الخاص بالاطباء وعملي في دائرة الحجر الصحي على البحر . وقد توفقت الى تنظيم معيشتي بالاشتراك مع الاطباء وهم امين غصن الشويري وخليل الخوري من معلقة الدامور ونجيب ملحمه وحبيب كحيل البيروتيين . وخير من طابت لي عشرته هناك الشابان المهذبان تيمو وامين صائغ من بيروت وكان هناك سواهما من العارفين بآداب الاجتماع فألفنا حلقة ادبية تعرف كيف تجتني السرور وتحتال على طرد السآمة

التسلية واللهو والارتياض

كان جل الموظفين في الخرطوم يحتالون على التسلية وتمضية اوقات الفراغ بعد الظهر بأساليب مختلفة منها النوم للكسالى والمترهلين والمطالعة والرسم للمستفيدين المتيقظين والمقامرة للاهين المستهترين . وكانت المقامرة آفة الكثيرين وطالما سقط بسببها شبان كانوا درراً غالية في عقد الاجتماع . وأذكر أن صديقاً أغراني ونفراً من الرفاق بالتلهي بلعبة البوكر المشهورة ولكن بقصد التسلية البريئة فلم يكن الربح والخسارة يتعديان بضعة غروش لا تفيد ولا تضير احداً . وكنت ورفاقي نجد في اللعب لذة وتقطع الوقت على ما يرام . ولكنني لم البث أن استوثقت من أن الاستمرار يفقد كل لذة سحرها كما يفقد التعود كل دواء تأثيره فيشعر المرء بحاجة ماسة الى زيادة اللذة ومضاعفة الجرعة الى أن يربي ضرر الافراط على فائدة الاعتدال فتلافيت السقوط بدعوة اصدقائي الى وليمة عشاء اعلنت لهم فيها أنني رأيت الهوة فما أنا بمواصل السير اليها ونصحت لهم بالعدول عن اللعب فارعوى بعضهم وتوغل البعض الآخر وكان نصيب المتوغلين الهلاك

وكان مما تمرنت عليه في الخرطوم نقل الرسوم مكبرة بالفحم فوجدت فيه لذة وظللت أمارسه في بورت سودان الى جانب المطالعة والكتابة ولكنني أخيراً شعرت بحاجة الى الارتياض المعتدل لا العنيف فتذكرت النجارة التي تجمع بين التروض والتسلية والانتفاع فاستحضرت من فرنسا عدة كاملة مصغرة واكتريت محترفاً ورحت انتفع وانفع اصدقائي اذ صنعت لي ولهم عدة أشياء نافعة كالمناضد والخزائن والاطر واسرة الاطفال .

المطالعة في الحمام

ذكر امامي مراراً انه لشدة الحر في بعض اقاليم السودان يشتغل الموظفون وهم

جلوس في براميل مملوءة بالماء البارد فأنكرت هذه الحكاية مؤكداً للسائلين أنها من المبالغات المألوفة عند الشرقيين لسعة دائرة خيالهم · ولكني عرفت في بورت سودان شاباً يونانياً اسمه باريزي يجيد التكلم بالعربية و يشتغل في فرع البنك الاهلي في تلك المدينة الجهنمية · وكان لسحنته يضنكه الحر اكثر من سواه لذلك كان يملأ بعد الظهر جرن الحمام ويستلقي فيه وبيده كتاب يطالعه وهو يدخن غليونه

ولكنني عرفت أيضاً في هذه المدينة عينها شخصاً بعكس باريزي هذا عَلَى خط مستقيم هو صديقي المهذب اللبق المرحوم أمين صائغ الذي لم يكن يتنزل البتة عن القميص المكوي والياقة العالية المكوية كانـه في بيروت في فصل الشتاء او في احدى قرى لبنان صيفاً·وكان باريزي لا يفتر عن التنديد به والتهكم عليه لتمسكه بقواعد الاناقة في مدينة كبورت سودان وهو بدوره يعنفنا جميعنا لاستهتارنا وسيرنا في الشوارع دون سترة مكشوفي الرؤوس مشمري السواعد طليقي الاعناق من كل قيد

الانصاف المتأخر

بعد انقضاء اشهر عَلَى إقامتي في بورت سودان غادرها كاتب المستشفى في عطلة فقمت عنه بأعباء وظيفته متخذاً من مكتبه مكتباً مشتركاً لأعماله واعمالي في دائرة الحجر الصحي ورتبت الاعمال عَلَى شكل أعجب المفتش الصحي في مديرية البحر الاحمر واسمه الدكتور واترفيلد فعهد اليَّ بالوظيفتين بصفة دائمة على أن اتناول علاوةً خاصة لقيامي بهما معاً واخذ يسعى لدى ولاة الامر لانصافي من الحيف الذي كان يعتقد أنه وقع عليَّ في المالية بحيث ظلَّ راتبي دون اهليتي ولكن سعيه جاء متأخراً فكان كل ما حصل عليه وعداً برفع رتبتي وراتبي في العام المقبل إذ كانت الحكومة قد رسمت خطة

اقتصادية تقضي بمرور ثلاث سنوات على آخر زيادة تلقاها الموظف لكي ينقل من درجة الى درجة أعلى . غير أن عقم مسعاه لم يحل دون قيامي بواجب شكره ولكنني كنت قد عزمت على مغادرة السودان بحجة أن صحتي لم تعد تعينني على احتمال حره الشديد فأبى أن يصدقني ولم يتمالك أن ابدى استياءه مني لانني آليت ألا أمهله ريثما يتمكن من إتمام قصده الحسن من جهتي عاداً طلبي الاستقالة العاجلة جحوداً مني

وقد ساءني كثيراً إغضاب ذلك الرئيس النبيل العواطف لما ابداه من الغيرة عليّ وما ادّاه لي من الشهادات الممتازة على اشتهاره بالبخل بما هو دونها بمراحل ولكنني كنت قد ارتبطت بعهد مع انسبائي بأن أقدم الى البرازيل فلم اجد بدّاً من القيام به .

الى البرازيل

مررت في طريقي الى اوروبا بالخرطوم حيث ودعت اصدقائي العديدين فيهـا ، وفي مقدمتهم نسيب فيليدس . وما كان اجمل ذلك اليوم الذي قضيته ونفراً من الاصدقاء الظرفاء الخلصاء في مزرعة قريبة من الخرطوم بضيافة روفائيل مرقص اللاذقي وهو صديق نعمت بعشرته طويلاً ايام كنت في الخرطوم وكنت اجلس واياه الى الشراب فيطول جلوسنا ونستغرق في الاحاديث . ولا ازال اذكر أنه كان يحب التحدث عن الناس وبغضه السكوت فيقول لي كلما عرضت فترة الاستراحة : « نمّ يا ضعون ففي النميمة لذة لنا دون أن تضر بسوانا » !

ولم تقلّ عن ذلك اليوم جمالاً تلك الحفلة الوداعية اللطيفة التي اقامها نفر من الاصدقاء لي ولصديقي المرحوم مجيد شاهين الذي كان قادماً الى البرازيل أيضاً للاشتغـال مع اخيه زميلي المرحوم اسكندر شاهين صاحب جريدة اميركا في ذلك العهد . وكان في طليعة الداعين اليها المرحوم طنوس لك

شعــاده الزحلي ولم يكن من فرسان البلاغة فكان يكتفي للتعبير عن شعوره الخالص بترديده عبارة « هنيئاً للبرازيل » فتنفذ الى أعماق قلبنــا وتهزنا وتندّي مآقينا لثقتنا بالعاطفة الصادقة التي تمليها . أما اليوم وقد انقضى عَلَى هذه الحفلة زهاء ثمانية عشر عاماً فلست أعلم ما اذا كانت البرازيل قد هنئت ولكنني واثق من أننا قد شقينا ، ولست ادري أينا أسعد حالاً : أصدقي ورفيقي مجيد الذي عاش في هذه الديار معدماً شقياً وغيبه الثرى منــذ أعوام أم انا الذي بقيت لاروي هذه الحادثة واذكره بدمعة مخلصة يستحقها حبه واخلاصه لي وأؤدي لروحه رسالةً اؤكد له فيها أن عالم الاحياء لا يمكن أن يكون أسعد حالاً من عالم الاموات

وغادرت الخرطوم قاصداً بروكسل عاصمة البلجيك حيث قضيت نحو خمسة اشهر ومنها الى امستردام كبرى مدن هولاندا فسان باولو حيث أقيم اليوم .

في الخمسين

أنا اليوم في الخمسين ولي امرأة وبنات أدأب وأعيش في مدينة سان باولو البرازيلية التي امتها في أصيل سنة ١٩١٤ ورافقت نموّ سكانها من خمسمائة الف الى زهاء مليون وشهدت تطوّرها الاجتماعي والعمراني المدهش

أممتها آملاً ان الج فيها مضمار التجارة ولكن كانت سوق هذه في ذلك العهد في كساد بسبب نشوب الحرب الكبرى ، والتجار السوريون يستغنون عن مستخدميهم القدماء فكيف يُدخلون في خدمتهم قادماً جديداً ؟ . ومع أني عرضت خدمتي المجانية عَلَى الكثيرين بقصد التمرّن عَلَى الاساليب التجارية في هذه البلاد اعتذر الجميع الى الوسطاء من انسبائي واصدقائهم بحجة عدم احتياجهم من جهة واستحيائهم من جهة ثانية أن

يستخدموني بلا أجر

صبرت عَلَى هذه الحال زمناً مللت فيه القعود فولجت مكرهاً باب التعليم وهو الوحيد الذي كان مفتوحاً امامي ، وكنت في الوقت ذاته أحرر متابياً في بعض الجرائد واخيراً انتهت ملكية إحداها اليّ بالاشتراك مع صديق اديب لي فعملنا فيها اسابيع دون مورد وانتهى امرنا بإعادتها الى صاحبيها الاولين .

وفي مطلع سنة ١٩١٦ عدت فاستوليت عليها وحدي وبعد اشهر تركت التعليم وانصرفت بكليتي الى عملي الصحافي معتمداً عَلَى سد عجز ميزانية الجريدة بموارد أخرى فرعية كان اهمها ما كسبته بشراكة نسيبي نجيب نسيم طراد إذ بعت من احدى الدول مئة عشر الف نسخة من ترجمة خطاب إمام الشرع البرازيلي المرحوم روي بربوزا الذي القاه في بوينوسايرس عاصمة الارجنتين في ١٤ تموز سنة ١٩١٦ وعنوانه « مسائل الحقوق الدولية »

وحدث ان دخلت تركيا الحرب وبدخولها تطورت الاحوال في بلادنا عَلَى شكل أوجب عَلَى المهاجرين الانتصار لاهلهم ومواطنيهم المتخلفين فتألفت في هذه الحاضرة جمعية للتطوع روّجت غايتها بكل قواي . ثم حدث ما استوجب انفصالي عنها فكان نصيبي منها المقاطعة حتى رأيت الجريدة تشفي لحوّلتها الى مجلة قمت عَلَى تنضيدها بنفسي في محل سكني اقتصاداً للنفقة ومع ذلك اضطررت الى حجبها في منتصف سنة ١٩١٩ . واذكر ان المخلصين من اصدقائي هنأوني كثيراً لتطليقي الصحافة لان النجاح في مضمارها يقتضي من التضحيات ما لا يعينني خلقي عَلَى بذله

وشاء أحد كبار التجار أن يغتنم فرصة انصرافي عن الصحافة فأدخلني في خدمته كمدير لمحله براتب وافٍ في ذلك العهد ومناني آجلاً بشطر من الارباح فاغتررت بالمستقبل الباسم الذي كان ينتظرني ووطنت النفس عَلَى

الاقتران فاتخذت لي حليلةً فتاةً من قومي رضيت بي عَلَى علاّتي وفي عدادها نزعتي الراسخة الى بساطة العيش والرضى بالكفاف تخلصاً من تهمة الامتثار أنصبة السوى ، وكانت حفلة قراني خاضعة لهذا الحكم أيضاً فلم يكن عليّ عَلَى العروس سوى ثياب العمل وجرت الحفلة في مركز القاضي المدني بحضور الشاهدين اللذين وقعا معنا العقد ونسيبين وصديق واحد ، وانصرفنا من هناك الى منزلنا حيث طهينا بأيدينا طعام العرس وتعشينا . وقد أعجب منّي جميع اصدقائي وكل من اطلع عَلَى تفاصيله ولكنني لم اعرف حتى اليوم احداً وجد في نفسه الشجاعة الكافية لاحتذاء مثلي العمليّ هذا الذي اوي مئة مقالة تُكتب في الموضوع ، عَلَى كثرة الشاكين من تكاليف الاعراس والممتنعين عن الاقتران هرباً منها

وبقدر غير منتظر انهار المحل بعد اقتراني بأسابيع فرفضت البقاء فيه ولو انتهوية شيء من شؤونه وخرجت منه صفر اليدين ولكنني لم اسمح لليأس بالتسلط عليّ بل انصرفت الى الاتجار بصفقات اشتريها وابيعها ، وأخيراً قيضت لي الاقدار ربحاً لا يستهان به إذ بعت بالمبالة بضاعة ذات قيمة قادمة من الشرق ولم يتسلمها طالبوها فانتعشت آمالي . وكان اول ما فعلته أني اصدرت كتابي « مختارات الجديد » الذي نال حظوةً في أعين اصحاب المجلات والجرائد والقراء ولكنه عاد عليّ بخسارة كبيرة لعدم إحساني العرض ، وكل بضاعة في هذا المهجر تحتاج الى عرض لان الشاري يريد أن يشتري نفس البائع ويخلص له الصنف مجاناً

وما كدت انجز طبع كتابي حتى دخلت مدعوّاً في شراكة فرعية مع محل كبير يرأسه صديق حميم لي ولكنني لسوء الحظ أضعت في هذا العمل وقتاً طويلاً وجل ما كان قد بقي لي مما كسبته فمالأت صديقاً آخر عَلَى إنشاء مطبعة ولكن برأس مال ضعيف فكانت نتيجة جهادي المضني المضنك

فيها مدة عامين ونصف عام أنني رضيت بتركها لا عليّ ولا ليا متخلياً عن نصيبي من رأس المال سداً للعجز

وعلى أثر تركي المطبعة حررت جريدة عربية يومية مدة خمسة عشر شهراً براتب لم يتقاضَ مثله يوماً كاتب عربي حتى في مصر نفسها ثم تركتها وأنشأت مجلتي « الدليل » الباقية حتى اليوم

مما تقدم يرى القارئ أنني كنت في هذه البلاد مسيّراً لا مخيّراً في كل ما غشيته من صنوف الاعمال وكأنني ما زلت حيث كنت منذ نشأتي باستثناء الاختبار الذي استفدته وهو لا يقاس بالشباب الذي أضعته ، على حد قول المتنبي :

ليت الليالي باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

لي أصدقاء ومريدون عديدون كما أن لي خصوماً محقين ومجانيين لا يحصون وليس عندي لاولئك سوى الشكر ولهؤلاء سوى العذر

هل أفدت شيئاً في محيطي هذا ؟ — لا أعلم . ولكنني على ثقة من أن رصيد حسابي ليس في جانبي !

ولكن هل أنا الشخص الوحيد ، في هذا المحيط او في سواه ، الحانق على زمانه لانه لم يجنِ من ورود الحياة ما يستحق الذكر بالنسبة الى ما جناه من اشواكها ؟ كلا ، بل ان امثالي ومن هم في اسوإ من حالي كثيرون فقد تداعت منذ قدومي الى هذه البلاد مصانع وبيوت تجارية كبيرة عديدة وأصبح جلّ أصحابها في فقر بعد غنى وذلةٍ بعد رفعة وشقاء بعد هناء . لذلك أراني راثياً معزياً لهؤلاء دون ان يداخلني شيء من الحسد للذين والاهم الحظ حتى اليوم ، او يدور في خلدي أن اغبط احداً النعمة المادية التي يتقلب فيها

اما المستقبل فلله وأراني اليوم اوفر الناس شبعاً وريّاً من لذات الحياة

وأقلهم رغبة في اجتنائها . ومن كانت هذه حاله فأنى يبالي بسمت له الدنيا ام عبست . كل ما يهمني وقد وضعت الخمسين بأثقالها حداً لاطاعي أن ترافقني الصحة وتواليني العزيمة لكي أعيش عاملاً مجتهداً اكسب رزقي بعرق جبيني واقوم بأجل واجب علي في هذا الوجود هو تربية وضمان مستقبل صغيرتي سلمى وليلى الى ان يدركني الاجل المحتوم فأنضم الى الاكثرية وانا في اوفى حظ من مسالمة الضمير مع الاستغفار عما جنيت والصفح عن كل من أساء الي .

اما وقد رسمت للقارئ في ما تقدم صورة أدبية مني وأصبح على علم بنشأة وعقلية ومبادئ محدثه فإني مورد له في ما يلي أهم ما يستحق التدوين من حوادث حياتي ومشاهداتي تاركاً له مهمة ولذة استنتاج ما تتضمنه من نقائص وأخطاء ونصائح وعبر :

حوادث حياتي

الحب في الصغر

عندما انظر اليّ وانا في الخمسين ، ولما ابلغ بعد من الحياة وطراً ، اعود بالفكر الى الايام التي كنت اتلمس فيهـا طريقي الى الوجود أو الى الحقيقة ، و.. ابلغ بعد الخامسة ، فلا اجد فرقـاً بين الحدث الذي كنته والرجل الذي يبدو للناس ويخفى عليّ

متلمساً كنت ومتلمسـاً لا أزال ، والتائه في القفر تائه اكان على بعد بضعة أمتار ام بضعة أميال من واحة الرجاء والحياة

كانت فيّ شعلة لا تزال تضيء ، واي فرق بين أن يكون اللهيب صادراً عن أعلى الشمعة او عن أسفلها فالشكل واحد في البداية وفي النهاية والنتيجة واحدة انطفاء كانت ام فناء والمصير واحد أسرع اليه السائر ام ابطأ

لذلك اذا انا استثنيت القابلية السرابية التي تغري ولا تروي فلا فرق عندي بين أن اتكلم عن نفسي اليوم أو في ذلك العهد

كانت زاهيه آية في الجمال ينطبق عليها كل ما ورد في اشعار المتقدمين والمتأخرين من محاسن الوصف وكانت متجاوزة العشرين وانا اتحفز لدخول

الخامسة ومع ذلك احببتها واحبتني وبارك والداها حبنا ورضي عنه الاخوة والجيران ولم يجد احد فيه امراً إدّا

كنت اراها في المنام واشتاقها في اليقظة واغار عليها حتى من ابيها وأمها ، ولم يكن حبي يحتاج الى مقاومة تذكيه أو صدّ يوري زناده كالحب الصغير البخس الذي يقع الشبان في حمأته . كلا إنه كان حبا كبيراً لا يقلل شيئاً من قيمته انني لا اخجل اليوم من ذكره ووصف حوادثه ، او انني كنت فيلاً مخطوباً لا خاطباً لان زاهيه هي التي كانت تناديني من النافذة أو عن السطح وتتحفني بالهدايا التي تصلح لحدث نظيري من اللعب والحلوى وتمسكني للغداء وللعشاء وتكاد تقصيني بتاتاً عن اهلي . وكلما التقينا كان الضم والتقبيل من شأنها لا من شأني وانا اكتفي بأن انعم بتلك الهبات والقبلات

كنت اذا استيقظت لا اتريث عن زيارتها إلا بقدر ما يستوجبه غسل وجهي وتسريح شعري وإلباسي ثيابي وإسعافي بلغة من الطعام ازدردها ازدراداً لان قلبي كان يملأ صدري فيقطع الطريق على شهيتي

فاذا ما انتهت هذه المراسيم التي كنت اؤديها كل صباح كشمس لحريتي انطلقت ولا انطلاق السهم وصعدت الزقاق الوعر الذي كان يفصل في عرفي بين الجحيم والنعيم ودخلت هذا لأنعم بالترحيب من فاتنة لبي

بعد تحية امرأة العم في المطبخ او في غرفة الطعام كانت تقتادني زاهيه الى حضرة والدها وعمي وهو كهل جليل القدر في محياه مزيج من المهابة واللطف قلّ يلفى في منزله إلا مدخناً النارجيلة ومترشفاً القهوة وندر أن لا يرى باشاً مرحباً وعلى الاخص بي

فاذا ما حييت واستقرّ بي المقام اشار الى زاهيه فخرجت وعادت تحمل مكنسة نظيفة هي عودي اقتطع منها قشّة هي ريشتي وآخذ في النقر بكل جدّ وأغني على نغمات تلك الاوتار « المكنسية » اناشيد يطرب لها عمي

ويضحك ملء شدقيه وينتهي بتصفيق الاستحسان الحاد

لذلك كنت آنس الى عمي ولا اخيب رجاءه كلما عنّ له أن يتمتع المنازين من زائريه بعزف وغناء صهره

هذا كان فصل الربيع من حياة ذلك الحب . ولكن لما كان كل شيء في الطبيعة يسير وإن كانت أكثر الاشياء تبدو لأعيننا الحسيرة جامدا فقد ولى ذلك الفصل البديع بأزاهيره ونسماته وعبيره وتفاريد طيوره وجفت دموع فجره وانجلت عن سمائه هاتيك الغمائم البيضاء أو الحمائم التي كانت تبكي بين حين وآخر مع العاشقين وتبلل اجداث الراحلين منهم فتنتشر في الفضاء روائح عطرية هي بقية ما استقطره التراب من عصير القلوب . ولم يكن انحدارها إلا إفساحاً لأشعة الشمس التي تنضج الزروع وترسم على التفاح مثل ورد الخدود

ثم ولى الصيف في إثر الربيع وجاء الخريف بلوافحه الذابلة الميبسة فلم تبق خضرة في الحقول ولا زهر في الرياض وبدأت الاوراق تتناثر جزعاً من زمهرير الشتاء المقبل فعريت الاشجار استعداداً للالتحاف باكفان الشتاء البيضاء .

وشاءت الاقدار أن يحل بزاهيه ما حل بالروض ذبولاً وامتقاعاً فأقبل مع الخريف كهل ودع ربيع الحياة وصيفها فجاء ينشدهما في وجه الوسيم وغصنها اللدن المياد . فأعجب الوالدين لانه كان من أسرة عريقة وذا جاه ومال ولكنه لم يعجب زاهيه لانه لم يكن يملك ما لا تنفتح عيناه النجلاوان إلا له من شباب وصحة ورواء — تريد غصناً يساوق غصنها ميلاً واهتزازاً ويكون له مثل نضرتها ويحمل ما تحمله من زهر وثمر — تريد ثغراً يبتسم لها عن درّ وتتبين فيه ما ينعكس على طرفه منها من محاسن

ولكن هذا هو النصيب والنصيب عجيب لا يتفهم في دفعه الرفض ولا

تلين قلبه القاسي الدموع . ولم تكن زاهيه وحدها فريسة ذلك المصاب بل كنت شريكها فيه امتياء وألماً وقد دافعته معها وطالما مزجت دموعي بدموعها ولكن أخيراً انتهى امري معها بمشاطرتها مرارة الخيبة والفشل

ومرّ الخريف وجاء الشتاء فاكتست فيه زاهيه من أثواب عرسها مثل ما اتحفت به الاشجار العارية من الاكفان وبرغم إلحاحها وكثرة من أوفدتهم اليّ من الرسل ليحملوني اليها مودعاً أبيت مغادرة الزاوية المظلمة التي استنزفت فيها آخر قطرة مما في مآقيّ الصغيرة من الدموع .

جوليا

ومرّت أعوام ثلاثة لنت فيها لحكم الزمان واغتفرت له تلك الزلة لانني استعضت عن زاهيه بجوليا التي لم تكن تقل جمالاً وسحراً ولكن لم يكن لها والد أدعوه عمي وأعزف له وأغني وكان مصاب هذه الحبيبة الجديدة أنها كانت مرموقة من محام كل ما فيه حجة عليه من قصر القامة الى قبح السحنة الى كبر السن ولم تكن له مفخرة سوى بيت رحب قائم عَلَى رأس تلة كان يعجب أمها ويغريها بالتضحية بها ولكن الذي وقاها الوقوع في قبضة ذلك المحامي هو تعقله فقد كان يشترط أن تحبه وأبت هي إلا أن تبغضه . ولكن لبثني لم أجن عليها بتنفيرها من المحامي لانها وقعت أخيراً بواحد من اجلاف الناس الذين لا يحلي مرارة العيش معهم مال ولا جاه

لويز

وكانت المحبوبة الثالثة لويز التي وعدني ابوها وأمها بها عَلَى رغم أنها كانت مخطوبة لمقيم في مهجر سحيق على أن اضخ الماء لري الحديقة وطالما عملت بجد ونشاط صباحاً مساء . وكانت أمها اذا ما لحظت مني إعياء تشدد عزائمي بالوعود الخلابة وانا لا ابخل بآخر ذرة من قواي كرماً لعيون لويز

وكانت لويز قبل هذه الخطبة التي لم تكن تروعني نظراً الى بعد المسافة مخطوبة لشاب من أهل الحسب والنسب فقضت دواعٍ بإلغاء هذه الخطبة ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن لويز كانت ترعى عهد الحبيب الاول وتنفر كل النفور من الخطيب البعيد وربما كان اسفها على ما فات وجزعها مما هو آتٍ هو الذي حملها على الفرار مع ثالث وجدت فيه ضالتها

وهكذا خطبت ثلاثاً قبل أن ابلغ سن الزواج او أدانيها وعلى شدة إخلاصي في الحب لم يكن نصيبي إلا الخيبة التي يشفع بتمرير بها النفس ما نكسبه فو بتها من تمرّس وحكمة

والمغزى هو أننا لا نفرق عن الاطفال بما نملل به النفس من الاماني على عجزنا عن التمتع . وهكذا انفلت منا الفرص فنرتقب سواها الى أن نطفئ ظلمة اللحد مصابيح الرجاء التي تنير طريقنا في هذا الوجود

حبُّ ساعات

الحب قديم ولا يختص بالمتمدنين ! ما هو اسمها وما هي كنيتها ؟ لا اذكر . كل ما أعيه من امرها أنها كانت تشتغل بالخياطة او تصادق فتيات يحترفن هذه المهنة وتساعد أمها في دكان يحتوي اصنافاً بخسة كائن في ضاحية من ضواحي معلقة زحلة تُسمى حوش الامراء

اما أنها كانت جميلة ورقيقة وناعمة وجذّابة فهذا ما لا أشكّ فيه ولا تزال ذكرى مستعذبة منه عالقة في خاطري وفي قلبي برغم كرور عشرات الاعوام لأنني كنت إذ ذاك في الخامسة عشرة او حواليها وقد عرفت هي كيف تنير بذ كائها ذهني وتفتح بيدها الناعمة باب قلبي

لقيتها وقضيت بصحبتها ساعات عذاب قليلة وعدت معها من تلك النزهة الجميلة متأبطاً ساعدها وأوصلتها الى منزلها الساذج راضية وودعتها

آسفةً راجية . وأظن اني زرتهـا بعد ذلك في الدكان مرةً واحدة اذ كان قد بلغني أنهـا تذكر ذلك الاصيل الذي قضينا ساعاته الحلوة معـاً ، وانها اكثرت من التسـآل عني ، ولكنني آثرت فيما بعد مجافاتها مخافةً أن اعلقهـا حتى لا استطيع فراقها ولا سبيل لي الى الاقتران بها لصغر سني وخلو يدي وعجزي عن الكسب

واين لقيتها ؟ في تعنابل عَلَى قارعة الطريق التي يُظلها صفان من شجر الصفصاف يسيجان بساتين اليسوعيين المشهورة بترتيبها واتقانها وجودة أثمارهـا .

لم اكن وحدي بل بصحبة ثلاثة أو اربعة رفاق قصدت واياهم اصيل احدٍ من آحاد الصيف النزهة في هاتيك الجنان عَلَى أن يكون عشاؤُنا هنـاك فابتعنا ما يلزمنا من خبز ولحم وخضر وفاكهة وشراب وركبنا عربةً اقلتنـا الى جوار البساتين ، وحال وصولنا طفقنا نقلب ابصارنا في المروج المحاذيـة انختار لنا فيها مقيلاً نحط فيه رحالنا فنلهو ونلعب ونشرب ونعدُّ طعامنا

وبينما نحن في ذلك اطلَّ علينا سرب من الفتيات بقدر عددنا تتقدمه خياطة كهلة تقيم في الحوش ولبس بيننا من لا يعرفها

وما إن اصبح السرب وزعيمته عَلَى مسافة الصوت منـا حتى بادرنا التحية فرددنا تحيته بأفضل منها وكانت قلوبنا اسبق من السنتنا في الترحيب بالفتيات الحسان . ثم دنت الخياطة مني وسألتني مـاذا نصنع في ذلك المكان فصدقتها خبرنا فما كان منها إلا ان اسرعت الى اغتنام الموقف بـأن عهدت الينا بكل جرأة برفيقاتها مصوِّرةً لنا جمالَ العشرة وفائدتها للفريقين فرضينا ورضيت الفتيات كلَّ الرضى وودعتنا هي وذهبت لشأنها ، وعلمنا بعـد ذلك أن سبب تخليها الشياطين مثلنا عن ذلك السرب الملائكي الذي اؤتمنت عليه كان مردوداً الى رغبتها في تلبية داعي قلبها ، فقد كان لها رفيق بالغ لم تكن

عَلَى موعد واياه وانما هي لقيته صدفة في تلك الانحاء فلم تشأ ان تحرم نفسها لذة مرافقته بضع ساعات في هاتيك المروج والجنان

بقي علينا أن نتملص من تلك الوديعة التي اصبحت عبئاً علينا لخلو ولها دون تتمتها فأنجدتنا الصدفة ايضاً بأن قيضت لها شباناً مثلنا يرون النعيم في ما اصبح جحيمنا وهكذا خلا لنا الجو وانصرفت لشأنها

وما إن خلونا بالفتيات وتبادلنا واياهن الآراء حتى اتفقنا وصحت عزيمتنا عَلَى أن نبلغ شذوره حيث هناك مرج اخضر يشطره مجرى ماء صاف عذب فأوعزنا الى السائق بأن يسبقنا بطعامنا الى ذلك المكان وتأبط كلٌّ منا ذراع الفتاة التي اختارها وآنس منها ميلاً الى مرافقته وسرنا الهوينا متناجين متهامسين بظلال من هاتيك الاشجار المتعانقة الاغصان فوق اخضر بديع حتى بلغنا المرج ولم يكن بعيداً ، وهناك اضطجعنا عَلَى العشب وانبرت فتياتنا لإصلاح الطعام ودارت الكؤوس وطابت المنادمة الى ان نضج اللحم وأعدت التوابل فشمرنا كأننا غدونا عصافير تزقها امهاتها لان فتياتنا تأمرن غنجاً ودلالاً عَلَى ان يطعمننا بأيديهن التحيفة

وكان مشهد زاد في رونقه وبهجته وسحره وسكره أن كان من حضاره اتفاقاً كهل لا تزال في كأسه جرعة وفي قلبه جذوة ولم يكن خالياً من الدعابة لخفة وطرب فزاد في اغتباطنا وارتياحنا إذ راح يقدر بأساليب شائقة رائقة تلك النعمة التي كنا نتقلب فيها ، عَلَى معرفتنا التامة بقيمتها

لقد استثار ذلك المشهد حنينه لايام صباه العذاب ومطارح لهوه وأنسه في زمن الشباب فطفق يطفر وينشد وينثر علينا بأسلوبه الخلاب التهنئات فنحسبها آيات بينات

ودامت بنا الحال عَلَى ذلك المنوال حتى أنارت السماء مصابيحها وراح يتهادى بينها اكبرها وأوفرها سطوعاً وهو سمير العاشقين ملقياً نوره الفضي

عَلَى ذلك المرج والنهر ووجوه الحسان حتى خيل الينا كأن كل ما تقع عليه اعيننا ازداد معنى وبهجة وفتنة

وكنا قد شبعنا وروينا كما تنزهت منا الابصار وفرت الخواطر واغتبطت القلوب فآثرنا العودة عَلَى الاقدام متخطرين في نور القمر متأبطين تارة السواعد وهاصرين حيناً الخصور ومقبلين آناً الثغور

وكان أصيلٌ من نعم الدهر انتهى بمساء دونه طلعة الفجر ، ولم يبقَ عالقاً في ذاكرتي من تلك النزهة البديعة سوى ما ابديت واحى منها تماماً رسم رفاق تلك الرحلة السحرية التي ساقتها الينا الاقدار عَلَى شكل لم يكن في الحسبان فسلامٌ عليها وإن قصرت ساعاتها ودُفنت في لجّ الايام لذاتها

حبٌ عقيم

« والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ احيانا » !

حوالي سنة ١٩٠١ نزلت بحلاقي معلقة زحلة كارثة دهماء حرمتهم مورد رزق لا يُستهان به

جاءتهم تلك الكارثة عَلَى ما اذكر من دمشق بشكل طبيب اسنان قانوني معتدل القامة اسمر اللون يستعين بنظارتين ويرتدي اللباس الافرنجي

ولم يقف عداء هذا الطبيب للحلاقين عندَ حدّ حرمانهم زُبنهم الذين كانوا يقتلعون اسنانهم واضراسهم النخرة لقاء دريهمات قليلة كان يكثرها الرضى بل هو زاد عليه حرمانهم الانتفاع منه ، إلا عَلَى ندرة ، لانه كان مطلقاً لحية سوداء تتخللها بضع شعرات بيضاء ستراً لشوهة في خده الايمن

هذا الطبيب البغيض للحلاقين في ذلك العهد كان يُدعى عبد الله دوبا ، ولكنه في الواقع لا شأن له بروايتي هذه بل انما انا وطأت بحكايته

تخلصاً الى ذكر شقيقة عانس له اسمها ، على ما اذكر ، سعدا وتلقب بالدرويشة لسبب اجهله

لم يكن عبد الله قبيحاً في الرجال ولكن مشابهة اخته سعدا له جعلتها قبيحةً في النساء ولم يقيض لها القدر اعمى باصرة او بصيرة تحوّل نعيمه الى جحيم ويكون ضحيةً عن ابناء جنسه . لذين رأت سعدا أن تحملهم مسؤولية بقائها عانساً فقامت تثير حرباً عواناً عليهم وعلى اللواتي اخترنهم دونها من بنات جنسها وكل سلاحها لسانها الافعواني تشوّه بثرثرته كلّ جمال وتفرّق بين المحبين وتشتت كلّ شمل مجموع . حتى أن الفتى الذي كنته في ذلك العهد لم يسلم من شرها فقد ألهبت صدري وافنقت راحتي كما جعلتني مخزية واحدثت جفوة بين والدي وبيني اياماً عديدة والى القارئ البيان :

كان منذ أعوام قد غادر مدينة زحلة الى احد المهاجر الاميركية رجل أمي ساذج مخلفاً وراءه امرأته وبنتيه الفتيتين فلم يتوفق في مهجره إلا الى اعمال ضئيلة الكسب ولذلك كان موضوع عطف وعناية بعض مواطنيه القادرين علماً منهم بحاجته الى مورد يكفيه ويكفي عيلته التي خلفها في الوطن

واتفق أن مرّ به يوماً بائع اوراق يانصيب فعرض عليه ورقة فأبى ان يشتريها استفظاعاً منه للمجازفة بنصف ريال لم يكن يكسبه في يومه ، ولكن قضت الصدفة بأن يكون على مقربة وسمع منه احد مواطنيه الذين تقدّم ذكرهم فأرغمه على ابتياع تلك الورقة بالصورة الوحيدة الممكنة وهي أنه دفع ثمنها

في اليوم التالي جاء البائع نفسه مبشراً ذلك الساذج المعدم بأن ورقته ربحت اثني عشر الف ريال ، ولكن اذا كانت مفاجئة السرور لاحد شعرائنا قد ابكته فمفاجأة صاحبنا بذلك النبإ السار صعقته وأماتته لساعته فحمله مواطنوه الى لحده وحملوا البريد الى ارملته وبنتيه نعيه والمبلغ الطائل الذي

قدّر له أن لا يتمتع ببال واحد منه

وصل النعيّ والمال الى يديّ الارملة فأصبح وجهها كسماء الربيع يتتالى فيه الاكفهرار والابتسام حتى انتهى امرها بالاستسلام لقضاء الله وبرّت بابنتيها فجعلت لكلٍّ منهما بائنة قدرها خمسمائة ليرة انكليزية

وما ترامى ذلك النبأ الى الاسماع حتى اصبحت تانك البنتان الخاملتان المنبوذتان قبلة الخطاب من خيرة الشبان نسباً وحسباً وعلماً وادباً فاقترن بالكبرى صديق لي من مماقة زحلة من اسرة عريقة ، ومما اذكره من مميزاته أنه كان ضليعاً من اللغة الفرنسوية يمي من مفرداتها ما لا يعيه ابناؤها وبقيت الصغرى ليس لقلة عديد خطابها بل لاتساع مجال التخير لديها ؛ وهذه هي الفتاة التي همت بها ، ولو مالأني والدي لأقدمت على طلب يدها ، ولكنه أبى إجابتي الى سؤلي فظلت لي حتى اليوم عروس الحلم التي لم تقع يوماً عيني عليها

وكان ذلك مني بإغراء سعدا التي لقيتني ذات صباح في دكان عبده القصين الوارد ذكره في هذا الكتاب فعابت عليّ قعودي عن طلب اللذة والثروة في حين أن كليهما في متناول يدي . وعندما ابديت شكاً في قولها وتنصلت من كل اهلية للحصول على النعمة التي تمنيني بها اكدت لي أني شاب باهي المزايا باهر الصفات وان تلك الفتاة التي ظفرت بثروة هبطت عليها من السماء لا يجوز أن تفاخرني بشيء ولا أن تطمع بأفضل مني بعلاً لها

ولصغر عقلي استخلصتها وجاز عليّ أنني في المنزلة التي منحتني اياها بدهائها فسرت لتوي الى البيت وكان الطعام على وشك أن يوضع على الخوان فكاشفت والدي بأمري وأعربت له عن رغبتي الشديدة في الاقتران فأخذ يهدئ ثورتي حيناً ويهزأ بي آخر الى أن صارحني برأيه في مطالبي الجنوني على خلوّي من كل اهلية سناً واستعداداً وكسباً فاستشطت ورفست الارض

وخرجت غاضباً دون أن أتناول طعاماً

ومرّت ايام لم أعد فيها الى البيت ولم أرَ والدي ولكن كان من شأنها أن خفضت من حدتي وأعادت اليّ رشدي فقلت في نفسي يجب على الاقل أن أرى الفتاة اولاً فلعلها لا تعجبني ، ولكنني شعرت بحاجة الى رفيق .

وكان لي صديق حميم اسمه مخايل تامر تحلو لي عشرته ويروقني أن اعتمد على رأيه في كل امر من اموري . ومن مزاياه التي كانت تعجبني لباقته وشدة تأنقه وكان قد سبق له ان أمّ اميركا الشمالية حيث رتع في بحبوحة بفضل أخ له كان قد سبقه اليها وأصاب فيها نجاحاً ولكنه لم يلبث ان طرأ على صحته اعتلال ارغمه على مغادرتها فعاد مصطحباً معه ملابس انيقة تأخذ بمجامع القلوب والابصار وكان شديد الحرص عليها لا يفتر عن تنظيفها بفرشاة لا تفارق جيبه الخلفي كلما علاها الغبار الذي يكثر في المعلقة .

بهذا الصديق استعنت فأبدى منتهى الارتياح لمرافقتي وخدمتي واخذت واياه نغالي اصيل كل احد في تصفيف شعورنا واتقان هندامنا ونسير على الاقدام قاصدين زحلة فنمر مراراً امام منزل حسنائي المحتجبة لعلها تطل من باب او نافذة فأرى وجهها ولو لمحةً ولكن عبثاً مررت وعبثاً احتلت فقد قضت الاقدار بأن لا تقع عيني على الفتاة التي حلمت يوماً بأن اتخذها شريكةً لحياتي

وتكرّرت خيبتي فيئست ، وكرت الايام فتكاثف الستار الذي نسجته يدها بيني وبين حسنائي فنسيت ، وهدأت العاصفة التي أثارتها هذه الدروبة في صدري والتأم الجرح الذي احدثه رفض والدي في قلبي ، ولم يبقَ من هذه الحادثة في ذهني سوى التذكار

والعزُّ في صهواتها

لا أذكر اني ركبت مرةً جواداً إلا سقطت ولكنني لم اتب وظللت حتى الخامسة عشرة أعتقد ان لا عزّ الا في صهوات الجياد

وكان ذلك الاصيل من أبهى آصال الربيع — شمسٌ مشرقة ونسيم بليل واليس في السهول والتلال إلا كلُّ ناضر بسام من عشب ومن زهر وجل اهل الذوق والظرف وعشاق الانس والطرب من مكان زحلة والمعلقة في نيروز في سهل كساره

وخرجت متأبطاً برنساً ابيض لأبي وكلي شوق وحنين لنزهة في ذلك السهل عَلَى صهوة جواد ولكن كان ينقصني رفيق فوجدت لحسن حظي أو سوئه رفيقين ورحنا نفتش عن خيول الاستئجار فلم نجد حتى كدنا نيأس واخيراً وجدنا في احد خانات زحلة نفايةً بقدر عددنا فاستحسنت انا ومالاً ني رفيقاي فركبا الحصانين الآخرين الهزيلين ، وأحدهما رثّ العدة باليها ، وركبت انا حصاني الازرق العبل أختال ببرنسي الابيض ولا اختيالَ امير ببردته القشيبة

ولكن ما سرنا إلا قليلاً حتى ثبت لي أنني استحسنت ذا ورم فتبخر حلمي العذب بالصول والجول في ذلك السهل مستلفتاً الى براعتي في ضروب الفروسية ابصارَ الالوف من المعجبين والحاسدين . وتحققت أن الحصان الهزيل الرثّ العدة الذي احتقرته ورذلته كان يجب أن يكون تحتي لا تحت احد رفيقيّ لانه قوي الشكيمة صعب المراس شديد العدو فقايضت عليه بعد جهاد وخسارة عشر لفافات تبغ وركبته ونزلت السهل فانطلق كالسهم فحسبتني أطير . ولم تكن إلا لحظات حتى طرت فعلاً ولكن ليس الى اعلى بل الى اسفل (وربما بفعل الجاذبية) إذ مرَّ حصاني بخندق يستره العشب فمثر وقلب واستمرَّ في عدوه ولكنه خلاّني طريحاً في الخندق فسرتُ في

المشاهدين هزة بلغ صداهــا مسامعي ولكنني لم أصب بسوء فنهضت دون أن يرثي احد لعمق الخندق ورحت الم شملي وانتزع الاشواك التي علقت ببرنسي وانا لا اجد من مخبئي ذاك مخرجاً خشية التعرض لابصار الجماهير وهزئها .

وهرع رفقاي الي فانتشلاني ولم اسلم مما كنت اخشاه إذ قال احد المشاهدين بصوت مسموع ، وكأنه يعبر عن رأي الجموع : « إنه لم يقع ولكن اصابته عين » !

وغني عن البيان ان ذلك اليوم كان آخر عهدي بركوب الخيل !

في الاسكندرية

كان اعمامي ثلاثة : اسكندر ومنها واندراوس (وتحببا ندره) ، وكلهم مذكورون عندي بالخير لحبهم لي وعطفهم علي . وكان الاول ذا علم وذكاء ودراية جمع ثروة لا يستهان بها ثم أضاع بعضها في معرض شيكاغو والبعض الآخر في مضاربات في صفق الاسكندرية ، واقام اخيراً في هذا الثغر المصري يستثمر الباقي من ثروته في الاتجار بصنفين وحيدين هما الجوخ الانكليزي والتنباك العجمي ويضارب باعتدال وحكمة لكي لا يصح فيه قول احد المفكرين الفرنسويين : « ان من لا يتعرض للربح والخسارة هو جبان او صعلوك » . وكان له علي افضال منها مساعدتي على دخول الكلية للمرة الاولى . اما عمي الثاني منها فأقام معظم حياته في يافا تعلقاً منه بأنسبائه واصدقائه العديدين فيها واشترك وعمي اسكندر في بعض اعمال اهمها القيام على تجربة زراعة التنباك في بلدة تمرا وهي موقع واطئ رديء المناخ فأورثته الاقامة فيها مرض المعدة الذي ظل يقاسي اعراضه المؤلمة المنكدة حتى ادركته الوفاة منذ وقت قصير . وكان الثالث اندراوس شديد التأنق يميل الى

الترف واللهو وكان موظفاً في ادارة السكة الحديدية المصرية في المنيا وقد زرته في مقر وظيفته هذا في غضون العام الاول الذي قضيته في القاهرة واقمت في ضيافته اياماً

بعد مغادرتي الكلية للمرة الاولى ، وكنت في نحو الثالثة او الرابعة عشرة ، نزلت بيروت وعنّ لي ان اغامر فأؤم الاسكندرية لعلي بفضل نفوذ عمي هناك احصل عَلَى عمل يتأهله استعدادي الكبير عَلَى زعمي ، وما لبثت ان نفذت فكرتي هذه دون علم من والدي . ولست انسى كم اخفقت في محاولتي الهرب اذ لم اكن احمل جواز سفر وكم كانت سفرتي حقيرة ومضحكة لقلة ما في يدي من المال . ولكن كل هذا لم يكن بالشيء المذكور امام دهشة عمي عندما رآني فلم يتمالك ان استحمقني وانكر عليّ اقدامي عَلَى ما لم اؤهل له نفسي بأية وسيلة ولكن لما كنت قد وصلت ولم يعد من سبيل الى ردّ ما فات رحب بي واختار لي الانطلاق من قيود مواعيده في المنزل فأحلني نزلاً ارقد فيه ، اذكر ان صاحبه كان المرحوم عزيز جرشان الذي اصبح فيما بعد صديقي الحميم في الخرطوم ، وعين لي مطعماً صاحبه سوري ايضاً اتناول فيه الطعام ، وابرق للحال الى عمي اندراوس في المنيا ، وكان عَلَى وشك مبارحتها في عطلة ، يستقدمه الى الاسكندرية لكي يراني ويقضي عطلته بقربي . ولم يمض يوم او يومان حتى التقيت بعمي اندراوس وقضيت بصحبته اسبوعين حافلين بأسباب التمتع ، وكان خير ما علق في ذاكرتي من حوادث تلك الرحلة تمثيل كامل الجوني ومن الاطايب حلوى «عيش سرايا» التي كنت التهم منها بضعة صحون بعد كل غداء وكل عشاء . وفي الاسكندرية عرفت أن نبات الارضي شوكي اسمه خرشوف وكنت لا اطلبه في بادىء الامر لجهلي ما هو في حين ان اسمه كان يقع دائماً في سمعي لكثرة اقبال الآكلين عليه . فعندما عرفت ان الخرشوف هو الارضي شوكي

الذي كنت أحبه لم يعد يفوتني تناوله كما وجدته مدوناً في لائحة الاطعمة

وعدت من الاسكندرية اوفر ثقة بجهلي وعدم اهليتي للعمل ولكنني تعوضت عن خيبتي مشاهدات واختبارات اطلقت في وصفها لساني اسابيع متعددة على مسمع من « المساكين » الذين لا اعمام ثم سبق الاسكندرية لكي يتمتعوا بنعمة حلولها والعيش فيها بهناءة مدة اسبوعين كاملين !

الامبراطور غليوم

عند قدوم هذا الامبراطور العظيم الى المعلقة سنة ١٨٩٨ بطريقه الى بعلبك كان والدي كاتب بلدية المعلقة وقد عهد اليه بتزيين البلدة وكنت انا يده اليمنى في إعداد الاعلام الالمانية والعثمانية ورفعها على كل السطوح واقامة اقواس النصر المزدانة بالاغصان والازهار واطلاق الاسهم النارية ليلاً . وبالحقيقة ان المعلقة لبست من تلك المظاهر الخلابة حلة تليق بعاصمة وقد تنازل الامبراطور فأبدى ارتياحه لذلك المشهد البديع ولكنه لسوء حظي ظلّ جاهلاً قدر جهادي في ذلك السبيل وكانت كل مكافأتي مفخرتي امام اترابي بالنصيب الذي قمت به من ذلك المظهر الترحيبي بجلالة حليف مولانا السلطان ! ولم اكن انا الابله الوحيد بل كان لي شركاء . فاقوني بمراحل في تقديم المحرقات وعبادة الاصنام . من ذلك أن الوجيه المثري اسكندر كحيل توصل الى نظرة عطف من جلالة العاهلين بمظهر لا بأس به هو أنه اختار اثنتي عشرة فتاة من اجمل فتيات المعلقة واوفرهن ادباً وتهذيباً والبسهن من جيبه الخاص اثواباً صوفية بيضاء مخططة الصدور بشرائط حريرية تمثل العلم الالماني وحملهن باقات الزهر البديعة فقدمنها للامبراطورة وألقت احداهن خطاباً ترحيبياً امام جلالتها . وهناك بعض الفرسان

الزحليين والبعلبكيين الذين ساروا في ركاب جلالة الامبراطور واظهروا أمامه من ضروب الفروسية ما أعجبه فكان نصيب بعضهم انهم سلبوا ما كان يزين صدور خيلهم من الحلى الفضية لقاء نظرة استحسان من جلالته او رسمه الكريم . وفي دمشق فرشت له الطرق وزينت واجهات المنازل بالطنافس العجمية النادرة فذهب اجملها واثمنها قربة استحسانه العالي

في دمشق

عرفت دمشق حوالي سنة ١٩٠١ إذ امتهنا بصحبة والدي لحضور زفاف شقيقتي اسما التي كانت تعلم في المدرسة الروسية فيها الى صهري عزيزي فندلفت وكان قد زارنا قبلاً في المعلقة طالباً يدها وكان المانع الوحيد لإجابة طلبه بعد الشقة إذ كان مقره في مدينة مندلي من اعمال بورما احدى مقاطعات الهند الصينية حيث كان يشتغل بتسوق الياقوت لمحل انسبائه له في باريس ، ولكن « النصيب » كان اغلب وكنت انا راضياً ولكن عندما ازف موعد الإكليل منعني حضوره تهطال دموعي على فراق شقيقتي الوحيدة وعبثاً حاول الكثيرون استرضائي وتهوين الفراق علي . ولكن باستثناء هذه النوبة اغتبطت اقامتي القصيرة في دمشق ولا تزال عالقةً في ذهني ذكرى هاتيك الايام الخمسة التي قضيتها في عاصمة الامويين متمتعاً بلطف الدمشقيين النادر وسحر حورهم وخفة روحهم واناقة دورهم وليالي أنسهم ولطافة معابثاتهم ولهوهم في منتزهاتهم ، وكان خير ما نعمت به سيران أقيم لنا في الصوفانية

الثورة على الطعام

لم يكن ماك سويني محافظ كورك ولا غاندي مسيح الهند اول من توسل بالاضراب عن الطعام لتأييد مطلب عادل وارهاباً للمستبدين بل كنت انا ونفراً من رفاقي في الكلية في عهد المرحوم الدكتور هوورد بلس . على ان الفرق بيننا

وبين هذين السجنين ان إضرابنا لم يتجاوز بضع ساعات ولم نستغن الا عن علقة واحدة

كان طعام الكلية في معظم ايام الاسبوع رديئاً ويزيده رداءة حرص المتعهد وكان رجلاً ربعة ممتلئ الجسم يدعى امينا فلا يقدم الا نفايه الاسواق من كل انواع المأكولات فننصرف الى أكل الزيتون دون سواه فيأتي منه بأسوإ الانواع فنملأ الصحون بالبزر ونصب فيها الطعام الرديء فيأمر الخدم بإعادة ما فيها على علاته الى الخوابي

وكان يشدد علينا الرقابة لكي لا نسرق الخبز فنأكله في قاعات النوم عما نختزنه من الأدام فثرنا مرة عليه وأبينا الدخول الى قاعة المائدة ، ونمى خبر الإضراب الى الرئيس فأعلن أنه قادم لتناول الطعام على مائدتنا فأخذ البعض بهذا التنازل ولكنني ورفاقاً لي أصررنا على الاضراب علماً منا أن الغداء في ذلك اليوم كان « مجدره » وهي اكلة لا بأس بها ، وعلى فرض انها كانت رديئة فاستساغة الرئيس اياها مرة واحدة أهون من أن تهون علينا التضحية بذوقنا ولذتنا معظم العام

ولكن ثورتنا لم تكن خاسرة بل هي قضت على امين بإحسان معاملتنا وأصبحنا نستعيض عن لذة الطعام بلذة الإيثار منه

عام في مصر

كنت في نحو العشرين من عمري عندما وطئت رجلاي للمرة الاولى في حياتي ارض مصر القاهرة في أصيل سنة ١٩٠٣ ، وكانت هذه السنة سنة شؤم على الذين أموا مصر من السوريين طلباً للاستخدام ورأسمالهم من العلم والاختبار يكاد لا يذكر ، ورأسمالهم المادي « عثوة بدوي » . ولكن هناك رأسمال يفوق الاول مكانة وقوامه كتب التوصية الى بعض المتنفذين من بعض اصدقائهم

او اقاربهم في سوريا أو في مصر ويكاد يكون تعويذة لا افعل منها في الحصول عَلَى وظيفة مهما كان حاملها قاصراً علماً واختباراً وادباً

وكنت اذ ذاك عَلَى جانب عظيم من الاعتداد بالنفس وعندي من نزق الشباب الشيء الكثير ، وكنت اعتقد ان امر حصولي عَلَى وظيفة تليق بي وتعجبني موكول لارادتي لذلك قضيت عدة اسابيع في التجوال للتفرج عَلَى معالم مصر وشوارعها ومتنزهاتها غير حاسب للغد حساباً بينما كان بعض انسبائي واصدقائي يسعون وراء وظيفة تليق بي وان لا ارى للعجلة موجباً

محل كافري

كنا ذات ليلة ساهرين في بيت احد الانسباء واذ بأحدهم اتى ببشارة خير انبسطت لها الاسرة وهي انه تمكن من ايجاد مركز لي في محل انكليزي كائن في شارع قصر النيل ، وهو اهم شوارع مصر ، يبيع المأكولات عَلَى اختلاف انواعها وان احد أصحاب المحل تلطف بقبولي كتمرن دون شرط او قيد براتب بعينه هو وتتوقف قيمته عَلَى ما يراه من اهليتي ، وهكذا اخذ الواحد يغبطني والآخر يحدثني عَلَى المستقبل الباهر الذي سيكون لي في هذا المحل

في اليوم التالي دخلت الى المحل وفي يدي كتاب يعرفني الى احد اصحابه ومديريه ، وكان مالطياً . فاستقبلني استقبالاً انكليزياً واجلسني الى منضدة عليها الحسابات الشهرية واعطاني رزمة غلافات بيضاء وغلافاً عليه عنوان كنموذج أتبعه في كتابة العنوانات المختلفة الا انه لم يقل لي ذلك . ولهذا عندما عاد ليرى ما اذا كنت قد انجزت العنوانات رأى اني قد دونت العنوان نفسه عَلَى عشرات الغلافات وفي نفسي عزم عَلَى الاستمرار حتى لا اترك غلافاً ابيض الا واعنونه بحسب النموذج . عند ذلك تحوّر حالة المستر كافري واكفهر معه ! اما انا فاعتقدت أنه هو المذنب وبرهنت له ان

خسارة الوقت والغلافات وهمية ما دمنا قادرين ان نحفظ الغلافات ونرسلها الى صاحب الامم تباعاً عند اللزوم ! وهو « انفاق » جداً من اعتباري اياه مذنباً ولكنه « انفاق » بالاكثر من اقتراحي وكتم غيظه

في اليوم التالي لهذه الحزرة قال لي المستر كافري بعد أن جاءت الى المنضدة واخذت استعد لأربه آية جديدة من آيات براعتي إن احد المستخدمين المولجين بالبيع منحرف المزاج وسألني ان اقوم مقامه ريثما يبل فكانت حجتي انني لم ادخل في خدمته للبيع بل ... لكتابة العنوانات ... الخ ... فقال إن كلامي في محله ولكن للضرورة احكاماً وان الخدمة الجديدة موقتة الى غير ذلك فامتثلت له وخرجت الى محل البضائع للبيع

بالطبع لم اكن اعرف شيئاً من اسماء البضائع ولا اماكن وجودها لذلك كلف المستر كافري احد المستخدمين السوريين ان يدلني عليها في اوقات الفراغ فأعطاني هذا قائمة مطبوعة بأسمائها واثمانها واخذ من وقت الى آخر يهديني الى مكان بعض الاصناف

كان المستخدمون يبيعون ما دام في المحل زبائن ولكن عندما لم يكن لهم ما يعملونه كانوا يجتمعون في ناحية واحدة قريبة من قسم الحلويات وكان كل واحد يقترب بدوره من هذا القسم فيتناول قطعة مما يحلو له ويعود الى الجماعة فيشاركهم في الحديث والضحك وهو يتمطظ بتلك القطعة . عندما شاهدت هذا منهم اعترضت عليهم بكل شدة وافهمتهم اني مستعد لرفع الامر الى رئيس المحل فامتنعوا عن الاكل ولكن المستخدم السوري (وكان ناصرياً) اخذ منذ ذلك الوقت يقنعني بان وجود شاب « ذكي وافر الاستعداد » مثلي في ذلك المحل حرام لان المستقبل هناك مظلم ومثل لي على ذلك بحالته هو فانه بعد ان خدم ست سنوات بلغ مرتبه ست ليرات انكليزية . ولم يكتف بذكر الذكاء بل تطرق منه الى اللغات والعلوم

واخـابات حتى هاج كل عاطفـة في صدري ضد الخل وهكذا تركته في اليوم التالي ·

امـا الحجة التي استندت اليها فكانت ان المستر كافري رآني اكثر النهار دون عمـل يذكر فاقترح عليّ أن انظف وارتب بعض زجاجات المشروبات فاستشطت غضباً وقلت له انني تنازلت كرماً للبيع فما انا بمتنازل الى درجـة منظف · وذلك بعد أن قبضت عَلَى « منفضة » الريش التي كان قد سلمني اياها عكساً وأريته انني مستعد للبطش بـه اذا تكلم واختتمت كلامي بجملة تحقيرية لمحـل كافري وشركاه وطرحت سلاحي عَلَى الارض ومضيت ·

في مدرسة اليهود

بعد أن تركت محـل كافري عدت الى نفسي فرأيت ان مسألة العنوانات كانت فظيعة جداً ولم اجد ما يبررهـا ، لذلك حكمت عَلَى نفسي بالقصور والتسرع فانقطعت الى الدرس والتنقيب مـدة شهرين كاملين لم اكن ازور فيهما البلدة الا نادراً

في احد الايام التقيت بصديق قديم كان يعطي دروساً في اللغة الانكليزية في مدرستين لليهود ، الواحدة للذكور من اولاد الفقراء ومركزها في حارة اليهود ذات الازقـة الضيقة المتعرجة القذرة ، والثـانية للذكور والاناث من الاغنيـاء ومركزها في نقطة جميلة من البلدة بقرب شارع الموسكي · فسألني هذا الصديق عن احوالي فأخبرته عنها بالتفصيل فقال لي « تعال وخذ مركزي موقتاً الى أن يتيسر لك عمل افضل لانني توفقت الى مركز في حكومة السودان وسأشتغل موقتاً في مصر ريثما يصدر لي الامر بالسفر الى الخرطوم » فكان جوابي القبول وهكذا قدمني صديقي الى مدير

المدارس اليهودية عَلَى الطريقة الشرقية فكان فرح هذا عظيماً جداً اذ تيسر له ان يستخدم فيلسوفاً اخنى عليه الدهر بمرتب اخنى عليه الدهر أيضاً ، واتفق معي عَلَى العمل قبل الظهر في مدرسة الفقراء مدة قصيرة يستوثق فيها من كفاءتي لتدريس اللغة الانكليزية ومن ثم يستخدمني بعد الظهر في مدرسة الاغنياء ويرفع مرتبي ويعلي منزلتي الى غير ذلك

في صباح اليوم التالي توجهت برفقة المسيو صميخ الى حارة اليهود حيث القذارة متفشية في الازقة وعلى الحيطان وفي الحوانيت وعَلَى وجوه وثياب المارة الذين يكثر بينهم العميان والعور والعرج . وفي حارة اليهود ينطقون بكل لسان بحيث يشعر الداخل اليها كأنه في مصر واسبانيا والبرتوغال وروسيا وتركيا وفرنسا وانكلترا في وقت معاً

بعد طلعات ونزلات والتفات وصدمات واشمئزازات واعتذارات ولعنات بكل اللغات وصلنا الى المدرسة فاستقبلنا الحاخام ناحوم بلحيته الطويلة وهو متأبط قضيباً لطيف الشكل خشن الفعل فعرّفني الرئيس اليه وبعدئذٍ دخلنا جميعاً الى غرفة الدرس فعرفني الحاخام الى التلامذة وأفهمهم دون أن يعرف عني شيئاً انني شديد البطش عدو الشفقة عزيمتي ماضية وضربتي قاضية فحصل سكوت عميق سُمعت فيه نبضات القلوب وارتسمت فيه عَلَى كل محيا امائر الجزع . عند ذلك رأى الرئيس ان مهمته قد انقضت فودع وانصرف ، وبعد أن شيعه الحاخام ناحوم حتى الباب عاد اليّ وطلب مني مبكارة ثم ابتدرني بالحديث الآتي :

— اعلم يا صاح انك هنا بين قوم جهلة لئام غاشمين ، هم الاساتذة ، وشياطين ادنياء الاصول قساة الجلود والقلوب ، هم التلامذة ، فكن تملقاً مع اولئك وأسداً مع هؤلاء تصرف المدة القصيرة التي ستقضيها بيننا بسلام

— اقول لك « المدة القصيرة » لانني ادرّس في هذه المدرسة منذ عهد بعيد

وقد لحظت ان كل الذين شغلوا مكانك رحلوا عنا بعد مدة قصيرة ليشغلوا مراكز حسنة في الحكومة السودانية ، ذلك لانهم كانوا يشعرون هنا بضيق شديد يقوّي عزائمهم للحصول عَلَى عمل آخر في محيط انظف مادياً وادبياً ، واني مبشرك منذ اليوم بأنك تاركنا لا محالة بعد اشهر تُعدّ عَلَى أصابع اليد الواحدة .

عندما قال الحاخام ناحوم هذا كان قد احرق السيكارة الى آخرها فطلب غيرها ، ولولا اشمئزازه من الاقذار واخلاق المحيط السافلة لمددته منحطاً لان مؤونتي من السكاير لم تكن لتكفيه لسرد حكاية واحدة طويلة

بعد أن اشعل الحاخام ناحوم السيكارة الثانيـة « واستمخ » عرض عليّ ان يعرّفني الى « تيس » هو استاذ اللغة العربية في المدرسة ولكنه عَلَى رأي الحاخام ناحوم يجهل اللغة الى حد انه اذا جاز تعيينه استاذاً للغة العربية جاز ايضاً تعيينه استاذاً للغة العبرانية !

قابلنا المعلم ميخائيل فاذا هو في الثلاثين من عمره ، قصير القامة ممتلئ الجسم حسن الهندام ولكن وجهه لا يخلو من دلائل البلاهة ، فرحب بنـا كثيراً وأظهر ارتياحاً عظيماً لتعييني مدرساً بقربه واخذ ينتقل من موضوع الى موضوع كمن اصابته جنة . ثم عرفني الحاخام الى آخر فآخر من المدرسين الى أن التقى العقربان عند الساعة الثانية عشرة فانصرفنا وكان اليوم الاول يوم مقابلات وتعريف لم يستفد فيه تلامذتي شيئـاً سوى كونهم صرفوا الوقت في اللعب ، وهكذا حدث لتلامذة الحاخام ناحوم الذي لم يتركني حتى كانت علبة سكايري قد نظفت تماماً فطرحتها آسفاً ومضيت

قضيت في مدرسة الذكور مدة شهرين كنت القي فيهـا دروسي عَلَى الحيطان لان التلامذة كانوا كما وصفهم الحاخام ناحوم غليظي العقول والقلوب ، مع ذلك استدعاني المدير في احد الايام اليه وأعرب لي عن شكره وامتنانه

لما ابديته من دلائل الاعتناء بالتلامذة ورجا مني أن أدرّس في المدرسة العالية بعد الظهر فقبلت شاكراً

في اليوم التالي أممت المدرسة العليا لاستلام الصفوف الجديدة فأدخلت الى غرفة ملأى بالاوانس الناعسات الاجفان السمهوريات القدود الورديات الخدود وهناك استقبلتني معلمة مولجة بحفظ النظام وطفقت تحدثني عن مناقب المعلم فارس نصار ذاكرةً لطفه ورقته وعنايته حتى كادت ساعة الدرس تنصرم فقلت لها وقد استشففت من حديثها أن صديقي فارساً كان فارس غزل لا فارس تعليم :

— إن فارساً صديقي وهو ذكيٌّ ابيّ ذو ذوق دقيق فهو يطمع فيما بالابقاء عَلَى ذكره في هذا الفردوس الارضي . ولما كان الامر قد أُلقي في يده ليختار خلفاً له فهيهات أن يقيم مكانه شخصاً أوتي مثلَ مواهبه فيمحو ذكراه المستعذبة من هذه المخيلات اللطيفة ويحل مكانه من هذه القلوب الحالمة

فاستأنست بهذه المقدمة وتوردّ خدّاها خجلاً وارادت أن تخفي استحياءها فأشارت ببدء الدرس فتلوت في اللائحة التي كانت قد سلمتني اياها اسم احدى التلميذات فلم اعلم من هي المقصودة لانها لم تقف . فسألت المعلمة من تكون فأشارت اليها فسألتها أن تقف فأبت بحجة الاستحياء فألححت عليها فنهضت مُكرهة متثاقلة متلوية كأنها تقوم بحمل لا تقوى عَلَى رفعه فاستنتجت أن المعلم فارس كان يسمح للفتيات بتلاوة مثالهن جالسات فاستنكرت ذلك وأصررت عَلَى إدخال نظامي الجديد

ووقفت الفتاة خجلة واجمة فسألتها أن تقرأ ففعلت بصوت خافت فاستنبرتها فأبت وجلست كما وقفت فأنبتها بكلمات قاسية خيبت ظن المعلمة واثبتت لها انني لست « فارس » ذلك الميدان

في ذلك اليوم عينه علم المدير أن المعلم الجديد قاسي القلب يعامل

التلميذات كأنه يعامل تلامذة ، لا يشفع عنده جمال ولا رقة ولا دلال ، وفي رأيه الفطير ان التلميذات لا يصلحن الا للصالونات

اقترح عليّ المدير الناهل ليس فقط لكون تلميذاتي من الجنس اللطيف بل لكونهن ايضاً مثريات ويتفحن المدرسة بقدر عظيم من المال ، وانني في مقابل تساهلي عليهن يمكنني ان اسكب جام غضبي على الذكور الفقراء وارسلهم الى عالم البقاء اذا شئت ، ولكنني في ذلك الحين رفضت كل الرفض وتركت المسيو سميخ مندهشاً كل الاندهاش

منذ ذلك الحين اخذت اسعى للحصول على وظيفة في حكومة السودان وما هي الا ايام حتى اخبرني احد اصدقائي في دائرة المالية ان هناك وظيفة لامين صندوق في الخرطوم فرغبت فيها لعدم وجود سواها

بعد الفحص وُجد أن المستحقين للوظيفة اثنان اولهما العبد الفقير وثانيهما رجل قبطي اقل من عبد واقل من فقير لانه كان يصحب كتاب توصية من قس اميركي الى سعيد باشا شقير (بك في ذلك الحين) فيه يقول القس المحترم ان حامله في حاجة الى وظيفة مهما كان مرتبها وانه مستعد للسفر ليس فقط الى السودان بل الى القطب الشمالي اذا اقتضى الحال

قال صديقي : « الوظيفة لك اذا شئت » فقلت له انني افضل التنازل عنها لمزاحمي لانه ليس ممن تجوز مزاحمتهم وهكذا تعين للوظيفة ساير المصريين القدماء . ولانه فقير وتاعس عُين له مرتب يليق بفقره وتعاسته فكان على ما اذكر خمسة جنيهات مع أن الميزانية تجيز اعطاءه حتى تسعة . بقي عليه ان يقدم ضماناً على ثلاثة آلاف جنيه ولكن شركة الضمان ابت ضمانه لكونها اكتشفت نقطة سوداء في تاريخ حياته حاول هو كتمانها . لذلك عادت الوظيفة اليّ دون مزاحمة فقبلتها ولكن بمرتب تسعة جنيهات لانني لم اذكر القطب الشمالي . وفي مدة اسبوعين او ثلاثة قدّمت الضمان

اللازم وعين لي يوم السفر الى السودان

بعد أن اتممت كل شيء جئت المسيو سميخ مودعاً فاستاء كثيراً وقال إنه لم يقطع بعد الامل من توبة الخلاف بيني وبين صف الجنس اللطيف وانه متى توفق الى ذلك ضمن لي مستقبلاً زاهراً ، وإنه بينما هو مستاء لوقوع الخلاف فهو يحترمني كثيراً ولا يرضى عني بديلاً ، وابن المعيشة في مصر من المعيشة في السودان بلاد الرمال والشمس المحرقة . ولكن كل اقوال المسيو سميخ ذهبت ادراج الرياح وهكذا ودعته غير آسف وودعني آسفاً .

بعد ذلك ذهبت لتوديع الحاخام ناحوم فأعرب لي عن استيائه من الفراق ولكنه هنأني لتخلصي من حارة اليهود ومن فيها واذكرني بنبوئته فشكرته كثيراً وقدمت له علبة سكاير كتذكار فضحك وقال « انا لا اطمع منك بتذكار يدوم لانك لم تجد بيننا الا كل ما يستحق النسيان ولذلك يهمك ان لا اذكرك لكي لا اقيد نفسك بواجب تذكري » فأعجبني ذكاؤه كثيراً وانصرفت آسفاً لفراقه

ولم انس ان اودع المعلم ميخائيل الذي ادخل في خطبته الوداعية لي طائفة من الالفاظ الفلكية كالشموس والاقمار والكواكب والنجوم بهرت نظري واغلقت فكري عن فهم عباراته

تدريس وطبيخ

قبل أن يسافر صديقي عفيف فريحه الى الخرطوم بوقت قصير كان قد أمَّ القاهرة والده يوسف (ابو امين) لكي يتفقد شؤون ولديه ويفتش له فيها عن مورد كسب فسررت بقدومه كثيراً وكنت أقضي جلَّ اوقات فراغي بصحبته وكان صهري عَلَيَّ وشك الارتحال الى بلجكا حيث طابت له الاقامة

سنوات عديدة قبل سفره الى الهند فأخذت افكر في افضل وسيلة أعيش بها بكسبي الزهيد وهو جنيهان في الشهر علّي فرض أنني لا اتوفق الى زيادته ، دون أن امدّ يدي الى وفري الزهيد الذي كان مودعاً في صندوق التوفير أو احتاج الى عمي في الاسكندرية او أيٍّ سواه من انسبائي ومعارفي فتوصلت وصديقي ابا امين الى حلّ مرضٍ هو مشاركة امين في غرفته في المنزل الذي كان يسكنه هو ووالده والصديق فارس نصار الذي كان لا يزال في مصر ، وهو كناية عن ثلاث غرف سطحية قائمة علّي بناء مؤلف من اربعة ادوار موقعه في حي بجوار الفجالة يُدعى بركة الرطل

ورغبةً في زيادة الاقتصاد قرّرنا أن نطهي في البيت واكون انا الطاهي علّي أن يُعدّ ابو امين كل شيء قبل عودتي من مدرسة اليهود التي كنت أغادرها عند الظهر تماماً واركب قدميّ فابلغ المنزل في نصف ساعة . وكان امين يفسح لنا المجال فلا يبلغ المنزل الا حوالي الساعة الثالثة لانه كان يركب من دائرة الحربية المطية عينها

كنت أتأبط كتابي وأقصد صباحاً الى المدرسة مفضلاً السير في الشوارع الجاري فيها الهدم والبناء تمتعاً مني برأي العمران ومراقبة نموّ الابنية الحديثة ، وهذه خلة لم تفارقني حتى اليوم . فاذا بلغت شارعاً لا حركة بنائية فيه فتحت كتابي وسرت مطالعاً ، وعلّي هذا الشكل عينه كنت أعود . فاذا ما بلغت المنزل وجدت النار موقدة والمواعين نظيفة والخضرة مقلمة فأشمر عن ساعديّ وأتحوّل الى طاهٍ فانوفي يجيد إصلاح الطعام ، وكنا فعلاً نتناول افضل المآكل بأبخس الاثمان وقد دعونا مرةً صديقاً حمياً أمّ مصر فتغدى معنا واقسم انه لم يذق يوماً طعاماً ازكى نكهةً والذّ طعماً .

وكنا اذا ما تغدينا تمددنا او طالعنا او كتبنا حتى الساعة الخامسة

إذ اخرج واميناً للنزهة عَلَى نزعة المباصية فلا نعود إلا نحو الساعة السابعة مارّين في شارع الفجالة حيث تكثر القهوات فنتشاور في امر تناول فنجان قهوة عطوي ولكن مشاورتنا كانت عادةً تطول فلا نشعر إلا وقد بلغنا باب الدور السفلي وبدأنا التوغل في هاتيك الادراج الاربعة لبلوغ منزلنا السماوي .

والذي يتغدى بين الثالثة والرابعة لا يحتاج الى عشاء فكنا نطالع أو نتحدث حتى الساعة التاسعة وننام لنبكر الى اشغالنا ، وكان يشذّ عنا طبعاً صديقنا فارس نصار الذي لم يكن شريكنا إلا في النوم

أما نفقات الشخص الواحد للمحافظين عَلَى هذا المساق الاقتصادي الفلسفي وهم ابو امين وامين وانا فقد كانت لا تتجاوز مئة غرش مصري . ينتج عن ذلك أنه كان يفيض معي من مرتبي الزهيد مئة غرش كاملة كنت استخدمها كما يلي :

في صباح كل يوم أضع في جيب خاص غرشين للقهوة والسكاير ولكنني كنت استغني عن القهوة فيبقى في جيبي غرش كامل يومياً وفي نهاية الاسبوع يجتمع لي ثمانية غروش كاملة العدة فألبس عصر الاحد افضل بدلة عندي واسير قاصداً السباندربار واجلس على الرصيف منزهاً طرفي في المارة واشتري بغرشين علبة سكاير جنا كليس وبغرشين آخرين مقداراً من الفستق المملح وبأربعة كأسين كبيرين من الجعة واعود الى المنزل الساعة التاسعة فيبتسم لي ابو امين ابتسامة معنوية ويؤكد لي انني « خبصت » وأضعت ثروتي الاسبوعية المقتصدة فأعتذر بطيش الشباب ويصفح هو عني بابتسامة عريضة !

هذه الحياة الاقتصادية الفلسفية لم تدم سوى شهر واحد أمت بعده الخرطوم وقد أسفت عَلَى انقضائها كثيراً . أما الاربعون غرشاً الباقية فقد

ابتهمت بها قاموساً أردت الاحتفاظ به كتذكار لذلك الحادث التاريخي الذي كنت انظر اليه كعمل كبير من أعمال الحكمة والبطولة ولكن لسوء الحظ امتدت اليه يد حالت دون احتفاظي به حتى اليوم

صبيان دون بنات

في احد الايام كاشفني ابو أمين بأمر عمل ينتظر من ورائه ثروة طائلة قوامه هداية الناس الى طريقة تضمن لهم انجاب الذكور بدلاً من الاناث ولكنه يحتاج الى تذبيع في الجرائد لذلك كان لا بد له من الاعتماد عليّ فكان جوابي هادماً لآماله اذ اظهرت له وجه الخطإ والضرر في مسعاه ولحسن حظ الانسانية شفيته من دعواه وعزيته عن فشل خطته المقوضة لاركان المجتمع

هكذا كان ختام العام الذي قضيته في القاهرة وانه لعام اذكره على الغالب بالخير .

عشرة اعوام في السودان

بين مصر والخرطوم

اربعة مراحل : الاولى

من مصر الى الاقصر (مدينة قديمة مشهورة بآثارها التاريخية) يقطعها القطار السريع في مدة ١٤ ساعة . الثانية من الاقصر الى اصوان يقطعها قطار بطيء على خط ضيق في مدة ٧ ساعات . الثالثة من اصوان الى حلفا تقطعها باخرة صغيرة تسير في النيل في مدة ٤٨ ساعة . والرابعة من حلفا الى الخرطوم يقطعها القطار في مدة ٣٦ ساعة . والسفر بين الاقصر واصوان مزعج للغاية لان المركبات ضيقة والحر شديد والغبار كثير ، وأفضل المراحل المرحلة النهرية فعلى الضفة اليسرى سلسلة من السواقي وأشجار النخيل واكواخ البرابرة لا تمل مرآها الطرف وعلى الضفة اليمنى تلال صخرية رملية السفوح ،

وبين الصخور بعض الاكواخ يبتنيها اغنياء البرابرة كمصايف . والسفوح الرملية منجم للكسالى ومستحقي الراحة من سكان الضفة اليسرى يؤمونها مع نسائهم وأطفالهم وهناك يتوسد الكبار الرمال في ظل الصخور ويبني الصغار من الرمال البيوت ويفتحون فيها المجاري . والمسافر في الباخرة يسمع من الجانب الواحد نغمات السواقي واصوات المحاريث والمعاول ومن الجانب الآخر احاديث المتنزهين وقهقهة الاولاد اللاعبين . يرى على الجانب الواحد صورة العمل والجد وعلى الجانب الآخر صورة الكسل واللهو ، والمنظران من أجمل ما تقع عليه العيون . كل هذا والباخرة دائبة على السير لاهية بعملها عما حولها والنسيم يهب بلطف فينعش الابدان وينسي المسافر كونه في السودان . وهذه المناظر في نور القمر الضئيل الطف منها في نور الشمس الساطع .

السفر

عند الساعة الثامنة من مساء العشرين من شهر تموز سنة ١٩٠٤ ركبت القطار قاصداً اصوان وانا كالتائه لا أرى إلا كل جديد من كل ما تقع عليه عيناي فلا منظر مألوف ولا علم بالاوقات ولا المسافات ولا صديق ابدي له اشمئزازي او ارتياحي ، لذلك كان سفري من مصر الى حلفا حلماً من الاحلام

في صباح اليوم التالي لوصولي ارتديت احسن ما عندي من الثياب وذهبت الى ادارة المالية لكي « اقدم نفسي » حسب الاصطلاح وهناك وجدت أن رئيس الكتاب متحل « بحلة الحسن » الموروثة الى درجة القباحة وجسمه قذر ولبسه زري . استقبلني هذا فسلمته أوراق تعييني التي اخذ يفحصها كأنه يحاول ان يلتهمها ببصره وبين فترة واخرى يحدجني باستغراب كلي . اما سر استغرابه كما علمت فيما بعد فهو انه لم ير عمره

صرافاً (خازناً) مثلي حسن البزة لان وظيفة امين صندوق او « صرّاف » حسب اصطلاحهم ، كانت بحكم وظيفة زربة

السودان السودان ، وأعني به السودان الانكليزي ، المصري ، بلاد مترامية الاطراف يحدها شمالاً القطر المصري وشرقاً البحر الاحمر والارتريا الطليانية وبلاد الحبشة وجنوباً افريقيا الانكليزية الشرقية والكونغو البلجكية وغرباً جزء من صحراء ليبيا والسودان الفرنسوي . في هذه البلاد قضيت عشر سنين او زهرة الشباب وفيها تعلمت اشياء كثيرة كنت اجهلها ونسيت اشياء كثيرة كنت اعرفها ، فلها عندي حسنات است انكرها ولها سيئات اغتفرها لان حسناتها عندي كانت اكثر من سيئاتها . امتها صبياً غرّاً وخرجت منها — لا صبياً ولا غرّاً

الخرطوم الخرطوم عاصمة السودان وهي واقعة في زاوية مثلث من الارض يسمى الجزيرة لوقوعه بين النيلين الابيض والازرق ، يجري الاول من بحيرة فكتوريا نيانزا وينضم اليه في سيره انهار عديدة وتُسمى في مصر والسودان ابحاراً اشهرها بحر الزراف وبحر العرب وبحر الغزال وبحر سوبات ، ويجري الثاني من جبال الحبشة وينضم اليه بحر الدندر وبحر الرهد ، ويلتقي الاثنان عند زاوية الجزيرة فيؤلفان بحيرة يسميها السودانيون « مقرن » وهي بحيرة اشتهرت بكون نصف مياهها ابيض اللون والنصف الآخر ازرقه ولا مشاحة في كون منظرها من اجمل المناظر . مياه النيل الابيض بيضاء اللون وهو يجري ببطء ويبلغ عرضه في بعض الاماكن الميل والميلين ، على الاخص في ايام الفيضان ، أما النيل الازرق فمياهه زرقاء اللون وهو سريع الجري يلتقي بالابيض

فيدفعه الى مسافة قريبة من ضفته الغربية وقد وصفها احد الشعراء احسن وصف بقوله :

كأنّ امرءاً غضّ الشباب نشيطه
على موعدٍ مع عبلةِ الجسمِ مكسالِ

اما الخرطوم فبلدة جميلة وجهها الى النيل الازرق المشهور بعذوبة مائه حتى ليقال انها افضل مياه العالم ولها متنزه متسع على ضفة النهر فيه صفان من اشجار التين الهندي لدائمة الاخضرار بلغت من النمو حداً جعل من وسط المتنزه نفقاً مسقوفاً بالاغصان المورقة المتلاصقة حتى أن اشعة الشمس لا تجد منفذاً الى المارة . وقد كانت الحكومة بدأت ببناء ضفة لهذا النهر من الحجر الابيض المنحوت ينتهي بحاجز يعلو مترا عن الطريق وأنجزت منه قسماً كبيراً فأتى آية في الجمال ولكن نفقاته كانت باهظة فاضطرت الحكومة الى وقف العمل باشارة من السر لدن غورست عند زيارته للسودان . اما الجانب الآخر من المتنزه فقد احتكره الضباط ورؤساء الحكومة الانكليز لسكنهم وبنوا فيه البيوت الفخمة تحيط بها الحدائق الغناء فكل انكليزي ذو رتبة منظورة يسكن بيتاً تعجزه السكنى في زاوية منه في انكلترا ويتمتع بحديقة لا يقل حجمها كثيراً عن اكثر الحدائق العمومية في بلاده ، ومع ذلك يدفع اجرة لا تستحق الذكر . ذلك لان البيوت ملك الحكومة والحكومة تقول قول رب الكرم المذكور في الانجيل : « الست حراً بمالي ، ام ان عينك شريرة لانني انا صالح ؟ » وقد كان يتمنى الكثيرون من غير الانكليز ان يدفعوا ضعفي الاجرة التي يدفعها الانكليزي او اكثر لكي يسكنوا بيتاً من هذه البيوت ولكن المال يعجز احياناً عن قضاء اغراض معينة وكان يخطر لي ان المصلحة العامة تقضي بتخصيص هذه الاماكن للقهوات والمطاعم والمحال التجارية فتبيع الحكومة هاتيك

البيوت من اناس تشترط عليهم ان يبنوا مكانها ابنية تصلح لما تقدم

شوارع الخرطوم متسعة للغاية ومخططة تخطيط العلم الانكليزي بحيث يوجد فيها ساحات يُنتهي اليها من اربعة شوارع واُخرى من ستة وغيرها من ثمانية وكل الشوارع حافلة من عَلَى جانبي ارصفتها بالاشجار ، والحكومة تهتم كثيراً بالنظافة فكل شوارع الخرطوم وبيوتها نظيفة

ابنيتها ومعاهدها

كانت الخرطوم تتألف من نحو الفي بناية ويتراوح عدد سكانها بين الثمانية والعشرة آلاف اكثرهم من الاجانب لان اهالي البلاد لا يختارون سكناها لغلاء اجور البيوت وحاجيات المعيشة فيها ولكونهم لا يتمتعون فيها بمثل الحرية التي يجدونها في غيرها من المدن السودانية

كانت في الخرطوم كلية واحدة تخص الحكومة تسمى « كلية غوردن» اهم ما يُدرَّس فيها مبادئ الهندسة العملية والزراعية والفقه واللغتان الانكليزية والعربية وهي قائمة عَلَى النيل ومبنية بالآجر الاحمر ككل ابنية الخرطوم العمومية والخصوصية ، وفيها الحدائق الغناء وساحات اللعب الواسعة . ولكن كان هناك ايضاً مدارس عديدة منها ما يخص الحكومة ومنها ما يخص الجمعيات او الجوالي او الطوائف المختلفة، وعدد من الكنائس وجامع واحد انفقت دائرة الاوقاف المصرية عَلَى بنائه اكثر من سبعين الف ليرة مصرية ولم يتم وكنت احسبه لا يتم لان بناءه كان عَلَى ما اذكر مورد كسب لبعضهم

ترعة بناما أُخطئ في تقدير نفقاتها مرة واحدة وقد تمت أما هذا الجامع فقد أُخطئ في تقدير نفقاته اكثر من عشر مرات وظل الخطأ ممكناً . وقد سمعت أن كل الذين تولوا امر بناء الجامع ابتنوا لانفسهم بيوتاً من

الادوات التي كانت تستجلب لبنائه ، فكيف يمكن أن يتم وايس من يرغب في اتمامه ؟ !

كانت القهوات ومحال بيع التبغ في الخرطوم كثيرة لان العرب كثار، وفيها فنادق عديدة اهمها فندقان كبيران للسياح

الطباعة والصحافة

كان في الخرطوم جريدة السودان ومطبعتها وقد أنشئتا على اثر الفتح وهما ملك أصحاب المقطم والمقتطف . أما الجريدة فقد كانت لسان حال الحكومة . وأنشئت بعدها جريدة حرة سميت «جريدة الخرطوم» وما احسبها اليوم حية

هواؤها

هواء الخرطوم جاف والحر فيها في ايام الصيف شديد حتى أنه ليبلغ احياناً درجة «٤٧» وأردأ الفصول فيها فصل الربيع وفصل الخريف اللذين يتساقط فيهما المطر ويترطب الهواء ولكن صيفها لا يعاب الا بشدة الحرارة . أما في فصل الشتاء فهي آية من آيات الطبيعة في اعتدال هوائها وفي هذا الفصل يؤمها السياح بكثرة بعضهم بقصد النزهة والفرجة والبعض الآخر بقصد الاستشفاء من الامراض الصدرية . في الشتاء صحو دائم وشمس لطيفة الحرارة وهذه الحال تدوم من أول الشتاء الى آخره . في هذا الفصل يشتد البرد في الليل فينام الناس في الداخل ولكنهم في بقية الفصول ينامون في الخلاء تحت السماء والنوم في الخارج صحي ومرغوب فيه للغاية . والناس هناك ينامون على سرير بسيط يسمونه « عنجريب » محوك بحبال من القش المجدول يمكن أن يشد أو يرخى حسب الرغبة، وهو وثير يمكن النوم عليه دون فراش فيتوسده البعض عارياً ويضع عليه البعض الآخر الفرش المختلفة ، وعلى حالاته يعد « العنجريب » احسن ما في السودان

الخرطوم البحرية

تكلمت عن (الخرطوم) دون أن اميزها بنعت في حين أنه يوجد خرطومان لا خرطوم واحدة ، وما ذلك الا لانه متى قلنا (الخرطوم) فهم ان البلدة المقصودة هي عاصمة السودان لا سواها . اما الخرطوم الثانية التي تحتاج الى تمييز فهي الخرطوم البحرية (اي الشمالية) ويقال لها ايضاً الحلفايا وهي واقعة الى شمالي الخرطوم على الضفة الثانية من النيل الازرق ، وقد كانت حتى سنوات بعد وصولي ذات شأن لوجود محطة السكة الحديدية فيها فكانت كل البضائع التي ترد من مصر الى السودان تخزن فيها ثم توزع على الجهات فترسل الى الخرطوم وام درمان في النيل ، وكان الركاب ينزلون فيها ثم يعبرون النهر الى الخرطوم في بواخر صغيرة او قوارب . ولكن بعد ذلك ابتنت الحكومة جسراً عظيماً مقسوماً الى ثلاثة اقسام : للقطر الحديدية والمركبات والمشاة، وانفقت على بنائه ربع مليون ليرة انكليزية ، وهكذا انتقلت محطة السكك الحديدية اضطراراً الى الخرطوم وهي العاصمة ويطلق عليها احياناً اسم (الخرطوم القبلية) . واليوم تصل الخطوط الحديدية بين الخرطوم وحلفا ودنقلا وبورت سودان (وهي ميناء السودان على البحر الاحمر) وسواكن (الميناء القديمة) وكردوفان التي هي اكبر مديرية في السودان ، بعد أن يقطع الخط الموصل اليها مديرية النيل الازرق ويمتد منه فرع الى مديرية سنار . وقبل أن اترك السودان كان قد تقرر انشاء خط الى مديرية كسلا وقد تمَّ منذ اعوام كما أنشئ خزان كبير في جهة سنار .

الجسر

كان قد تقرر امر اقامة الجسر الذي تقدم ذكره تسهيلاً للمواصلات فشرع في بنائه ولكن قبل أن يعين مكان المحطة اخذت الحكومة تبني مستشفى جميلاً في نقطة فسيحة

في ظاهر البلدة فجاء آية في الاتقان وكاف مبالغ باهظة غير أنه لم يكد يتم حتى تقرر انشاء المحطة في نقطة قريبة كثيراً منه ولم يكن بد من انشائها في ذلك المكان فأفسد هذا الامر على المستشفى لان راحة المرضى تقضي بابعاده عن الحركة والضجة واي مكان يكثر فيه الضجيج كالمحطة ولذلك تقرر استعمال هذا المستشفى الجميل كمكاتب لادارة السكك الحديدية وبناء سواه على ضفة النيل . وما هذه بالغلطة الوحيدة التي ارتكبتها الحكومة في السودان لان الانكليز بطبعهم بطيئو الفهم والمأمورين الذين يرسلون الى هناك ليسوا من ذوي الاختبار في انواع الاعمال التي ينتدبون لها لان الخبراء لا يذهبون الى السودان فينتج عن ذلك انهم يقومون باعمال كثيرة لا يلبثون أن يروا فسادها بعد أن يكونوا قد انفقوا عليها الاموال الطائلة . والمصاب فيهم أنهم قلما يقبلون النصح وكثيراً ما يرفضون سماعه ولكن الفضيلة التي فيهم انهم لا ينفكون يغيرون ويبدلون حتى يقعوا على الصالح الذي لا غش فيه وهم يفضلون ان يتوصلوا اليه دون واسطة مهما قصرت الواسطة عليهم الطريق ووفرت عليهم من التعب والنفقات

اذكر انه بعد أن تمّ بناء الجسر قدم الى الخرطوم اسمعيل باشا سري وزير الاشغال في القطر المصري وبعد ان فحص الجسر الذي بنته شركة انكليزية قال للحاكم العام : « ان هذا الجسر يحتاج الى ترميم بعد خمس سنوات ، ولست اعلم لماذا لم تعتمدوا في بنائه شركة فرنسوية مع أن الفرنسويين يبنون الجسور في انكلترا نفسها »

الرحلة السندبادية

في الخرطوم

في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٠٤ كنت في الحادية والعشرين من عمري وكنت اذ ذاك كأكثر الشبان غنياً بالصحة والشهية للطعام والنزق ولكنني كنت أشكو مرضاً يفوق مرض فراغ الجيب وطأةً الا وهو الدَين فاني كنت مديناً للحكومة السودانية ، التي لم اكن قد قضيت بعد اكثر من ثلاثة اشهر في خدمتها ، بمبلغ من المال تحسمه اقساطاً من مرتبي الشهري الصغير . ولكي يدرك القارئ سر شكواي يجب أن يعلم اني كنت على الدوام بزرجمهر زماني في كرهي للدَين ، وبزرجمهر هو القائل « عالجت الحديد ونقلت الصخور فلم اجد حملاً اثقل من الدَّين » . لذلك لا عجب ان سرَّني اني انتدبت لمهمة في « واو » عاصمة مديرية بحر الغزال حيث النفقة أقل والمرتب أوفر وكانت المهمة تستغرق نحو ستة اشهر من الزمان

عثمان

وكان السفر الى واو يستغرق نحو شهر صعداً في نهر النيل على ظهر باخرة نهرية ولذلك اقتضى الحال نقل مؤونة كافية مع معدات للطبخ كاملة لاستخدامها مدة السفر وبعده . وكان لا بدَّ لي طبعاً من اصطحاب طاهٍ يجيد الطبخ فكانت احد خدام

المكتب أن يأتيني بمن يصلح لهذه الوظيفة . وكان هذا الخادم بربرياً (والبرابرة مشهورون بميلهم الى مساعدة بعضهم) فاختار لي اشق البرابرة حالاً وأقبحهم سلوكاً وأجهلهم بمهنة الطبخ وأتاني به ذات يوم بعد أن ألبسه ثياباً نظيفة ولقنه اسماء المعدات المطبخية . وكأني به قد قال في نفسه «حسبي أن اخدم مواطناً لي ولهذا الافندي الغريب أن يقبل مرغماً بما قضيت له به من العذاب»

ولم تكن هيئة عثمان مرضية ولكنني لم اكد أسأله عن اسمه حتى بسط صفحة ذاكرته وأخذ يسرد لي اسماء المعدات المطبخية اللازمة كأنه قرأ في كتاب وهكذا استدل على عيوبه الظاهرة ستاراً كثيفاً واضطرني الى تصديق اذني وتكذيب عيني بحيث قلت في نفسي انه لو لم يكن من امهر الطهاة لما كان يسرد اسماء كل هذه المعدات بهذه السهولة الخارقة . وبالاختصار أصبح عثمان من ذلك اليوم طاهيّ

رفقاء السفر

كان موعد سفر الباخرة صباح اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني . فقبل هذا التاريخ بيومين أو ثلاثة قدم من مصر ثلاثة مستخدمين الواحد اسمه نخله افندي والآخر مخائيل افندي والثالث رشدي افندي وكانت وجهة الثلاثة و و: الاول بصفة منظم للحسابات في المديرية والآخران بصفة مستخدمين في قلم الحسابات . وكان الاولان قبطيين والاخير مسلماً . هؤلاء كانوا رفقائي في السفر المعروفين حتى ذلك التاريخ ، ولا بأس بتعريفهم الى القارئ لكي يتسنى له التطبيق بين اوصافهم وما سيأتي عني ذكره من حوادثهم فيما بعد :

نخله افندي

كان نخله افندي في الخامسة والاربعين من عمره ، طويل القامة ممتلئ الجسم قليلاً وغير قبيح

الملامح . وكان على جانب عظيم من الرياء الا أن امتلاءه من وظيفته « السامية » وميله الى الظهور بمظهر الأنفة والاستكبار الذي تقتضيه تلك الوظيفة ، على زعمه ، جعله ذنباً اكثر منه ثعلباً بحيث أنه كان اميل الى ابداء الشراسة منه الى ابداء الرياء . ولما كنت منذ الصغر عدواً لهذه الصفات القبيحة عزمت على ابراء نخله افندي منها بقدر الامكان وقد ساعدتني الظروف على شكل لم اكن احلم به كما سيجيء .

مخائيل افندي

كان مخائيل افندي في الخمسين ، قصير القامة نحيلها ، ممتلئ الاوداج ضخم الشفتين مقلوبهما ، افطس الانف قليلاً جاحظ العينين ضعيف النظر . وكان مع قباحته رقيق الحال صغير المرتب غير أنه لم يعدم الشوافع التي تتوفر غالباً لامثاله فقد كان لطيف المحضر سليم القلب سخي الكف ولذلك اضمرت له الود وعزمت على الانتصار له ضد نخله افندي الذي كان يتخذ من امتيازه عليه في الرتبة مسوغاً لاضطهاده .

رشدي افندي

كان رشدي أفندي شاباً في نحو العشرين من عمره ويكفيني أن اقول في وصفه انه كان بليداً خاملاً لا يرشح نفسه للذكر لا بحسنة ولا بسيئة

السفر

عند الساعة التاسعة من صباح العشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٤ كنت وعثمانا ومعداتي ومؤونتي على ظهر الباخرة ، وعند الساعة التاسعة والنصف اطلقت الباخرة صيحة عالية مؤذنة بالسفر وداعية المسافرين الى دخولها والمودعين الى مغادرتها

في تلك اللحظة التي كان يصم فيها صفير الباخرة الآذان رأيت نخله

افندي يضرب كفاً بكف . وما وثق من اصغائه انتباهي حتى دنا مني وقال بلهجة ملؤها اسف ومسكنة : « بالله ! اني نسيت أن أحضر معي شيئاً للأكل فهل لك أن ترافقني الى البلدة لكي اشتري قليلاً من المؤونة ؟ »

فحدجته بشيء من الاستغراب والاستخفاف وقلت : « أأنت أصم يا رجل ؟ الست تسمع صفير الباخرة ، وكيف تزمع سفراً يستغرق شهراً من الزمان دون أن يكون لديك ما يلزمك من القوت ؟ » قال : « قيل لي إننا نرسو في طريقنا امام بلدان كثيرة يمكننا أن نشتري منها كل ما يلزمنا وان لا حاجة بالمسافر الى اكثر من قوت يومين ريثما يصل الى البلدة الاولى ، وهذا ما نسيته » . قلت لا يغسر تصديقك ما قيل سوى ان تكون قد سحت في اوروبا وتحسب انه « كما في الشمال كذلك في الجنوب » ولكن خفف عليك فاني مطعمك مما رزقني الله الى ان نصل الى البلدة الاولى في طريقنا واذ ذاك تصبح مسؤولاً عن نفسك . فانحنى وشكر وانصرف كلٌّ منا لشأنه على أمل اللقاء وقت الغداء

تمّ هذا وانا لا اعلم أن ذلك اللئيم استحسن بضع دجاجات وحمامات محشوة ارسلها اليّ صديقي الكريم محمود طه البربري كزاد الوداع فآلى على نفسه أن يشاركني فيها ويوفر شيئاً مما اتى به معه من الزاد الكثير من مصر . ولكن عندما علمت ذلك كان قد فات الوقت ، اذ بعد يومين جرى بيني وبين مخائيل افندي حديث وعلمت منه ان مخائيل افندي لا يستحق شيئاً من الاكرام

عثمان والطبخ

لم يطل بي الوقت حتى علمت ان عثماناً كان ابعد شيء عن الطبخ والطبخ ابعد شيء عن عثمان اذ عند وصولي الى الدويم وهي حاضرة مديرية النيل الابيض وأول محطة

ترمو فيها الباخرة أفهمت مخله افندي انه اصبح مسؤولاً عن نفسه واشتريت مقداراً من الدجاج والبيض وأعطيت شيئاً من الاخير لعثمان لكي يصلحه ولبثت انتظر عودته بالبيض المقلي ولكن على غير جدوى . وعندما اعياني الانتظار نزلت الى الدور السفلي استجلي الخبر فرأيت عثماناً ابيض الوجه لكثرة ما علق بوجهه من ذرات الرماد دون أن يستطيع ايقاد النار فعنفته واستنزلت عليه لعنات السماء ولكن غضبي لم يوقد النار كما أن نفخه لم يشعل اوارها وكأن بعض الخدم الذين كانوا على مقربة من المكان اعتبروا الصراخ استصراخاً فأسرعوا الى النجدة واوقدوا النار وصعدت انا الى غرفتي أسكن ثائر غضبي . وبعد دقائق اتاني عثمان بالمقلاة وفيها دائرة من البيض المقلي « المرصرص » (كما يسميه الطهاة) لانه وضع البيض مع السمن دون أن يحميه فرجوته بكل تلطف ان يتكرم بالتهام ما طهى لان الحنق افقدني الشهية للطعام فابتسم وانصرف حاملاً المقلاة وخرجت انا أسارقه النظر فرأيته يصدع بأمري كأنه يقوم بواجب مقدس حتى اتى على ما في المقلاة فعلمت بكل اسف أن عثماناً ليس فقط ابعد شيء عن الطبخ بل عن الاحساس أيضاً . لذلك قضيت كل مدة سفري الطويل وانا في عراك دائم مع ذلك الطاهي البليد الذي أصبحت برغمي طاهيه وكنت اقتص منه عن الجريمة التي ارتكبها ضدي بمنعه عن التدخين الذي كان مولعاً به الى حدّ الجنون ولذلك كان يغافلني احياناً فيدخن ولكنني لم اره مرةً يعصي امري الا أريته « نجوم الظهر » بصفعة على وجهه الصفيق . وحالما وصلت الى واو اعدته مع احد المسافرين الى الخرطوم غير آسف على فراقه

شيء عن النيل	سبق لي القول ان نهر النيل ينبع من بحيرة فكتوريا نيانزا الواقعة غربي جنوبي افريقيا

الشرقية الانكليزية وُيسمى حتى مصبه في مشرع الرق ، حيث يلتقي بأنهر عديدة فرعيــة ، بحر الجبل » . ثم يستأنف سيره مع رفاقــه باسم « البحر الابيض » او « النيــل الابيض » . امــا الانهــار الفرعيــة التي تلتقي به بعد خروجه من بحيرة فكتوريا فمنها بحر سوباط وبحر الزراف اللذان يجريان ويصبان فيه على مقربة من بلدة تُسمى توفيقية ومن الجنوب الغربي يصب فيه بحر الغزال الذي يستمد مياهه من انهار عديدة أيضاً كبحر الجور وبحر العرب وسواهما . وهو يمتاز على كل هذه الانهار بكونه يجري من بحيرة وهي تجري اليه من الجبال وتستمد مياهها من الامطار وتكون في زمن الفيضان المسبب عن كثرة هطل الامطار في الجبال غزيرة المياه سريعة الجري فاذا جاء زمن الشح المسبب عن القيظ في الجبال شحت مياهها وقل جريها ونال هو نصيب وافر من هذا الشح على أنه يظل اسعد حالاً منها لانه يستمد مياهه من ينبوع دائم الجري

السفر في النيل

لمــا كانت حالة النيل على مــا قدمت فاستدامة الملاحــة فيــه مدة الشح تضطر الحكومة السودانية أن تسير فيه بواخر صغيرة تعوم في بضعة اقدام من الماء برغم كونه في ايام الفيضان اهلاً لحمــل البواخر التجارية المعتدلة الحجم . ومع هذا ففي أيام الشح كثيراً مــا تغرز هذه البواخر الصغيرة في الرمل رغم اختبار البحارة ومعرفتهم الفائقة بطبيعة قعر النهر لان الرمال التي يجرفها التيار ابان الفيضان قد تستقر في أي مكان لذلك يقيس البحارة العمق بواسطة اعواد طويلة ويعطي القياسون التعليمات للقبطان لكي يحوّل مقدم الباخرة يمنةً أو يسرةً حسب مقتضى الحال ، واحياناً تقف الباخرة أمام كثيب من الرمــل فينزل البحارة الى المــاء ويشتغلون ساعات لكي يفتحوا

،لها طريقاً ٠

بسبب هذه العقبات التي تعرض للملاحة ايام الشح وعجز الحكومة عن تسيير مئات البواخر لنقل الركاب والبضائع الى الاماكن المختلفة تنيط الى جانبي كل باخرة طوفين مؤلفين من طبقتين توضع في جوف السفلي منهما البضائع ويستخدم سطحها لركوب الخدم والوطنيين ، والعليا وهي مسقوفة لركوب من هم أعلى منزلة كالجنود وصغار المستخدمين وهذه الاطواف تسمى في لغة السودانيين « صنادل » ومفردها « صندل »

عَلَى هذا الشكل غادرت باخرتنا الخرطوم وكان الصندلان المنوطان بها مشحونين بالجنود والمعدات الحربية وكان اولئك الجنود ذاهبين لقمع ثورة قامت بها قبيلة نيامنيام عَلَى الحكومة وهذه القبيلة تقيم جنوبي بحر الغزال والمشهور عن افرادها انهم من اكلة لحوم البشر ٠ اما نحن فكنا في الباخرة نفسها في غرف ذات اسرة غير انها كانت قريبة من المدخنة وكان الطقس حاراً لذلك كنا نحسد الجنود المتنعمين بالهواء البليل الذي كان يزيده سير الباخرة لطافةً ونتأفف من امتيازنا الباطل عليهم لانه اورثنا نار السعير ٠ ولا غرابة في أنهم كانوا يحسدوننا بدورهم لجهلهم ما نحن فيه ٠ كذلك يحسد الفقيرُ السعيدُ الغنيَّ الشقيَّ وهو لو علم بحقيقة حاله لفضل الفقر مع الهناء عَلَى الغنى مع الشقاء

فرس البحر

اهم الحوادث التي مرّت بنا بعد مغادرتنا الدويم هي ان ضابطاً انكليزياً بصر بفرس بحر رابضاً عَلَى شاطئ فأطلق عليه رصاصةً اصابت منه مقتلاً فانحدر الحيوان الى الماء فأخذ تارةً يطفو وتارةً يغوص الى ان طفا نهائياً عَلَى وجه الماء فأوقف ربان الباخرة ونزل بعض البحارة فربطوا ذلك الحيوان الهائل بحبل اناطوا

طرفه الآخر بالباخرة واستأنفت هذه سيرها على الاثر املاً انها اذا ما رست في الماء تمنع البحارة والجنود والركاب الوطنيون بلحمه ولكن نظراً الى ضخامة جثته اخذ يعوق سير الباخرة الى حد ان اضطر الربان الى إيقافها ثانية وادنائها من الشاطئ فنزل البحارة والجنود والركاب الذين كانوا ينوون التمتع بالفريسة فجروه الى اليبس وتناول كل مديته واقتطع لنفسه مقداراً حوله الى شرائح مستطيلة ونشر الجميع شرائحهم بعد أن ملحوها على الحبال قصد تقديدها . مع ذلك استاء الكثيرون لتركهم اكثر من نصف الفريسة بسبب ضرورة استئناف السير عملاً بأمر الضابط الاعلى

في الطريق

برغم جهل عثمان للطبخ فانه تعلم مع الايام ان يغلي الماء ويضع فيه مقداراً من الشاي عينته له وكنت اقتصر في طعامي على المقددات والمربيات التي اصطحبتها معي من الخرطوم وعثمان يأكل مع البحارة مما يطهونه لقاء مبلغ زهيد كنت ادفعه لهم . وكنت على الدوام ادعو مخائيل افندي لتناول الشاي معي عند العصر وكان نخله أفندي يزورني من وقت الى آخر في الساعة المعينة لتناول الشاي فكنت افرغ جهدي لكي اخيب ظنه لانني لحظت انه دنيء من الطبقة الاولى فانه كان يتبع وصية المسيح بكل تدقيق ولكن ليس من اجل الصلاة بل من اجل الاكل فانه كان « يدخل مخدعه ويغلق بابه » ليلتهم وحده الاطايب التي احضرها معه من مصر لا « ليصلي لابيه الذي في السموات » عله ينقيه من بعض المساوئ التي تأصلت فيه

في مشرع الرق

ظللنا سائرين على تلك الحال حتى بلغنا مشرع الرق ، ومشرع الرق هذا مكان ملتقى الانهر كما قدمت حيث تتألف بحيرة كبيرة تحيط بها المستنقعات . ...

سبب اطلاق هذا الاسم عليه فيغلب عَلَى الظن ان يكون عائداً الى اشتهاره في ما مضى بأنه مرسى لمراكب النخاسين

بلغنا المشرع ليلاً ولم تكد الباخرة ترسو حتى دنا منها مركب شراعي كبير صدر لنا امر الضابط الاعلى بالنزول اليه لان الباخرة تلقت امراً من الخرطوم يقضي عليها بمواصلة السير جنوباً في المجرى الاصلي الذي يسمى « بحر الجبل » فلم يعد بامكاننا استئناف سفرنا فيها لان وجهتنا كانت بحر الغزال وهو واقع الى الغرب . وبرغم احتجاجنا عَلَى هذه المعاملة واخضاعنا للنظام العسكري دون أن نُبلَّغ في الخرطوم امكان حدوث مثل ذلك الانتقال السريع في اثناء السفر بتنا تلك الليلة في المركب الشراعي لان الاوامر العسكرية لا تقاوم . وعند الساعة الثالثة صباحاً اتى قارب بخاري فقطر المركب وسار بنا في طريقنا . وكان قد جرى ذلك وانا لا ازال في عالم الاحلام فعندما استيقظت ورأيت القارب انتعشت آمالي وسُرّي عني لانني كنت اعلم أننا عَلَى تلك الطريقة نبلغ مكان قصدنا في أيام قلائل ولكنني كنت أجهل ما يخبئه لنا القدر من المصائب والعبر . ذلك ان القارب استمر في سيره مدة ذلك النهار والليل وفي صباح اليوم التالي رأينا القبطان يتأهب للعودة من حيث اتى تاركاً ايانا تحت رحمة الريح وفريسةً لهوام المستنقعات التي لا تحصى فرفعنا صوتنا بالاحتجاج وصخبنا عَلَى القبطان والبحارة ولكن القبطان اعتذر بقوله انه مأمور لا آمر وقد نفذ الامر الذي صدر اليه تماماً ولو هو شاء مخالفته لما استطاع الى ذلك سبيلاً لان مقدار الحطب الذي معه بالكاد يكفي لرجوعه ومن المستحيل حصولنا عَلَى وقود وَنحن في بحر من المستنقعات وهكذا عاد من حيث أتى ورضينا نحن اضطراراً بما منانا به ربان المركب من اننا بالغون واو قريباً « ان شاء الله »

ركاب المركب

بعد أن شيعنا القارب بانظارنا حتى توارى في الافق البعيد اخذنا نعد عدتنا لاقامة طويلة في المركب فاقتسمنا الجزء الذي خصص لنا ووضع كل منا امتعته في مكان مناسب وافترشنا فرشنا ونصبنا كللنا اتقاء لدغ البرغش مدة الليل . بعد هذا تنبهنا الى من حولنا من الركاب الذين شاطرناهم ذلك المركب الخشن برغمهم ورغمنا فاذا برفاقنا ضابط سوداني برتبة يوزباشي اسمه عطا افندي السودني واربعة جنود مصريون مسافرون تحت امرته خراسة بضعة صناديق من الذخيرة مرسلة الى واو وبضع نساء وطنيات . وبصفة كون عطا افندي ضابطاً برتبة عالية فقد كان بحسب القانون العرفي الذي كان سائداً في تلك الايام في السودان ، وعلى الاخص في البلدان النائية الخالية من كل اسباب المدنية والمحرومة نعمة النظام ، الآمر الناهي وفي قبضته وتحت مطلق تصرفه المركب ومن عليه يفعل به وبهم ما يشاء . فلما استقر بنا المقام على ذلك الشكل تبادلنا وعطا افندي السلام فتلطف بدعوتنا الى تناول الشاي في « منزله » الذي كان كناية عن خيمة في مؤخرة المركب . وكان الرجل لطيفاً طيب القلب شأن كل مواطنيه من قبيلة الدنكا التي تسكن الاراضي الواقعة في اعالي النيل وتعيش على الحليب والسمك الذي تصيده من الانهار . ونظراً الى عدم اختلاطها بالقبائل الاخرى فقد حافظت على مزاياها الفطرية العالية وسجاياها الطيبة التي يدأب بعض المتمدنين اعواماً ليغرسوها في عقول صغارهم وشبانهم فلا يفلحون الا نادراً نظراً الى فساد التربة ، وشاهدي على صدق اعتقادي هذا قصة ستجيء في مكانها

قلت ان عطا افندي كان متصفاً بكل مزايا قبيلته ، ومن هذه المزايا على ما ظهر لي رقة الجانب وكرم الطباع وصدق الخبر والسخاء المتناهي . والغريب أنه حالما علم اني « شامي » قربني اليه واكرمني وبالغ في احترامي

ثم انه بعد أيام ولاني قيادة المركب والنظر في شؤون الركاب وعمل كل ما من شأنه أن يقصر مدة السفر . والامر الاخير هو ما صرفت اليه كل همي لاني علمت منه بأن قطع المستنقعات قد يستغرق اسابيع اذا نحن اوكلنا امرنا الى الريح التي تهب من الجهات المختلفة وقلما تهب على ما يشتهي المسافرون ، على الاخص متى كانت طريقهم متعرجة كطريقنا بحيث أن الريح لا تهب دقيقة معنا حتى تهب ساعة ضدنا . ولم يقتصر عطا افندي على القول والمجاملة بل اعلن امر تعييني للركاب والبحارة فآمن الجميع وصدقوا إلا نخله افندي الذي اعتبر المسألة من قبيل المزاح وأصرّ على إبلاغي رأيه العالي بكل حركة يأتيها او عبارة يقولها . ولم يقف عند هذا الحد بل هو تحرّش بي يوماً بانتقاده اياي انتقاداً مراً لسماحي لخادمي بمشاطرة البحارة « المساكين » طعامهم مع اني كنت قد انفقت واياهم على الامر وأنقدتهم ثمن الطعام سلفاً فلم اصبر على تدخله في شؤوني بهذه الطريقة السافلة وشفيت نفس نخائيل افندي منه باهانات لو عجز اي انسان عن ردها كما عجز هو لالقى نفسه في الماء واستراح وأراح . وفي يوم آخر ضحك مني لاني كنت أنشط البحارة وأكافح معهم لمنع مقدمة المركب من أن تغرز في الاعشاب فأضمرت له السوء وتوعدته بأنه في اليوم التالي مشتغل بجر الحبل فقهقه هازئاً لانه كان يحسبني عاجزاً عن اكراهه على العمل . وكان تسيير المركب بواسطة الحبل ضرورياً لكي نبلغ اليبس قبل ان يفرغ زادنا فنهلك في تلك المستنقعات وكان ذلك يقوم بنزول احد البحارة الى الماء وبيده حبل غليظ فيعوم به مسافة طوله ثم يربطه بضمة من الاعشاب واذ ذاك يأخذ عدد من البحارة في جرّه الى أن يبلغ المكان المربوط فيه فينزل بحار آخر فيفكه ويفعل به فعل الاول وهكذا على التوالي ، وكان عطا افندي مسروراً من القدوة الحسنة التي كنت أعطيها للبحارة لكي يتغلبوا على كسلهم الفطري . وفي

اليوم الثاني اعلنت الركاب بأن البحارة قد تعبوا كثيراً ولا يجمل بنا أن نلقي كل الحمل عليهم وعلى الاخص في امر لا يحتاج الى مهارة فنية بل الى عضلات قوية ، وانا كلنا في خطر ومن واجبات كل انسان ان يقوم بالجزء الذي يصيبه من عمل الخلاص الذي هو في مصلحة الجميع . فوافق عطا افندي كل الموافقة على قولي وهكذا قسمت العمل على البحارة والجنود والركاب كلٌ بحسب اقتداره ولم تلبث نوبة مخله افندي ان جاءت فانصاع للامر اقتداء بسواه ولكنه كان يشتغل وهو حزين كاسف البال وكلما كان يعود منهوك القوى مرّ النفس كان يتوعدني بأنه مبلغ شكواه الى المدير وانا اكتفي بقولي له : « إن جوابي له سيكون انه لو لم يشتغل مخله افندي معنا لما وصلنا الى هنا » وهو يزداد غيظاً وحنقاً . وبهذه الطريقة ذللت نفس مخله افندي وجعلته اقرب الى الانسان وكان ذلك لسرور وابتهاج مخائيل افندي الذي لم يكن يغفل لحظة واحدة عن مراقبته عندما كان يشتغل بجرّ الحبل

نتيجة الجهاد

كانت نتيجة الجهاد السابق ذكره مرضية للجميع حتى مخله افندي الذي لطف العمل اخلاقه وأطفأ النجاح نار الحقد التي تأججت في صدره اذ لم يمض علينا اسبوعان حتى بلغنا الضفاف الثابتة واصبحنا نتمتع بأشياء كثيرة كانت ممتنعة علينا في المستنقعات . من ذلك اننا اصبحنا قادرين على التنزه والتمتع بمرأى الغابات ورؤية العصافير التي لا يمكن أن تقع العين على اجمل منها وسماع تغريدها الشجيّ من خلال ادغال كثيفة يحلو استظلالها لانها تحجب اشعة الشمس وتمنع الحرّ بتاتاً عن المستظلين بها . ومنذ اصبحنا على تلك الحال الشائقة لم يعد احد منا يبالي ابطأت السفينة أم اسرعت ، وكان يزيد

في الطائفة المشاهد التي كنا نمرّ بها مرأى الحيوانات الداجنة وتلك الاخص الخراف التي كنا نطمع بلحمها الذي امتنع علينا مدة طويلة .

خروف بأربعة قروش

في تلك الاصقاع التي قطعناها قبيلة الدنكا التي يمتاز رجالها عن جدنا آدم بكونهم يسيرون «ربي كما خلقني» وتستتر نساؤها بجلد خروف منوط الطرفين بكتفيهن الايسر ، لا يعرف الناس شيئاً عن المال الذي يبهر ابصار المتمدنين ويدفعهم الى الاقتتال في سبيل تحصيله والمحافظة عليه حتى انك اذا دفعت الى احدهم ديناراً وهاجاً رده اليك باحتقار واختار عليه خرزة زرقاء أو حمراء او سواراً نحاسياً يساوي قرشاً او قرشين. لذلك يحمل المسافرون الى تلك الاصقاع بقصد مشترى العاج (سن الفيل) الغالي الثمن مقداراً من الخرز الملوّن والاساور وبهذه العملة البخسة يشترون هذا الصنف العزيز ويبيعونه في الاسواق الاجنبية بالمبالغ الطائلة . وهناك امتياز آخر لتلك القبائل على المتمدنين هو أن التزين امر خاص بالرجال لا بالنساء فالانثى الدنكاوية تكتفي بجلد الخروف كما قدمت اما الدنكاوي فكناية عن رجل عار طويل القامة احمر اللون او اسوده تغطي زنديه الاساور النحاسية ومعصميه الاساور الخرزية وفي عنقه عقد من الخرز المختلف الالوان وربما منطق خصره أيضاً بالخرز وساقيه بالحجول ، هذا ما خلا ضفر الشعر على اشكال شتى كما هي الحال مع النساء المتمدنات . واذا امعن الانسان الروية وجد المخالفة في هذه الحالة في جانب الدنكا لا في جانب المتمدنين لان امنا الطبيعة مازت الذكر بالزينة دون الانثى التي خصتها باللطف والنعومة ورقة الشعور وكم قاست البشرية بسبب مخالفة المرأة المتمدنة هذه القاعدة الطبيعية وإيثارها التزين والتبرج وجمال المظهر على تزيين نفسها بالفضائل والكمالات .

وهل من شاهد عَلَى صدق قولي هذا أدلُّ من التفاوت البادي بين الاسد واللبوءة ، والديك والدجاجة ، والتيس والمعزة ؟

والآن استغفر القارئ عن الشرود فالموضوع هو اننا في احد الايام اشترينا خروفاً سميناً بأربعة قروش وذلك الخروف اطعمنا مدة يوم كامل مع بقية الركاب والجنود والبحارة وعدد الجميع يزيد عن عشرين شخصاً . وهنا مجال لتأسف الطاعنين وتمنيهم ان يكسبوا عَلَى معدل الكسب في الاوساط المتمدنة وينفقوا عَلَى معدل الانفاق في بلاد الدنكا !

اخلاق الدنكا

وعدت القراء في مكان آخر من هذا الحديث ان اورد لهم قصة تثبت لهم ان قبيلة الدنكا التي يحتقرها المتمدنون ويعتبرونها من القبائل الهمجية المنحطة ذات شرف وإباء يندران بين المتمدنين الذين يفاخرونها . والقصة هي أن سفينتنا رست يوماً بسبب سكون الريح وكنا كلنا نود أن نجدّ في السير لان ماء النهر كان آخذاً في التناقص يوماً بعد يوم وأصبحنا نخشى أن يشح الماء الى حد ان يمتنع عَلَى السفينة السير فيصيبنا ما لا تحمد عقباه . وبينما كانت السفينة راسية وكل منا يستفز همة الريح بالدعاء او التمني او التجديف دنا منا رجل دنكاوي راكباً قارباً هو كناية عن مجوّف جذع نخلة يسيره بمجذاف واحد قصير ينقله من اليمين الى اليسار فيستعيض بذلك عن دفة . ولما أناط قاربه بالسفينة تبينا أن معه سمكاً فهرع نحوه بعض الركاب السودانيين والجنود واخذوا يساومونه عَلَى السمك بمقادير من الخرز والاساور التي سبق ذكرهما . وحدث انه لم يكد يتناولها منهم حتى هبت الريح فاغتنم الربان الفرصة وأطلق للسفينة العنان اجابةً لتمني كل راكب عَلَى ظهرها حتى الذين دفعوا ثمن السمك ولم تهمهم الريح ربثما يأخذونه ولكن رضي

هؤلاء. لم يقنع ذلك الهمجي الذي شرع يستوقف السفينة بصراخه واشاراته ونحن نجيبه باشارات العذر . ولما يئس من ايقافها جذف بسرعة الى الضفة واحتمل السمك بيديه واخذ يعدو بكل قوته حتى شفقنا عليه واستوقفنا السفينة ريثما يتناول الشاروني السمك . وكان كل ما عبر به ذلك الهمجي عن مبدإه امطا افندي الذي يعرف لغته هو قوله : « إن الدنكا لا يأخذ خرزاً واساور دون أن يعطي سمكاً » . ومؤدى هذه العبارة ان الدنكا ابي عزيز النفس لا يقبل المنة ، وكل ما فيه من العيب انه يتمسك بالجوهر وهو الفعل ولا يأبه للعرض وهو التعبير . وهنا مجال للتفكير واستحسان الرأي بمن نسميهم همجيين وهم يصلحون أن يكونوا معلمين للمتمدنين في كثير من الامور . اوليس من الجور ان نحتقر مثل هذا الانسان ونحترم احد التجار الذي باع من احد العبيد متراً مربعاً من القماش كأربعة امتار لان العبد جهل حيلته ؟

والدنكا يعترف بوجود الخالق ويخشاه ولكن على شكل يخالف المتمدنين فيقول لك اذا كلفته ارتكاب محرم : « ان ساكن القبة يغضب » والقبة التي يشير اليها كناية عن قبة بيضاء قائمة في مكان من تلك الاصقاع ويغلب على الظن ان العرب هم الذين بنوها لان العرب توغلوا في اسفارهم الى ما وراء تلك البلاد وبشروا بالاسلام وفي بلاد الدنكا كثيرون من المسلمين الذين يعرفون شيئاً عن شريعة النبي العربي

قطيع ولكن من النمور

يوجد خلة في مخائيل افندي صهوت عن ذكرها في معرض وصفه وهي الجبانة ، والمأثور ان كثير الجزع تجوز عليه الاوهام . فبينما نحن نسير يوماً على بعد شاسع من الشاطئ بدا لنا قطيع من النمور لا يقل عدده عن

المشرين فوقفنا جميعنا نغمض ابصارنا بذلك المشهد البديع ونحن غافلون عن مخائيل افندي ولم ننتبه اليه الا عندما اخذت فرائصه ترتعد وبدت عليه ادلة الرعب الشديد . فلما لحظ منه عطا افندي ذلك لج في مداعبته على شكل صوّر له الوهم حقيقة فقال ان النمر يحن الى الباحة والماء قليل فلا يبعد أن يكون القطيع جائعاً فيهاجمنا ويفترسنا ولاحال امر الجنود بأن يصوّبوا بنادقهم ويستعدوا كل الاستعداد لتلافي المكروه . وظل الجنود على تلك الحال وكانا نتظاهر بالجزع والقلق حتى كاد مخائيل افندي يموت خوفاً ولم يهدأ روعه الا بعد أن توارت النمور عن أعيننا وانتهى تمثيل ذلك الدور بضحك وجلبة انسيانا الشيء الكثير من متاعبنا

مخائيل افندي والتمساح

في صباح احد الايام رسونا على مقربة من غابة ظليلة ولكننا رأينا على وجه الماء مشهداً لم نألفه من قبل فقال لنا عارف ان الذي نراه هو عيون تماسيح وكل عينين تمثلان تمساحاً مفترساً فان أعلى شيء في جسم التمساح عيناه وهو يستر كل جسمه في الماء ويبقي عينيه على سطحه حتى اذا ما وقعت له فريسة رآها في الحال والتهمها

هذا المشهد ازعج النساء وعلى شدة رغبتهن في النزول الى البرّ امتنعن خوف التماسيح . ومن الثابت ان الجبان يصبح شجاعاً اذا هو رأى اجبن منه وهذا ما حدث لمخائيل افندي فانه ازاء جزع النساء نسي حادثة النمور القريبة العهد او هو شاء تناسيها تحسيناً لظننا به واخذ يؤنب النساء لارتياعهن وتطوّع لاقتيادهنّ الى حيث يشأن . والنساء اللواتي رأين سلوكه بالامس خجلنَ اذ ذاك ان يحجمنَ عن اتباعه فسرنَ بقدم ثابتة وهو يتقدمهن كأنه سائر لفتح وهذا ما زادنا اعتقاداً بأن قلبه ليس على القلق

مع قدميه ولبثنا ننتظر ما يكون من امره . ولم تمض دقائق حتى رأينا مخائيل افندي عائداً في المقدمة كما ذهب ولكن ليس بهيئة الفاتح بل بهيئة الناجي بنفسه ومن ورائه النساء يركضن ويولولن . وما استقر بذلك الجيش المنهزم المقام حتى بسط لنا قائده مخائيل افندي سبب الهرب بالفاظ متقطعة بسبب تقطع انفاسه فقال : « تمساح ! تمساح ! » فأغرقنا كلنا في الضحك وأمر عطا افندي احد الجنود بأن يذهب ويأتي بذلك التمساح القليل الحياء لمقاصته . وقد أصدر عطا افندي ذلك الامر جاداً لان مخائيل افندي ابتعد عن الشاطئ مسافة غير قصيرة والمعروف ان التمساح لا يتجاوز رمل الشاطئ ولذلك ادرك ان الخوف هو الذي صور لمخائيل افندي انه رأى تمساحاً وهكذا سار الجندي برفقة احدى النساء لكي تريه مكان التمساح ولم يلبث ان عاد وبيده مدرة تشبه رأس التمساح من بعض الوجوه ولا تسل اذ ذاك عن الضجيج والضحك وفي هذه المرة كان مخائيل افندي شريكنا في الضحك ولكن من نفسه

حرب الدنكا

اصيل اليوم الخامس والثلاثين من سفرنا بلغنا مكاناً يبعد عن واو مسيرة يوم براً ونحو سبعة اشهر بحراً . اقول سبعة اشهر لان ماء النهر شح الى درجة ان المركب غرز في الرمل ولم يعد يزحزحه من مكانه سوى الفيضان المقبل . ازاء هذه العقبة عزم عطا افندي والركاب على الانتقال الى البر في صباح اليوم التالي وللحال ارسل الاول مع احد البحارة كتاباً الى المدير يسأله فيه ارسال عدد من البغال لنقل صناديق الذخيرة ومركبة تجرها الثيران لنقل صناديق النقود الفضية التي كانت معي

وبينما نحن نتحدث في امر الانتقال بصرنا بعدد من رجال الدنكا يحملون

العصي ووراءهم عدد كبير من الابقار وفي المؤخرة جيش صغير مسلح بالعصي ايضاً تتخلله النساء والاطفال . ولم يلبث الرجال ان نزلوا النهر وأخذوا يعبرونه الى الضفة المقابلة وتبعتهم الابقار وفي اثرها الجيش الصغير . وكان بين القوم شيخ طويل القامة يحمل عصاه ويعتمّ بجلد خروف فناداه عطا افندي فلبى وصعد الى الباخرة فأحسنا وفادته وقدمنا له فنجاناً من الشاي استلذه ثم قدمنا له لفافة من التبغ ففضها وأخذ يمضغ ما فيها من التبغ مضغاً . ولما استقرّ به المقام وأنس الينا سأله عطا افندي عن سبب ذلك الانتقال فقال إن المرعى أجدب في الضفة اليسرى من النهر ولم يعد هناك ما تقتات به الابقار فرأت القبيلة بحكم الاضطرار أن تنتقل الى الضفة المقابلة حيث المرعى خصيب ولكنها تنتظر مقاومة من قبيلة أخرى مقيمة هناك لذلك قد تنشب بين القبيلتين معركة . وكانت القبيلة قد عبرت النهر ووقفت تنتظر شيخها فاستأذننا هذا في الانصراف فودّعناه متمنين له الفوز

وما هي إلا دقائق حتى سمعنا عن بعد قرع العصي المتواصل ولكن ساحة القتال كانت محتجبة عنا بالادغال والاشجار . ولم يطل الامر حتى خفت الصوت ورأينا شيخنا راجعاً وحده وهو يهز عصاه متهللاً فعلمنا انه قد فاز على الخصوم وعاد الينا لكي يشاطرنا فرحه بالانتصار المبين فقابلناه بالترحاب وطلبنا اليه أن يقص علينا خبر الموقعة فأوجزه بكلمات قليلة مؤداها ان القبيلة المعادية سلمت سلاحها ونزلت عن حقوقها حالما وثقت من ضعفها ازاء قبيلته وهكذا تبدل القتال بالمصافحة والترحيب

وعلى ذكر القتال ذكر عطا افندي للشيخ كيفية اقتتال المتمدنين وأراه بندقية ووصف له فعلها فأبى التصديق . ولما أصر على الانكار دعاه عطا افندي الى اصطحابه للصيد في صباح اليوم التالي فوعدنا بالقدوم وودعنا على هذا الامل

جهد مضاع

في الصباح خرج عطا افندي للصيد يصحبه الشيخ وبعض البحارة لحمل ما يمكن أن يصيده وأمر ان يجري الانتقال في غيابه فنقل الجنود والبحارة صناديق الذخيرة وأمتعة الركاب واستقرّ الجميع عَلَى الضفة الرملية ونصبوا الخيام اتقاء حرّ الشمس ولم يبقَ في المركب سوى صناديق النقود التي لم اكن اخشى عليها نظراً الى ثقلها فتبعت الركاب الى الضفة ولبثنا هناك ننتظر عودة عطا افندي وأتباعه . وما هي الا ساعة حتى عاد ضابطنا ومعه الشيخ وعَلَى وجه هذا ادلة الاندهاش الشديد ووراءهما البحارة يحملون شلو أيل (في السودان يسمونه اريل) . ولم ينفك الشيخ يبدي ادلة الاندهاش بكلماته وحركاته حتى تمّ سلخ الأيل وطهينا منه ثم دعونا الشيخ الى مؤاكلتنا وقدمنا له قطعةً من اللحم في صحن ونحن نأمل أن يستلذ الطعام ولكنه لم يكد يضعها في فمه حتى مجها واخذ يبدي كل ادلة الاشمئزاز ولم يهدأ ثائره حتى غسل فمه بالماء مراراً فضاع جهدنا في ارضائه واضطررنا الى توديعه آسفين لاننا اسأنا اليه من حيث اردنا الاحسان

غباوة الجنود

بعد الغداء والقيلولة عدت الى المركب متفقداً فأسرّ اليّ احد البحارة أن في نية احد الجنود القاء احد صناديق النقود في الماء واتهام الجاويش بالجريمة اقتصاصاً منه عَلَى إساءة . فلما سمعت ذلك اوصيت البحار بأن يكتم الامر وحملت عطا افندي عَلَى نقل الجنديين الباقيين في المركب الى البر وغت ليلتي عَلَى الصناديق خشيةً مني أن تُصاب بسوء فأتهم بأمانتي

الوداع

في اصيل اليوم التالي عاد البحار الذي اوفده عطا افندي الى واو وبصحبته جنديان وعدد من البغال

لحمل صناديق الذخيرة وأمتعة المسافرين . اما انا فصدر لي الامر بانتظار باخرة قاصدة واو وكان ذلك اليوم موعد بلوغها ذلك المكان . وقبل ان اودع عطا افندي والصحب المسافرين مشياً عَلَى الاقدام اقبلت الباخرة التي كانت تقل نائب المدير ومساعده ونحو سبعين سودانياً حملتهم خصوصاً لفتح طريق لها في الاماكن التي شح ماؤها ، وكانت هذه كثيرة في ذلك الفصل .

ووقفت الباخرة عَلَى مقربة من المركب فنقلت اليها صناديق النقود وامتعتي وركبتها قاصداً واو وانا احسد نفسي وأشفق عَلَى اولئك المساكين الذين اضطروا الى السفر عَلَى اقدامهم لكي لا يثقلوا عَلَى الباخرة

في ذلك اليوم قيل لي اننا نصل الى واو قبل مغيب شمس اليوم التالي . وفي المساء رست الباخرة نظراً الى صعوبة السير ليلاً فالتقينا ثانية بالمسافرين على اقدامهم وعرض عليَّ عطا افندي شيئاً من الدقيق واللحم لان مؤونتي كانت قد نفدت ولم يبق عندي ما يكفيني سوى يوم واحد فرفضت كل شيء الا قطعة من اللحم مؤكداً لعطا افندي اننا قد نصل الى واو سوية

فيما بعد ندمت عَلَى الرفض كثيراً لان الباخرة لم تبلغ واو الا بعد خمسة أيام ذقت فيها مرارة الجوع المبرح . وكان طعامي في الايام الثلاثة الاول شورباء وشورباء وشورباء الخ ، ذلك اني ابقيت عَلَى اللحم وكنت اضيف اليه قبل كل عافة ماء وأرزاً فاصبحت الشورباء في اليوم الثاني والثالث كناية عن ماء وأرز مسلوق ولكن في اليوم الرابع نفد الارز ولم يكن باقياً معي سوى علبة سردين وعلبة من الفاكهة المحفوظة فأكلتهما مع قطعة من الخبز صغيرة ابقيتها احتياطاً . ثم انصرفت بعد ذلك الى شرب الشاي وأكل السكر وفستق العبيد (ويسمونه فول سوداني) والتدخين

بدرجة تخمد انفاس الشهية حتى بلغنا واو وأنا اشعر بأني استطيع التهام طعام وليمة

حل بي كل هذا لان ذوقي لم يكن يطاوعني على اكل طعام السودانيين ونفسي أبت علي طلب الطعام من رفيقي الانكليزيين مع ان احدهما تلطف بي كثيراً وسعى بكل قواه الى رفع الكلفة بينه وبيني

واو

واو عاصمة مديرية بحر الغزال وهي اليوم مدينة منظمة ذات ابنية حديثة وفيها كل اسباب الراحة التي يتيسر نقلها الى تلك الاصقاع ولكنها كانت في ذلك العهد كناية عن قرية ذات بيوت قليلة مؤلفة من جدران حجرية تعلو اقل من مترين عن الارض لها سقف من القش على شكل هرمي مستطيل . وهذه كانت البيوت الممتازة التي يسكنها كبار الموظفين والمستخدمون من الاجانب اما الوطنيون وسواهم فكانوا يعيشون في بيوت ، او بالاحرى اكواخ ، كلها من القش

مصاب هذه المدينة الاكبر هو أنه اذا ما جاء المساء وأنيرت المصابيح هاجمتها جيوش الهوام التي تسكن الغابات المحيطة بها فتحجب لكثرتها الانوار وتحول دون مرأى الجلوس او المارة واذا كان هناك طعام عافه الآكلون لانها لا تلبث أن تمتزج به وتغطيه ولو انقطع الآكل الى التهويل والكش. لذلك يتعشى الوطنيون قبل المغيب ويجاريهم في حكمتهم هذه بعض الاجانب، غير ان كل من شاء المخالفة لا يرى بدأ من الاكل ضمن كلة (ناموسية) توضع داخلها المائدة و يقف داخلها خادم ايتناول اصناف الاطعمة ممن يأتي بها من المطبخ في أوعية محكمة الغطاء ويدخلها بكل حذر لئلا تتأثرها الهوام

هذا مصاب الليالي في واو متى كانت رطبة فاذا جفت اعتبرها السكان بمثابة ليلة القدر ولكن الليالي الصالحة قليلة الا في فصل الجفاف الذي يقل

فيه هطل الامطار . اما عن الدبابات والزحافات فلا تسل فان الحيات كانت تتخطر في الطرق كما تتخطر المارة

وشر الهوام البرغش اللاذع الذي يسبب الحمى الدورية وهو ينشأ في المستنقعات التي تعنى الحكومة كثيراً بأمر تجفيفها وقد كانت على الدوام تصب في البرك القريبة زيت البترول فيطفو هذا الزيت على وجه الماء ويحول دون تولد البرغش فيه

أما الحمى الدورية المسببة عن لذع البرغش فمرض ثقيل انفع شيء في معالجته الكينا ولكن اذا تمكن مكروبه من الدم اصبح استئصاله من صعاب الامور ، واذا ارتكب المريض شيئاً من الاهمال وتوالت عليه الاصابات انقلب المرض الى ما يسمونه « الحمى السوداء » وهذه لا تمهل المريض اكثر من اربع وعشرين ساعة وقد توفي بهذا المرض اثناء وجودي هناك احد المستخدمين المصريين وهو في شرخ الشباب

رهبة الموت

ليست رهبة الموت واحدة في المدن المزدحمة والاصقاع النائية القليلة السكان فان مشاهدة خمسين جنازة في مدينة لا تحدث في نفسك اقل تأثير بالنسبة الى مشاهدتك جنازة واحدة في قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن خمسين شخصاً لان جزعك من الموت في الحالة الاولى يكون على نسبة واحد الى الوف وفي القرية على نسبة واحد الى خمسين فقط . ناهيك بأسباب التسلية والعزاء المتوفرة في المدينة والمعدومة في القرية ، وعلى الاخص متى كانت هذه غير صحية وكل من فيها معرض للموت بين ليلة وضحاها

ولست أنسى ما كان بادياً في ذلك اليوم الرهيب على وجه نخله افندي من ادلة الرعب الشديد فانه كان مثل كل الجبناء حريصاً على حياته الى درجة

قصوى وكان قد ُمني بالحمى الدورية اكثر من مرة وقد زرته بحكم الواجب مراراً وشجعته واستثرت همته ولكنه لم يلزم الفراش مرة الا ساعد المكروب عَلَى نفسه باستسلامه الى الجزع والقنوط فكان يجيبني عَلَى تشجيعي له بقوله مثلهناً : « اني اشكرك يا توفيق افندي ولكنني لم أضع عقلي بعد لكي اعتقد بأني عائد الى مصر ثانية ً ! » . هذا كان حال نخله افندي قبل ان يشهد تلك الجنازة المؤثرة وقد زاد في تأثيرها ان الحفرة لم تتسع للجثة برغم اشتغال النملة بالحفر النهار بطوله لان الارض هناك كناية عن صخور حديدية لذلك بنوا فوق الضريح شبه قبة من الحجارة توقيــةً للجثة من الحيوانات المفترسة .

منذ ذلك اليوم اخذ نخله افندي يغالي في استعمال اسباب الوقاية ولم يبقَ طبيب هناك الا عاداه وأصبح يهرب منه نظراً الى شدة هلعه واكثاره من الاسئلة بشأن النوم والنهوض والقيام والقعود والرواح والمجيء والاكل والشرب ، وكل نافع فيبتغيه وضارٌ فيتقيه

العودة

مكثت في واو خمسة اشهر كانت كخمسة اعوام برغم كوني لم أصب بالحمى سوى ثلاث مرات ولم الزم في احداها الفراش اكثر من يوم واحد ولكن رداءة الطقس تهدٌ القوى تدريجاً وتحرم الانسان لذة الحياة ، لذلك شعرت بفرح عظيم عندما ازف موعد سفري فودعت الصحب والزملاء وعدت يصحبني خادم وأربعة وطنيين يحملون امتعتي وكان علينا أن نسير عَلَى الاقدام مدة ستة أيام لان ماء النهر كان لا يزال شحيحاً لا يحمل البواخر وليس في واو حمير ولا بغال لان هناك ذبابةً تلدغ الحمار او البغل فينحل ويموت في وقت قصير

سرنا نخترق الغابات في شبه طريق تؤدي الى مشرع الرق فكنا نبيت

نحو الساعة السابعة في اكواخ معدة للمسافرين وننهض الساعة الثالثة صباحاً فنستأنف سيرنا حتى الساعة التاسعة او العاشرة حين يتعذر السير لشدة الحرارة فنستريح الى الساعة الثالثة او الرابعة ثم نستأنف السير ثانيةً الى السابعة وهكذا على التوالي

الوطن قتال

بينما كنت في احدى الليالي استعد للنوم سمعت حديثاً دائراً بين وطنيين يجيدان التكلم باللغة العربية وكان موضوع حديثهما « مدينة واو » مكان قصدهما فكانا يتباريان في وصف محاسنها وذكر مغانيها ويستعجلان الوقت الذي تطأ فيه قدامها « مرتع الانس والصفو » ، ولا يزال يرن في اذني صوت احدهما اذ قال متأوهاً : « إمتى نوصلك يا واو » . وبالاختصار لم اجد مما استوعبته من حديثهما اقل فرق بين نظرهما الى واو ونظر قرويين فرنسويين الى باريس فتذكرت المثل القائل : « لو لم يكن الوطن قتالاً لكانت بلاد السوء خراباً»

بين النقيضين

كنا في طريقنا نستقي الماء من آبار فيها سائل يروي الظمأ ولكنه ابعد شيء عن الماء اذا اعتمدنا تحديده الطبيعي ، اي ان الماء سائل لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ذلك ان الماء الذي كنا نستقيه كان يبدو في الوعاء حيناً اصفر وآخر اخضر وآخر احمر وكان ذا طعم مالح او مرّ او بينهما ورائحة كريهة للغاية — كل هذا بعد ان يغلى جيداً ويُترك حيناً ريثما يبرد ويركد ما فيه من الاقذار ويُصفى بالطريقة المألوفة . هذا الماء لم يكفه انه رديء بطبيعته حتى زاده رداءةً ما طرحه فيه من الاقذار عدد من الجنود المصريين الذين كانوا عائدين من بحر الغزال بعد ان قضوا هناك زمناً طويلاً ذاقوا فيه الامرّين وكانوا لسوء الحظ قد سبقونا بيوم ورأوا « لحماقتهم » ان خير وسيلة

لابداء احتجاجهم المنيف على سكنى تلك الاصقاع طرح بقايا الطعام والخضر والفتات في كل بئر يغادرونها بعد ان يرتووا منها ومع ما كنت عليه من التعب والاستياء لم يفتني ان اسجل في ذاكرتي الفرق العظيم بين سلوك الوطنيين الذين خلفناهما وراءنا طائر بن علي اجنحة الشوق الى واو والمصريين الهاربين منها ووجهتهم مصر

حيث لا ينفع المال

في اليوم الثالث لحظت ان سيرنا كان بطيئاً وصرت أخشى ان تفوتنا الباخرة فحثثت من معي على الاسراع وقطعنا في ذلك اليوم ثلاثين ميلاً ، ولكنني في المساء علمت أني أسأت إلى نفسي من حيث أردت الاحسان وان تأخري اصبح حقيقة بعد أن كان ظناً لان الاعياء أخذ مني مأخذه . وعند ما ايقظني خادمي حسب العادة رآني عاجزاً عن السير ولم اقطع في اليوم الرابع سوى ثمانية اميال . وحالما بلغت محطة أويت الى أحد الاكواخ واكدت للخادم أنني غير ناقل قدماً إلا اذا قيض لي الحظ قصعة من المرق تعيد الي نشاطي وحدث اتفاقاً ما لم اكن احلم به إذ لم تمض دقائق معدودة حتى نزل في ذلك المكان جنود ذاهبون الى واو ، ولم يكادوا يحطون عصا الترحال حتى بصر احدهم بغزال رماه برصاصة فأرداه وهكذا تهيأ لي المرق الذي كنت في اشد الحاجة اليه ولم يكن وحده كافياً لولا تأخر الباخرة لسبب لم يكن في الحسبان

لماذا كادت تفوتني الباخرة ؟

جنى عليَّ ما تقدم بيانه ما منيت به منذ حداثتي من أنفة وإباء لا جهلي المسافات وما يستغرقه قطعها من الوقت . أما كيف كان ذلك فإلى القارئ البيان :

ذكرت في ما سبق أني قطعت المرحلة الاخيرة الى واو في باخرة تقل ضابطين انكليزيين الواحد برتبة امير ألاي والثاني برتبة بكباشي ، وان الاول لامر غادر الباخرة وسافر براً و بقي الثاني

هذان الضابطان المتكبران لم يكونا يلقيان الي بالاً أو يكترثان لوجودي فلما رحل اولهما تبدل سلوك الثاني وأخذ يسعى الى انشاء علاقة معي فأدركت انا أن تساهله في كبريائه لم يكن طوعاً فرأيت ان اكيل له بكيله

إنه بعد ترحل رفيقه طفق ينتقل الى الصندل الذي لم نكن قبل ذلك نطأه قدماه او ينعم عليه بنظرة و أخذ مرة يسارقني النظر وأنا مستلق في كرسيّ أطالع نسخة من كتاب البؤساء باللغة الانكليزية وكانت النسخة التي أطالعها حديثة عهد بالصدور وهي بمجلد واحد من طبعة شعبية ابتعتها بشلن واحد في ذلك العهد • فلما وثق من أني اعرف لغته « تكرم » فحياني ودعاني لمرافقته الى الباخرة واصعدني الى السطح الأعلى لاشرف على المناظر الطبيعية البديعة التي كنا نمرُّ بها فكنت أتبعه تأدباً ولكنني لا البث أن اعتذر وأعود الى مكاني فأسامر كتابي

و بعد وصولي الى واو كنت اتجنبه واتغاضى عنه لكي لا اؤدي اليه التحية على ما كان مألوفاً وهو أن يأخذ الصغير سلام الكبير فأثرت بذلك موجدته وأنا لا أدري حتى جاء يوم تولى فيه مهامّ المديرية بالوكالة بدلاً من المدير الأصيل الذي توجه على رأس جيش لإخضاع قبيلة نيامنيام الثائرة فشرع عند كل سانحة يستبد بي و يريني من آيات بطشه ما يمنُّ له حتى انتبه قبل سفري مودعاً فأمرني لغير سبب معقول بأن اتأخر الى اليوم الثاني وأبى أن يسمع لي حجة أو رجاء وهكذا تأخرت عن موعد الباخرة يوماً كاملاً !

حلة العميان الحلة كمحلة ، والعميان هنا ليست جمع أعمى بضم العين بل بفتحها والمقصود منها بلغة القوم مفرد أعمى

اما هذا الاسم فقد أطلق عليها لذكرى شيخ قبيلة دنكاوية كانت حالة فيها أراد أن يدفن حيا ودفن فعلا باحتفال باهر لا يجري مثله في عرس لأنه كان قد أدركه الهرم وعمي ولم يعد يجد لذة في الحياة!

المريسه دواء

في قرية الصيان حططت رحالي مكرها ويائسا من ادراك الباخرة ولحسن الحظ وجدت رفاقا من عمال دائرة البرق لقيت منهم كل لطف وإيناس . وبينما نحن جلوس نتحدث جاء المبشر بتأخر الباخرة عن موعدها بحيث اصبح في إمكاني ادراكها اذا انا بكرت في النهوض وواصلت السير بشيء من السرعة

وبينا أنا أهنئ نفسي ويهنئني القوم عَلَى ذلك الحادث غير المنتظر اذا بي أسمع نفيراً يضرب فسألت الخبر فقيل لي إن ذلك نفير الحاج عثمان المشهور بصنع المريسه الفاخرة وهي الشراب السوداني الشائع الذي ما كنت حلمت أن اذوقه عمري وهو كناية عن نقيع الذره البيضاء مختمراً ، وما كنت أجهل انه مرطب ومغذ في وقت معا ولكن نفسي كانت تعافه . عَلَى أن ما كنت فيه مقترنا الى تشجيع أصدقائي الجدد وتأكيدهم لي ان الشيخ عثمان امهر من أعد ذلك الشراب في السودان وقد سبق له أن ام القطر المصري وغشي منازل الكبراء واعتاد أساليب النظافة المتبعة فيها جرأني عَلَى تضحية ذوقي فطلبت كنتوشا (جرة صغيرة) من المريسه وشربت ما فيه عن آخره وأتبعته بالشورباء وبضعة اجزاء من دجاجة ونمت فكان ذلك الشراب لدائي « صحة الرسول » ونهضت نشيطا وواصلت السير عَلَى صعوبته وأدركت الباخرة لا متحفزة للسير بل متحركة وهكذا نجوت من قضاء اسبوعين كاملين فريسة البرغش والوحدة في مشرع الرق

الرحلة الرفاعية

رفاعه حاضرة اكبر مركز في مديرية النيل الأزرق واقعة على الضفة اليمنى من هذا النهر ولكنها تبعد عنه مسافة غير قليلة اتقاء طغيانه إبان الفيضان وعدد سكانها سنة ١٩٠٧ التي أممتها ففيها نحو عشرة آلاف كلهم تقريباً من السودانيين ومعظمهم من أصل عربي هاجروا الى الجزيرة من بلاد العرب بطريق البحر الأحمر

أما مهمتي فيها فكانت الحلول مكان زميل عرفته فيما بعد في واد مدني حاضرة المديرية إذ عدته في المستشفى حيث كان يقاسي أعراض داء عضال أودى أخيراً بحياته

السفر

يقطع القطار المسافة بين الخرطوم ورفاعه في أربع ساعات على ما أذكر ولكنني في أواخر سنة ١٩٠٧ عند ما صدر لي الأمر بالسفر اليها كان يجري الانتقال على الجمال ويستغرق نحو يومين ، وكانت تلك المرة الاولى التي ركبت فيها جملاً

وكنت لسوء حظي أجهل أن من الجمال ما يصلح للركوب ومنها ما لا يصلح إلا لنقل الاثقال ، والأول يطلقون عليه في السودان لقب « وهيط » أي مرن المرقوب ، فلا يتعب راكبه لخفة وطئه . ولأنني كنت من صغار

المستخدمين فلا مطمع في جانبي ولا خشية من بطشي رأى المتعهد أن يخصني بجمل من النوع الثاني فكان سفري جهاداً مستمراً للبقاء على سنامه إلا أنه كان في الوقت نفسه امثولة لي فلم أركب بعد ذلك إلا جملاً وهبطاً

الوصول

كان سيرنا طبعاً عَلَى الضفة اليسرى وبلغت ورفيقي الجمّال المرفأ المقابل لرفاعه ضحى اليوم الثالث فبقي علينا أن نعبر النهر عَلَى قارب ما حسبته يحمل بشريين فضلاً عن جملين فأبيت أن أعبر إلا منفرداً خوفاً من انقلاب القارب وانتظ الجمال فنقل جمليه كلاً عَلَى حدة

حمير رفاعه

كنت في الخرطوم معتاداً كهواي ركوب الحمير فلم أعجب عند ما رأيت في انتظاري عَلَى الضفة اليمنى شاباً سودانياً ببزة افرنجية ممسكاً بزمام حمارين ما دانيته حتى حياني مرحّباً بي باسم المأمور حيدر رستم وأعلمني أنه أحد المستخدمين في المركز

وأركبني احمد افندي أجود الحمارين وافضلها عدةً وراح يعدو عَلَى حماره كأنه مغير وحماري يتبعه ويحاول سبقه بركض تقصر عنه الخيول الاصيلة وأنا مجهد منهوك القوى بفضل سفري الشاق الطويل نخشيت العاقبة واستمهلت احمد افندي مبدياً له عذري مشفوعاً باعجابي بحمير رفاعه التي لم أجد لها في الخرطوم نظيراً فاعتذر إليّ بأن المفاجأة قضت بأن لا يكون حماري من الخاصة فحمدت الله في سرّي لأن ذلك السير الوئيد في نظر احمد افندي كاد يكون في نظري طيراناً

دار الحكومة

وبلغت دار الحكومة فإذا بها بناء مستطيل مؤلف من غرفتين الواحدة للمأمور والثانية لنائبه فرواق فبهو كبير للمستخدمين مقتطع جانب منه للخزينة

دخلت عَلَى المأمور حيدر رستم فإذا بي أمام ضابط معتدل الجسم أبيض البشرة أشقر الشعر تركيّ الملامح وفي عينيه مهابة ووقار وعَلَى محياه ابتسامة الدعة وطيب العنصر فأنست اليه وهنأت نفسي سلفاً بعشرته . وفعلاً علمت فيما بعد أن فراستي لم تخطئ في ردّه الى أصل تركيّ وكان لي الصديق الكريم والخلّ الوفي طيلة اقامتي في رفاعه التي تجاوزت سبعة اشهر وما عابها سوى جهلي مدتها بحيث كنت دائماً مقيماً عَلَى سفر

وزرت نائب المأمور توفيق حلمي فإذا به ضابط قبطي سويّ المعارف بشوش المحيا عَلَى انه كان بالنسبة الى حيدر رستم شيئاً عادياً

ودخلت عَلَى الاثر البهو العام للمستخدمين فاذا بهم جلوس الى مناضد متلاصقة عَلَى الجانبين وكلهم سودانيون مطلقون لحى قصيرة مختلفة الاشكال ومرتدون الملابس الافرنجيـة وعَلَى رؤوسهم الطرابيش فوقفوا مرحبين ومسلمين وحييتهم وصافحتهم اجمعين

سكني الموقت

وأرسل المأمور من أتى بحقائبي وأودعها دار الضيافة حيث تقرر أن يكون سكني الموقت . وكانت هذه الدار كناية عن بناء مرتفع عن الأرض نحو مترين يصعد اليه بسلم مؤلف من بهو كبير الى جانبه غرفة واحدة وامامه رواق وفناء كبير محاط بسور

ولكنني كنت فيه الضيف الوحيد وهو بعيد عن البلد قريب من المقبرة وأنا من جملة السوريين الذين رسخ الخوف في أذهانهم منذ الصغر وقد كانت مربيتي خادمة جاهلة لا تجد دواء لشفاء طياشتي وحملي عَلَى الإخلاد الى السكينة وإطاعة أوامرها العالية أفضل من تخويفي بالبعبع والمارد حتى أنني ما كنت أخرج ليلةً من المنزل قاصداً بيت جيراننا القريب إلا متمتماً ذهاباً

اياباً مرة « أبانا » ومرة « السلام » اتقاء شر الأرواح الشريرة التي كنت أعتقد أنها معشعشة في تنور قائم على الطريق فكيف أبيت وحدي في ذلك المضيف النائي عن الاحياء القريب من الاموات ؟!

على أنني لم أبح لاحمد افندي بشيء مما تقدم بل اكتفيت بتكليفه أن يدبر لي خادماً استعين به على قضاء بعض حاجات فأبدى كل استعداد لخدمتي واتاني بفتى خلاسي في نحو الخامسة عشرة من عمره يُدعى محمداً وللحال دخل هذا الفتى في خدمتي وكان اول ما كلفته اياه أن يأتيني ببطيخة والبطيخ في رفاعه كثير وفاخر ورخيص وكان إذ ذاك موسمه وهو ينمو نمواً مدهشاً حتى أن محمداً كاد يعجز عن حمل البطيخة التي اشتراها بنصف غرش كما عجزنا عن التهامها كلها في يومين برغم تقديمنا اكثر من نصفها للزائرين الذين وفدوا للتسليم عليّ

جورجي كلامتيانوس

لكثرة انتشار اليونانيين في جميع انحاء السودان قال اللورد كتشنر يوماً : « تحت كلّ حجر تجد يونانياً » ولم تخالف رفاعه هذه القاعدة فقد كان فيها دكان بقالة ليوناني يُدعى جورجي كلامتيانوس وهو كهل ، طويل القامة اسمر اللون أشيب الناصية يلبس الطربوش وقبازاً قطنياً ابيض وسترة سوداء . والغريب في أمره أنه من الذين وقعوا في اسر المهدي واعتنق مكرهاً الاسلام واقترن بسودانية رزق منها أولاداً سودانيين يميل لونهم الى الحمرة وكان يجيد التكلم بالعربية بشيء من اللكنة طبعاً

تعرفت الى هذا الرجل في اليوم الاول لوصولي وابتعت منه بعض المأكولات وأصبح فيما بعد صديقي وكان الرواق القائم أمام دكانه محط رحالنا كلّ مساء أنا والمأمور ونائبه وشاب مصري مدرّس من قبل دائرة المعارف

اسمه منير رفعت تعرفت عليه فيما بعد وصاحبته طيلة مدة إقامتي في رفاعه . عَلَى أن اسمي في عرف جورجي كلاميانوس ظل دالي الابتداء مقلوع العين ، أي دُوين

المارد

اذكر اني رأيت في صغري المارد المحكي عنه فكان كعمود يناطح السحاب فنبثت عدة دقائق أسمع دقات قلبي كوقع المطارق . كان ذلك ليلاً بينما كنت عائداً وحدي من بيت الجيران ولم تشفع به صلواتي ولا تمازيي . اما في رفاعه فقد سمعت عنه ولم تره عيناي

وشر ير الخبر أنني في الليلة الاولى نمت عَلَى عنجريب في البهو وأبقيت الباب مفتوحاً اتقاء الحر ونام الخادم محمد عَلَى عنجريب آخر في الرواق امام الباب . وما كاد يغمض جفني حتى ايقظني محمد بتململه فسألته ما الخبر أجاب أنه يسمع حركةً فطمأنته وأمرته بأن ينام ولكنه بعد دقائق عاد الى تشنجه وانتفاضه واخيراً صاح قائلاً إنه يرى مارداً وهب من سريره مرتعشاً فهببت أنا أيضاً ليس تصديقاً مني لحكاية المارد بل خشية أن يكون قد طرق لضيف امر . وأردت التحقق فأنرت المصباح ودرت حول البناء فلم أجد احداً ولا سمعت صوتاً ولكن المارد كان يعود كلما اطفأت المصباح وتوسدت الفراش فكانت ليلة شيطانية لم يغمض لي فيها جفن

في اليوم التالي عينه اخذت أفتش عن منزل في البلدة أأجره ولكن مرت بضعة أيام قبل ان اتوفق الى مسكن مناسب لم ينقطع فيها المارد عن زيارتي دون أن اراه حتى ان محمداً قال إنه رآه مرةً في النهار

بعد ان انتقلت الى المسكن الجديد احتلت عَلَى محمد فاعترف بأن رفاقاً له ساءهم ابتعاده عنهم فأغروه بأن يخترع حكاية المارد لكي يحملني عَلَى

الانتقال الى البلدة فكان جزاؤه مني الطرد فاعتضت عنه بواسطة صديقي جورجي كلامتيانوس بعبدة رق اسمها « ثقل الزعالة » كان يتقاضاني سيدها الشيخ عبد الله ثلاثين غرشاً شهرياً ونكلفني نحو عشرين ثمن ملابس . وكانت تجيد الطبخ وغسل الثياب وترتيب المنزل وتأتي بالماء من النيل البعيد وظلت في خدمتي حتى غادرت رفاعه عائداً الى الخرطوم . أما اسمها فنعت لسيدها ومعناه : « ثقيل عَلَى الاعداء » . ولم يطل بي الامر حتى امتد حبل الصداقة بين منير رفعت وبيني فاستأجرنا منزلاً كبيراً ذا فناء رحب نعايشنا فيه كما كانت تتعاون خادمتانا عَلَى قضاء الشؤون المنزلية وكانت أجرة ذلك المنزل عَلَى ما اذكر ثمانين غرشاً في الشهر

اما المعيشة فكانت بالغة من الرخص حداً يكاد لا يصدق فالدجاجة بغرش وزوج الحمام بغرش وكل ما كنا نحتاجه من الخضر في اليوم بنصف غرش . وفي كلّ يوم كان يأتيني صياد بكل ما يصيده من السمك ، كثر او قلّ ، بغرشين ولا يبيع صيده من سواي تحت تهديد جورجي كلامتيانوس اياه بأني اقصف عمره مكرراً عَلَى مسامعه هذه العبارة : « السمك ياولد للصرّاف ابو شعر وإلا بقصف عمرك » !

الصرّاف ابو شعر

هذه كانت صفتي البارزة في نظر الوطنيين لانهم يحتثون شعورهم أما انا فكنت طويل الشعر كثه وقد اشتهرت بهذه الصفة في طول المركز وعرضه فضاع معها اسمي

في العمل

وكنت في نظر المستخدمين والوطنيين نقيض زميلي المريض في كلّ شيء فكنت ذا عينين ، ابيض البشرة ، طويل الشعر ، حادّ المزاج ، برقيّ السرعة في قبض المال

ودفعه ورصد الدخل والخروج في الدفاتر فكان المكلفون اذا أدّوا رفاعه من من مختلف الأنحاء لم يستطيعوا العودة في اليوم عينه لان جنيد افندي كان سلحفائيّ الحركة في كل ما تقدم فاذا ما خدم ثلاثة او أربعة وأزف وقت الانصراف اودع ما يحمله الباقون من المال صندوقاً خشبياً وختمه بالشمع الاحمر لكي يستأنف عملية القبض في اليوم التالي وهذا ما لم يحدث البتة في عهدي بل أنني كنت أنجز اعمالي في نصف الوقت او دونه وأتردّد الى منزلي القريب مرتين او ثلاث فأغسل يديّ وأرطب وجهي بالماء وأعوض مساعدتي على المقصرين من الكتاب في رصد لوائح الضرائب في الدفاتر فكانوا يقبلون مساعدتي شاكرين حامدين اذ بذلك يوفرون على انفسهم العودة بعد الظهر و يرتاحون في بيوتهم بعد أن يتخلصوا من أمر ملابسهم الافرنجية و يتمتعون بأثوابهم الواسعة وهي كناية عن قطع قماش يلفونها على اجسامهم

اما تأخرهم عن القيام بواجباتهم فلم يكن مردوداً الى كثرة المطلوب منهم بل الى قصر مداركهم و بطئهم المتناهي خوف الخطإ فان واحدهم كان يصور الكلمة في الهواء مراراً قبل ان يكتبها ثم يدوّنها بيد مرتعشة ، و يزداد حذره عند رصد الارقام . اما انا فكنت مسلحاً بقلم مدّاد ماضي العزيمة فأجلس قبالة الكاتب وأُكلفه أن يقرأ لي من اللائحة وانا ادوّن في الدفتر حتى اذا ما انتهى الوجه جمعت بسرعة يهلع لها قلبه ونقلت الجمع الى الوجه التالي برغم احتجاجه ومررت في عملي لا ألوي على شيء حتى يأتي هو على آخر لائحته فأتركه مدهوشاً ومبسملاً ومحوقلاً وانتقل الى سواه فأكرّر العملية نفسها

زد الى ما تقدّم أنهم كانوا يرَون الكلفة مرفوعة بين المأمور وبيني فكانوا ينظرون اليّ كما ينظرون اليه ، وهو الحاكم المطلق الذي لا يُردّ له

امر . أما الفلاحون فكانوا يعتبرونني فوق المأمور لانني المتصرّف بالاخذ والعطاء والمأمور نفسه يتلقى مرتبه من يدي !

وبلغ من حسن العلائق التي نشأت بيني وبين السادة والمشائخ الوطنيين أنني فزت ونعمت بحبهم وعطفهم واحترامهم حتى أني كنت كلما نويت السفر الى واد مدني حاضرة المديرية لأحمل اليها ما يفيض من الدخل عن الخرج اجد أمام بابي في الصباح عشرات الجمال الكريمة والحمير الممتازة وتتعالى حولي أصوات الغلمان الذين يقتادونها وكلٌ منهم يؤكد لي أن الشيخ فلاناً يستاء اذا لم أركب جمله او حماره

اما وهذا هو المركز الذي كنت اشغله في اذهان القوم وقلوبهم فلا بدع أن اصبو اليوم اليه كما يصبو طريد عرش الى عرشه . ولكن هذا العرش كاد يكلفني يوماً حياتي على ما سبجيء

أسرة ابو سن

هذه أسرة عربية نبيلة اشتهر منها أبطال مغاوير ورجال حصافة وحزم وأولو فضل وتقى وكرامات كما شذّ منها افراد اتخذوا هيبة اسمها ستراً لما فُطروا عليه وأمعنوا في استغلاله من المخازي

إنهم كانو حتى الفتح وبعده بسنوات ملوك هاتيك الانحاء لهم الارض ومن وما عليها لا يعصى لهم أمر وليس لعاصي امرهم نجاة .

وكما اعتقت الحكومة الرقيق بشروط رأت أن تحوّل ملكية الاراضي للقائمين على استغلالها فقدرت أثمانها وفرضت على المالكين الجدد اقساطاً يؤدونها في مواعيد معينة لخزينة المركز وهذه بدورها توزعها على المالكين الاصليين من أسرة ابو سن . وبهذه الواسطة اتصلت بمشايخ هذه الاسرة

الشيخ الامين ابو من

شيخ في السبعين او فوقها طويل القامة معتدلها سوي معارف الوجه ابيض الشعر واللحية والشاربين ومثال التهذيب والتقى والصلاح وخفة الظل وكان منقطعاً لعبادة الله في بيته يرتاض ويتنزه في بستانه صارفاً همه الى الاعتناء بأغراسه وكانت النظافة عنده من الايمان فيستحم ويبدل ثيابه مرتين كل يوم ، وربما لم اخطئ اذا شبهته من وجوه عديدة بطاغور فيلسوف الهند وشاعرها

كان يزور المأمور في منزله فنجتمع هناك ونتحدث وكان كثير التأدب في جلوسه مقلاً من الكلام شديد العناية في تخير الالفاظ متغاضياً عن العيوب ذاكراً الحسنات ، ولم يطل يوماً جلوسه برغم تشديدنا عليه في البقاء لاننا كنا فعلاً نستلذ حديثه ونشعر بحلول البركة علينا بقربه . وكان يزورني في الخزينة مرة في الشهر ليستوفي نصيبه من ثمن الاراضي على أنه كان يصحب معه تابعاً يتناول عنه القيمة ويضعها في كيس لانه كان يأبى ان يمس المال بيديه ويحسن منه بالشيء الكثير . وكنت أرحب به وأجل مقامه ويخالف هو قاعدته فيطيل جلوسه في مكتبي إلا اذا رآني مشغولاً

الشيخ عبد الله ابو من

كان هذا شقيق الشيخ الامين ولكنه لم يكن على شيء من مشابهته وتقاه وصلاحه بل كان رواغاً شديد الدهاء على انه كان يبدي لي وداً وعطفاً فيلاقى مني مثلهما احتراماً لأسرته وبنوع خاص لشقيقه الاكبر الشيخ الامين

واتفق مرة أن ابلغني احدهم أن هذا الشيخ مدين لأنسباء له فقراء بمبلغ من المال هم في أشد الحاجة اليه ولكنه يمطلهم ولا يعبأ بشكواهم لعلمه

أنهم يخشونه ويعجزون عن مقاضاته . قلت هل تقصد الاستعانة بي على تحصيل المال قال إن فعلت كان لك اجرٌ كبير فوعدته خيراً

وما هي الا ايام حتى حلّ الموعد الذي يستوفي فيه الشيخ عبد الله نصيبه فهيأت له القيمة بعد أن حبست منها المبلغ الذي ذكره الرجل فعدّها الشيخ واعترض عَلَى نقصها فقلت تذكر ياشيخ ان أنت مدين . قال لست مديناً لأحد قلت ولا لله ؟ فأجاب هذا حساب آخر فصارحته بما كان فاحتج منكراً عليّ الحق بأن استوفي منه مالاً ينكر هو بأنه مدين به . فخاصمته واستثرت عطفه عَلَى انسبائه الفقراء الذين يخشون مطالبته بالحق الصريح فضلاً عن أن يدعوا عليه زوراً وبهتاناً فأصرّ عَلَى الانكار وتهددني برفع شكواه الى المأمور فقلت هذا اليك فسار لتوّه ولم يلبث هذا أن استدعاني فوقفت منه عَلَى عيني الشيخ موقف المدعى عليه ولكنني أشرت اليه من طرف خفيّ بأن يكون معواناً لي عَلَى ذلك الظالم وهكذا تواطأنا عليه واحتفظنا بالقيمة وفي ذلك اليوم عينه سلمتها لأصحابها فكان لهذا الحادث ضجة كبيرة في البلدة لان الشيخ عبد الله عَلَى غناه اشتهر بين مواطنيه بهضم الحقوق . ونمي الخبر الى الشيخ الامين فسرّ كثيراً ووثق بأخيه عبد الله واكبر عملي

ولكن الشيخ عبد الله عَلَى تظاهره بعد ايام بالرضى اضمر ليَ الشرّ وراح يتربص لي ، وبقدر غير منتظر سنحت له الفرصة فبذل جهده للإيثار مني

اما الذي حدث فهو أني انهلت بإهانات مرة عَلَى شيخ أخلف وعده معي بأن يؤجرني بيتاً كان يبتنيه وكان ذلك في ساحة عمومية وعَلَى مسمع من جمع غفير فأغرى الشيخ عبد الله ذلك الخلاف بأن يدّعي عليّ زوراً بأني شتمت دينه ودبّر هو بدهائه ونفوذه الشهود « المدول » وفعلاً نُظمت بحقي عريضة ورُفعت الى المأمور لكي يرفعها بدوره الى المرجع

الايجابي ، فاستدعاني حيدر رستم لا كمدعى عليه بل كصديق يهمه امره وأفهمني حراجة موقفي وأشار عليّ بإرضاء الشيخ عبد الله فأبيت إباء دُهش له ذلك الصديق وقلت له بصريح العبارة إنني افضل الشنق على أن انزل الى ذلك الدرك وانا بريء من تلك التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب

وبتُّ ليلتي تلك احسب للأمر الف حساب ولكن في اليوم التالي عينه فوجئت بنبإ قدوم ذلك الشيخ الخلاف اسحب العريضة ولم يلبث أن دخل عليّ معتذراً وانتهى الامر بانخذال الشيخ عبد الله

اما ذلك الحدث المستغرب فكان نتيجة جلسة ليلية عقدت في منزل الشيخ الامين ابو سن وانتهت بذلك القرار الشريف

الشيخ احمد الواكني

كان هذا الشيخ على ضخامة جثته لطيفاً فكهاً ولم يكن عربياً قحاً وكنا نستلطف محضره ونداعبه ونلاعبه بالنرد امام دكان جورجي كلامتيانوس حيث كنا نجتمع كل مساء وتأتينا القهوة مراراً من مقهى مجاور كلٌ فنجان على واحد . وكان هذا الشيخ اكولاً الى درجة تستحق الاستغراب ، وخير ما أوثره من حكاياتنا معه أننا دُعينا ذات ليلة الى حفلة عرس في دار احد مشايخ ابو سن ، وكانت تلك الليلة الاخيرة وكانت قد سبقتها ليالٍ نُحرت فيها مئات الخراف وقدّم الطعام لالوف المدعوين من عشرات القرى المجاورة على الطريقة السودانية اي في فناء الدار فيجلس الآكلون الى السماط افواجاً اذا ما شبع منهم فوج تلاه آخر

اما الداعي وصديقي منير رفعت والمأمور حيدر رستم ونائبه توفيق حلمي فمدت لنا في احد مقاصير الدار مائدة مستكملة المعدات الاوروبية

وو ُضعت عليها أنخر الما كل واشهاها ، واخـيراً أتي بخروف محشو بكامله

فـألت انا عن الـواكني فقيل إنـه في الخارج وقد برك للاكل مراراً حتى أنه لم يعد يـتطيع ازدراد لقمة واحدة فـألنا بصوت واحد إدخاله فدخل

وإذ رأى الـواكني ذلك الخروف المحمر وقـد ُبقر بطنه وظهرت حشوته تتخللها المكسرات من الاثمار المجففة على اختلافها وعبقت من مجموعـه رائحة زكية هي خير مفتاح للشهية ادار علينـا نظرة عتب مر ثم تأوه وتنفخ وقال : « والله انتو مش اصحاب ، هـم تعزموني » فاعتذرنا بأننا لم نكن على علم بوجوده فهز رأسه مستنكراً ، وبعد الحاح شديد جلس ولكنه بعد أن لاك لقمة اعترف بعجزه عن ازدرادها فوقف وقال : « يا ناس إيش يعمل الزول بلأكل السمح ؟ لا يقدر ياكله ولا يقدر يخليه » ! فكان مشهد مضحك للغاية تلألأت فيه دموع السرور في كل عين

مجالس الادب والطرب

كانت ليالينا كلهـا ليـالي أنس وطرب يشاركنا فيهـا بعض اصحاب الذوق القايلين فنجتمع الى مائدة طعام وشراب مشكلة المعدات تدور فيها النكات ويسمعنا منير رفعت الحانـاً مطربة بصوته الشجي . والغريب أني تذكرت وأنا اكتب هذه السطور مقطعاً من أغنية مصرية عامية كنا نشترك في تلحينها كلنا وهو :

منديلي آه يا عما — وقع بالحـاره

والله ما ُفوته ابداً — دا حرير وخساره

فإذا ما رَوينا وشبعنا جلنا جولة هضمية تنزهية بين اكواخ الوطنيين وعدنا الى منازلنا وكرعنا قبل النوم مقداراً كبيراً من شراب معد لنـا هو حليب ممزوج بنقيع البلح وكان شراباً لاذاً مفيداً

عَلَى هذا النمط كنا نعيش وبيننا وبين الهموم سد لا ينال فسبحان مبدّل الاحوال

محمد ابرهيم

كان محمد افندي كهلاً خلاسياً يفاخر بأنه عرف القطر المصري في صباه . ومع أنه كان يجلس في باب المكتب يصنع للوطنيين الاختام وينظم لهم العرائض فلم اكن ألقي اليه بالاً لان كلامه كان يخرج من فيه جرّا وكان يلثغ بالراء . ولكن اتفق أن خطرت لي يوماً محادثته فسمعت منه الحكاية التالية المستظرفة :

قال لي إن مواهبه لا تنحصر في حفر الاختام وكتابة العرائض بل هو اخذ شيئاً من علم الطب عن والده ولديه كتب قديمة يسير بهديها ويستعين بها عَلَى حلّ المعضلات

أما أفضل عملية اصاب فيها نجاحاً استكثره هو عَلَى نفسه فهي أنه دُعي مرةً لعيادة مريض أُصيب بحصر البول اياماً حتى أشفى فعندما رآه طمأن اهله وبشرهم بشفائه العاجل . وكان الدواء الذي طلبه قملة كبيرة وهذا أيسر دواء في هاتيك الانحاء فجاؤوه بما طلب وأجرى العملية بمهارة فائقة . اما النتيجة فهي كما رواها لي بحروفها :

— بقا يا توفيق افندي قام الراجل بال وطلب قهوة وسيجارة وقعد يدخن مبسوط وبعدين ... مات !

وقد تخلص من المسؤولية بعد عناء إذ خفّ حزن اهل الميت وهياجهم وأصغوا الى العقلاء الذين أقنعوهم بأن ذلك العلاج لا يمكن أن يكون سبب الموت إذ يستحيل إلا ان تكون القملة قد خرجت مع البول

اما التعليل المعقول الذي لم يستطع اولئك العقلاء ان يعبروا عنه فهو ان الرجل كان قد تسمم دمه فعجل عليه انفراج الازمة التي كان فيها

الضيافة

تستغرق المسافة بين رفاعه وواد مدني على الجمل نحو خمس ساعات وقد اممت هذه مراراً بحراسة جنديين خوفاً على المال من السلب في حين أن الامن كان ضارباً أطنابه في كل انحاء السودان ولكن الاحتياط امرٌ لا بدَّ منه

وأبى يوماً شيخ حلة صغيرة واقعة في منتصف الطريق إلا أن يضيفني فقبلت مكرهاً وكانت ضيافته الشاي على أنه قدَّم لي اولاً خبز الذره والدهن بدلاً من البسكوت والزبدة . فلكي لا اجرح شعوره بامتناعي عن الاكل من زاده استعجلته بالشاي واغتنمت فرصة غيابه فدهنت شيئاً من الدهن في جانب الكوخ ودسست نصف الخبز في السقف المصنوع من القش وهكذا ارضيته وتخلصت مما لا قبل لي به

وعرفت في واد مدني تاجراً دمشقياً يدعى ابو شكري دعاني الى منزله واكلت عنده طعاماً فاخراً لم اتناول افضل منه في دمشق نفسها ولا عجب فهو اكول من الطبقة الاولى وصاحب ذوق وذو كرم حاتمي فكان يختار لطعامه أجود الاصناف غيرَ حاسب للنفقة حساباً

واذكر انه شكا اليَّ يوماًمطل احد المشايخ في رفاعه وكان هذا مديناً له ببضع مئات من القروش فهدأت باله وحصلت له مع الايام دينه عن آخره فكان سروره عظيماً وامتنانه اعظم

الجعافرة

قبيلة عربية تقيم في جنوب القطر المصري والغريب ان اسمع شيئاً من اخبارها في رفاعه من فم جوالة خلاسي أم هذه مرةً وأقام فيها اياماً قليلة

ومما لا ازال ارويه من احاديثه الشائقة شيء من نص خطبة منسوبة الى احد الائمة من الجعافرة القاها في الجامع وهذا ما لا يزال عالقاً في الذاكرة منه:

الحمد لله الكبير انسا في دي السنه بحر الدميره وعيل يلبخ لا خلى

حلفايه ولا جزيره ونروه بعيونكم يومح في الخرجه كالحصان

والنباري يقوم من طيز الفجر ويميلته يـلا بدلوه ويكب في السدر والخولي والحو الي من فيافتهم صاروا يلعبوا السيكا وبطلوا جر العيدان

والآن اعلموا انو بعد أربعة ايام يوقع شهر رمضان شهر الصوم مـا فيهوش وكل واصل لا بق ميه ولا نفس دخان . إلا اذا كان الراجل مسافر في غليون البوسطي

وسمع لغط في الجامع فقال الخطيب :

ورد في ابو زيد واحاديث تانيـات انو اذا اعتلى الخطيب جرد المنبر وبدا يقرا في القصي اللي يحكي إعما رفيقه ولو نصف كلمه ولا يقول لرفيقه اصتنت يارا يبقى المهر اعلى منه والقحله اشرف منه

وازداد اللغط فصاح الخطيب متشيطا :

وليه بتظاظوا ظاظتكم كده تدهك كبار كم إعما ظفاركم يا فطايس !

وكان الختام الدعاء التالي :

اللهمّ أنصر السلطان ابن السلطان الجالس في اصطمبول عا كرسي الذهب المرصع بالالماس وان دار وجهو للشرق ولا للغرب تقوم القيامه من غير قول !

وتفسيره كما يلي : بحر الدميره. النيل في إبان فيضانه . عيل بلميخ : عالم بتلاطم . النباري : الساقي . السدر : الجرن . فيافتهم : راحة بالهم . وكل : كل . واصل : ابداً . غليون البوسطي : الباخرة السريعة التي تنقل البريد . جرد : مقلوب درج . القصي : الخطبة . إعما : مقلوب مع . بارا : ترخيم يا راجل . اصتنت : أنصت . الظاظاة : اللغط والدهك كالدهس

نفعنا الله بعلم وتقى أمثال هذا الخطيب القدير !

الشياطين في البساتين

كنت وصديقي اسعد مزهج الشيطانين المقيمين في ممانة زحلة لمداعبة السذج والضحك منهم ، وكانت تأتينا في فصل الصيف نجدات من بيروت فصبح شياطين الكروم والبساتين

اذكر اننا اردنا مرة التنزه في البساتين وكان برفقتنا ابن خالي قسطنطين عبده بني وصديق لطيف ذو دعابة قضى نحبه منذ عهد بعيد هو توفيق كفوري ، وكان علينا لبلوغ البستان الذي كنا نقصده أن نقطع جسر السكة الحديدية ولكن عنّ لي أن نخالف الناس العاديين فنقطعه بصورة بهلوانية ، أي من تحت لا من فوق وبأيدينا لا بأرجلنا ، وصادف اقتراحي هوىً في نفوس الرفاق وبرهنوا لي عن استحسانهم فكرتي بأن قطعوه قبلي ، فكان اسعد السابق وتلاه قسطنطين وتبعهما توفيق . ولكن اولئك الرفاق الشياطين تآمروا عليّ فقرّروا إسقاطي في النهر لكي يضحكوا على حسابي . فعندما جاء دوري وبلغت منتصف الجسر اخذوا يصيحون ويهولون ويرشقونني بالحصى فسقطت فعلاً وغصت في الماء حتى الركب فعدوت وراءهم اتوعدهم وأرشقهم بالحجارة

أخيراً لم يجدوا بداً من التسليم فوضعوا مناديلهم في رقابهم وأتوا مستغفرين فصفحت عنهم ومررنا حتى بلغنا البستان فطلبنا من صاحبه أن يأتينا بضعة رؤوس من الكرنب وقعدنا على الارض نقشرها ونلتهمها . وكان من شهود تلك المعركة البطنية التي كنت أنا قائدها وقد فتكت فيها فتكاً ذريعاً احد القرويين وامرأة تُدعى وردية صاحبة بستان مجاور . فلما كدنا نجهز على ما امامنا شكوت قلة ما جاءنا به صاحب البستان من الكرنب ، وهو اضخم ما يؤكل من انواع الخضر ، فتعجب القروي واستنكر شكواي فعرضت عليه المراهنة بأن التهم بعد الذي اكلناه خمسة رؤوس وحدي فقبل

الرجل وأبدت المرأة دهشة كبيرة فاغتنم اسعد مرهج ذلك الموقف وراح ينصح للقروي بعدم المراهنة لان خسارته مقررة . وإثباتاً لإخلاصه في نصحه قدّم برهاناً حسياً هو أن الذي يشرب جرة ماء لا يتعذّر عليه التهام ذلك المقدار من الكرنب فازدادت دهشة المرأة وأرادت ان تعلم كيف تتسع اية معدة لكل ذلك الكمية من الماء وأين تنصرف فأجابها بكل بساطة ان ما يزيد عن معدتي يتسرب الى عظم الفخذين ويرشح من القدمين ، وأعجبتني براعته في التمايل فخلعت حذائي فسال من قدمي الماء فتراجع القروي مذعوراً وكادت تصعق المرأة منكبيرة والحالة هذه ان يستطيع والدي تجهيزي بما يلزمني من الاحذية !

واتفق في مرة أخرى ان قصدت واسعد مرهج وابن خالي قسطنطين الصبوح في بستان ورديه هذه عينها ، وما كنا على علم بشراسة طباعها وبذاءة لسانها ، فأخذنا معنا شيئاً من الخبز والجبن والخيار وجلسنا في ظل شجرة جوز كبيرة على جذع مقطوع نأكل علفتنا ونتحدث . وبينما نحن في ذلك أقبلت ورديه وراحت تتبرّم حول الجوزة وتحدجنا من طرف خفي وفي وجهها ما يدل على أنها اكتشفت سراً جاهدت طويلاً للتوصل الى حله فأعيتها الحيل . وبعد الشيء الكثير من الوقفات المعنوية والدورات اللولبية انشأت تخاطب نفسها بعبارات استدللنا منها أنها تتهمنا بسرقة الجوز فأنكرنا قولها وكلفناها سحبه ولكنها بدلاً من ذلك اطلقت لسانها بكل مستنكر ولم نشأ ان نكون من المقصرين فدارت بيننا وبينها معركة هائلة انتهت بأن توعدناها بإساءة سمعتها وإطلاق الالسنة بلمزها في كل تلك الناحية ورحنا ننظم خطة تنيلنا بغيتنا فوضعنا رواية ملخصها ان احدنا من أسرة مثرية في القطر المصري قدم للتنزه في ربوع لبنان ولسوء الحظ أمّ مع رفيقيه بستان ورديه فأتهمتهم بسرقة جوزتها وبالطبع نشبت بينهم وبينها معركة كلامية

انتهت بأن رشقت ورديه حجراً اصاب عقب الشاب المصري فصدعه ، لذلك بات من الضروري استثارة شفقة اصحاب البيوت المبثوثة في هاتيك البساتين على الشاب واطلاق السنتهم بانواع السباب لورديه . ولما كنت انا الوحيد الذي سبق له أن أمّ الاسكندرية وألم بطرف من اللغة المصرية وقع لي تمثيل دور ذلك الشاب فكان اول ما فعلته انني اقتلعت فسيلة خوخ من بستان ورديه نفسه ورحت كلما أشرفنا على منزل او رأينا في الطريق قروياً او قروية اتوكأ على تلك الفسيلة وأتظاهر بالعرج مبدياً منتهى الالم فكان نجاحنا اضعاف ما انتظرنا لان ورديه على ما ظهر لنا كانت مكروهة من سكان البساتين فشفوا انفسهم وانفسنا منها !

وأذكر ان امرأةً كانت على سطح سألتني عن انباء لها في القطر المصري فطمأنتها عنهم مؤكداً لها انهم جيراننا وان صحتهم جيدة وأحوالهم حسنة فشكرتني وحمدت الله !

وبصرت بحمار للنقل عليه سرج عريض وصاحبه الى جانبه فرحت اتمنى لو قيض لي حمار اركبه الى البلدة فلا استكثر على صاحبه جنيهاً لان رجلي تؤلمني ولم اعد استطيع السير . وسرعان ما سمع ذلك الرجل لهجتي المصرية وايضاحات رفيقيّ عما اصابني حتى اخذ ينظف السرج مما يعلوه من الغبار وعرض عليّ الركوب فأبيته آسفاً لعدم صلاحية السرج فكان أسفه اشد بما لا يقاس لإفلات ذلك الأجر الهائل من يده !

ويعلم الله كم انفجرت به رئاتنا في ذلك اليوم من الضحك وكم ذرفت مآقينا من دموع السرور !

طيشي ونزقي

من امثلة حدتي ونزقي أنني لم أصبر طويلاً على موظف اسمه حنا افندي كان يختلف الى قاعة للعب

البابار في الخرطوم ويؤثر على اللعب بإبداء الملحوظات لي او لخصمي . ونظراً الى واني بهذه اللعبة ككل حديث عهد بها مقترناً الى ادعائي لم يكن حنا افندي في رأيي ممن يحق لهم ابداء الملحوظات لي بل هو ربما كان اضعف مني في معرفة اسرار اللعبة وقواعدها فنبهته مراراً فلم يرتدع وأخيراً تهددته بالضرب فثارت فيه روح الفضول وأراد ان يعلم كيف يكون الضرب فما كان مني إلا ان تركت الصولجان وتقدمت منه وهو واقف في مكانه فأمسكت بكلتا يديه بيسراي وكلت له بيمناي صفعتين حاميتين فصاح منادياً بالويل والثبور ومتهدداً اياي بالشكوى الى الحاكم العام فلم اعبأ بتهديده بل زدت جرعتي لكي تستأهل العرض امام ذلك المقام العالي . ولكن لم يطل بي الامر حتى صحوت من نشوة الغضب فشعرت بألم عميق وراح ضميري يبكتني بشدة تفوق أيّ قصاص كان من الممكن ان يصيبني لو ان حنا افندي نفذ وعيده ، ولكنه لم يفعل وانتهى الامر بيننا بصلح « شريف » شُفي بعده حنا افندي من داء الفضول

واتفق مرةً ان هاجمت منزل الجيران ليلاً قفزاً عن الجدار الفاصل بين الفناءين مستعيناً بسلم وتبعني معايشي «وسكرتيري» فريد عطيه لاسكات معربد كان يصيح ويغلظ القول لماكنيه فيحرمنا الرقاد . وكان بينه وبيني عراك لم يكن فيه الفائز ولكن جولاتنا العديدة كانت قد اوصلتنا الى الباب الخارجي فنادى الخفير فلبى هذا النداء وجاء ليمثل العدالة وقادنا الى دائرة الامن ونحن بملابسنا الليلية الممزقة، على ما في هذا الحكم من لاستهانة « بمقامنا السامي » ، فلجأت الى الحيلة واستعنت بالسكرتير فتمكنت اخيراً من الافلات ودخول منزلنا . وفي اليوم التالي تدخل بعض الاصحاب من ذوي النفوذ وأصلحوا ذات البين وكنت راضياً كل الرضى اولاً لأنهم اقنعوا المعتدى عليه بأن يزورني في منزلي وثانياً لانني علمت ما كنت اجهل وهو

أن عملي كان جريمة كبيرة يزيدها خطورة انها ارتكبت ضد احد ابطال الزبير باشا احد ابطال السودان وسرانه الذي كانت له عند الانكليز رعاية خاصة انتقلت الى سلالته من بعده

ولي سوى ذلك ما لا يقع تحت حصر من الحوادث التي اوقعتني في مآزق حرجة لم انج منها إلا لان معظم الناس كانوا يكرهون مني خلقاً واوفر مسالمة واغضاء وصفحاً

كيف فاتتني الثروة

عدت من بحر الغزال مالكاً ستين جنيهاً مصرياً مودعة لحسابي في البنك الاهلي في الخرطوم فاشتريت بهذه القيمة بيتاً فارتفع ثمنه في ثلاثة اشهر خمسة اضعاف قيمته واشتريت سواه ، واثمان البيوت في ارتفاع سريع متواصل ، فانتهى امري في اقل من عام بأن اصبحت ثروتي تحصى ببضعة آلاف من الجنيهات

هذا ما كان حدث فعلاً لو انني خلقت لاكون غنياً وهو ما اراده لي صديقي فرج شحاده جهلاً منه بالحكم الذي اصدره عليّ القدر منذ ولادتي بأن لا اكسب سوى رزقي ، وما زاد عَلَى ذلك فهو من الشرير

إن هذا الصديق حاول تدريجي في سلم الغنى ولكنه اخفق سريعاً لاني بعد ان عدت من بحر الغزال آثرت استعادة صحتي في لبنان عَلَى ان املك الالوف من الذهب الرنان ، وحجتي قول المسيح : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه »

في الفقر

كانت الملقة بلدة فقيرة وكان الاغنى منا فيها كثيراً عديدهم ، إذن يصح القول نسبياً إنني ربيت فقيراً . وهل ما هو أدلّ عَلَى فقر السكان من اكتفاء سوادهم بأكل الخبز « بطلم » (والاول مرقوق والثاني سميك) ؟ ولكنني اذكر انني كنت

اشتراكياً منذ حداثتي فكنت اعتبر فقرنا غنىً بازاء فقر بعض الناس ولم يكن يفصلني عن البرهان المحسوس سوى زقاق ضيق : في الثالثة والرابعة كنت اقايض ابن جيراننا سليم الاسطمبولي عَلَى رغيفي «الكماج» برغيفه «المرقوق» وكانت لذته وهمية لانخداعه بأن خبز بيت الافندي « يجب » أن يكون أطيب وكنت آتيه بنصيب من طعامي الذي كان يعتبره طعام الآلهة لكي يسمح لي بأن اغمس بضع لقمات في مقلاته كلما أفلح في الاناة قلب امه بدموعه لكي تعطيه بيضة بقليها بشيء قليل من الزيت عَلَى نار أغصان الكرمة اليابسة

لا أريد بهذين المثلين تنزيه نفسي عن الاجرام النفسي فقد بذخت فقيراً بذخ الاغنياء بالنسبة الى الافقر مني . ومما لا يزال عالقاً بذهني من جرائم صغري انني كنت أحلم يوماً بارتداء زيٍ كان دارجاً عند المتحذلقين وهو بدلة كحلية بصدرة حمراء وأزرار مبرقشة ، ويشوقني زي آخر هو بدلة بسترة ذات ذيل (بونجور) فعندما ترعرعت كان الفضل لوالدي في الحيلولة دون لبسي هذه وكان قد بطل زيّ تلك

وفي الخرطوم كانت تمضني أحياناً حاجة فيضيق صدري وأشكو الفقر . وكنت في الغالب أبث شكواي صديقاً حميماً بل خلاً وفيّاً اسمه عزيز جهشان شقيق الاخت الفاضلة المرحومة لبيبة جهشان رئيسة مدرسة زهرة الاحسان في بيروت فكان يرفه عليَّ بقوله بلهجته البيروتية : « يا طوفيق ، لو قسمنا الناس الى اربعة وعشرين طبقة لما كنت أنت في الاثنتي عشرة الثانية بل الاولى ! » ولم تكن هذه الحكمة بالدليل الوحيد الذي كان يقيمه لي ذلك الصديق الحميم عَلَى أنه فيلسوف

وعرفت شاباً من ماردين اسمه نعوم قره قولاً درس في الجامعة الاميركية ، وعندما انتهى من السنة الثانية الطبية أراد ان يتمّ دروسه في

احدى جامعات اميركا الشمالية ويفوز بشهادتها ولكنه لم يكن يملك المال الكافي لجاء مصر وحصل على وظيفة كاتب في احدى دوائر الحكومة في الخرطوم بمرتب شهري قدره احد عشر جنيهاً على نية أن ينفق لا اكثر من جنيهين في الشهر ، وقد فاز بأمنيته ولم ينفق اكثر من ١٥٠ غرشاً لانه اقنع خمسة من زملائه المستخدمين بأن يعايشوه في بيت واحد معيشة صحية اقتصادية ، فالبيض لا يجوز قليه إلا بالماء والزبدة لا يجوز ان تدخل الطعام إلا للرائحة والافضل ان يكون كل شيء مسلوقاً . وكانت النتيجة انه بعد ان خدم سنة واحدة اقتصد اكثر من مئة جنيه خلا نفقات اقامته وسفره واشترى بالقيمة تحفاً وأدوات زينة سودانية تروج في اميركا باعها هناك بأكثر من ضعفي قيمتها وأتم علمه وفاز بالشهادة وعاد الى السودان ضابطاً في الدائرة الطبية بمرتب مضاعف وأمامه مستقبل باسم

وماذا اقول عن المتمرنين الاقباط في دائرة البريد والبرق في الخرطوم فإنهم كانوا يبدأون بمرتب قدره مئة وخمسون غرشاً في الشهر والذي كان ينفق اكثر من خمسين ولا يقتصد مئة كاملة كان « العارفون » يقولون عنه إنه « خباص مش نافع »

جمعية الشباشب

في اثناء اشتغالي في قلم المستخدمين أنشأت جمعيةً اسميتها « جمعية الشباشب » شعارها « الشبشب لا يقل شأناً عن الطربوش » وكانت كناية عن جمعية شبه ثورية تعاقب كل متزلف او مراء او متكبر بضربات معينة على أم رأسه بالشبشب (وهو خف يُحتذى في المنزل) . وكان عمالي القوي الايمان بفاعلية هذا القصاص وضرورته « للمتحلين » بواحدة او اكثر من الصفات التي ذكرتها صديقي فريد عطيه من بينو (عكار) و كان سكرتيري

وكان منفذ الجمعية شاباً زحلياً قوي العضل يدعى عبد الله شحاده . فكنت اذا ما ارتكب احد الموظفين زلة او تبينت فيه انحطاطاً تنكره المبادئ السامية التي اختطتها للجمعية اعقد مجلساً استشارياً استصدره قراراً بدعوة ذلك الشخص لتناول الشاي (وكانت هذه الاشارة الاصطلاحية لانزال العقاب) والمكان منزلنا الذي كنت اسكنه وسكرتيري وصديقاً لنا كلينا اسمه اسكندر خليل المعلوف من كفر عقاب ، عَلَى انه والحق يقال كان الطف ، لكي لا أقول أجبن ، من أن يشاركنا في عملنا هذا الذي كان بكل صراحة يسميه جنونياً دون أن يخشى بطشنا لدالة له علينا تطعمه بحبنا

ولم تلبث هذه الجمعية أن نمت وذاعت شهرتها وعمت الخشية منها فنقلنا مركزها الى منزل فسيح يتسع لجل اعضائها ونقتبل فيه الزائرين والضيوف البائتين عَلَى سفر . وكان عدد المقيمين الدائم فيه تسعة تجري بينهم المنازلات الصباحية والليليــة للتمرن عَلَى الضرب وكيفية اتقائه . وكان الرئيس والسكرتير مستثنيين من إقتبال القصاص عَلَى أنهما لم يكونا يرفضان اي طلب مبارزة يتلقيانه من اي من الاعضاء

ولست أنسى ما كنا نشعر به من الارتياح وما ننفجر به من القهقهة كلما وقع في نخاوتاق القصاص المحتوم شخص يحسب نفسه أرقى من أن يسام مثل ذلك الخسف او اعزّ من ان نناله بسوء

وكان المنزل في ظاهر المدينــة فكنا كلّ ليلة تقريباً نحمل المشاعل ونقضي سهرات لطيفة نسمر فيها ونتطارح الاحاديث ونتبادل النكات عَلَى اسلوب « القافية » المصرية . وعند ما نعود في اواسط الليل نزعج النيام ونقلق راحتهم بأهازيج عامية واحياناً ترانيم روحية باصوات قابينية او « قبرصية » تبلغ العنان والناس يضجون منا ويهربون من جوارنا ولكننا كنا عصبة قوية لا يزعها وازع عن الاستمرار في عملها « التأديبي »

للبشرية « المنحطة » !

وكنا نبكر في النهوض ونهم للاستحمام برقص نقلد فيه حاقة الذكر ونحن متمسحين بالمناشف ، وهذا مشهد كان يسر له القروين المبكرون الى المدينة ، وطالما سمعناهم يقهقهون وينبه الواحد منهم الآخر الى ما يفعله « الافنديات » !

وكنا نستحمد حقنا بالتمتع بسرورنا الوحشي هذا الذي ما احسب احداً منا تمتع بمثله قبل إنشاء الجمعية او بعد انحلالها ، من عدالة مطلبنا وحسن قصدنا ، وظلت جمعيتنا زاهية زاهرة اعواماً عديدة حتى نقلت الى بورت سودان

حب بالوكالة

كان صديقي ايليا في مقتبل الشباب سمهري القوام أبيض البشرة اسود الشعر والعينين وسيم المحيا عذب المتبسم وكان ذكياً اديباً مهذباً لذلك لا بدع أن كانت تربطه بصديقي نون صداقة متينة العرى لان هذا الصديق كان يستلذ معاشرة الأدباء والظرفاء ، وكما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها كان يجمعهم حوله ويبسط عليهم ظله الوارف فيأنسون اليه ويبثونه شكاويهم و يستلهمونه حل معضلاتهم و يجد هو لذة خاصة في كل ذلك

وكان اني اشتقت يوماً الخرطوم فغادرت بورت سودان في عطلة قصيرة اقضيها بين اصدقائي واحبائي العديدين في عاصمة السودان ودعاني صديقي نون لتمضية بضعة ايام في منزله في أم درمان

وبالطبع كان رفيقنا الدائم ايليا الذي كان نون قد جذبه اليها فسكنها متنقلاً يومياً بينها وبين الخرطوم مقر اشغاله في الحكومة

على ان ايليا الذي عرفته قبل مغادرتي الخرطوم للاشتغال في بورت

سودان كان غير ايليا عَلَى ما بدا لي في تلك العطلة . إني رأيته قد زداد رقةً وعذوبةً واصبح خيالياً يحلم ويطيل الاستغراق في احلامه حتى لينسى احياناً انه بيننا نحدثه ويحدثنا ويجيب احياناً عَلَى سؤال لم يوجه اليه ويغفل احياناً الإجابة وقد طلبت منه . لحظت هذا منه في الجلسة الاولى التي عقدناها بعد ان فرغنا من الغداء تجاذباً لأطراف الحديث فلت عَلَى صديقي نون أسأله الخبر همساً فاكتفى باشمئزالي عَلَى ان يكون موعد التفسير قريباً

وما أن مالت الشمس وتلطفت الحرارة حتى سألني ما اذا كنت ألعب التنس فأجبت بلا عَلَى أنني مستعدٌ للتجربة اذا كان لا بدَّ من اشتراكي وهكذا نهضنا وسرنا الى ملعب ما عهدته من قبل ولكنه أنشئ في غيابي بهمة ايليا وجاءنا الغلام بالمضارب والكرات ولكننا كنا ثلاثة فأين الرابع فقيل لي انه عَلَى وشك القدوم

ولم تكن إلا دقائق حتى أطلَّ عن بعدٍ رجلٌ طويل القامة تجللها أشيب الناصية وعَلَى عينيه نظارتان يتأبط ذراع غادة ممشوقة القوام ذهبية الشعر زرقاء العينين وكانت كلما دنت منا تتجلى محاسنها وتزداد مفاتنها فلم اشك لأول وهلة أنها ابنة ذلك الشيخ . وحانت مني التفاتة نحو ايليا فرأيته وكأن اسرار قلبه قد طفت عَلَى وجهه فانبعث شعاعاً سماوياً من عينيه ونوراً ساطعاً في محياه وحمرةً في خديه ورعشةً خفيفة في سائر جسمه . وانتقل بصري الى نون فرأيته يبتسم ابتسامة معنوية فنبض قلبي بالتهنئات لصديقي ايليا

ووصل القادمان فكان أسرعنا في تحية الفتاة ايليا وتلاه نون فصافح القادمين وعرّفهما بي وبدأ اللعب فكنت ونوناً نلعج مضاربه مناوبةً على الكرة مني لأني اصبحت أوثر مراقبة ايليا والفتاة وكيفية تراشقهما وتغازلهما وما تبديه هي من مرح وزهو ورشاقة ولباقة وما يبدو عليه هو من ارتباك

وتخاذل امامها فكأنه كان يرى غايته الحقيقية في الاندحار امام ذينك الساعدين الماجين وتينك العينين الساحرتين حتى ليصح فيه قول الشاعر :

وخافتني طريحاً وهي قائلة تأملوا كيف فعل الظبي بالاسد

وانتهى اللعب فغادرنا الملعب قاصدين منزل الشيخ والفتاة حيث ودعناهما وعدنا الى منزل نون وهناك علمت بأن الصورة الحقيقية هي على عكس ما تجلت لي فالشيخ زوج لا والد وهو مهندس الماني يشتغل في حكومة السودان وانه لو جرت الامور حسب النظام الطبيعي لوجب أن تكون الصبية زوجة ايليا لا زوجة الشيخ

ولكن الغريب أن ايليا لم يكن يغدق من عطفه على الشيخ دون ما كان يغدقه على الزوجة بل هو كان يحبه ويحترمه ليس لشيخوخته بل لاخلاقه العالية التي كانت تؤهله لكل احترام ، وكان هو والزوجة صنوين في حبه لانه لم يكن احد اولئك الشيوخ الغيورين الضيقي الصدر البعيدي مرمى الشكوك والريب . كان يعلم أنه اقتنص عصفورة تزهو بكل فاتن من الالوان وتصدح بكل مطرب من الالحان ووضعها في قفص وقام يمتع بصره وسمعه بمحاسنها وعذب صداحها ولكنه لم يكن يحمل بندقية لكي يترصد ويردي العصفور الجميل الذي عرف في تلك العصفورة السجينة عصفورته للتشابه الشديد بين الوانها وألوانه وألحانها والحانه وتغريدها وتغاريده فلا تسنح له فرصة حتى يطير بجناحي الشوق والحنين و ينقر على القفص صارفاً الساعات الطويلة في مغازلة عصفورته وهي تصادحه وتزقه من داخل القفص بما وُضع لها فيه من حب وماء . ولم يكن ايليا يطمع بأكثر من هذه النعمة ولا يسمح لنفسه ، وهو الاديب النبيل الخلق ، بتخطي ذلك الحد

وما لي المغرور أن يجلس امام الشمس يستدفئ بحرارتها وينعم تحت تأثير اشعتها ، أو الساري ان يهتدي بضوء القمر ويمتع بصره بصفحته

الفضية النقية ، او الجائع يأتي برغيفه فيأكله وهو يتنشق رائحة الشواء الزكية

وقد أعجبني ذلك الحب وأطربني وغبطت ايليا وذفرته عليه فارتاح ايما ارتياح لانه وجد اخيراً شخصاً غير نون يفهمه ويدرك مثله لذة ذلك الحب العذري ، ورحب بي الى هيكل قلبه وأطلعني عَلَى دخائله كما تلا عَلَى مسامعي ما كتبه ونظمه في الموضوع وعدت الى بورت سودان لا أحمل اعز من تلك الذكرى ولا اغلى

وعَلَى أثر وصولي كتبت لايليا مكرراً تهانئي مستمداً منه سلوكه النبيل الذي هو خير ما يليق بأديب نظيره فأجابني شاكراً ومؤكداً عزمه ومجدداً عهده فازداد بذلك سروري

وكرت الاسابيع حتى كان يومٌ وردت عليَّ فيه من ايليا رسالة لم يكن ينقصها إلا ان تكون مؤطرة بالسواد لكي تشير في مظهرها الى ما كانت تنطوي عليه من وجد وحنين وما تنطق به حروفها من آيات الاسى واليأس وكأن نقاطها رمز المسامير المغروزة في القلب ضمنها نعيه الساحق لحبه العذري البريء بعد ان قضت الاقدار بأن ينفصل الشيخ عن خدمة حكومة السودان نهائياً ويعود الى وطنه مصطحباً معه عصفورته الفريدة الفتانة

وبعد صفحات من الشكوى استمد ايليا مدادها من كلوم قلبه يستحلفني بكل عزيز عليَّ ان اتقمص شخصيته وانوب عنه في استقبال عصفورته والترفيه عليها والقيام عَلَى خدمتها مدة إقامتها القصيرة في بورت سودان .

وما انيت عَلَى الرسالة حتى رثيت لحاله ومزجت شعوري بشعوره وزفرت معه زفرة الم لا اشك في ان الاثير حملها اليه قبل ان يوجد المواج وقلت بصوت مسموع كأنه بجانبي : « لعينيك يا ايليا » !

ولساعتي بدأت ارسم خطة يرتاح اليها وجداني ويرضي صديقي فكان

اول ما فكرت فيه نزهة بحرية عَلَى زورق مصلحة الكورنتينا البخاري في الخليج الممتد من الميناء حتى مسافة اميال في البرّ مارّاً تحت الجسر الموصل المدينة بالرصيف الخارجي ، وأن تكون مساءً وتمتد حتى الليل تبدأ بالصيد فالشراب فعشاء فسمر في ضوء القمر وكان بدراً . وكان لا بدّ لي من الاستعانة بصديقي الدكتور كحيل إذ كان الزورق المطلوب تحت امرته ولانه كان يلذ لي أن اراه يمتع طرفه بمفاتن تلك الحسناء وأرى جذوته الخامدة تشتعل نوعاً بفعل بريق عينيها وأن يجري في غصنه الذابل شيء من ماء الصبي ويتكهرب كيانه بعائد من تذكارات الشباب وأشبع في الوقت نفسه فضوله وأدغدغ عاطفته بما يحلو له من احاديث الغرام فأبلغته الخبر وأطلعته عَلَى الخطة فدبت فيه الحرارة التي توقعتها وأشرق وجهه بنور ذهب بشحوبه وذبوله وكاد يذهب غضونه وألقى في يدي مقاليد الامور لكي اتصرّف كما اشاء ويكون هو المأمور المطيع

وكان موعد الاستقبال صباح اليوم التالي فكنت في الساعة المعينة في المحطة حيث استقبلت الشيخ وزوجته ومررت واياهما الى النزل ثم ودعتهما ودعوتهما للنزهة التي اعددتها لهما في المساء . وفي النهار اعددت عدتي فبعثت بكل اللوازم من شراب وطعام وفاكهة ومعدات صيد الى الزورق وعند الساعة الخامسة عدت الى النزل وفي صدري قلب صديقي وفي مفاصلي دمه وفي كياني كهربه ورافقت الشيخ وزوجته الى الميناء حيث كان الدكتور كحيل بانتظارنا فأجريت بينه وبينهما التعارف المألوف كاتباً له الفضل في وضعه الزورق البخاري الانيق تحت تصرّفنا وركبنا وأخذ ذلك الفلك يمخر بنا ذلك الخليج البديع ويحرّك بدفاعه مياهه كما كان يضطرب قلبي عن صديقي

وكنا نسير حيناً ونقف آخر صائدين ممتعين ابصارنا بما يحف بنا من جمال عَلَى ذلك الشاطئ الصدفي وما يتراءى اليه الطرف وراء بورت سودان

من آكام وجبال ومتحدثين عن اصدقائنا في الخرطوم وبوجه خاص ايليا صديقي ضيفنا الحميم وأراقب ما يرسمه التذكار على محيا رفيقنا الوسيم الذي كان يلتمع حيناً ويتورّد آخر تبعاً لما كان يخطر في ذهنها من صور ايام اللقاء العذاب او اعوام الفراق الطويلة التي كانت تراها على لوح المستقبل بخطوط بارزة قاتمة

وأشرق القمر ففضض صفحة الخليج وأنيرت مصابيح المدينة فبدت كأنها سماء ارضية مرصعة بأعظم مما يرصع السماء التي فوقنا من كواكب ونجوم

وشعشعت الراح في الكؤوس وانشرحت الخواطر وثملت النفوس فارتفعت الكلفة وانطلقت الالسنة وكانت ليلة من نعم الدهر وليس بيننا إلا من يتمنى ألاّ تنقضي وأنا مقبل بعيني ايليا على وجه تلك الحسناء الفتان ، مصغ بسمعه الى حديثها العذب ورنات ضحكها التي كان يردّد صداها الشاطئ ، جاثي القلب امام هيكلها اللطيف ، مسحوراً بكل حركة تأتيها مترشفاً مثل الخمر السائغة من عذب احاديثها متخيلاً ان روحه ترف حولها وتشاركنا في كل ما سما عن المادة

اما صديقي الكحيل فكان يجتني كل ما استطاع لنفسه ويأبى ان يمثل دور احد او يكون شريكاً لاحد في ما يضخه الى قلبه من دم الشباب الذاهب كلّ ما يقع تحت عينه وفي سمعه ويكهرب حسه من ذلك المشهد البديع

وعندما عدنا الى الشاطئ كانت الساعة الحادية عشرة فأوصلنا ضيفينا الى النزل وفي اليوم التالي ودعناهما في الباخرة شاكرَين حامدَين وعاهدَين اليّ بإبلاغ صديقي ايليا شكرهما العميم لأنه هيأ لهما تلك الليلة الساحرة التي لا ينسيانها عمرهما

فسلام على تلك الايام التي كانت فيها الروح مقدمة على المادة والناس فيها اقرب الى السماء التي يطمحون اليها منهم الى الارض التي يعيشون عليها

الرحلة الحمصية

كان الظلام بعدُ حالكاً عندما ركبت القطار في محطة المعلقة قاصداً حمص عروس الوعر التي لم يستهوني اليها سوى شوقي لزيارة ابن خالي قسطنطين عبده بني الذي كان قائماً على تحرير جريدة « حمص » فيها والتبرُّك بمصافحة رجل التقى والصلاح خاله المثلث الرحمات والطيب الاثر المطران اثناسيوس عطاالله

وبلغتها ونزلت ضيفاً على ابن خالي العزيز في دار المطرانية عينها وكان اول من قدم للسلام عليَّ قدس الاب العالم العامل الخوري عيسى اسعد، وكنت قد عرفته قبل ذلك في بيروت، فالمعلم محرز سلامه فالدكتور خليل الكك وسواهم ممن قضيت بصحبتهم ونعمت بطيب عشرتهم مدة إقامتي التي طالت اربعة عشر يوماً كاملة انتظاراً مني لعودة سيادة المطران الذي كان متغيباً في جولة رعائية لاولاده المنتشرين في القرى المجاورة، ولم يعد إلا في اليوم التالي للسيل العرم الذي هدم جانباً لا يُستهان به من حيّ العمال الفقراء وغادر المئات بل الالوف منهم بلا مأوى ولا قوت، فلم اجتمع بسيادته سوى ساعات قليلة كانت كافية لاستشفاف داخله المنير من وراء محياه المشرق بنور الدعة والمنبسط رضىً بابتسامة الصلاح . وقد تناولت طعام العشاء على مائدته وثالثنا قسطنطين ثم ودعته قبل الرقاد آسفاً لازماعي السفر في صباح

اليوم التـالي عائداً الى زحله . وقد عرف لي رحمه الله إيثاري لقـاءه على حضور حفلة افتتـاح المعرض الصناعي الاول في زحله الذي حضره اقطاب الادب وبلابل المنابر في سوريا كممثلين لمختلف المدن والاقاليم وفي جملتهم امين الريحاني فيلسوف الفريكه والكاتبة الاديبة سلوى سلامه التي عرفتها شخصياً في حمص بعد أن عرفت عنها بالسماع وبما كنت اطالعه من آثارهـا القلمية في جريدة المحبة فوجدت فيهـا فتاةً على غاية من الادب والتهذيب الصحيح ، ومن غرائب الاتفاق أن تضمني اليوم واياهـا هذه الحاضرة البرازيلية وتجمعني بها جامعة الادب كزميلة لي في الجهـاد الصحافي الذي نقوم به في هذه الديار كصاحبي ومحرري مجلتي الكرمة والدليل

ومما لا ازال اذكره له من آثار عطفه عليّ ، آسفـاً لفقداني رسالته الابوية المشبعة بروح المحبة المسيحية ، التي تلقيتها منـه وأنا في بيروت يبلغني فيها اجابته اياي الى سؤل بسطته له في رسالة بعثت بها اليه بعد عودتي الى هذه المدينة بشأن فتاة اديبة عاملة كان قد اوغر صدره عليها الوشاة مؤكداً لي ان رسالتي استنزفت من مآقيه دموعاً غزيرة غسلت كل مـا كان عالقاً بقلبه الابوي من أدران الموجدة فاستدعى اليه على الاثر تلك الفتاة المظلومة فباركها وصفح عنها وأعادها الى منزلتها السابقة من قلبه الوالدي ومقرّ وظيفتها الذي كانت تكسب منه رزقهـا . وعلم بذلك بعض اقربائه من شركاء اولئـك الوشاة او عمالئهم فشق على « قلوبهم المفعمة بروح المحبـة المسيحية » ذلك التوسط مني الذي ادى الى الإلانة قلب سيادته بعد أن ثبت طويلاً امام مداخلات عديدة فسالة فلم اسلم من لومهم ولذع السنتهم ممتزجين بشيء من الاستغراب لتمكني من ان ابلغ برسالتي مستقرّ الشعور الانساني وهيكل الحب المسيحي في قلب نسيبهم الصالح

وفيها تعرّفت الى صديقي العـالم والموسيقي الاستاذ داود قسطنطين

الخوري نزيل سان باولو منذ عهد بعيد ، والاستاذ محرز سلامه وقد نعمت بصحبتهما كما تهيأ لي حظ التحدث مراراً الى الاب العلامة عيسى اسعد والاغتراف من بحر علمه والانتفاع ببركة لقاه

وكانت الكلية الارثوذكسية فيها قد تمت وأصبحت مستعدة لاقبال الطلبة وقد سُررت كثيراً بحسن نظامها لذلك يؤلمني ان اكتب عنها اليوم بعد ان ورد عليّ هذه الحاضرة نبأ احترافها ، وعسى ان يكون الخبر مبالغاً فيه وفي ما أعلمه أن هذه الكلية كانت مقصودة من مدن وبلدان وقرى كثيرة في سوريا وقد كان لها فضل كبير في تعليم وتهذيب الوف الشبان الذين كان لهم شأن في نهضة سوريا واكسابها سمعة حسنة في الخارج ، لذلك كانت خسارتها فادحة عليّ حمص بنوع خاص وسوريا بوجه عام

وقد تمتعت في حمص بلطف وسخاء اهلها وجودة هوائها وطيب مائها وجمال بساتينها وسلسبيل عاصيها . وقبل ان اغادرها بأيام قليلة امّها زائراً لابن خالي ايضاً صديقي الاديب والخطيب اللسان داود مجاعص وكان في ذلك الحين يصدر صحيفته الزاهية « الحرية » فأنست به وتمتعت بطيب عشرته ودُعيت واياه الى صيران في ضاحية الدوير من وجهاء كرام من أسر غراب وسموح وجراب تجلت فيه المكارم العربية . وكان جلوسنا في بادئ الأمر عليّ ضفة العاصي تحت اشجار باسقة ولكن ما كدنا نجلس ونبدأ باحتساء الكؤوس والتملظ بشيء من شهيّ المآكل حتى بدأ القطر ينزل ثم تهدد بالهطل فدخلنا منزلاً مجاوراً وجلسنا حول بركة لطيفة نشرب ونأكل ونغني ونسمر ونتناشد الاشعار ونتبادل الاحاديث الادبية والنكات لاهين عن كل ما كان يجري في الخارج من غمر وهدم حتى كانت الساعة الحادية عشرة إذ دخل علينا سائقا المركبتين اللتين كانتا بانتظارنا وأبلغانا ما حدث وان السهل اصبح بحراً وأصبح السير متعذراً عليّ الجياد ، والدواليب

في خطر الانغراز في الطين ولكنهما يحاولان بقدر امكانهما ايصالنا الى المدينة فنهضنا وركبنا وسارت المركبتان الواحدة تلو الثانية

وبينما نحن نسير بكل صعوبة نادى سائق مركبتنا على رفيقه المتقدم محذراً اياه من خطر السقوط في العاصي علماً منه بالاتجاه لان السيل كان قد طغى الى حد انه اختلط بمجرى العاصي، وساواه هذا بفيضانه. وبالفعل وقف السائق وتفحص الامر فعلم انه لو تابع سيره لسقطت المركبة في العاصي وهلكنا جميعنا إذ لم يكن بين المكان الذي بلغه والعاصي سوى بضعة امتار وهكذا لوى عنان جياده في الوجهة المعاكسة

وغرزت الدواليب في مكان فنزل الجميع لكي تخف المركبة ويمكن قطع تلك الشقة الموحلة اما انا فأبيت النزول مفضلاً المبيت لياتي في المركبة على ان اغوص في الماء الى ما فوق الركب ونجوت وحدي من البلل

وما اشرفنا على المدينة حتى سمعنا العويل والصياح وهدير السيول في الشوارع فبتنا ليلتنا شاعرين بمصاب الضحايا آسفين لمصيرهم وفي اليوم التالي تفقدت الاماكن المهدمة فكان تأثير المشهد في نفسي مثيراً لمواطني فكتبت مقالة أسفه فيها سماح الحكومة ببناء هاتيك المنازل الطينية الضعيفة التي تداعت تحت ضغط السيل واستشفقت القادرين على شقاء المصابين نشرتها في جريدة الحرية

وسبقني الصديق داود والآنسة سلوى سلامه الى زحله بيوم واحد لكي يتمكنا من حضور حفلة افتتاح المعرض والقيت في زحله عند عودتي الآنسة سلوى وامين الريحاني الذي جددت عهود الولاء به وكنت قد عرفته وعرفت اخاه وشقيقته في بيت خالي في بيروت

الرحلة الأوربيّة

رحلت الى اوروبا رحلتين ولكن لما كانت الأولى تمهيدية للثانية والدافع اليها واحداً رأيت ان اجمع بينهما وأجملها بحكم رحلة واحدة

سنة ١٩١٢

في أواخر شهر حزيران من هذه السنة ركبت في بورت سودان الباخرة الانكليزية «غوث» قاصداً مرسيليا وكانت باخرة صغيرة قديمة قاسينا فيها وعلى الأخص عند بلوغنا مجاز مسينا وما يليه . وكان مرساها الاول في بورت سعيد والثاني في نابولي فتمتعت بجمال هذه المدينة عن بعد توهماً مني أنني قد أتعرض فيها لما لا يرضيني بسبب الحرب التي كانت اذ ذاك ناشبة بين ايطاليا والدولة العثمانية

وبلغت مرسيليا وغادرتها على الاثر قاصداً باريس حيث بتُّ ليلةً واحدة وفي صباح اليوم التالي ركبت القطار الى بروكسل عاصمة بلجكا حيث كان سروري عظيماً بمشاهدة شقيقتي اسما ضعون قندلفت وصهري عزيزاً وولديها جبران ونقولا وخالتي خرستين يني طراد

بروكسل

كانت بروكسل في ذلك العهد مدينة جميلة تضم جلَّ ما يستهوي السياح الى باريس من مظاهر المدنية ومقوماتها وتمتاز عليها بسهولة العيش ورخص الحاجيات حتى أن المضطر كان

يجد فيها قوتاً ومبيتاً مدة الشهر بنفقة لا تتجاوز عشرين فرنكاً واهلها يتكلمون الفرنسوية ، وبالمقابلة اراها من وجهات متعددة تشبه سان باولو ، غير أن شروط النظافة مرعية فيها اكثر من كل بلد عرفته

اما اهلها فعنوان الجدّ والنشاط والاستقامة ولهم عطف خاص على الغرباء وقد صادقت بعضهم فلقيت منهم حسن ودّ وإخلاص إلا أنهم مقتصدون الى حدّ الافراط

وفي بروكسل خلا الابنية التاريخية والمتاحف واماكن اللهو متنزهات متعددة افضلها غابة لا كامبر التي هي مصغر « بوا دي بولون » في باريس

لبثت فيها نحو ثمانين يوماً كانت من نِعم الدهر وتركت في نفسي خير أثر . وقد أممت سواها من مدن بلجكا ومصايفها كمدينة لياج الصناعية وأنفرس التجارية ، وفيها حديقة حيوانات مهمة ، ولوفان العلمية وبلانكنبرغ وأوستند البحريتين . وفي الاولى من هاتين كدت أقضي دنفاً إذ خطر لي أن أعوم في جملة الوف الخلق المنتشرين على ذلك الشاطىء البديع فنزلت الى الماء ولكن ما هي إلا ثوانٍ حتى شعرت ببرد شديد فعدت الى الكوخ الخشبي و بشق النفس استطعت أن انزع عني رداء العوم وألبس ثيابي وظللت بعد ذلك زهاء ساعة أنفف وأرتعش وأتجرع كؤوس الكونياك لكي أعيد الى جسمي حرارته . وما ذلك إلا لفقر الدم الذي مُنيت به في بلاد حارة كالسودان

اما لوفان فقد زرتها وقضيت فيها يوماً واحداً بدعوة من سيادة الراعي النبيل حنا الحاج مطران الطائفة المارونية الكريمة في دمشق اليوم وكان إذ ذاك يدرس اللاهوت في تلك المدينة ، وكانت تجمع بينه و بين من ذكرت من انسبائي صداقة متينة العرى . وقد اجتمعت به مراراً في بروكسل

ونعمت بطيب عشرته كما كنت شديد الاعجاب بسمو خلقه ورجاحة عقله وسعة علمه وفرط نقاه

بوا دي لاكامبر

هي غابة متسعة الاطراف واقعة في ظاهر المدينة تبلغ بالحوافل الكهربائية التي تجتاز في مرحلتها الاخيرة الطويلة شارعاً رحباً للغاية تتوسطه حدائق تنمو فيها اعشاب وادغال تنمقها ازهار مختلفة الاشكال والالوان وتقوم عن جانبيه ابنية فخمة بديعة الهندسة ذات حدائق غناء . فاذا ما بلغ طالب النزهة الغابة وجد مرابع وملاعب هي كناية عن هضاب وسهول واودية يكسوها العشب الاخضر وتظلل جوانبها أشجار غضة باسقة وطرقات لركوب الخيل والدراجات وبحيرات تمخرها القوارب وقهوات ومطاعم انيقة وساذجة وهذه احب والطف . اما الطعام الذي كنت أوثره فيها فكناية عن شرائح كبيرة من الخبز الاسود يؤتى بهما مدهونة بما يشبه « اللبنة » عندنا والى جانبها البصل الاخضر والفجل الاسود وكأس من الجعة الوطنية الشديدة الاختمار الى حد أنها تعتبر اكبر مساعد على الهضم

ملاهيها

دور التسلية واللهو في بروكسل لا عداد لها وكلها تصادف إقبالاً يعينها على البقاء ويسهل لها سبل الارتقاء لان الشعب البلجكي على ما اشتهر به من الجد لا يدع اسباب التمتع تفوته وانما لكل شيء عنده وقت . وكان خير ما يمتع الطرف ويرضي الحس وترتاح اليه النفس المشاهد المختلفة البديعة التي كانت تعرض في دارين شهيرتين تدعى الاولى « القصر الصيفي » والثانية : « القصر الشتوي » لموافقة وضع وهندسة كل منها لطبيعة الفصل الذي أطلق عليه اسمه . اما ثمن الكرسي الممتاز في كليهما فلم يكن يتجاوز فرنكاً واحداً

تياترو رويال هو كالتياترو البلدي الفخم الانيق في هذه الحاضرة وقد خدمني الحظ بأن حضرت فيه تمثيل ساره برنار وجوقها الممتاز في رواية « لا دام أو كاميليا » ولكنني لسوء حظي كتمت عواطفي وحبست دمعي فلم ابكِ مع الباكين فأثر بي الكتمان الى حد أني مرضت ثلاثة ايام

البليار تعلمت هذه اللعبة الهندسية الجميلة كأكثر الشرقيين اي دون قاعدة ولاتدريب ، ولكنني برعت فيها بالنسبة الى جل ِ الذين كانوا في الطليعة عندما بدأت بممارستها في الخرطوم ، ولم اجد لي ندّاً في بورت سودان سوى صديقي المهذب المرحوم امين صائغ

عَلَى أنني عندما شاهدت الالعاب الممتازة التي كانت تجري في بروكسل لم اتمالك ، عَلَى شدة ادعائي ، أن احتقرت نفسي وعدت تلميذاً مبتدئاً اتدرب عَلَى يد استاذٍ ماهر . فلما رجعت الى بورت سودان ادهشت صديقي الآنف الذكر والكثيرين سواه بضروب الالعاب التي لم يكونوا يحلمون بها بل يحسبونها من المستحيلات

هذا جل ما ابقته عوامل النسيان في الذاكرة من حوادث رحلتي التمهيدية هذه ، وفي أثنائها تعرفت بالتاجر والصناعي المعروف السيد عزيز نادر وصديقه النطاسي البارع الدكتور سليم فرح وكانا قد قدما من باريس لزيارتنا في بروكسل وتلطف السيد عزيز بأن دعاني لزيارة مدينة النور فقضيت فيها اياماً أربعة كانت من نِعم الدهر لما لقيته منه ومن اصدقائه العديدين من التلطف وكرم الضيافة ، وأخص الدكتور فرح الذي كرّس جزءاً كبيراً من وقته الثمين لمرافقتي الى المتاحف ودور الآثار وبرج إيفل وكنت عائداً من باريس الى الاسكندرية للتعرّف بأسرة يونانية تضم

فتاةً شاءت خالتي الصغرى ، بدافع انتسابها الى أصل يوناني ، أن اتخذها لي حليلةً اذا هي صادفت محلاً في قلبي ولكنني لسوء حظي أو حسنه نفرت منها لدى المقابلة الاولى لانها لا تعرف من اللغات غير اليونانية ولم اكن اشاء أن يكون منزلي كبرج بابل ، لذلك نصحت لعمها بأن يزوجها من احد ابناء جنسها الكثر في ذلك الثغر

وكان كل نصيبي من تلك الرحلة غير الموفقة أنني اضعت بين بورت سعيد والاسكندرية حقيبتي الرئيسية التي تحوي جلّ وأثمن ملابسي ولم يعزّني عن فقدها سوى عثوري عليها بحكم صدفة غريبة في بورت سودان نفسها وفي مقابلها رددت كرسيّاً للاستلقاء كان قد انتهى اليّ بحكم غلطة ارتكبها احد عمال السكة الحديدية بإلصاقه عليه الرقم الخاص بحقيبتي وبالعكس . وكان ذلك الكرسي لحسن الحظ لسيدة انكليزية قاصدة بورت سودان فصحبتها حقيبتي التي كانت تحمل رقم كرسيها

سنة ١٩١٤

نظراً الى ما ابدته لي رحلتي الاولى من محاسن اوروبا كنت بالطبع مسروراً جداً بأن اقضي في بروكسل بضعة اشهر قبل أن اقدم الى البرازيل

وفي اوائل شباط غادرت بورت سودان قاصداً الخرطوم لكي اقوم بواجب توديع اصدقائي فيها وكان في جملة من ودعتهم عَلَى امل أن التقي به في لندن الصديق الكريم السجايا عزيز كفوري وكان مزمعاً السفر بعدي بشهرين او ثلاثة وعاهدني عَلَى أن يكتب اليَّ من بورت سعيد منبئاً إياي بإبحاره ومعيناً لي مكان إقامته في لندن لكي اوافيه اليها فنقضي معاً اسبوعاً ويتحقق حلمي بمشاهدة عاصمة بلاد الانكليز

وهذه المرّة اردت أن أُوسع دائرة مشاهداتي فركبت من ثغر

الاسكندرية باخرة نمسوية انيقة وجهتها تريست ومن هذا الثغر الجميل انتقلنا الى باخرة صغيرة أقلتنا الى ڤنيسيا ملكة الجمال . ومما زاد في تمتعي وافتتاني أننا بلغنا هذه المدينة الساحرة ليلاً وكانت انوار ارصفتها ومنازلها تنعكس على صفحة ازقتها المائية وقاربنا يمخر هذه طامساً بسيره ذلك الوشي المتألق البديع ليعود فيظهر خلفنا زاهياً متلألئاً بفعل التموجات وكأن تلألؤه استهزاء او ازدهاء لعجز قاربنا عن محوه

كاندرائية ميلان

ركبت القطار من ڤنيسيا صباحاً قاصداً ميلان ، ولم تكن لي في هذه بغية سوى مشاهدة كاتدرائيتها بعد أن كنت طالعت عنها الشيء الكثير وأعجبت بنوع خاص بجهد وصبر المهندس الذي وضع رسمها إذ جعله هدفه الأوحد في هذا الوجود وأنفق فيه عمره ولا بدع فقد استغرق عمله سبعةً وأربعين عاماً

على أنني بعد ان بلغت ميلان ونزلت في محطتها عدت فاستأنفت مسيري الى بروكسل دون أن اشاهد ميلان ولا كاتدرائيتها لانني لم اجد في المحطة شخصاً واحداً يتكلم الانكليزية او الفرنسوية

بروكسل ثانيةً

بلغت بروكسل فاذا بي اشعر كأنني عائد الى وطني على أن وصولي اليها كان في شهر آذار الذي برغم مغالاتي في التدثر لم أذق فيه طعم الدفء الا بجانب الموقد ولم اكن افضل حالاً في شهر نيسان تاليه ولكن في ايار تبدل الحال واصبحت أنعم بسكنى مدينة بروكسل الزاهرة وأتملى من معالمها ومتنزهاتها وقد أصبحت أعرف من ذي قبل باغتنام اللذات واجتنائها وعلى الاخص الاستحمام اليومي قبل الظهر في حمام للسباحة أنيق كائن في الدور الرابع من بناء قريب من الوسط

وفي هذه المرة تعرّفت الى الكثيرين من خاصة الوطنيين فيها وشاء أحدهم ان نتعدى علاقتنا حدّ التعارف البسيط والتلهي في قاعة البليار او إحدى الحانات المجاورة فدعاني الى منزله وقدّم لي خمراً معتقة فاخرة . وهناك رأيت المدهشات فمنزل ذلك الرجل الذي لم تكن هيأته ولا سلوكه يدلاّن عليّ انه من النبلاء كان كناية عن قصر رحب مزدان الجدران بالرسوم الزيتية البديعة ويحتوي عليّ عدد كبير من الردهات والقاعات الفسيحة ويزدان بأثاث فاخر . ويكفي لتصوّر مقدار رحابته أن غرفتي الطعام والاستقبال فيه تتسعان لمائدة يجلس اليها ثلاثمائة مدعو . وهذا مثال عليّ نزوع الاوروبيين الى البساطة برغم ثرائهم ونبالة محتدهم

وشاء هذا الصديق أن يعرّفني ايضاً بأسرته وكانت عند زيارتي الاولى في احد المصايف فلما عادت دعاني ثانيةً وادهشني بتعريفي الى أفراد الأسرة كشخص عجيب قائلاً إنه لم يكن يحلم عمره بأن يرى شرقياً بالغاً درجة الارتقاء التي وضعني فيها تلطفاً او انخداعاً منه . وقد كتب اليّ مراراً بعد وصولي الى هذه الحاضرة

ومثل ذلك حدث لي مع سائح اميركيّ أجرى بينه وبيني تعارفاً وقتياً خادم البليار لكي نقطع ساعةً في اللعب ، فانه سألني عن منشإي وابدى استغراباً كلياً عندما قلت له إني سوريّ تلقيت العلم في مدينة بيروت وفي كلية اميركية لانه من مزارعي الولايات المتحدة وقد ألف من السوريين المهاجرين الى بلاده ما لم يترك اقلّ أثر حسن في نفسه

المرأة البلجكية

المرأة البلجكية مستقلة كل الاستقلال ومساوية للرجل كل المساواة ، عَلَى الاخص اذا كانت عاملة تكسب رزقها بعرق جبينها ، ومعظم النساء عاملات . وكل

ما تتقيد به المرأة نفسها أن تكون امينة لزوجها بعد الزواج ، وقد يتم هذا برباط العاطفة دون سواه بضع سنوات حتى اذا ما وثق الزوجان من تلاؤم طباعهما واستطاعتهما العيش بهناءة تقيدا بالشريعة والا انفصلا ولو كان زواجهما مثمراً . والفتيات طليقات في معاشرة الشبان ويفضلن الغرباء لان الشاب الغريب يدفع كل ما يعرض من نفقة في اثناء النزهات في حين أن البلجكي يتقاضى رفيقته النصف تماماً ولا يتسامح معها بسنتيم واحد ، لذلك يُسمى الغريب اصطلاحاً «اجاصة» لسهولة أكله! . اذكر هذا حباً بتقرير الواقع لا استحساناً لانني كشرقي محافظ افضل ألا نبلغ يوماً هذه الدرجة من الارتقاء!

نشوب الحرب

في اواخر حزيران تلقيت من الصديق عزيز كفوري الرسالة التي كنت بانتظارها واخذت ارتقب حلول الموعد الذي يبلغ فيه لندن لكي أوافيه اليها ولكن بينما انا في الانتظار وتمنية النفس بلقائه والتمتع بمشاهدة عاصمة العالم نشبت الحرب الاوروبية الكبرى وأصبحت وأنسبائي في سجن لانعلم لنا منه مخرجاً . وكنت قد اودعت بعض مال في صندوق التوفير فبت لا استطيع استيفاءه إلا بمقادير نصف شهرية تكاد لا تفي بنفقتي فلذت بالاقتصاد أشرب القهوة بدلاً من الجعة وادخن الغليون بدلاً من لفافات التبغ الانيقة والعب الشطرنج بدلاً من البليار

وقد جاريت في كل ذلك بروكسل بأجمعها وقد تبدَّل حالها وفقدت زهوها وأصبحت تُسمع فيها التنهدات والتأوهات بدلاً من قرع الكؤوس ورنين الاوتار ، ويخطر في شوارعها الجنود الشاكي السلاح بدلاً من الحسان الراميات بأسهم اللحاظ عن قامات كالرماح

وفي بروكسل مدينة العمل والبحبوحة والزهو واللهو بدأ الدين يُسدِّد

في وجوههم ابواب الكسب بعد أن انفقوا وفرهم الزهيد يقعدون على قوارع الطرق ويمدون ايديهم للاستعطاء وأنشأت البلدية والمعاهد الخيرية المطابخ العمومية لإطعام الوف الجياع

يُستفاد من كل ذلك أن بروكسل أصبحت جحيماً بعد ان كانت نعيماً ولكن مَن يُنقذنا من ذلك الجحيم وقد انقطعت المواصلات وتعذَّر الانتقال؟

خليل الترجمان

بينما انا ذاتَ يوم في قاعة البليار جاءني صديق بلجكي بمواطن لي علمت منه أنه فلسطيني من سكان يافا ومهنته اصطحاب السياح الى الاراضي المقدسة وأنه كان في لندن وقدم الى بروكسل لتمضية بضعة ايام فانقطعت عليه الطريق ومسَّت به الحاجة فرهن بعض امتعته واثوابه واخيراً اضطر الى الاستعانة بالقنصلية العثمانية فكان كل نصيبه منها جراية خبز يومية وغدا طعامه مقتصراً على الخبز وفضلات لحم الخنزير المقدَّد يشتريه بمقادير وافية بسعر زهيد بفضل بائعة في المحل تجمعه بها صداقة قديمة ولكنه شكا لي فعل ذلك الطعام الجاف في امعائه فرثيت لحاله وأخذت أدرس معه طريقة تمكنني من مساعدته فاذا بنفقته اليومية لكي يبلغ مشتهاه من الحياة نصف فرنك لا غير، وهذا بيانها:

السكن مجاناً رضي اصحاب المنزل ام ابوا

الغاز للطبخ مضمون

الخبز من القنصلية العثمانية

عظام بعشرة سنتيمات

بطاطا بعشرة سنتيمات

بصل بخمسة سنتيمات

فنجان قهوة بحليب بخمسة عشر سنتيما

تبغ بعشرة سنتيمات

والنتيجة شورباء لا بأس بها وتمتع بالقهوة والتدخين ، وللحال انقدته خمسة فرنكات عن عشرة ايام وودعني شاكراً

وفي المساء تحدثت بشأنه في البيت فآثرت شقيقتي أن نضيفه للطعام فاستصوبت رأيها وشكرت لها عطفها ولكن لسوء الحظ او حسنه لم الق خليلاً إلا مودعاً لانه كان قد دبر طريقة للسفر فهنأته بخلاصه من مأزقه ورجوت منه أن يقبل مني عشرة فرنكات أخرى عَلَى تقدير انه لو بقي لكلفني اكثر منها ، وكان ما اردت وافترقنا

مرور الجيش الالماني

بعد سقوط لياج وأنفرس لم يبق للجيش البلجكي سوى الانسحاب موءثراً إخلاء بروكسل عَلَى الدفاع عنها دون طائل وهكذا احتل الالمان العاصمة البلجكية ومرَّ فيها جيش فون كلوك المؤلف من اربعمائة الف مقاتل بكامل معداته ودام مروره في احد شوارعها الرحبة ثلاثة ايام بلياليها فلا ينقطع سوى فترات قليلة تمكيناً للحوافل الكهربائية والمركبات والمارة من اجتياز ذلك الشارع

النجاة

بينما كنت ذات يوم جالساً في قهوة متروبول سمعت شاباً غريباً سبقت لي معرفته بواسطة لعبة الشطرنج يذكر لبعضهم امر سفره بعد يومين عائداً الى فيانا مسقط رأسه ويقول إن القطار الذي سيركبه هو الاخير الذي يغادر بروكسل الى إكس لا شابل وبالالمانية آخن فسألته السبيل للحصول عَلَى جواز فهداني الى مركز قيادة الجيش الالماني في وزارة الحربية البلجكية فسرت اليها انوي مصطحباً جوازاً

عثمانياً قديماً كان مع خالتي فاقتادني الحاجب الى حضرة ضابط اكتفى مني بالجواز إثباتاً لعثمانيتي ودفع الي قصاصة ورق تجيز لي وللثلاثة اشخاص معي مغادرة بروكسل (لان ابن اختي الاكبر جبران كان قد برحنا قبل نشوب الحرب الى بيروت لتلقي العلم فيها) فخرجت من لدن ذلك الضابط شاكراً منشرح الصدر

بقي أن نضحي في سبيل نجاتنا بكل شيء ولا نحرص على شيء . فسلمت اثاث المنزل الى شخص كنت اعرفه معرفة سطحية اسمه مسيو لابيار مكلفاً اياه بيعه اذا استطاع غير مراعٍ الاسعار المدوّنة في اللائحة على أن نتحاسب فيما بعد . وبحجة مغادرتي بروكسل استطعت أن اسحب شيئاً من المال الذي كنت قد اودعته صندوق التوفير وركبنا القطار في الوقت المعين بصحبة الشاب النمسوي

ركبنا القطار ولكنه لم يتحرك إلا بعد ساعات ، وبعد ان تحرك كان سيره بطيئاً ومتقطعاً فيطول وقوفه في المحطات الى حدٍ مزهق . وكنا بين حين وآخر تمرّ بنا قطر حربية تنقل الجنود والمدافع الضخمة وكان رفيقي النمسوي ينزل في كل محطة فيحادث الجنود ويأتيني ببشائر يحسبها سارّة لي وفي جملتها قرب سقوط باريس بيد الجيش الالماني وأنا أتجلد والعن الساعة التي رافقته فيها ولكن ما العمل ولا سبيل لي الى انكار جميله عليّ فانه كان الواسطة لنجاتي من بروكسل

مع ذلك عندما بلغنا آخن ودعته وسألته أن يقبل مني تقدمة زهيدة هي خمسة فرنكات قد يحتاجها في سفره لانه كان قد اعرب لي عن الحاجة التي امضته في بروكسل واعترف لي بأن عشاءه كان دائماً فنجان القهوة مع الحليب الذي كان يتناوله امامي كلّ مساء . فشكر لي وسألني عنواني لكي يبعث الي بتلك القيمة حال وصوله فكلفته أن يجود بها باسمي على محتاج أو

آخن

آخن لا تعدو أن تكون قرية من قرى المانيا ولكنها كانت في نظري مدينة صغيرة وقد أعجبني نظامها وترتيبها ونظافتها ومنها استدللت عَلَى عظمة تلك البلاد التي جملت كل قرية فيها مصغر عاصمتها

أما محطة السكة الحديدية فيها فحصن منيع وقد لقيت مديرها فحدثني عن الحرب مبدياً ثقته بانتصار بلاده وقرب دخول تركيا الى جانبها لكي لا يفوتنا نصيبنا من الغنيمة !

والذي اذكره أننا غادرنا آخن في مركبة ووصلنا بعد ساعات الى محطة ركبنا منها قطاراً الى مايسترخت في هولاندا وكان برفقتنا شاب علمنا منه انه من تلك المدينة وان صنعته التجارة وكان كثير الكلام الى حد مزعج . عَلَى أنه نفعنا اذ هيأ لنا سبيل المبيت الى الصباح لكي ننتقل القطار الى امستردام وإلا لاضطررنا الى المبيت في المحطة لان أنزال مايسترخت كانت غاصة باللاجئين من مختلف الانحاء . ومع أن تلك الضيافة كلفتنا كثيراً فقد حمدناها .

امستردام

قضينا في هذه المدينة حوالي خمسة عشر يوماً انتظاراً لاوراق السفر من سان باولو وكنا نخشى أن يطول قدومها اكثر فلا يكفينا ما في ايدينا من المال فلذنا بالاقتصاد واستبدلنا من النزل الذي حللناه الثلاثة الايام الاولى منزلاً ارضياً حسن الاثاث كانت تقيم فيه ممرضة اشتاقت المستشفى فعهدت بتأجير منزلها موقتاً الى عائلة كريمة كانت تسكن الدور الأعلى وهكذا تخفضت نفقاتنا الى الثلث في حين أن معيشتنا اصبحت افضل من كل وجه

مع كل ذلك لم آلُ جهداً في اتخاذ الاحتياطات فبعد أن ابرقت الى هذه الحاضرة منبئاً بوصولنا الى امستردام كتبت الى الصديق عزيز نادر في باريس والى عزيز كفوري في لندن مستنجداً فوصلني من الاول بعد مبارحتي امستردام مبلغاً أظنه عشر ليرات انكليزية أعادته ادارة البريد اليه وتلقيت من الثاني بعد وصولي الى سان باولو كتاباً ينبئني فيه أنه تلقى استنجادي في الخرطوم اذ أن نشوب الحرب قضى عليه بالتعجيل في العودة اليها

اما امستردام فمدينة جميلة لا تقل عن بروكسل في شيء وتفضلها من وجوه عديدة ما خلا تبغ الغليون الذي لم اجد منه في امستردام شيئاً يصلح للتدخين

الباخرة

عند ما كنت في بروكسل كنت أعلل نفسي بركوب الباخرة الحديثة «خلوريا» الهولاندية وأمتع نظري بمشاهدة رسومها البديعة وأطالع وصف ما فيها من اسباب الراحة والتمتع لذلك كانت خيبتي عظيمة عند ما ركبت من امستردام باخرة قديمة اسمها «هولانديا» قاسيت فيها ومن معي الامرّين مع أننا كنا في الدرجة الثانية وقد جرت لي مع الخدم حوادث اثارتني عليهم واستثارت الركاب الذين لم يكونوا يحتاجون الى إثارة لسوء المعاملة التي كانوا يلاقونها في تلك الباخرة المنحوسة

اخيراً رفع الخدم الامر الى المدير ومنذ ذلك الحين تحسنت الحال وبطلت اسباب شكواي وشكوى سواي من الركاب لانني تهدّدت هذا بانني حال وصولي الى سان باولو سأشهر حرباً عواناً على الشركة فلا أدع احداً يركب بواخرها

محاولاتي الأدبية

بدأت محاولاتي الادبية ، إنشاءً وتعريباً ، منذ حداثتي ولكنها كانت كلها عقيمة . على أنه إذا حقت لي المفاخرة فبشيء واحد هو أنني لم أحتج مرةً الى رأي سواي للحكم عليها وإتلافها ، وربما كان لهذا التمرُّن جلّ الفضل في أنني حتى اليوم استطيع التجرُّد من شخصيتي والحكم على ما اكتبه بعين الناقد الاجنبي . وبهذه المناسبة لا انسى مثلاً صالحاً او بالأحرى قاعدة ذهبية تعلمتها من صديقي فريد عطيه في الخرطوم وهي أنه لم يكن يودع صندوق البريد اية رسالة يكتبها إلا بعد أن يتركها أياماً على منضدته ويعيد قراءتها ثلاثاً على الاقل وينقحها اكثر من مرة اذا وجد لذلك موجباً

ولكن لسوء الحظ جاء وقت ولجت فيه طور النضج وكان ذلك في صيف ١٩٠٥ إبان العطلة الاولى التي منحتني اياها حكومة السودان فأنشأت ونشرت مقالةً في بيروت بعنوان « ابن السعادة » نالت حظ النشر في جريدة المحبة لصاحب امتيازها المرحوم فضل الله ابي حلقه والتي كان قائماً على تحريرها باسلوبه العصريّ الشائق وبلاغته المشهورة ابن خالتي الاديب نجيب نعيم طراد وصادفت شيئاً من الارتياح شجعني على إعادة الكرّة فأنشأت مقالةً ثانية جعلت عنوانها « قلب تحت حجر » نقحتها وبدلت فيها ثلاثاً بإشارة من ابن خالتي المومأ اليه حتى بلغت الحد الذي اهلها للظهور في صدر جريدة المحبة فكدت اطير من فرحي

وقيضت الاقدار بأن يكون لهذه المقالة شأن لم اكن اتوقعه لها ذلك أني في صيف ١٩٠٧ نشأ تعارف في احد مصايف لبنان بيني وبين امرة بيروتية أدى الى طموحي الى يد احدى كريماتها وإحكام صلات الود بيني وبين شقيقة كبرى لها وكنت قد عرفت عن هذه انها تميل الى نسيب لها ويمنعها شقيقها الاكبر القيّم عَلَى الاسرة من الاقتران به تمسكاً منه بالتقاليد المذهبية فلما آنست مني نزعة حرة وثورة لم تعهد مثلها عَلَى التقاليد من اي نوع كانت سألتني أن أروي حكاية حالها في مقالة أنشرها في احدى الصحف لكي تستعين بها على إلانة قلب شقيقها الاكبر او تهديده بانقطاعها الى دير . ولا يسل القارئ عن دهشتها عند ما أجبتها بقولي ان سؤالها جاء متأخراً جداً عن وقته لان المقالة التي تريدها مكتوبة ومنشورة منذ عامين . والحق يُقال إن ذلك كان من غرائب الاتفاق لان مقالة « قلب تحت حجر » كانت بالمعنى الذي ارادته تماماً فلم يبقَ سوى الحصول عَلَى نسخة من عدد « المحبة » الذي صدرت فيه فبعثت اطلبه من صديقي فضل الله ابي حاتم فأجابني للحال آسفاً لعدم وجود نسخة إلا ضمن المجموعة ولكنه يعدني بالسعي الحثيث للحصول عَلَى واحدة من بعض القراء لم البث اياماً حتى تلقيتها فسلمتها لصديقتي فأودعتها كتاباً كان شقيقها يتصفحه قبل الرقاد ولاستغرابها الشديد وسرورها الاشد رأته بعد ايام يتحول من المنع البات تحت التهديد والوعيد الى التخيير والتنصل من المسؤولية

وقد سرني كثيراً انني بعد عامين زرت الزوجين النسيبين في احدى مدن السودان وهنأتهما تهنئة قلبية بقرانهما وبمولودهما الجديد وحياتهما الزوجية السعيدة

وظللت منذ صيف ١٩٠٥ حتى سنوات بعدها اواصل المحبة بمقالات مختلفة المواضيع وفي سنة ١٩٠٩ نشرت عدة مقالات في جريدة البرق لصديقي

الشاعر الكبير بشاره عبد الله الخوري بتوقيع « ارميا » وفي جريدة الحرية التي كان يصدرها صديقي الاديب والخطيب المعروف داود مجاعص. وفي ادارة البرق تعرفت الى الكثيرين من ادباء ذلك العهد، في طليعتهم الشيخ اسكندر العازار وحليم دموس صاحب جريدة الاقلام الرشيقة اليوم

واذكر انني في سنة ١٩٠٧ زرت ادارة المحبة فاستقبلني الصديق فضل الله ابي حلقه احسن استقبال وكان بيننا حديث انتهى بأن ابلغني نبأ وفاة رجل كبير هو المرحوم سليم شحاده وكلفني أن اروي هذا الحادث الجلل لقراء المحبة فاعتذرت وتنصلت ولكن عليَّ غير جدوى . وعند ما احتججت بالجوع ارسل في طلب غداء فاخر واجلسني الى المنضدة وقدم لي المعدات الكتابية اللازمة جهلاً منه بكيفية كتابتي المقالات التي كانت اصغرها تقتضيني جهداً متواصلاً مدة اسبوع كامل . ولست انسى كم جاهدت وكم تصبب العرق البارد من جبيني وكم ابتهلت الى الله أن يرسل لي من استعين به على سبك تلك القطعة في قالب يليق « بصمغي » وبالفقيد وكان أن قدم بعد الغداء صديقي الشاعر الاديب الياس حنيكاتي ولكنني كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار لانه اخذ باسلوبه الشرقي المألوف يؤكد لي انه ليس اهلاً للاشارة عليَّ وانا لعن الساعة التي اوقعني فيها سوء حظي في تلك الورطة

اخيراً انتهت القطعة التي لا اذكر انها تجاوزت العمود وأرسلت الصفحة الى قلم المراقبة فعادت تنبئني بأن عذابي لم ينته بعد لان حضرة المراقب لم ترقه إشارتي بشكل ما الى الهلال في معرض وصفي للفقيد فكان جهاد جديد انتهى والحمد لله بانتهاء مهمتي وفك اسري

ومما لم يرضَ عنه المراقب عبارة استعملت بها مقالاً نشرته في جريدة المحبة هي « خُلق الانسانُ ضعيفاً » فأبدلت من هذه العبارة ما يضارعها ولكن ابن خالي نجيب طراد أبى إلا ان يهتدي الى سبب معقول لحذف

المراقب تلك العبارة وبعد أن طال بحثه وتفتيشه وسؤاله اهتدى الى السر بواسطة الاستاذ جبران فونيه وهو أن تلك العبارة آية قرآنية

وكنت وصديقي فريد عطيه نلتقي بعد الغداء على سريرينا في الرواق الخارجي ونتحدث في شؤون شتى فخطر لنا يوماً أن ننظم أرجوزة نضمنها كل ما نعيه من السخافات التي تجري في دوائر الحكومة السودانية وكان هو يكتب وأنا أملي فكانت نتيجة جهادنا بضعة ايام الارجوزة التالية التي راعيت في نسجها لغة المكاتب في ذلك العهد وانصرفنا بعد ذلك عن النظم لصعوبته في أيام الحرّ الشديد في الخرطوم ، وكان ذلك عام ١٩٠٨ :

نبدؤها بإسم تاوضروسا | الحاسب الشهير إبن وبصا
ذي حسبة لائقة يا سيدي | تزهو بهاء كليالي العيد
قد خرجت من مكتب الحساب | مرسولة لطرف الجناب
ثمّ الرجا إبعاثها لذا الطرف | من بعد ان تُمضى بذيالك الطرف
وقد خصمنا بدلَ الاقامه | عَلَى وفوراتِ للاستقامه
من بعدِ ذا نرجوكم التنبيها | بوضعِ ما صرفتموهُ فيها
واستقطعوا الى حسابِ التمغه | يا ليتَ ذا عما قريبٍ يُلغى
وحاذروا استقطاعَ شيء للمعاش | من قبل إمضا الامر او رحتم بلاش
وقد كتبنا للمدير كلا | بأن يرينا حسبةً مفصله
وانما الآن لم اجابا | لعله لا يعرف الحسابا
نخابروه إن اردتم رأسا | وأفهموهُ اننا لا ننسى
فنحن حقاً قلمُ المراجعه | وكلُّ حسبة الينا راجعه
وقد طلبنا حسبةَ المعارفِ | فلم اجابوا شأنَ كلِّ خائفِ
اغلاطهم عديدةٌ لذ اصبحت | وفقط إفاداتهم ما وضحت
نسألهم لِما صرفتم هذا | فلا جوابَ عندهم لماذا

وصرفهم في ذي السنه كثير لا يعرفون ما هو التدبير
وخوفنا من ان يطولوا اكثرا مـا لهم في ذي السنه تقررا
ارجاهم زادت عن الباطل وخوفنا من صرف الاحتياطي
كذلك حررنا الى منار فأركن المدير للفرار
وقال من ناب انا لا اعلم لا علم لي إلا الذي أعلم
ذا مبلغ صرفه المدير بأمره الباقي لا تحبير
فسائلوه عندما يعود من لندن جنابكم يفيد
امـا جناب المصلحه الطبيه فلم نجد طبـاً لها قطعيا
فكلها مريضة يا صاحبي قد ضاق فيها ذرع كل كاتب
نسألها عن نمرة التصديق نقول شيئاً عادم التصديق
قـد صرفت بتلك الاسبتاليه مبالغاً ولم عرفنا ما هيه
اثمان اكل كلها للمرضى بلا وصولات ومنها قرضه
فيها رئيس يجهل الحسابا وكاتب لا يحسن الجوابا
وكل ما فيها غدا ملخبطا كل يقول إن غيري غلطا
قلنـا لهم متى رفتم طه حالاً اجابوا هذه بلاها
وإن سألنا صحة الاسماء قالوا اذهبوا لأول الآباء
او شئتم حواء فاسألوها لا شك تدري من هم بنوها
وأصلحوا اغلاطنا في ما ورد هذا حساب لم يراجعه احد

ومنها وقد ضمنته مداعبة لصديقي مجيد شاهين الوارد ذكره في مكان آخر من هذا الكتاب :

مصلحة الغابات والاحراش مباءة الجهال والأوباش
فيها « مجيد » مج منه النصف ونصفه الثاني « يد » تنف
اخلاقه قبيحة تشين كل الألى نسلهم شاهين

وبَلى ذكر لغة المكاتب أورد الحادث التالي الذي جرى بيني وبين الميرالاي ماي بك نائب السكرتير المالي ، وكنت اذ ذاك أُدير قلم المستخدمين في غياب رئيسه ونائبه :

دخلت يوماً عَلَى ماي بك احمل عدداً من الرسائل برسم التوقيع وفي جملتها واحدة باللغة الانكليزية تنطوي عَلَى أخرى عربية صادرة عن فرع المالية السودانية في مصر مؤداها اننا معيدون الرسالة العربية لاننا لم نفهم المقصود منها . وفي الواقع ان تلك الرسالة كانت كناية عن مجموعة مقدمات وحيثيات دون نتائج فأنكرها ماي بك واتهمني بجهل العربية اذ لا يستطيع ان يتصوَّر أن كاتباً مهما يكن شأنه يعجز عن تأدية ما في ذهنه ولو بأسقم الاساليب . فعندما اكدت له أنني اعرف لغتي كما يعرف هو لغته وأصررت عَلَى أن معنى الكاتب مستتر وراء حجاب كثيف من مبانيه الركيكة استدعى الباشكاتب فأثبت له صحة رأيي فلم يعد يكتفي برسالتي البسيطة بل كتب رسالة سواها قذف بها حمم غضبه عَلَى ذلك الكاتب وطلب خصمه وفصله عن وظيفته اذا ثبت أن وقوعه في ذلك الإبهام التام لم يكن صدفة نادرة

اول ما كتبته من قلمي

كان اول ما كتبته من قلمي اربعين غرشاً مصرياً ، لم اقبضها ولكنني وُفيت دفعها . ذلك أنه عندما أُعلن الدستور في تركيا شاء المتحمسون من مستخدمي المالية أن يبعثوا الى جمعية الاتحاد والترقي في الاستانة ببرقية تهنئة وفرضوا عَلَى كل مشترك في ارسالها عشرين غرشاً قيمة كلمة واحدة وجاءني المولج بجمع المال وبيده البرقية وبعد أن تمعنت فيها قلت له اني ادفع اربعين لا عشرين فاستغرب سخائي ولكنني ازلت استغرابه إذ حذفت من البرقية اربع كلمات عوَّضت عنها بكلمتين فاستقام المعنى المقصود وازداد وضوحاً

مشاهداتي في حياتي

الخوري الياس البيروتي

قبل أن يصبح الخوري الياس كاهناً يتبرك منه الناس كان معلماً في المدرسة الارثوذكسية المجاورة للكنيسة فلم يكن يفصل بينهما سوى حديقة عرضها بضعة امتار كاسية بأنواع الخضر والازهار وتُسقى من ماء مجرور في انبوب منوط بجدار المدرسة وينتهي بحنفية تصب في برميل كبير والى جانبه مقعد عريض للجلوس ولكن المعلم الياس اهتدى الى وسيلة للاستفادة من هاتيك المعدات دون أن يضر بالمزروعات فانه كان لشدة محنته بمضه الحر في ايام الصيف فاذا ما عدنا الى المدرسة بعد الظهر أوكل الي على صغر سني امر التدريس ومراقبة رفاقي التلاميذ وخرج نخلع ثيابه وابترد في البرميل ثم تنشف ولبس قميصه وسراويله الفضفاضة ونام على المقعد في الظل . فاذا ما صحا دخل وجلس على كرسيه بذلك الهندام البيتي وكلف احد التلاميذ ان يأتيه برأس من البطيخ بقشره كالبرتقالة ويلتهمه عن آخره . فاذا ما شعر بارتياح بعد الاستراحة الطويلة وترطيب خارجه وداخله على اتم شكل اشتاق مداعبة صغيره اديب الذي كان اثقل صبي عرفته في حياتي الى حد أني كنت اتهم اباه وأمه باخلاصهما في حبه لاعتقادي أنه لا يمكن لبشري أن يحب ولداً مثله . إنه كان يبدو لي عنوان القباحة والعناد ولؤم الطبع حتى

أنه لم يكن يذكر حسنة ولا ينسى سيئة ويبكي عَلَى السواء اوجب ولغير موجب واشتياق المعلم الياس ولده اديباً كان يفيد أن لا بدّ لاحد التلامذة من تحمل مصاب الإتيان به من البيت وإعادته اليه احياناً ، عَلَى بعد الشقة ووعورة الطريق ، بعد أن يطفئ والده المحب شوقه اليه ضماً وتقبيلاً . الا أن المعلم الياس لم يكن يرضيه أن يقدم احد الاولاد عَلَى تلك التضحية إطاعة لأمره بل يؤثرها اندفاعاً وحباً لاديب ، وهكذا كان يعلمنا الرياء حتى أنه عَلَى رغبة الاولاد الطبيعية في قضاء ساعة او بعضها خارج المدرسة لم يكونوا يبدون لهفة تذكر عندما يصيح المعلم الياس : « والآن من يأتي بأديب »

ولسوء حظي أنه كان يفضلني عَلَى سواي ويرفض تطوع الكثيرين ليشملني بعطفه ويقلدني ذلك الشرف الرفيع فأسير مكرهاً كاسف البال وفي صدري بركان يقذف الشتائم واللعنات . فاذا ما بلغت البيت صاحت في ربته اديباً كأنها تسلمني أثمن كنز في الوجود وأفرغت في سمعي جعبة توصياتها وتحذيراتها مخافة أن يمس صغيرها المعبود بسوء

عَلَى اثر ذلك كنت آخذ بيد اديب البغيض ونسير متجهين نحو المدرسة غير أننا ما كنا نقطع خطوات معدودة حتى يستجمع اديب كل ما أودعته فيه الطبيعة الجائرة من روح الثقالة ويتظاهر بالتعب مكلفاً اياي حمله ، وأنى لي أن استطيع حمله وانا لا اعدوه بسوى سنوات قليلة ، ناهيك بثقله المنوي عَلَى قلبي ؟ مع ذلك كنت احمله واسير به فلا يكتفي حتى ينال مني الإعياء فأسقطه وهنا الطامة الكبرى فكان ينطرح عَلَى الأرض باكياً ومتهدداً اياي بالشكوى لأبيه فأضطر الى إرشائه بشيء من الحلوى اشتريها له من خرجي القليل ، ولكنه للؤمه كان اذا ما فرغت يده منها نسي أني اشتريت بها سكوته فيشكوني . اخيراً اهتديت الى طريقة توفر عَلَى عاتقي وجيبي ونقيني

نتيجة الشكوى هي أني اخذت أضرب اديباً ضرباً مبرحاً يشفي نفسي وأتهدده بقطع عنقه اذا هو شكاني فبات يخشاني ويبدي نفوراً مني وهكذا تخلصت منه واصبح حمل سواي

مظالم وبذخ وتهتك

كانت سراي المتفقة مصفّر بلاط ، القائمقام اميره والموظفون وزراؤه والمحاسيب حشمه وخدمه . وكان الجميع يعيشون عيشة بذخ وترف ، لا من رواتبهم الضئيلة ، بل من عرق جبين الشعب ودمه . حتى ان الجنود لم يكونوا يسلمون من ظلم مدير المال والضباط الذين كانوا يغنمون الجزء الاكبر من موردهم الشحيح بحبسه عنهم اشهراً بحجة أنه لم يرد امر من الباب العالي بصرفه ، حتى اذا ما ادرك الجنود القنوط وعضهم الجوع بنابه عطف عليهم أولئك الظلام فأسلفوهم جزءاً مما لم اقاه وصول بجموعه . وكان الجنود بدورهم يتخذون من حاجتهم الماسة مبرراً للاعتداء والارتشاء وهضم حقوق الباعة

ومما لا يزال عالقاً بذهني من مظالم ذلك العهد ما حلّ بعدد من النجارين والحدادين حصراً للنقاب عن جريمة سرقة ارتكبت في منزل احد كبار الموظفين الاغنياء واسمه اسكندر كحيل فأودع اولئك المتهمون الابرياء السجن وكانوا كل ليلة يعرّون ويصب عليهم الماء البارد ويضربون بالسياط دون شفقة ولا رحمة ، وظل الحال على هذا المنوال اسابيع دون أن يهتدى الى السارقين الذين كان يغلب على الظن أنهم غرباء ظفروا بالغنيمة وفرّوا آمنين . وعلى اثر انتهاء هذه المأساة توفي احد الشبان المتهمين مسلولاً لأنه كان حساساً ضعيف البنية فلم يتحمل وطأة التعذيب وكان اسمه جرجس النجار وصنعته النجارة وكان جاراً لنا وصديقاً نأنس اليه

وتطيب لنا عشرته ويروقنا حديثه

وها أنا سارد بعض الحوادث التي تدل على انحطاط اخلاق المحيط التي قضت الاقدار بأن أصرف مني حداثتي فيه :

نجا

كان نجا ربعة القامة نحيل الجسم اسمر اللون اسود الشعر والعينين اعقف الانف قليلاً غائر الخدّين دقيق العنق بارز جوزة الزاموم يرتدي اللباس الافرنجي . وكان ربّ عائلة ويملك بيتاً رحباً جميلاً قائماً في اعلى نقطة من التل ويعيش عيشة لا بأس بها على أن امره كان يحيّرنا نحن الصغار لان محله الكبير ذا البابين لم يكن يحوي من البضائع إلا كلّ ما اكل عليه الدهر وشرب من الاصناف الكمالية التي كان معظم السكان في غنى عنها . ومع انه كان يتعاطى مهنته وهي الحلاقة في محله عينه فما كنا نراه يحلق إلاّ لعدد قليل من الموظفين والوجهاء واحياناً المصطافين

وبلغ من جمود الحركة في محله أن كنت وصديقي الصغير يوسف سليمان السكاف نعيره التفاتاً خاصاً لعلنا نتمتع برؤى أعجوبة وهو أن يدخله احد الناس ويشتري حاجةً . واتفق أن حدثت يوماً تلك الاعجوبة وكنا واقفين على مقربة نرقب فلاحاً دخله ووجد حاجته وهي موقد معدنيّ صغير يشبّ بالكحول ولحظنا أنه بعد المساومة المألوفة اشتراه وخرج . وكان قد ساءنا أن نرى وجه نجا الكالح عادةً يطفح بشراً لفوزه بتلك الصفقة فتبعنا الفلاّح الساذج وأفهمناه بأن ذلك الموقد يهبّ احياناً فيندلع منه اللهيب فتكون النتيجة احتراق بيته فأصاخ الى نصحنا وعاد ادراجه فردّ ذلك الموقد الجهنمي وكنا نحن نراقبه عن بعد استمتاعاً منا بخيبة نجا فبصر بنا وداخله ريب في أمرنا فسأل الفلاح من اين تعلم تلك الفلسفة فدلّه علينا

ولكنه اصرّ على الرد عملاً بنصحنا لحملق نجا واستشاط وكاد يعدو وراءنا ليقتص منا لو كان عنده اقل أمل بإدراكنا

اما والحالة هذه فلا بدّ أن يكون وراء هذا العمل الظاهر المقيم عمل آخر مستتر يدرّ نفقة العيلة ، وهذا كان يجري في شطر من المنزل الذي كان في غاية الموافقة نظراً الى بُعده وانزوائه فيكيّف تبعاً للظروف فهو في الغالب مقمرة وشبه حانة مسرية فاذا أمّ البلدة مغنٍ او راقصات يهوديات تحوّل الى مغنى او مرقص وكانت حرمة العيلة دائماً مبسوطة على هذا الشطر ولكن حذراً من الطوارئ والمفاجآت من جهة نساء الموظفين الغيورات او موفديهنّ كان نجا يقيم على مسافة من المنزل حارساً يراقب القادمين فاذا داخلته شبهة اعطى الإشارة اللازمة فتتحوّل قاعة اللهو والقصف في لحظات الى مجتمع عائلي لا غبار عليه ولا مأخذ فيه . ولكن احدى النساء ذوات الحيلة والدهاء ، وكانت كثيرة الظنون شديدة الغيرة ، رشت يوماً الحارس وفاجأت الصحب في ساعة لهو شائن وتبذل معيب وكان زوجها « المحبوب » بينهم فنالته بضع ضربات من حذائها على أمّ رأسه . وقد شهدت بعيني هذه المعركة وسررت كثيراً إذ بحق الدالة التي كانت لي وبرغم حداثة سني كنت احضر بعض هاتيك الاجتماعات وبنوع خاص تلك التي يجري فيها غناء ورقص

كانت الراقصات اليهوديات يبالغن مـا استطعن في التبرُّج والتزيّن بالحلى وبكل مستهوٍ جذاب من الملابس البرّاقة الخليعة ويدهنّ وجوههن بطلاء لزج لكي تلتصق بها قطع النقود الذهبية التي كان الحضور « ينقطنهنّ » بها استحساناً ، وكان التنقيط يجري بعد ان تدور الخمرة في الرؤوس ويبلغ الطرب أوجه فتأخذ الراقصة تميل وتنثني وترتمش وتدور في أثناء رقصها على الحضور وتقف امام كلٍّ منهم بدوره وتميل عليه بوجهها فيستخفه الطرب ويلصق على جبينها او خدها قطعته الذهبية التي قد تكون ليرة او نصف ليرة

ويهمّ بتقبيلها جزاء ما اسدى فتنفر نيّها كالغزال الشارد وتستأنف دورانها الى ان تكرّر وقفتها امام طروب آخر ، وهكذا دواليك . فاذا ما لاح الفجر وحان وقت الانصراف جاء دور الشطرُف وأطلق القوم آخر سهم في كنانة الاوباء فانتزعوا احذية الراقصات وحولوها الى كؤوس يصبون فيها الراح ويحتسونها ولا احتساءهم اياها من أنخر وآنق الاقداح

اما والدي فكان يستمتع ببعض هاتيك الاجتماعات من الوجهة الفنية لانه لم يكن يقامر إلا في رأس السنة وما رأيته البتة « ينقط » الراقصات ، كما انه لم يكن وحده في اجتناب هذه السخافة ، وكان يفضل إلا في ما ندر الليالي الغنائية التي يكون المغني فيها رجلاً

انطون افندي

كان انطون افندي موظفاً في الحكومة وكان شديد التأنق محباً للّهو والطرب يتزيّا بالجمال ويتتبع اللطف وكان لا يسمح لأحد بسبقه في مضمار التبذّل والتهتك . واتفق أن عادت من اميركا أرملة كهلة قبيحة الشكل لا تنفع في تجميلها مساحيق ولا اصباغ ولا تزينها ملابس ولا حلى . ولكن اذا كان قد فاتها الجمال الذي يستهوي انطون افندي فقد عُوّضت عنه إرث الزوج الذي تُوفي في اميركا وكان مقداره بضع مئات من الليرات . ولما كان انطون افندي يهمه المال لكي ينفقه في اجتناء اللهو والمسرّات أوهمها أنه احبها وتزوج المال وكانت مطارحاته لها مما يضحك الثكلى ويستدر دموع السرور من ما قي أوفر الناس رصانةً وأرغبهم في الجدّ . وما فتئ يتكلف إرضاءها حتى ترضيه بنفحة جديدة من المال حتى اتى على آخر فلس من الارث وصحّ فيه المثل العامي المشهور : « يا آخذ القرد على ماله يروح المال ويبقى القرد على حاله »

وكل ما اذكره من أمره بعد ذلك أنني لقيته في صيف ١٩٠٩ في احد متنزهات العاصي في حمص وكان بصحبة عدد من الموظفين ولكنني رأيته عَلَى حال من الرثاثة كاد يتنكر معها عليّ نظراً الى ما عهدته فيه من حب التأنق فرثيت لحاله وكدت لولا خجلي منه واتقائي جرح عاطفته أعرض عليه ما يستعين به عَلَى تحسين مظهره

نجيب افندي

هذا شاب كان جميل الخَلق ولكنه كان قبيح الخُلق . بدأ حياته بحشر نفسه بين كبار الموظفين ومعاشرتهم ثم تسلم وظيفة صغيرة بفضل الدالة التي كانت لوالده عَلَى القائمقام محمود الغزي ، وسرعان ما اصبح موظفاً حتى غدا متكلفاً متألماً وآلى عَلَى نفسه أن يقترن بفتاة كانت آية في الجمال والذكاء ، ولكنها كانت دون الثانية عشرة . وقد آثرها عَلَى اختها الكبرى لان هذه لم تكن عَلَى شيء مما امتازت به أختها ، واخيراً ظفر بها بفضل انحطاط والدها وانعكافه عَلَى معاقرة الكؤوس . وما قطف تلك البرعمة حتى كرهها وأخذ يسيء معاملتها فلا بدع أنها نفرت منه وانتهى امرها معه بأن هجرته واقترنت بأحد أغنياء المسلمين في البقاع

الخواجه نخله

لم يكن هذا من فريق الموظفين ولكن من أغنياء البيروتيين ولم تكن إقامته في المعلقة دائمة بل كان يصرف فيها معظم العام ابتداء بالربيع وانتهاء بالخريف

كان لباسه القمباز والسترة الافرنجية والطربوش ويتعمل إخفاء امرجه حذاء مكشوفاً تكاد احدى فردتيه تكون بلا كعب والاخرى محشوة من الداخل وذات كعب اين منه كعوب الحسان في الارتفاع

وكان كهلاً طويل القامة في اعتدال ولكنه كان غليظ المعارف

ولبس على شيء من الجمال . وكان عائباً على أن عنه لم يكن مسبباً عن قبح شكله، وامتاز بأن كان أظهر عيب فيه من عيوب الجنس التي لا يخلو منها عانس تفضيله من مجموع المرأة ساقيها من الركبة فما دون وكان لذلك يميع النساء والرجال على السواء إذ لم يكن يختار لزيارة اصحابه سوى يوم السبت وهو اليوم الرسمي في البلدة للغسيل وتنظيف المنزل فيرد هنا وبصد هناك ولكنه لم يكن في النهاية يعود منكسر الخاطر إذ لا بد أن يغذي عينيه الشرهتين مفاجأة برأى ساقي سيدة او خادمة من خلال نظارتيه

ومن حوادثه التي كادت تجر عليه ما لا تحمد عقباه أنه بينما كان عائداً ذات ليلة من زحلة متمشياً في ضوء القمر استوقفه على مقربة من المعلقة مشهد سمره في مكانه وهو ساقان عاريان لفتاة نائمة الى جانب اخوتها في العراء انحسر عنها اللفافة الغطاء . وبعد أن تنعم طويلاً بذلك المشهد البديع أبى عليه جشعه إلا أن يشرك حسه في التمتع فدنا بكل ما يسمح له به عرجه من الرشاقة وخفة الوطء وأخذ يمر يده برفق على احد ساقي الفتاة فتململت هذه وهي في سكرة من الكرى فأخذ يطمئنها بقوله : « نامي انا مبسوط ! » . فعندما سمعت الصوت واستيقظت للواقع هبت من فراشها مذعورة وهجمت عليه كلبوة وهب معها اخوتها وكادوا يجهزون عليه لولا أنهم عرفوا فيه الخواجه مخله الذي اشتهر بأنه فريسة المنس المبتلي بذلك النوع من الجنون

الكذابون

الكذابون والمختلقون كثار لذلك قل بين الناس من لم يعرف في محيطه العشرات منهم بل المئات .

أما انا فقد عرفت في حداثتي ثلاثة كانت حيلة الناس فيهم أن

يمكنوا افواهم ليصيبوا ، وهم بحسب الترتيب ، من الادنى الى الاعلى : يوسف جرمانوس ، جاويش بلدية المعلقة ، والياس سكر ، عامل فنيّ في دائرة البرق العثمانية ، والياس بو طراد ، صاحب دكان في طرف المعلقة على طريق البيادر

كان الاول ربعةً ، بعكس زميليه الجابين فقد كانا قصيري القامة ، وكان لا يتلفظ بالصدق إلا من فوّهة بندقيته فيصيد العصافير الطائرة بإحكام لا يتأتى لأمهر الصيادين ولو استهدفوا العصافير المستقرة ، لذلك كان الافندية في بعض أيام الصيف يشترون له باروداً وخردقاً ويوفدونه الى السهل ومعه غلام او غلامان ليصيد هو وينتف هذان الصيد ، وبعد ساعة او ساعتين يتبعه الافندية مصطحبين الخبز وبعض اللوازم فيجدون مئات العصافير المنتوفة فيشب الغلامان النار ويشويان العصافير ويقوم الافندية بمهمة التهام تلك العلفة الشهية التي لم تفتني مرةً

اما الثاني فقد سمعته مرةً يحدث والدي عن رحلة قام بها الى قبرص ملخصها أنه كان يعجب لتجنب سكان المدينة التي كان مقيماً فيها تخطي احدى ضواحيها الى غابة ظليلة غالت الطبيعة ما شاءت في احكام تنسيقها وتجميلها بكل ما يجعلها في مقدمة المتنزهات الممتازة ولكن عجبه زال عندما علم أن الناس يتجنبون ارتياد ذلك الفردوس الارضي خشية الحيات النشابة التي تنطلق كالسهم فتدخل صدر الانسان وتخرج من ظهره

ومرّت ايام فرآه بعض سكان الضواحي يسير نحو تلك الغابة بقدم ثابتة فحذروه وحاولوا ردعه ولكنه طمأنهم واستأنف سيره دون وجل فراحوا يشجبون مجازفته ويبرأون الى الله من مصيره المحتوم

ولكن شد ما كانت دهشتهم إذ رأوه عائداً وعلى محياه ابتسامة الظافر فهرعوا اليه يهنئونه ويستطلعونه سرّ إقدامه وسلامته فأطلعهم على تفاصيل الخدمة التي رأى ان يقوم بها ابقاءً على ذكرى إقامته القصيرة بينهم وهي انه

أراد ان يمتعهم بذلك الفردوس ولا سبيل الى ذلك إلا بإفناء هاتيك الحيات التي تقصيهم عنه . وتفصيل ذلك أنه لبس درعاً وحزمة من فولاذ فما توغل في الغابة حتى انقضت عليه الحيات من كل صوب وأخذت لشدة انطلاقها تتحطم رؤوسها على درعه الفولاذية فتسقط ميتة . وظلّ يعيد الكرة ، المرة بعد المرة ، حتى نظف تلك الغابة من هاتيك الحيات التي تمنع الناس ذلك الفردوس وقد أفلح اخيراً وأقيم لبطولته ودهائه مهرجان اشترك فيه جميع سكان المدينة !

أما الثالث وكان يفاخر بانتسابه الى عائلة طراد في بيروت ولهذا الغرض يحذف « بو » من اسمه وينسب ادخالها عليه الى جهل بعض اجداده . أما روايته العظمى فهي التالية :

نهضت ذات صباح من ايام كانون وكانت الارض وكل ما عليها تحت غطاء كثيف من الثلج . وبينما أنا انظر الى ذلك الوشاح البديع حانت مني التفاتة فرأيت في الكروم البعيدة بقعة خضراء تمثل الربيع الناضر في فصل اليبس والزمهرير فصحت بامرأتي أن « شدّي على الحمارة » فأتتني مهرولة مستغربة تستطلع السبب فأريتها تلك الخضرة فثارت فيها روح الفضول وذهبت لتوّها فشدت على الحمارة ونادتني فركبت وسرت قاصداً ذلك المكان وشدّ ما كانت دهشتي عندما وصلت ورأيت أنه نبتة كوسى قد نمت نموّاً هائلاً فغطت مساحة كبيرة . ولحسن الحظ كنت قد احتطت للامر واصطحبت معي كيساً كبيراً فشرعت أقطف من ذلك الكوسى البديع وأملأ الكيس حتى لم يعد فيه متسع وحملته الحمارة وركبت خلفه وقلت « وينك يا بيروت » ورحت أقصد « درة تاج عثمان » دون أن أعرّج على البيت

وما هي الا دقائق حتى بلغت شتوره فالتقيت « بالدليجنس » على أهبة السفر الى بيروت فسألني بعض الركاب عن وجهة قصدي بذلك الحمل وأنا

خلفه على تلك الحمارة البحتورة فتات بيروت فلم يتمالكوا أن أبدوا استغرابهم الشديد مضمرين طبعاً انكارهم عليَّ التمكن من بلوغ بيروت وأمامي ضهر البيدر وسواه من العقبات ومطيتي المثقلة أضعف وأبطأ من ان تقطع نصف تلك المسافة في يوم كامل فدفعت لهم من عملتهم نفسها معاجزاً مركبهم الفخم الذي تجرّه ستة جياد مطهمة ان يسبقني

جرى هذا الحديث بسرعة حرصاً مني على الوقت . ودعتهم واستأنفت سيري وبلغت بيروت عند العصر فسرت تواً الى دار الشبابي فقرعت الباب ففتحته الخادمة وعادت ادراجها تبشر بقدومي فهرع نحوي الانسباء يستغربون قدومي غير المنتظر ويرحبون بي ويدعونني للدخول ولكنني وقفت وقفة حازمة وأبيت الدخول معتذراً باضطراري الى العودة لتوّي

ورأوا الكيس فسألوني ما فيه فاكتفيت بالاشارة أن افتحوه ففعلوا، وعندما رأوا الكومى في ذلك الفصل الجليدي اخذوا يطفرون فرحاً ودهشةً وينهالون عليَّ بالاسئلة فاكتفيت بسوء الهم افراغه ففعلوا كالمأخوذين ثمَّ اخذوا بيدي طالبين مني أن ابقى في ضيافتهم ولو تلك الليلة او على الاقل اتناول شيئاً من الطعام او الشراب فقبلت منهم كأس كونياك لا غير فأتوني به فتجرعته وعدت فامتطيت حمارتي وقلت « وينك يا معلقة » فبلغتها في ساعات قليلة وتمشيت في البيت !

ولكن لروايتي هذه عن صاحبنا الطرادي ذيلاً جناه عليَّ عدم نسياني اياها والتغني بها في كلّ نادٍ كآية من آيات الكذب الرائعة . ذلك اني زرت المعلقة في صيف ١٩٠٩ وفي نيتي أن أبرحها قاصداً مدينة حمص وقد لبيت دعوة اصدقاء لي فيها للعشاء والمبيت عندهم لقرب منزلهم من المحطة واضطراري الى النهوض الساعة الثالثة صباحاً لركوب القطار. واتفق اني دخلت وبعض الاصدقاء حانةً ووقفنا نحو شيئاً من الشراب وطفقت

اسألهم عن بعض الذين عرفتهم في ايام حداثتي ولم اتوفق الى مشاهدتهم ، وفي جملتهم الياس بو طراد الذي ذكرته بهذه الحكاية العجيبة ورويتها كما علقت بذهني

وانتهينا وخرجنا ، ولكن مـا انفردت بعد توديع اصدقائي حتى دنا مني شاب طويل القامة مفتول العضل فـاني وعرفني بنفسه أنه جرجس ابن الياس بو طراد وقد جاءني مقاضياً اياي عَلَى اهانتي والده وطالباً مبارزتي محواً لتلك الاهانة فحاولت إقناعه أنني لم اقصد اهانة والده لانني انما رويت واقعاً بقصد التفكهة وانني رويتها وانا لا اعلم بوجوده وإلا لعرفت أن احترم عواطفه البنوية فلا أذكر المرحوم والده في معرض من هـذا النوع ولكنه أصرَّ عَلَى البراز فاعتذرت اليه باضطراري الى السفر عند الفجر والمبارزة لا يمكن أن تجري ليلاً ووعدته بأن اجيبه الى سؤله بعد عودتي فأولاني ثقته بصدقه وعدي وهكذا افترقنا دون لقاء حتى اليوم ، لانني وإن اكن عرجت عَلَى زحلة بعد عودتي من حمص فانني لم أرَ من الحكمة التفتيش عن ذلك الفتى لكي أورده حتفه أو القى منيتي عَلَى يده من أجل سبب تافه لا يستحق شيئاً من الاهتمام فضلاً عن ان تجري من اجله الدماء !

ابو عساف

كان ابو عساف طبيب القرية يصف المسهلات والكينا ويستعمل الفصادة ، فاذا ما استعصى الداء لجأ الى الادوية المركبة فدوَّن اسماء العقاقير المختلفة وعين مقاديرها بخط هيروغليفي وذيل وصفته بذكر كيفية الاستعمال عَلَى مـا يفعل الاطباء في عصرنا الحاضر

عرفت ابا عساف منذ اربعين عاماً واني اتصوَّره اليوم ماثلاً امـامي بهامته الكبيرة وقفطانه وجبته وانحراف فكه عَلَى شكل يشوه نطقه ويسيل

امابه ، ومما أوثره عنه انــه كان حريصاً مقتراً برغم امتلاء صندوقه وقــد نجح اىما نجاح في تنشئة ابنه ميخائيل عَلَى هواه لان هذا كان في شبابه اكثر حرصاً من ابيه الشيخ ٠ ومما اذكره ان ميخائيل سأل اباه يوماً عن البقلاوة وما اذا كان يشير عليه بأكل قطعة من هذه الحلوى التي قيل له إنهــا شهية للغاية فأجابه ابو عــاف قائلاً : « ما لك وما يقول الناس فهما تكن البقلاوة شهية ففي الدبس عنهــا غنى فكلما اشتهيت قطعة بقلاوة تكلفك متليكاً افتح جماح شهيتك بلعقة دبس لا تكلفك شيئاً وكنى »

وقد عرفت ميخائيل واخته مريم ووالدتهما أم عــاف بحكم المجاورة اما عــاف البكر فلم اعرفه إما لانه كان قد مات وإما لانه لم يولد البتة، وكثيراً مــا كنت ازور بيت ابي عــاف ليلاً فنتحدث او نقرأ شيئــاً من الروايات الرائجة في ذلك العصر كعنترة والزير وبني هلال ٠ واتفق اني بكرت في ليلة مرفع وكان العشاء كومى محشوّا فدُعيت الى المائدة بالحــاح غير مألوف ولكنني كنت قــد تعشيت فلم يعد لي من سبيل الى قبول تلك الدعوة المستغربة ٠ ولكنني ما لبثت ان عرفت سببهــا اذ اخذ الواحد يعقب تلو الآخر ، فنهضت اولاً ام عساف ثم مريم ثم ميخائيل وأبو عساف جالس في مكانه يلتهم ويهيب بهم ان يعيدوا الكرّة لعلهم يجهزون عَلَى الباقي لان اليوم التالي صيام ، فيحتنمون بحجة الشبع الى حد التخمة ٠ وكان ابو عــاف تارةً يلوم أم عساف لإضاعتها التقدير او لوقوعها في خطإ الاسراف وتارةً ينخي امرأته وابنيه بقوله : « حِبّي ام عــاف ، حِبّي مخايل ، حِبّي مريم » فلا يسمع مجيبــاً ٠ وأخيراً تقرّر تمديد اجل المرفع يومــاً واحداً حرصاً عَلَى الباقي من المحشي عَلَى ان يعوّض عن ذلك اليوم بالتزام الصوم في العيد

أوردت ما تقدّم عَلَى خلوه من اية علاقة بموضوعي حباً بتفكهة القارئ ، اما الذي يهمني إثباته فهو أن الطب في قرى بلادنا في ذلك العهد كان

صناعة حرة لا تستلزم درساً ولا شهادة وعندما عاد الى القرية الشاب الاول من ابنائها الذي تخرج في بيروت ونال شهادته القانونية كان موضوع احتقار ابي عساف الذي اخذ يستخف بسنيه واختباره ويثير عليه الحفائظ ويفقده ثقة القرويين الذين لم يكونوا يحتاجون الى انذار او تحذير لكي يعرضوا عن الطبيب الشاب ويجددوا عهود تعلقهم بأبي عساف كالطبيب الحقيقي المتأهل لثقتهم العمياء

ولكن العلم لم يلبث أن انتصر على الجهل كما ينتصر النور على الظلمة اذ استعان الطبيب الجديد بالحكومة التي كفت بقوة القانون يد ابي عساف عن التطبيب وقضت على مريديه بمنتهى التستر والتكتم في الاعتماد على علمه الواسع

ولا تسل عن استياء ابي عساف عندما رأى نفسه مغلول اليدين وأصبح في مثل الحال التي يصفها الشاعر بقوله :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

فقد استهانت الحكومة باختباره وكتبه الطبية القديمة وحالت بينه وبين المتعطشين الى براعته الراغبين في الانتهال من معين علمه الصافي . واني انصوّره اليوم تصوّري لبائع حلوى دون جواز يأتي مفتش البلدية فيفرّق الجموع المحتشدة حوله لشترى حلواه ويحمل صينيته الى المستودع حيث يلتهم ما فيها مجاناً

هذا حال طبيب الاجساد فما حال طبيب العقول والنفوس وأقصد به الصحافي ؟ وهل يعقل ألاّ تستحق هذه من الحكومة الرعاية والحماية التي تلقاها تلك ؟ علامَ يحاكم ويجازى من يقتل انساناً ويعفى من المحاكمة والجزاء من يقتل حيواناً ؟ ألم يقتل كلٌّ منهما جسداً وكلا الجسدين لا يختلف عن

الآخر في شيء من حيث خصائص الحياة والنمو فعلامَ اختلاف النتيجة الى هذا الحد ؟

الحجة المقبولة هي أن قاتل الانسان يقتل عقلاً ونفساً هما المميزان الوحيدان الانسان عن الحيوان ، لا بل انهما الصفتان الوحيدتان اللتان تجعلان الانسان انساناً

أفليس المعقول إذن ان يوضعا والجسد في مستوىً واحد وان يستحقا الرعاية والحماية التي يتمتع بهما هذا ؟

هذا هو سرّ معاملة الروس الصحافيين الذين لا يبلغون مستوىً معيناً من العلم ويحصلون عَلَى شهادة تخولهم حق اصدار الصحف معاملة الاطباء الدجالين غير المسموح لهم بالتطبيب

وغريب ان يبذ الروس الامم المتمدنة الاخرى في هذا المضمار

ان الامم التي تبيح لأي كان حق انشاء الصحف تستند الى رأي القراء في ما يُعرض عليهم منها وهؤلاء احرار في ان يُقبلوا عليها فتحيا أو يُعرضوا عنها فتموت ولكن شتان بين إباحة بيع السم عَلَى ان يشتريه من شاء ويعرض عنه من شاء وبين حظره ومعاقبة بائعه وشاربه معاً . وهل ينكر ان بعض اصحاب الصحف اشد خطراً عَلَى المجموع من ابي عساف وما يقدمونه لقراء صحفهم من سموم التعصب والتفريق هو أقتل للعقول والنفوس من السم للاجساد ؟

هذه نظرة ثانية عرضت لي فأثبتها تذكيراً للقارئ وتنبيهاً للغافلين ، والآن استأنف موضوعي بإيراد الحادث الذي ابقى عَلَى ذكرى ابي عساف في ذهني وهي انه كان ايضاً في القرية نفسها صيدلي دجال (لا يحمل شهادة) يدعى فيليب فيقانو أدخل في خدمته فتى كانت بيني وبينه معرفة وصداقة يدعى اسكندر مقصود وكان هذا قد تخرج في مدرسة جزويتية وحذق

اللغتين الفرنسوية واللاتينية ولكنه كان بطيء الحركة الى حد البلادة المزعجة بحيث انه كان يتكلم كمن يخشى ان يضغط الكلمات التي تخرج من فيه او يزعجها بإطلاقها بالسرعة المألوفة عند كل الناس

وعن يوماً لوالدي ان يعلمني مهنة الصيدلة فأدخلني في خدمة فيقانو صديقه الحميم وكنت اذ ذاك في نحو الثانية عشرة من عمري وبحكم الصداقة التي كانت مستحكمة بين والدي وهذا الصيدلي ونظراً الى صغر سني بالنسبة الى اسكندر مقصود كان فيقانو يخصني برعاية ممتازة اثارت حقد اسكندر وأقامت لي منه مزاحماً عنيداً الا انه عرف كيف يضمر لي السوء بينما هو يظهر لي منتهى الود والاخلاص

ولما كان اقدم عهداً مني بالمهنة وأعرف بدقائقها كنت بالطبع استشيره وأعمل برأيه في كل امر وكان هو يظهر رغبةً فائقةً في تدريبي وتعليمي كل ما يعرفه من اصول المهنة حتى اصبحت اطمع احياناً بالاستقلال في تركيب بعض الادوية والمعاجين والمساحيق

اما الصيدلية بذاتها فقد كانت عنوان الاهمال والقذارة ولا بدع فقد كان صاحبها اجهل الناس بقواعد النظافة حتى انه لم يكن يغسل وجهه ولا يديه إلا نادراً وكل ما كان يهمه هو ان يظهر بمظهر انيق يدل على حسن ذوق وخبرة بالازياء الحديثة . ولكن أنى لحسن الهندام ان يشفع بما كان يرصع اثوابه من البقع المتفاوتة الاحجام والالوان لاختلاف مصادرها فهذه زيت وتلك فازلين وهاتيك لينولين ، وكان فوق ذلك اعلاناً متنقلاً ينم بهيئته بما ينبعث منه من روائح اليودوفورم والحلتيت والمانيت وسواها من العقاقير الكريهة الرائحة

ولما كانت هذه حال صاحب الصيدلية فما الذي ينتظر من اعوانه ، واني لعلى ثقة اليوم من ان المكروبات لم يكن لها شيء من التأثير في أجسام

الناس في ذلك العهد لان ما كان يصلحه الدواء كان يجب ان يفسده ما يتضمنه من مسببات الادواء.

مع ذلك كانت صيدلية فيقانو الوحيدة في ذلك الزمان ولم يكن للناس بدٌّ من اعتمادها . ومن مزاياها انها ظلت تقبل وصفات ابي عاف حتى بعد أن كانت الحكومة بدء فأصبحت معرضة لخطر عظيم ولكن ابا عاف كان صديقاً حمياً لصاحبها ولم يكن لهذا بدٌّ من مراعاة الصداقة القديمة ولو تحت طائلة العقاب وإغضاب الطبيب القانوني الجديد

وبحكم ازدياد الخطر من هذه الجهة لم يكن فيقانو يترك الصيدلية دون ن يوصي اسكندر مقصود بالانتباه ويحذره من السماح لي بتركيب الادوية منفرداً وعلى الاخص متى كانت الوصفة من ابي عاف

ولكن حلَّ يوماً المقدور وأتت وصفة من ابي عاف عند المساء وكان صاحب الصيدلية غائباً فرجوت من رفيقي أن يسمح لي بتركيب ذلك الدواء فأذعن بعد شيء من المقاومة وأخذت انا اطفر وآتي بالزجاجة تلوَ الاخرى وأزن وأكيل المقادير المعينة وأمزجها ولكنني اخيراً اخطأت بين زجاجتين لنحو في الكتابة وشيء من التشابه بين الاسمين المدونين على البطاقتين الملصقتين بهما وكان اسكندر يراقبني فعلم علم اليقين أني صببت من الزجاجة الحاوية سماً زعافاً لانني سألته ما اذا كنت على صواب فاغتاض عن تنبيهي بتأنيبي لاني استنجدت به بعد أن رجوته ان يدعني وشأني ويسمح لي ان اعتمد على نفسي

وقد اخبرنا الرسول الذي اخذ الدواء انه سيحمله الى ابي عاف لكي يجرّعه بيده المريض المقيم في طرف القرية على انه لم يذكر اسم هذا ولم نعمَ نحن بسؤاله عنه

وعاد فيليب فيقانو بعد أن كان قد هبط الظلام وأخذ يستعلم من

اسكندر عما جرى في غيابه فأطلعه هذا على الوصفات التي جهزت والقيم التي دخلت الصندوق وما تقيد منها على بعض العملاء المعروفين ، ولكنه عندما بلغ الى وصفة ابي عساف نحاه جانباً وأسر اليه كمن يقوم بواجب الاعتراف بأني صببت من الزجاجة التي تحوي سماً حاسباً اياها تلك التي تحوي الدواء المطلوب ، جاهلاً او متجاهلاً ان وأيته برأني تماماً من ذلك الخطإ غير المقصود وألصقت الجريمة به وحده

ومـا بلغت تلك الشكاية أذني فيليب فيقانو حتى علت وجهه صفرة الموت وأخذ يرتعش كورقة خريف لبس فقط خوفاً من المسؤولية الجنائيـة بل لاستفظاعه عمل مساعده الشيطاني . ولكنه بدلاً من ان يضيع الوقت بتعنيفه خرج لا يلوي على شيء ورأيته يعدو في الجهة التي تصوّر ان ابا عساف سار فيهـا واذ ذاك تبدت لي فظاعة عملي فاقشعر بدني وشحب لوني وأخذت انظر الى اسكندر نظرات نارية تذيب الجماد

عند ذلك شعر هذا بجريمته وبدأ ضميره يعذبه على فعلته وما سُرّي عني وعنه إلا عندمـا رأينـا صاحب الصيدلية عائداً وبيده تلك الزجاجة المشؤومة وهي لا تزال بختمها لان ابا عساف تريث قليلاً في استعمال الدواء اذ رأى حالة المريض لا تستدعي التعجيل وحسن الحظ استطاع فيقانو الاهتداء الى المنزل قبل ان ينفذ القضاء

وغنيٌ عن البيـان ان الانفجار حدث بعد ان زال الخطر كما يحدث الزلزال بعد السكون فانهـال فيقانو على اسكندر مقصود بأنواع التوبيخ والتعنيف وأقاله لساعته من خدمته على ان لا يريه وجهه فيما بعد

عوض وقطرة

من الذي قـال إن غرسة الحب لا تنمو ، واذا نمت لا تبسق ، واذا بسقت لا تزهر ، واذا

ازهرت لا تثمر ، إلا في تربة الشباب ؟

قول هراء يكذبه غرام الكهول والشيوخ . كيف لا فالحب لهيب واللهيب يلتهم اليابس بأضعاف السهولة التي يلتهم بها الاخضر

. . . .

في اصيل احد ايام تموز سنة ١٨٩٠ تصايح السكان في مملقة زحله : « الى البساتين ! » لمشاهدة القطار الاول يجتاز الجسر القائم عَلَى نهر البردوني والموصل بين الشقتين اللبنانية والسورية القائمتين عَلَى ضفتيه ، ويتوغل في المعاقة بضع عشرات الامتار عَلَى الخط الجاري مدّه منها الى دمشق

سمعت الصياح مع رفاق لي فأطعنا وهرعنا . وكيف لا نطيع ونهرع وقد طال ارتقابنا لانتهاء الجسر الذي رافقنا بناءه باهتمام لا يقل عن اهتمام اصحاب الشركة ومهندسيها وبتنا عَلَى احر من الجمر في انتظار القطار الاول الذي يجتازه

والسر الذي كانت تخفق له قلوبنا الصغيرة وترتد عنه مداركنا الحقيرة ولا يسعفنا عَلَى اكتناهه علم او اختبار هو القطار نفسه ؟ — ما هو شكله وحجمه وكيف يسير وبأية قوة يندفع ؟

كل ما نعلمه انه يسير عَلَى عجلات كالمركبات التي كان ينقل عليها العمال التراب لردم المنخفضات وإعداد طريق تتسع لمد الخط الحديدي . ولكن هذه المركبات الصغيرة يدفعها ويوقفها العمال انفسهم فلا قوّة خفية فيها تستهوي وقد خبرتها بنفسي اذ غافلت وبعض الرفاق الحارس ذات ليلة فسيّرنا احداها وكفأنا اعلاها عَلَى ما كان يفعل العمال فاقتصت مني دون سواي بأن دهست احد اصابعي وأبقت لي تذكاراً مؤلماً لا يُمحى

نزلنا البساتين ووقفنا صفوفاً في ظلال شجيرات التوت . ولما كنا نحن الصغار الاسبق كان بالطبع موقفنا في الصف الامامي على شفا المجرى الذي

يتوسطه الخط

وأطل القطار يملأ جوانب السهل صفيراً وهديراً وفرقعة وزفيراً فتراجعنا وهو بعد على مسافة بعيدة منا توهماً أنه سيجذبنا اليه ويحصدنا في سيره . ولكنه على ضخامته وجبروته كان ارق وأرأف من أن يرتكب مثل هذه الجريمة فوقف وقوف المسافر التعب يلهث ويتصبب العرق من جبينه وينفض عنه وعثاء السفر وأخذ العمال يرفعون عن كاهله الاحمال الثقيلة التي اتى بها على عربة تتقدمه وهي القضبان الحديدية اللازمة لاستئناف مد الخط من تلك النقطة شمالاً الى دمشق

. . . .

هذا القطار هو ابن المشروع الكبير الذي اتى الى معلقة زحلة المسكينة الهادئة بمئات من مهرة الصناع الفرنسويين والايطاليين واليونان ، وبالاشداء من سكان صعيد مصر الذين لا اشك في أنهم حفدة بناة الاهرام ، فملأوا تلك البلدة الآمنة ضجيجاً وضجيجاً وعربدة ، كما اجروا فيها من الراح انهاراً وكانوا تارة البلابل الصداحة طرباً وارتياحاً وطوراً الحمائم النواحة حنيناً الى اهلهم وأوطانهم . وكم افلقوا راحتها وصدعوا هدوءها وعكروا صفوها بوفائهم الغرامية وكم استهووا ذات سوار بحسن وجوههم تارة وبالاصفر الرنان أخرى فكانوا الخلان وكانوا الازواج واستولدوا البنين في ارض غريبة ليس على نية ان يعودوا الى اوطانهم ازواجاً وآباء بل ليتمتعوا ما اقاموا ويعودوا ارامل وثاكلين ولكن هجراً لا فقداً مخلفين وراءهم عيوناً تدمع وألسنة تضرع فلا تجد قلوباً ترأف ولا آذاناً تسمع

ومع ان المصريين كانوا الاوفر ضجيجاً بما يقيمونه من حلقات الذكر فانهم كانوا الاقل حظاً في مضمار الاستهواء لان جلهم كانوا من المسلمين فلا بدع ان لا يجدوا حظوة في اعين المسيحيات ، وكلهم من الشرقيين

الواضحي السرائر وقلوب الحسان لا تستهويها إلا الاسرار ولا تؤسر الا بالجلال التي يواريها ستار الغموض . وشذَّ في ما اعلم فتى قبطي اسمه عوض فوجد في ذلك البحر « قطرة »

. . . .

قطره فريجه ارملة في نحو الاربعين فقدت بعض اسنانها الامامية فلا تفترّ عن درّ ولكنها ما كاد يقع نظرها عَلَى عوض حتى قفز قلبها الى عينيها فأصبحتا لا تُشاهَدان الا ضاحكتين راقصتين غازلتين

وعوض شاب كالرمح قداً وسمرةً ، إن فاته صبح الجبين الفضاح فقد استعاض عنه بليل من الشعر ستار وزانه خلق سوي قائم عَلَى اساس التناسب الذي هو سرّ الجمال الإغريقي . وعوض بفضل التناسب إغريقي في حلة عربية لا ينقصه سوى ان يكون ذا لحية طليقة

وعوض ذو خلق سويّ ايضاً مع رقة في الطبع وسهولة في القياد ومرونة حببته الى الطائفة الانجيلية لانه لم يكن يرى فرقاً بين كنيستها وكنيسته « لاننا كلنا اخوان في المسيح » كما كان يقول

كان فاتحة احتلال عوض لبيت قطرة أنه كان نزيلاً كريماً يجزل الاجر عَلَى ما ينعم به من مبيت وطعام وشراب وغسل ثياب ولكن أن يصبح يوماً الزوج المطاع والاب المهاب فهذا مما لم يدخل في حساب

عوض يصبح والد شاهين وحنا ! — إن اقتران الشمس بالقمر أيسر وأقرب الى التصديق ! هذا كان رأي الجيران ونحن منهم

بيت قطره ملاصق للمدرسة الانجيلية والمدرسة ملاصقة للكنيسة وولدا قطره يتلقيان العلوم الابتدائية في المدرسة ويحضران الصلوات في الكنيسة ويُعدّان بالاسلوب المعروف للخروج من جحيم الارثوذكسية والدخول في نعيم الانجيلية

ولكن شاهين عفريت شرس وأمه الارملة لا تقوى على تأديبه بحيث ان الارثوذكس كانوا يتمنون ان يخرج من حظيرتهم والانجيليين لا يتوقعون خيراً من انخراطه في سلكهم

أروي عنه النادرة التالية وفيها الكفاية للدلالة على مبلغ تهذيبه :

بينما نحن ذات يوم وقوف على الطريق بجوار الكنيسة مرّ فارس من سكان الجبل في بزة عربية لا اتمّ منها ولا اجمل ، قماشاً وهنداماً ، على رأسه طربوش مغربي لُفت عليه عصابة حريرية مزركشة بالقصب وجواده كريم حسن العدّة ولكن برغم كل مستلفتات النظر هذه فقد كان في وجهه ما يزري بها مجتمعة ويجعلها اشياء تافهة لا قيمة لها : اني شاهد عدل اقيس على شعوري فان نظري لم يقع من كل ذلك الرجل وفرسه وهندامه الكامل الا على شاربين ضخمين منعا الامتداد الى خلف الاذنين فعُقف طرفاهما دائرتين كبيرتين أُحكم لصقهما بالخدّين . واني اعترف ان الذي تبادر الى ذهن شاهين تبادر الى ذهني في الوقت نفسه ولكنه اعرب فأذنب وكتمت فظللت في نظر الشاهدين والسامعين بريئاً

وقف الفارس فحيانا بكل تأدب وسألنا عن منزل يقصده فرددنا تحيته باحترام وأجبناه على سؤاله فشكر وهمّ بالانصراف ولكن شاهيناً استوقفه كمن يحاول الاستفسار عن امر ذي بال فأقبل عليه الرجل بعطف الندّ على ندّه بحيث اكبرنا جميعنا لطفه وتأدبه فكان السؤال الذي وجهه اليه شاهين:

« دخلك قل لي يا عمي ايش عامل شواربك مثل كعاب السرمايه » !

فاه شاهين بهذا السؤال السمج المهين فجمدنا نحن في اماكننا حيرةً واستفظاعاً وخلنا كأن دماءنا قد جمدت في عروقنا وثار ثائر الجواد كأن كهرباء الغيظ الشديد قد سرت اليه من راكبه وتحوّل هذا الى نمر كاسر يتطاير الشرر من عينيه ويعقل لسانه الغضب فلا يستطيع نطقاً لكي يسألنا

السبيل الى اللحاق بذلك الولد السفيه او الطريق الى بيته ليحاسب اهله عن زلته الشنعاء ولكننا هدأنا ثائره بالاعتذار والقول ان الطريق التي سلكها الغلام وعرة لا تصلح لسير الجواد وبيته بعيد فاستأنف الرجل سيره ممتقع الوجه مرتعش الشفاه واليدين حتى خشينا عليه ان يهوي عن صهوة جواده

. . . .

هذا هو شاهين الذي ارسلت له العناية اباً من مصر يؤدبه ويكرهه عَلَى السير في السبيل السوي ليس بلطيف القول وجميل النصح بل بمثل السياط التي كان يؤدَّب بها بنو اسرائيل في مصر فلا يجد من أمه شافعاً لان عين الحب عمياء

كانت قطره تعيش عيشة اقتير وبساطة من ريع كرم خلفه لها المرحوم وما تجنيه من اشغال يدوية ومنزلية فعندما حلّ عوض في بيتها تحسن نوع معيشتها وأغرتها الفضلة بالترف والتزين والتصابي وانتهى امرها باستهواء عوض فتزوجها زواجاً شرعياً وأصبح الآمر الناهي والسيد المطاع في بيتها والمتصرف بشؤونها وشؤون ولدَيها واستولدها بنتاً كان يحبها ويلاعبها ويحملها في اوقات الفراغ

ولكن اذا كانت ألسنة الناس في هذا العصر اشباراً فقد كانت في ذلك الزمن امتاراً لذلك عدّ الناس زواجها نقيصة وعابوا عليها تصابيها ونبذها اقاربها نبذ النواة وأقصوها عن منازلهم بحجة انها امرأة بلا حياء ولا قلب وإلا لما هان عليها أن تخون عهد زوجها الاول بعد ان أقسمت عَلَى رأسه بأن لا تعرف عمرها رجلاً سواه وتدوس عاطفتها الوالدية في سبيل شهواتها الدنيئة وتحكّم غريباً بفلذتي كبدها

عَلَى ان سلطان الحب لا يُقاوَم نصحت عَلَى قطره الاغنية العامية التي كانت شائعة في ذلك العهد ومطلعها : « الله يابن بلدي » وأحد مقاطعها :

« بالفرشة بنيّم محبوبي عالارض بنيّم ولدي » فكيف نرعى للاقارب والجيران والاصدقاء عهداً ونلقي الى تخرّصاتهم بالاً ؟ . وأخيراً انتصرت فطره فكفت تلك الالسنة عن نهشها وعادت العيون لا تتغامز عليها ورجعت المياه الى مجاريها بينها وبين الجميع . وكل ذلك بسبب استقامة سلوك عوض التي اكسبته بعد وقت قصير ودّ واحترام الجميع

ولكن جاء وقت ضاقت فيه ابواب الرزق في وجهه فراعته المسؤولية التي القاها عَلَى عاتقه ولم يعد يرى في البيت الذي انشأه ما يعيضه عن ذكرى بلاده وأهله وصحبه فأخذ حبه لفطره يفتر وسلوكه نحوها يتبدّل وأصبح يثأر من زمانه بضرب الولدَين وطردهما من المنزل غير عابئ باعتراضات فطره وتوسلاتها حتى انه طفق يتهددها بالهجر وانتهى به الامر الى ان نفذ يوماً وعيده وأصبح كالمرحوم يحيا في ذهنها بالتذكار ، وهذه آخرة كل قران يجمع بين الوردة والحطبة ويخلو من كل تناسب في الاميال والطباع

الدكتور ملحم ابرهيم فريجه

اذكر اني طالعت منذ مدة مقالاً ممتعاً بقلم الدكتور ملحم فريجه المقيم في مدينة بعلبك من اعمال سوريا ، وقد اكون اطلعت عَلَى ذلك المقال في مجلة المقتطف او في كتاب يوبيل المقتطف الذهبي ، ولكن لما كان موضوع بحثي الكاتب لا المقال لا ارى موجباً للتحقيق عَلَى سهولة متناوله

المهم هو ان عليّ ان أعود بالفكر مسافة خمسة وثلاثين عاماً لأرسم للقارئ صورةً من الفتى ملحم فريجه وأذكر له شيئاً عن نشأته ومعلوماتي عنه وكيف اصبح طبيباً وكاتباً وخطيباً والحوادث التي نقشت ذكراه في مخيلتي — تلك الذكرى التي نسجت دونها يد الايام ستاراً كثيفاً حجبها حتى ازاحها اليوم مجرّد افتكاري بذلك المقال

والده

كان والده عندما عرفته في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ربعة معتدل البدن ذي عينين زرقاوين لا تخلوان من بريق ذكاء ، سوي معارف الوجه عاديها ، اي لا هو في الجمال ولا في القبح ، وكل عيبه انه كان ألكن ألثغ ، ولكنه برغم هذه العقبة وجهله حتى القراءة البسيطة كان على جانب عظيم من الذكاء الفطري يرتجل الشعر العامي ويجيده ويحل المسائل الحسابية والالغاز بعد تفكير قصير . اما صفاته فتتلخص بأنه كان عاملاً بسيطاً في البناء يقرن الى الاجتهاد القناعة والحرص ويمتاز بالدعة ولين العريكة ودماثة الخلق بحيث انه وهو زوج مترمل ووالد كان يخشى والدته أم ابرهيم كأنه حدث مقيد بواجب الطاعة والرضوخ

بمثل هذه الصفات مدعومة بحكمة والدته واقتصادها تغلب ابرهيم فريحه على مصاعب الحياة وجمع في ذلك العهد قدراً من المال مكنه من بناء دار تسكن عيلة كبيرة وتؤجر بالف وخمسمائة غرش سنوياً وهذه القيمة كانت في ذلك العهد تكفي لإعاشة عيلة مؤلفة من ثلاثة اشخاص لا يدفعون اجرة مسكن

واذا كان من رجل قد بنى داراً بعرق جبينه فذلك الرجل هو ابرهيم فريحه لانه لم يكسب فقط اكلاف بنائها بل ساعد فيه بنفسه مشارفةً وعملاً ، وما رأيته مرةً إلا وجبينه نديانَ فاذا ما أمرَّ ابهامه عليه تساقط منه العرق ميزاباً . وبفضل مشاركته البنائين والفعلة في العمل كان يثير همتهم ويبتز منهم جهداً مضاعفاً لقاء الاجرة العادية

ويا لله كم كانت تنفرج اسارير وجهه ويشع منها نور الغبطة كلما علا بناؤه مدماكاً ، وكم كان سروره أعظم عندما كان يرى ابنه ملحماً الذي علمه النجارة يساعد في صنع الابواب والشبابيك

اوصافه وصفاته

هذا هو البيت الذي نشأ فيه ملحم ابرهيم فريجه وهو بيت تُقى وصلاح واستمساك بعرى الاقتصاد والرضى بالكفاف وبساطة العيش وسلامة تامة من حب الفخفخة والرغبة في الظهور وقد كان صورة مصغرة من ابيه وامه بالطبع اكثر فتوة ونشاطاً ورواء مع فصاحة نطق وسلامة من كل عيب لفظي

وكان كما قدمت قد تعلم صنعة التجارة ولكن بعد ان نال قسطاً من العلم في المدرسة الانجيلية المجاورة لمنزل ابيه فأخذ يشتغل ويكسب ويدرس على نفسه ويزيد معرفته الى ان دخل الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) في بيروت بفضل ما اقتصده من كسبه وشيء من مساعدة المرسلين، وكان في المدرسة كما كان في البيت مثال الجد والمثابرة والمحافظة على القواعد الصحية والادبية بحيث نشأ سوي الخلق والخُلق وعنواناً للتهذيب الصحيح. وقد كان عفاً طاهر اللسان والذيل صادقاً مخلصاً مع الجميع، وبالاختصار ما عرفت عمري فتى كثرت حسناته وقلت سيئاته كملحم فريجه حتى اني والكثيرين سواي كنا نعيب عليه المغالاة في الاستمساك بالفضائل الى حد اشبه معه عذراء طاهرة لا شاباً في مقتبل العمر

علاقتي به

جمعتني بملحم فريجه صلة الجوار اعواماً تناهز العشرة وبرغم انه كان يكبرني ببضع سنوات كان عشير حداثتي وصباي، وعلى التفاوت الذي كان بينه وبيني في السلوك والتباين في الصفات ووجهة النظر في الامور كنت واياه صديقين حميمين متفقين على ان لا يحاسب احدنا الآخر او يُكرهه على اقتباس شيء من صفاته ولكن فضله عليَّ هو انني كنت احياناً استشيط وامرّعه لما كنت احسبه فيه تناهياً في الليونة والبرودة وهو لا يرمقني إلا بروح الإخاء والصفح

ولا يجزيني الا بالدعة والابتسام

ومرت السنون وعاد هو في أثناء احداهـا الى البلدة لتمضية العطلة السنوية التي كان يقضيها دائماً عاملاً كاسباً وكان على ما اظن في نحو الثامنة عشرة وأنا في نحو الخامسة عشرة ، وكنت قد غادرت الكلية ولم اعد اليها منذ نحو ثلاثة أعوام إلا اني كنت مثابراً على الدرس فكان سروري بقدومه عظيماً لانه فتح لي مجالاً للمذاكرة والاستفادة وهكذا كنت اجلس بجانبه الساعات وأشاركه في مراجعة بعض دروسه وتحصيل ما كنت اجهله منها

ولم تنقض أيام على عودته حتى جاءني ببلاغ استهجنته وهو ان المرسل الاميركي وليم جسب ابن هنري جسب المشهور اقترح عليه ان أدرس واياه مدة شهر آب في مدرسة زحله الانجيلية لكي لا تعطى العطلة السنوية للتلامذة قبل الموعد المألوف وهو شهر ايلول . امـا سبب الفراغ فهو ان المعلمين هناك عرض لهم ما استوجب عودتهم الى بلدانهم قبل الموعد المعين . وقد ألح الخواجا (كما كنا نسميه) لاننا كنا الوحيدين اللذين يستطيعان القيام بتلك المهمة وكنا على زعمه ملزمين بها لاننـا من الذين درسوا في الكلية بشيء من المساعدة ، فضلاً عن كونها خدمة مأجورة

وكان قد سبق لي ان جربت التعليم في المدرسة الروسية فلم يرق لي ولم يغرني المرتب الضخم الذي كنت اتناوله بالبقاء وكان على مـا اذكر ليرة انكليزية في الشهر لذلك لا يتبادرن الى ذهن القارئ اني طفرت لهذا البلاغ فرحاً ورقصت طرباً ، أولاً لانني وأنا التلميذ سأعتلي منصة المعلم وثانياً لانني سأكسب بضعة ريالات كنت احسبها في ذلك العهد ثروة . كلاّ ، بل بدلاً من ذلك طفقت ألوم صديقي لانـه لم يحسن الاعتذار ولم يستطع التنصل من تلك المهمة الشاقة التي لا يمكن ن ببيضنا عنها رضى ولا

.ال لان إخضاع التلامذة زحله كان عسيراً عَلَى قدماء المعلمين فكيف به عَلَى تلميذين غريبين نظيرنا . ثم ذكرته بحكاية لا بأس من ايرادها هنا وهي أنه لاول عهد المرسلين بالقدوم الى زحله كان لا يبصر بهم الاولاد حتى يوسعوهم رشقاً ببذيء القول وأحياناً بالحجارة ، مكررين عَلَى مسامعهم لازمة « فرنجي كوكو مدّ عروقو » ولكن هنري جسب الذي كان اول المرسلين الى تلك المدينة اهتدى الى وسيلة وقته بعد حين قصير وقر تلك اللازمة في سمعه وهي انه وضع في جيبه عدداً من المتاليكات وأخذ يدفع كل ولد يقولها له متاليك فسرّ الاولاد بتلك المنحة وجاز عليهم طبعاً ان ما يحسبونه هم اهانةً يعتبره « الخواجا » خدمةً يستحقون عليها ذلك الجزاء الحسن . وبعد يوم أو يومين بصروا بالمجزي عن الاساءة بالاحسان فسألهم ان ينادوه « فرنجي كوكو... » فأبوا إلا اذا هو جزاهم عَلَى تلك الخدمة مقدماً فامتنع هو عن الدفع واستضاعوا هم فيه العناء وكان ما اراد

أوردت هذه الحكاية لصديقي بغية تنفيره من التعرُّض لمثل نصيب « الخواجا » عَلَى قلة ما لدينا من المتاليك وحملاً له عَلَى مراجعة المتبر جسب في الامر لعله يعفينا من تلك المهمة التي لا قِبل لنا بها ، ولكنه لم يشأ الاصغاء وزيّن لي القبول وهكذا كان

وذهبنا في صباح اليوم المعين الى المدرسة مشياً عَلَى الاقدام غير عابئين بطول المسافة نظراً الى قصر الحيلة وتسلمنا الصفوف وأخذنا بالتدريس عَلَى قدر المستطاع ، وفي ذلك اليوم عينه أدركت انني « قد علمت شيئاً وفاتتني اشياء » اذ لم تكن العلة فقط في خشونة التلامذة الطبيعية نحو المعلمين بل تعدتها الى ما لم يكن في الحسبان وهو ان التلامذة كانوا قد منوا النفس بعطلة اطول في ذلك العام لعلمهم بسفر المعلمين الباكر وعدم وجود من يقوم مقامهم لذلك حالنا نحن عليهم حلول ثقيل في مجلس أنس ورأوا فينا

مختصين بحرمانهم اللهو واللعب وصيد العصافير والتلذذ بجني الكروم من عنب وتين فاستنجدوا بكل ما حوته قلوبهم الصغيرة من حقد وخبايام من خبث لكي يحملونا على الاستعفاء وكانت بيننا وبينهم معارك لا تقلُ خطراً عن تلك التي تدور بين الشعوب المستعبدة والمستعمرين الظالمين ، وكنت انا اشد وطأةً عليهم من ملحم الذي كان يلجأ الى الرفق ويوصيني به وأنا لا أرى رأيه ولا افعل فعله ، ولكننا كنا نديّن في الانقلاب على امرنا اذ لم يكن ينجع في اولئك الصغار العصاة المتمردين لا لين ولا شدّة

في اليوم التالي تبعونا بعد الانصراف بالشتائم والسباب وفي الثالث بالحجارة وكنت كلما همت بالارتداد عليهم يمسكني صديقي ملحم ويقول: « ما بيسايل يا اخي من اجل المسيح »

في اليومين الرابع والخامس اخذ بعضهم يهربون من النوافذ والابواب ويتسلقون تلاً عالياً يشرف على المدرسة ويهزجون فيشوّشون على الباقين. ولما لحظ هؤلاء تبرّمنا ووثقوا من أننا قد شعرنا بضيق حيلتنا انبرى بعضهم متطوعاً للحاق بالفارين واقتيادهم الى المدرسة بالقوة ولكننا لم نلبث ان ادركنا ضرر الاستنجاد والغاية من ذلك الانجاد فان المتطوعين كانوا ينضمون الى الفارين ويشتركون معهم في إحراجنا لغطاً وتشويشاً

وجاء يوم الاحد وكان يوم فرح وراحة حقيقيين ولا اذكر اني رحبت بيوم احد ترحيبي به فانه جاء بعد أن خلته امحى من ايام الاسبوع على أن لا يعود ، وعدنا صباح الاثنين بشيء من النشاط والامل ولكن التلامذة كانوا ايضاً قد أعدوا عدتهم لهجوم يفوق عنفه ما يمكن ان يولده يوم عطلة من الانتعاش وكان في جملة معدات ذلك الهجوم تأليف جوقة تنشد لنا من أعلى التل « برهوم يا برهوم يابو الجدبله » ولكن بإبدال برهوم من « شمروخ » لرفيقي و « شابوقه » لي . وكان طولي دليلهم الى اختراع لقب يليق بي أما

صديقي الذي كان رابعة فلم اهتد الى سبب تلقيبهم اياه « بشروت » ولكن المهم ان كلاً منا اصبح يحمل اسماً جديداً في عرف كل الذين يتمكنون من الاعتصام بالتل الى ان جاء دور الاستسلام فحملت ملحاً على مرافقتي في اثناء فرصة الظهر الى بيت الخواجا لنشكو اليه امرنا ونقدم استعفاءنا الذي لا مناص منه

ولكن الخواجا لم يكن في البيت فاستقبلتنا عقيلته وهي سيدة مهذبة فاضلة ونظراً الى ما كنا فيه من ضيق لم تحل أنوثتها دون استجارتنا بها وليتنا لم نستجر لانها طفقت تؤنبنا وانما برفق وتؤدة على ما بدا لها فينا وكلاً وخور عزيمة وتضرب لنا أمثالاً في ثبات الجنان والصبر على الشدائد والمحن . وكان بيت القصيد في كلامها والمثل الذي أعادنا الى المدرسة وهوّن علينا احتمال ما لا يحتمل حتى آخر ذلك الشهر المشؤوم قولها إننا في ضلال مبين اذا كنا نحسب ان تلامذة زحله لا ضريب لهم في الكون من حيث سوء السلوك فان التلامذة الاميركيين يفوقونهم من كل وجه وإننا لا نزال في نعيم بالنسبة الى ما كان يلاقيه اخٌ لها درّس زمناً في الولايات المتحدة وأقله رميه بالبيض النيء والخضر المتهرئة

وقد سرّني في ذلك الحين اعتراف تلك السيدة الفاضلة بتفوّق صغارنا على صغار الاميركيين لغرابة صدوره عن أجنبية تقيم مع رجلها في بلاد إنما أتاها لإرشاد وتهذيب كبارها ، وحملني على الاستنتاج أنه لولا نقص العلم والتهذيب عندنا وارتقاؤهما عند الاميركيين لوجب ان يكون كبارنا ارقى من كبارهم .

خميرة الحلقة

كنت في مطلع العقد الثاني من عمري يوم مررت في احد اسواق بيروت الضيقة المتعرّجة

القذرة في ذلك العهد ، حيث تكثر المطابخ الحقيرة التي تقدم الطعام للحمالين بسعر بخس للغاية هو متليك واحد لكل صحن مشبع ، فاعتراني انتباه عدو وصياح وضحك وصخب فملت الى موقف حائد أرقب منه ذلك المشهد فاذا بي ارى احد الحمالين هاربا من امام زميل له يطارده فلم استهجن تلك المطاردة لانها شيء مألوف بين تلك الطبقة العاملة العارية عن كل علم وتهذيب فان أفرادها اذا ما أموا تلك السوق بقصد تناول الطعام في مطابخها جلس المنهكون منهم يستريحون ريثما تتكمل المطبوخات نضجها وعكف الاقل إعياء على المعاركة والمعابثة إذهابا لسآمة الانتظار . وكان المشهد الذي تبدى لي احد تلك المشاهد التي تعرض كل ظهيرة دون استثناء

أما المطابخ فلا تصح تسميتها مطاعم إذ هي كناية عن حوانيت ضيقة قذرة لا تتسع لاكثر من المعدات التي يحتاج اليها الطاهي وغير مجهزة بشيء من معدات الموائد المألوفة حتى ان الطبخ نفسه يجري في مكان الرصيف من الاسواق المعروفة ، اي امام الباب حيث تشب النار في موقد تنصب عليها حلة كبيرة تسلق فيها العظام ونفاية اللحوم التي لا يصح عليها بيع ولا شراء وتهال في المرق انواع الخضروات المطلوبة والمتهرئة كالكوسى والباذنجان والطماطم وسواها وإلا لما استطاع اولئك الطهاة تقديم الصحن المرء بمتليك دون ان يكون لهم مورد ربح آخر لأن كل آكل يأتي مجهزاً بصحن وبالمقدار الذي يلزمه من الخبز

قلت إني رأيت احد الحمالين يطارد زميلاً له وقد أخذت عيني في الوقت نفسه حلة ملآنة قائمة على موقد وقد لج بها الغليان وقارب ما فيها النضج . وكأن المطارد يئس من ادراك زميله الهارب من وجهه لكي يكيل له مثل اللكمة التي تلقاها منه فرأى أن يشفي غله بالرماية فأطلق عليه « الفردة اليمنى من مرمايته » ولكن بدلاً من أن تصيب هذه الهدف

سقطت في الحلة وغاصت فيها ونظراً الى اشتغال الجميع بتلك المطاردة لم ينتبه الى سقوط السرمابة في الحلة إلا ي والطاهي

وأخذ المطارد يفتش عبثاً عن سرمايته ويتهم زميله الهارب « با كاما » وزملاؤه الباقون يضحكون ويساعدونه في التفتيش عنها على غير جدوى الى أن اعلن الطاهي استواء الطبخة وأهاب بالزبائن أن يقتربوا بصحونهم فأقبل هؤلاء عليه حاملين الصحون وطفق هو يملأها لهم بعدد معين من المغارف وهم يؤدون له الماليك ثمن ما يتلقون من ذلك الطعام التافه الذي لا يسيغه سوى الجوع المبرح

ولما كان صاحبنا عالماً بما في قعر الحلة كان يغرف بكل حذر ويتحاشى التعمق ، ولكنه عندما احتدم وطيس الاخذ والعطاء نسي مسألة السرمابة واخذ يصول بمغرفته ويجول حسب ما تعوّد وانتهى بإبلاغها القاع فعندما اصعدها الى السطح كانت السرمابة في طليعة ما صادته من جوف الحلة فهاله الامر واسرع فأعادها الى مستقرّها . ولكن الحمال المسكين الذي كان يتلقى المغارف في صحنه حسبها وقد ليّنتها الحرارة البالغة درجة الغليان قطعة لحم كبيرة ناضجة فاحتج بكل شدّة على حرمانه تلك « الشدّة » زاعماً أنها نصيب ساقه اليه القدر ، ولكن شجاعة الطاهي وحضور ذهنه انقذاه من تلك الورطة ووقياه مغبة افتضاح سره المكنون فأجاب ذلك المحتج المسكين انوره :

« ولا ، العمى بقلبك ملا مجنون ! هاي خميرة الحلة ! بشلك ما يهمك باها » !

ونزل الستار !

<table>
<tr>
<td>اذا كنت قد شكوت يوماً بطء القدر في انظلي الى هذا الوجود فلأنني كنت في</td>
<td>الخاتمة الادبية</td>
</tr>
</table>

بيروت اصغر سناً وأقل إدراكاً واهليـة من أن استحق الانخراط في سلك تلك الحلقة التي كنت اعتبر افرادها انصاف آلهة وعميدها إلهاً كاملاً · فعندما بلغت وأصبحت عَلَى شيء من الاهلية والإمكان لكي انخرط فيهـا كانت قد فقدت الشيء الكثير من روائها وخلابتهـا وتشتت الكثيرون من افرادها ايدي سبا · وكان شريكي في الإعجاب بها ، بل تعشقها ، ابن خالتي المرحوم موسى نسيم طراد

اعني بتلك الحلقة المرحوم نجيب حبيقه استاذ البيان في كلية اليسوعيين وتلامذته نجيب نسيم طراد ونقولا فياض ونجيب فرج الله طراد و بترو طراد ووليم الفرزوزي وحنا الخوري وسواهم كثيرون ممن لا تحضرني اسماؤهم

إنهم كانوا رسل الانسانية الحقة والاجتماع الراقي والادب الصحيح — كان كيس كلٍّ منهم كيس الجميع وعيلة من يتغيب منهم عيـلة الجميع وهم اخوة لا يصبر احد منهم عَلَى فراق الآخر وسرعان ما يتملصون من اعمالهم حتى يجتمعوا في مقهى او نادٍ ويقضون لياليهم مناوبةً في منـازلهم ساهرين سامرين متطارحين ماجنين · وكان لهوهم عَلَى انواعـه راقياً بريئاً كإحياء الحفلات الخطابية وتمثيل الروايات التهذيبيـة التي كان يُقبل عليها الناس إقبالهم اليوم عَلَى المشاهد الخلاعية المخجلة · وكان هذا دأبهم في بيروت شتاءً وفي عاليه وسوق الغرب صيفاً ، ولا تفوتهم في هذا رحلات لطيفة يقومون بها متنقلين بين قرى لبنان الفتانة تارةً مشياً وتارة ممتطين الحمير ، ولكنهم كانوا يؤثرون الانتقال عَلَى الاقدام ارتياضاً واغتناماً للذات تفوت الراكب واذكر أن نسيبي نجيب نسيم طراد زارنا مرةً في المعلقة واصطحبني ذات صباح الى تلعبايا التي تبعد نحو ساعتين عَلَى الاقدام وهناك زرنا المرحوم مخلّه بك التويني وتغدينـا عَلَى مائدته وأُرجح انه أبى علينا ان نعود كما اتينا فاصطحبنا الى المعلقة عَلَى مركبته الفخمة وكان هو السائق

وكان نجيب حبيقه مسيح تلاميذه بحكمته وجمال نفسه وكمال خلقه وكانوا يحترمونه احترام المتعبدين للمسيح ولا ينادونه الا « يا معلم » . وكان آخر عهدي به رحمه الله أني تغديت على مائدته في الشوير « مغربية » وكان من مدعويه على ما اذكر ميشال ابرهيم صرصق احد تلامذته

تلك الحياة كما كانت لم تدم سوى بضع سنوات اصبحت على أثرها اثراً بعد عين ولم ارَ لها بعد ذلك شبيهاً لا في بيروت ولا في سواها من البلدان والاقطار لان ذلك العصر كان فذاً في سلامته من شوائب عديدة وعلى الأخص معائب المدنية الحديثة

بولس الصلبان

كان بولس الصلبان اشقى المغنين حظاً لانه كان مصاباً بعلة حلقية كثيراً ما تمنعه الغناء او تحول دون إجادته فيه ، وبعلة اخرى خلقية تطمعه بأن ينظر اليه كأديب لا كمغنٍ وتقتضيه الترفع عن أن يبذل فنه الراقي في مقابل المادة الحقيرة لاعتباره أن الفن ليس سلعةً تصح عليها المساومة والشراء . وقد رافقته هاتان العلتان كلّ ايام حياته فعاش بائساً ومات بائساً وقد جمعتني به الاقدار في اواخر ايامه في القاهرة فكنا نشرب القهوة ونلعب البليار ونخوض احاديث تتخللها رواية منظومات غنائية . وقد أقام في القاهرة نفسها حفلة موسيقية غنائية كان نصيبها الفشل لأنه كان قد « انتهى »

على ان حظ الناس فيه لم يكن اقل شقاوة فقد كانوا يتشوقون لسماع غنائه العذب فاذا ما ضمهم واياه مجلس احتج بعجزه عن الغناء واضطروا بعد انقطاع آخر خيط من خيوط الامل الى الإعراض عنه ومجافاته وطرده احياناً فينصرف من ذلك المجلس ليغني الليل على شاطىء البحر او بعض المقاليس من اصدقائه او معارفه الذين لا يطمع منهم ببلغة

وبرغم طبعه الوبداوي كان يصفو احياناً فيخف ويماجن . ومما اذكره من نكاته التي لحسن حظه لم يستكنهها فريسته أنه سمع احد الشبان المسلمين يشكو عسر الهضم الى حد أنه يعجز عن اهتضام الحليب وأحياناً الماء فقال له وكأنه يصف له دواء : « إذن لم يبقَ سوى أن تأكل طعاماً مهضوماً » !

والحق يقال انه كان من افذاذ الموهوبين حتى ليخيل لسامعه أنه قد رُكبت في حلقه حنجرة بلبل غرّيد او أُرغن سماوي ، وقد سمعته مرةً واحدة في بيروت في ليلة موسيقية فنية احياها برعاية احدى الجمعيات الخيرية ، الموسيقي والعواد المشهور المرحوم شكري السودا وكان قوامها خطاباً في الموسيقى الشرقية تتخلله امثلة عملية ضرباً وغناء لأشهر المجيدين في فنون الغناء . وبرغم غلاء رسم الدخول في ذلك العهد ، وكان نصف ريال ، لم يبقَ مكان واحد خالياً إذ كان موكولاً الى الصلبان التمثيل عَلَى الانشاد المصري

وبدأ السودا خطابه وتوغل فيه وكان كلما انتهى من وصف نوع من انواع الغناء يدخل المغني فيجلس هو ويتناول عوده مرافقاً إياه حتى جاء دور الصلبان فاذا بالصلبان في خبر كان فحصلت ضجة وارتفعت الاحتجاجات حتى حسب البعض أن إقحام اسم الصلبان في مساق الحفلة كان خدعة لاستدراجهم للحضور فشعرت بقوة تحفزني فوقفت وصحت بالناس صيحةً زحلية اسكتتهم فخاطبتهم بصريح العبارة قائلاً إن تلك الضجة لا تليق بمجتمع راقٍ كما لا يليق بمن دفع نصف ريال الاعتقاد أنه اشترى به الجمعية . ولست اعلم ما اذا كنت قد احسنت ام اسأت ، وهذا ما جرى لبعض السامعين الذين سألوا الشاعر الياس حنيكاتي مَن اكون لكي يحكموا عَلَى ما قلت !

اخيراً جرى الاتفاق عَلَى إعادة الليلة بشرط أن يحضر الصلبان والا

ظلت الجمعية مدينة بما تقاضته من رسوم الدخول ، وفعلاً أعيدت بعد اسبوع او اسبوعين وسمعنا فيها الصليان يُنشد بصوت شحروري بيتين اذكر منها صدر البيت الاول وهو : « قلبي من الحبِّ لا يخفاك موضعه » . فطرب القوم واستزادوه فكان جوابه الاعتذار بالإشارة الى حلقه وخرج لا يلوي عَلَى شيء .

المعلم يوسف كامل

عرفت مدرسة الثلاثة الاقمار الارثوذكسية الراقية في عهدها بواسطة نسيبي نجيب نسيم طراد الذي كان يدرّس فيها وأصبحت عَلَى اتصال يمازجه الود برئيسها المعلم الياس جرجس الخوري الذي كان عَلَى جانب من التعقل والحكمة وحسن الاسلوب في التدريس ، والشيخ ابرهيم المنذر الذي كان يتلطف فيدعوني احياناً لحضور صفوفه النحوية والبيانية ، ولم أكن إذ ذاك عَلَى شيء من المعرفة فكنت استفيد في سرّي وألوذ بالصمت فآمن افتضاح امري . وكان في عداد المدرّسين المعلم يوسف كامل وهو يطل من وادي شحرور ربعة القامة ممتلئ الجسم شديد العضل حادّ المزاج وعَلَى قلة بضاعته كان يأبى إلا أن يكون له في كل عرس قرص فهو شاعر وخطيب وممثل يقرّظ شعراً كل حفلة وكل رواية وأذكر أنه مثل مرةً دوراً في رواية نُخشي عَلَى المرسح من الانهيار لأنه كان يُتبع كلّ اشارة برفسة تهتز لها جوانب المرسح

كل هذا عهدته في المعلم يوسف ولكنني لم أكن اعلم أنه يرشح نفسه للتأليف حتى كان صيف ١٩٠٧ الذي قدمت فيه بيروت في عطلة إذ فاجأني صديقي الاديب الظريف والشاعر المعروف الياس حنيكاتي بخبر مدهش هو ان المعلم يوسف وضع كتاباً في علم الصرف لاعتقاده ان الكتب الموجودة لا تفي بالغرض وهو يطلب من اصدقائه تقريظ كتابه ، ولما كنت انا منهم

فقد لزمتني مجاراتهم ! قلت حسن واملي أوفق الى توفية صديقي المعلم يوسف حقه ولكن يجب ان أطلع عَلَى الكتاب اولاً فأكد لي الخنيكاتي أنه من الكتب الخليقة بالإطراء وأورد لي امثلةً عديدة عَلَى أن جلّ الصحفيين يقرظون الكتب دون ان يطالعوها وقد وقع بعضهم بهذا السبب في مآزق حرجة تخلصوا منها بإثبات هذا النقص عَلَى الكثيرين من زملائهم فرضيت بشهادته وتعاليله ونظمت في تلك الليلة البيتين التاليين :

كتابٌ حوى من يوسفٍ حسنَ وجهه
ومن كاملٍ كلَّ الكمال المتمم
فلو لم يكن في الصرف والصرف واجبٌ
لما كنت أقصيه ولو قيدَ إصبعِ

ويا لله من الورطة التي اوقعت فيها نفسي او بالأحرى اوقعني فيها الخنيكاتي فان المعلم يوسف لم يكد يطلع عَلَى البيتين حتى هاج وماج وأرغى وأزبد كالبحر العجاج لإتياني في معرض تقريظ كتابه عَلَى ذكر « القيد » وان القيد لا يُستعمل إلا للبهائم وعبثاً حاول الخنيكاتي وابن خالي قسطنطين بني اقناعه بأن القيد هنا يعني المسافة

أخيراً نُمي خبر الواقعة الى صديقي الاديب الوجيه المرحوم وديع فياض وكان عَلَى حبه للدعابة ذا مهابة ووقار والمعلم يوسف من محترميه بل مقدّسيه فعقد لنا مجلساً بل مجالس في داره العامرة لتسوية الخلاف واجراء المصالحة بيننا وكانت هاتيك المجالس مورد أنس ودعابة ومجون كادت تنشق لها مرائر الادباء الذين حضروها ضحكاً وانتهت بعد أن استغللناها حتى الثمالة بتاهلي كرماً لرب الدار وضيوفه الادباء الكرام فابدلت من « القيد » « قدر » وقضي الامر !

العم ناصر

عرفت ناصراً ايام كنت دون الخامسة عشرة وهو يناهز الخامسة والاربعين وقد فارقته منذ خمس وثلاثين عاماً ولكن صورته لا تزال راسخة في ذهني كأني رأيته أمس : رجل طويل القامة ممتلئ الجسم جميل الصورة حليق اللحية مسبل الشاربين متناسب الاعضاء لا يعيبه بعض الشيء سوى صغر انفه حتى ليخيل لرائيه كأن يد الطبيعة قد اخطأت فركبت انف رجل آخر في وجهه

عَلَى أن ما افسدته يد الطبيعة اصلحته يد القدر التي جمعت بينه وبين ام صابر التي لم يكن يعيبها سوى كبر انفها الى حد يوهم رائيها كأنها ركبت انفاً مستعاراً عَلَى ما يفعل بعضهم في ايام المساخر

وكانت ام صابر حاملةً صليبها هذا بصبر وتسليم ولا عجب فقد كانت اديبة رضية الخلق محبوبة ومحترمة من جميع عارفيها ، وأنا في جملتهم ، وكانت كزوجها تقية مستمسكة بأهداب الايمان المسيحي وقد ربت اولادهـا عَلَى حب الفضيلة والتقى فنشأوا كلهم، ذكوراً وأناثاً، عَلَى ما يشتهي قلب كل والد

عَلَى أن ما كان يشفع بأنف ام صابر ويردّ عنه غضب الرائين لصاحبها به هو اولاً التضامن بين الحامل والمحمول الذي كان يجعل الانفصال من الواحد دون الآخر مستحيلاً ، وثانياً حمرته الدائمة التي لا يعبر عنها بسوى الخجل ، والخجل دليل الاعتذار وقد قيل « من اقرّ بذنبه فلا ذنبَ عليه »

وكانت نتيجة هذا التمازج ان ثارت حرب بين الانفين كانت سجالاً وكانت الغلبة فيها في بادئ الامر للاكبر ثم انتهت تدريجياً بفوز الاصغر فأتى انف البكر صابر خارجاً عن سنة التناسب والاعتدال وتلاه نايل بأنف اقل شذوذاً وعقبهما ايوب فأتى الثالث في الرتبة من حيث كبر الانف كما كان الثالث في المجيء الى الوجود وبدأت غلبة الانف الاصغر الانف الاكبر

تظهر رويداً في الاناث اللواتي كنّ رحمــة وجميلة ومنى حتى تمت غلبتها في الاخيرة التي جاء انفها اصغر قليلاً من اللازم . وهــذا التدرج في الصغر اثبت ان قوة المقاومة في ابي صابر كانت اكثر منها في ام صابر

اما التسميات المتقدمة فقد استفادها صديقي ناصر من آية سبكها هو وضمنها مختصر تاريخ ايوب الصديق بعد مطالعة دقيقة لسفره في التوراة فكانت : « صبر ايوب فنال رحمــة جميلة ومنى » أما التقديم والتأخير في اطلاق الاسماء فلم اتوفق الى تفسيره

كنت اذ ذاك في معلقة زحلة وكنت اواظب عَلَى حضور الصلوات في الكنيسة الانجيلية فكانت هذه طريقي الى قلبي ابي صابر وام صابر فدعواني الى منزلها القائم عَلَى تلة متوسطة بين مدينتي المعلقة وزحلة حيث كانا يعقدان اجتماعات روحية يحضرها الاصدقاء والجيران فلبيت دعوتها وهكذا أدت زياراتي المتكررة الى صداقــة متينــة العرى ربطتني بتلك العائلة المسيحية الحسنة العبادة والسلوك

وفي ذلك البيت انشئ فرع لجمعيــة الاجتهاد الروحي كنت اصغر اعضائه ثم انتُخبت بإلهــام الروح القدس رئيساً له فاحتججت بصغر سني وعدم كفايتي بالنسبة الى الكثيرين الذين يفضلونني معرفةً وتمرُّساً ويفوقون والدي سناً فلم يُقبل اعتراضي وحجني رجل ساذج من صنف مهنته حياكة العبي بقوله ان المسيح كان في السابعة عنــد ما كان يعظ في الهيكل ، وبقول الكتاب : « من افواه الاطفــال والرضعان هيأت تسبيحاً » فرضيت مرغماً لان الرئاسة كانت تقيــدني بواجب حضور الاجتماعات الاحدية التي كانت تعقد مساء اي في اجمل ساعات النزهة في الفياض وعَلَى ضفاف البردوني الساحرة حيث تنتعش النفس ويرقص القلب وتتمتع الحواس . فاين التنزه في تلك الجنــان ومشاركة الوف الناس في احاديثهم ولهوهم ومرحهم وغنائهم

وضحكهم واكلهم وشربهم من الانحباس في غرفة مع نفر اكثرهم من الكهول والطاعنين في السن الذين ودعوا زهو الحياة ولهوها واصبحوا لا يأنسون الا الى السكون والهدوء والاستعداد لدخول الامجاد السماوية بمطالعة الكتاب المقدس وسماع الوعظ والترتيل ؟

ولم يكن هذا مني عن ضعف في العقيدة بل عن استنكاف الاكتهال في الصبا وتعجل زمن التوبة الصادقة وتوديع ما يتطلبه الشباب من زهو ولهو . يثبت هذا أنني كنت ونايلاً ثاني الخال ابي صابر نجول في الاسواق ونبشر المارة واصحاب الحوانيت وننذر الحائدين منهم عن جادة الصلاح ، بالفكر او القول او الفعل ، وكنا نُشتم ونلعن ونطرد معاً فنعذر ونشكر ونبارك شاعرين كأننا أجرنا اكبر اجر على اصغر خدمة وكنا من الرابحين .

على انني كنت احب « الصفة » مساء الاحد ولا ارتضي النعيم العتيد عنها بديلاً لذلك كنت أنيب عني حيناً وأستعفي عن الانابة احياناً ، واني اشعر اليوم ان ذلك الضغط على غصني اللدن هو الذي عمل رويداً على تقليص ظل التقى من نفسي وان تحميلي عبء الرئاسة في تلك السن هو الذي جردني حتى من صفة العضوية . وهذا يثبت ان مطالبة الانسان بأكثر مما عنده خرق لا يجوز ان يرتكبه من يريد استدامة الدرّ

ومن الامثلة على تمسكي بالدين في ذلك العهد أني تعاهدت والمستر جسب وصديقي القس عبود الاشقر على الاحتفال بعيد الميلاد في بيت ناصر وأن يكون الاجتماع قبل الفجر فنزل الثلج وتلاه المطر فأصبح الانتقال متعذراً إلا على الراكب ومع ذلك نهضت في الوقت المعين ومررت برغم نصح والدي وبلغت المكان فلم أجد سوى القسيسين جسب وعبود الاشقر وتخلف جميع الذين استوعدناهم عن الحضور . ولا تسل عن سرور المستر جسب بي إذ رآني على غضاضة سني أثبت تعلقاً بالايمان اكثر من الشيوخ وأقاوم العناصر

وأغامر مغامرة طامع بإ كليل المجد

ومما زاد في نفوري او بالاحرى فراري من تلك الاجتماعات الاحدية انه كان في جملة المواظبات عَلَى حضورها وحضور كل اجتماع يعقد في بيت ناصر أو صلاة في الكنيسة فتاة عمياء اسمها مريم اشرق عَلَى قلبها نور الحب فأخذت تتلمس طريقها الى قلبي ولم تكن في حاجة الى الاباحة بما يجول في صدرها فان محياها كان كمصباح كهربائي ينيره وقع صوتي في مسمعها فيشع بنور سرور تمازجه حمرة الخجل او الارتباك شعوراً منها ببعد مكانها مني ليس فقط من حيث الحرمان الذي جرَّته عليها يد الطبيعة الجائرة بل بسبب التفاوت بين عمرينا أيضاً فقد كانت اقدم مني في الوجود بنحو خمس عشرة سنة عَلَى الاقل . وقد ظفرت مني بالشيء الذي لم تكن تطمع به لا بل كانت تمجه وتتقيه وهو الشفقة وبت انا اخشى لقاءها وتصيبني قشعريرة كلما لامست يدي يدها او امسكت بذراعي بحجة التلمس المبرِّرة في حالتها كل التبرير

أما وقد كانت الخسارة كلها من جهتي فلم تكن هي تشعر شعوري وربما كان يجول في ذهنها ما اتفق لها ان سمعته عن القرآن مبصرات بعميان وبالعكس وان كان ذلك نتيجة عطف انساني او تسام ديني فلا تتبعد عَلَى ما كانت تؤثره عني من التعبد والتقى ان يشرق عليَّ يوماً النور الذي اشرق عَلَى بولس ولكن بنتيجة معكوسة فأتملص من قيود المادة وأجمع بينها وبيني بتأثير الروح وأعيش معها ناظراً الى العلاء فأنسى أنني اقود عمياء . اما تفاوت السن فليس من العقبات إذ ان الذي يغضي عن العمى لا يمكن أن يحفل بالكبر

. . . .

كان ناصر عندما عرفته قد عاد من مهجر اظنه اوستراليا حيث تعلم

فن التصوير الشمسي وكان على ما اذكر يجيده

ومما لا ريب فيه أنه عاد ومعه ثروة صغيرة مكنته من بناء بيته المستكمل شروط الراحة والى جانبه غرفة منفصلة جعلها محترفاً

واذكر انه كانت أمام البيت بئر لم أنسها لعلاقتها بحادث فيه شيء من الغرابة هو انني ذهبت يوماً وصديقاً لي الى الكروم وظللنا نمعن في السير حتى ظمئنا الى حد لا يطاق بسبب شدة الحر حتى حطت بنا عصا الترحال في بيت ناصر وكان بكره صابر ينشل ماء من البئر بجرة صغيرة تسمى « دويك » فصحت به ان ينجدني بالماء فصب لي في طاس فتجرعته ثلاثاً دون ان أصيب رياً فأهبت به ان يصب في الطاس وهو على في فأخذ هو يصب وانا اشرب حتى اتيت على آخر الدويك في نفس واحد

ومما أوثره عن العم ناصر أنه كان ناجحاً في عمله ويعيش عيشة مرضية من كل وجه وكان متأنقاً نوعاً خارج منزله فلا يحضر الصلاة إلا بالالباس الرسمي (رادنكوت) فاذا مـا خرج من الكنيسة والتفت حوله حلقة من اصدقائه القدماء ليسمعوا رواياته عن بلاد العجائب والغرائب عمد الى قبضة عصاه الثخينة فحلها وأخرج من داخلها رزمة من القضبان المعدنية فنشرها كما تنشر المظلة فاذا بها كرسي للجلوس لا بأس بـه ومن خصائصه الممتازة انه يدور فلا يكلف الجالس عليه مؤونة الالتفات

على ذلك الكرسي كان يجلس العم ناصر محدثاً اصدقاءه وراسماً على وجوههم من ادلة الدهش اشكالاً والواناً الى ان يشعر بضرورة الانصراف فيطوي كرسيه ويعيده الى مكانه ويسير متوكئاً على عصاه تشيعه الابصار بالاعجاب والافتخار

المعلم منصور — كيف صرت لبنانياً

من غرائب العصر التركي البائد مسألة الحدود

التي كانت تفصل بين الولايات السورية الخاضعة للعرش العثماني مباشرةً ولبنان الممتاز الخاضع في الظاهر لتصرّف يدينه الباب العالي بموافقة الدول الست الحامية لبنان ، وفي الحقيقة لتناصل هذه الدول . فتلك الحدود كانت كالخط الوهمي الذي يفصل بين شطرَي الكرة الشمالي والجنوبي لانها لم تكن تفصل بين لبنان وشقيقاته إلا فصلاً وهمياً لا اثر له البتة في علاقات الشعبين الشقيقين الاجتماعية والاقتصادية ، وعَلَى الاخص في ذلك القسم منه الذي يفصل بين زحله والمعلقة وما يلي هذه من البقاع ، فهو كناية عن صخرة قائمة عَلَى جانب طريق المركبات الموصلة بين المدينتين ، وفي ما يلي الصخرة نزولاً مجرى ماء ينساب عَلَى مسافة قصيرة الى يسار ميتم عروس البردوني و يدعى « السكر » . ذلك أن لا غنى لزحله عن المعلقة كما أن لا غنى للمعلقة عن زحله (حتى أن تلك تُسمى معلقة زحله ليس فقط تمييزاً لها عن سواها من المعلقات بل لانها معلقة بزحله فعلاً) . فزحله تستورد بطريق المعلقة المأكل والملبس والوقود ولأهلها في سهل البقاع حقول و بساتين يستغلونها كما ان اهل المعلقة لا يستغنون عن زحله لأنهم يستخدمون مائها العذب وهوائها العليل و يستجلبون منها المصنوعات والسلع التي تُباع فيها بالجملة . لذلك كانت المدينتان في الواقع مدينة واحدة مقسومة الى قسمين وكان سكانها نوعاً واحداً من البشر جنساً ولغةً وميولاً وعادات يجتمعون ويتباسطون و يتزاوجون و يتعاملون غير مفرّقٍ بينهم سوى ذلك الخط الوهمي الذي جعلهم توهماً شعبين مختلفين

في القسم المنبسط من المعلقة دار الحكومة والى الجانب الآخر من الطريق المارّة امامها مجرى الماء الذي يفصل بين لبنان وولاية سورية وقد قامت عَلَى ضفته اللبنانية أبنية تُفتح ابوابها عَلَى الولاية ولها من الجهة الخلفية نوافذ وشرفات تطل عَلَى الوادي الجميل الذي ينساب فيه نهر البردوني تحف

بجانبيه اشجار الحور الباسقة الظليلة ، و يُسمى ذلك الوادي بما فيه « غيضة »

هذا المجرى المتفرع من نهر البردوني لا يزيد عرضه عن متر ونصف المتر وهو مسقوف ببلاط يصل بين ابواب هاتيك الأبنية والطريق المار ذكرها بحيث ان الراغب لا يحتاج الى اكثر من خطوة واحدة لكي ينتقل انتقالاً سحرياً من سوريا الى لبنان و بالعكس ، حتى أن تخطي المجرى قفزاً من الامور السهلة عَلَى الصغار فضلاً عن الكبار ، وطالما فرّ المجرمون والخائفون من وجه العدالة التركية بتخطيه فأمنوا العقاب الى حين او الى ما شاء الله .
وكم حدث أن تتبّع الشرطة الفارين فقامت القيامة بسبب اختراق الحدود اللبنانية

وكانت تنشأ في الابنية المار ذكرها القهوات والحانات وُيباع التبغ اللبناني الذي كان بيعه محظوراً في الولايات ، وهذه حسنة من حسنات الإغضاء والتساهل التركي . وكان واحد من تلك الابنية ملك رجل يُدعى عبده القصين (ابو امين) عرفته وكانت تربطني به وباولاده صلات متينة العرى أهمها أني في محله بدأت التدخين ، وخير ما لا يزال عالقاً بذاكرتي من أمره أنه كان يتجر بالجلود وسواها من لوازم صناعة الاحذية فساءت احواله وأفلس ولكنه كان قد بعث ببكره امين واثنين آخرين من اولاده الى اميركا الجنوبية . فلما ذرّ لاولاده قرن النجاح واصبحوا من ذوي اليسار بعثوا اليه بمقدار من المال لكي يبتني به منزلاً وحانوتاً فما كان منه إلا ان حمل ذلك المال الى دائنيه في بيروت ووفاهم ما كان لهم قبله مع الفائدة القانونية بعد ان كان مرّ عَلَى افلاسه خمس عشرة سنة وكان دائنوه قد ابرأوا ذمته لقاء معدل معين من اصل الدين . وعَلَى الاثر حمل البريد البراآت الجديدة التي تلقاها من دائنيه مع كتاب يسأل فيه اولاده أن يطلعوا عَلَى رسم البناء حتى إذا اعجبهم شرع بالعمل . ولما كان اولاده قد

نشأوا في غراره رأوا في هاتيك البراآت خير رمم لقصر باذخ من الشرف فكان جوابهم على كتابه تحويلاً جديداً بقيمة أكبر لكي يشرع بالبناء الارضي الزائل . وقد عرفت فيما بعد بكره اميناً عائداً من مهجره لزيارة موطنه وذويه فأوسعت له في قلبي لأنه بلغ والده أمنيته القصوى ومكنه من إتيان تلك البادرة التي سجلت له الفخر ونصبه خير قدوة للمقتدين

في جوار بناء « ابو امين » كانت حانة المعلم منصور وكانت كناية عن بناء خشبي رث غير ان الرثاثة لم تكن في تلك الايام من العيوب . المهم ان المعلم منصور كان طلق المحيا حلو الحديث يحسن الرواية والنكتة ويسايرو يهاود ولا يرى في الخمار امراً إداً مثبتاً نظريته هذه بمشاركته عملاءه في احتساء الكؤوس يملأها لهم ولنفسه من زجاجة واحدة لا كما يفعل بعض الذين يخصون ذواتهم بالطيبات وضيوفهم بالنفايات على حد قول القائل :

اميرٌ يأكل الفالوذَ سراً ويطعم ضيفهُ خبزَ الشعيرِ

كان المعلم منصور دون الربعة وفوق الكهولة ، وكان تقياً متعبداً يعلق في عنقه الايقونات ويرأس جمعية دينية ، أي أن الشقة كانت بعيدة بين عقله وقلبه ، فأين المعبد من الحانة وتعليق الايقونات وإنارة الشموع من صب الكؤوس وإعداد صحون « اللاظة » الفاخرة ؟ ولكن المعلم منصور كان يبرر هذا الشذوذ الظاهر بالتعليل التالي :

« إن العرق المثلث (لا سواه من انواع الخمور) انما قطر ثلاثاً وسمي مثلثاً لانه الصورة الظاهرة الملموسة المحسوسة للثالوث الأقدس على الارض . ألم يقل المسيح : « انا الكرمة وأبي الكرّام » ؟ ألم يرد في الكتاب : « الله روح » ؟ ولما كان العرق المثلث من الكرمة وهو روح فقد تمّ فيه معنى التثليث إذ امتزج فيه الآب بالابن بالروح القدس » !

في احدى الجلسات التي اشتركت فيها على عادتي بأكل اللاظه ، اولاً

احتراماً لوالدي وثانياً لانني لم اكن بعد في سن تجيز لي احتذاء الراحة . ورد ذكر ارتحالي الى مصر لعلي اجد لي عملاً في ذلك القطر السعيد، ولكن العقبة التي كانت قائمة في سبيل سفري هي جواز المرور لانني وُلدت في بيروت ولم يُقيد اسمي في سجل المواليد فليس من الحكمة ان أشعر الحكومة العثمانية بوجودي فتتقاضاني يوماً البدل العسكري او ترغمني عَلَى الانخراط في سلك الجندية ، بل الحكمة كلّ الحكمة في ان اظل في عالم الغيب وأتنعم بالوجود دون ان أقوم بشيء من تكاليف الدولة . ولم تكن هذه حالي وحدي بل كان شركائي فيها الوف الالوف من « العثمانيين المخلصين الجائرين بالدعاء بإطالة حياة وليّ نعمتهم بلا امتنان سلطان البرّين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان » !

وما كاد يبلغ مسامع المعلم منصور امري حتى تعهد لوالدي بأن يقيد اسمي في سجل المواليد اللبنانيين ويستحصل لي عَلَى جواز سفر لبناني لزهادة النفقة وعدم التعرض للتجنيد فأنكرت على المعلم منصور هذا المسعى لان سداه ولحمته الكذب عَلَى الله والناس ولكن والدي استصوبه واكرهني عَلَى مرافقة المعلم للمثول امام المجلس الملي الارثوذكسي في زحله وانا أستغرب من رفيقي تطوعه للاختلاق والتزييف ولكنني اليوم لا ارى غرابةً في الامر إذ ان الذي يعزو الى العرق المثلث صفة الالوهية لا يمكن ان يرى في التزييف سوى خطيئة عرضية لا تستحق الاعتراف

وكان صباح الاحد موعد اجتماع المجلس فسرت والمعلم منصوراً قاصدين مكان الاجتماع فبلغناه في الساعة المعينة وبسط رفيقي امام الرئيس والاعضاء الغاية من زيارتنا فسُئلت اين وُلدت فقلت في بيروت وكنت دون الثانية من عمري عندما غادرها والداي لاستيطان معلقة زحله . فخدجني المعلم بغضب ولكن الرئيس رفّه عليه وعليّ بسؤالي عن عمري اذ ذاك فقلت له

اني في الثامنة عشرة فضحك ضحكة استخفاف وقال: «هل يُعقل أن ترجع السنة الواحدة عَلَى سبع عشرة سنة؟ كلاّ، اذن كانت حصة المعلقة فيك اكثر من حصة بيروت، ولما كان لا فرق بين المعلقة وزحله فانت بحكم المولود في زحله»! والتفت الى الكاتب فأمره بأن يقيد اسمي ويعطيني ورقة نفوس لقاء مبلغ زهيد ما اظنه تجاوز نصف ريال، وهكذا خرج المعلم منصور منصوراً يمازج رضاه عن نفسه اعجابه بحسن تدبيره وخرجت انا معه متألماً من ذلك المنطق الغريب الذي جعل مدينة زحله مسقط رأسي ونفحني بتذكرة نفوس لبنانية

واتفق ان كان ذلك اليوم عينه موعد تنصيب كبير قومه المرحوم ابرهيم بك ابو خاطر قائمقاماً عَلَى زحله فاستأنفت والمعلم منصوراً سيرنا الى داره لنقدم له التهانئ ونغتنم تلك المناسبة لالتماس موافقته عَلَى رعويتي المفتعلة لكي تُرسل العريضة فيما بعد الى بعبدا حيث تستخرج الاجوزة • فرحب بنا ابرهيم بك بشاشته ولطفه المعهودين مراعياً بنوع خاص ما يربطه بوالدي من علاقات ودية وادبية ودعانا لمرافقته الى السراي • وهناك قدم له المعلم منصور العريضة فتبدّل حاله ولم يستطع كتمان استيائه من ذلك التزييف لأنه كان يعلم حق العلم أنني لست من مواليد زحله ولا المعلقة ولكن المعلم منصور رفَض البحث في هذه القضية رفضاً باتاً ورجا من القائمقام الجديد ان يجعل فاتحة ولايته المباركة تلك البادرة الانسانية التي تقي فتىً في ربيع الحياة التعرُّض لشر التجنيد، الى ما هنالك من التعابير التي كان منطقها المقنع خلوُّها من كل منطق، وهكذا دوّن ابرهيم بك موافقته عَلَى العريضة آسفاً لحالة بلادنا ونقص الاخلاق فيها فخجلت انا وحدي لان المعلم منصور كان مشتغلاً بتقديم فروض الشكر للبك على تلطفه ورعايته

بعد ايام معدودة تلقيت جوازاً لبنانياً لا غشّ فيه وأصبحت لبنانياً

صميماً دون ان أُولد في لبنان ، ولذلك فأنا بعد الانقلاب الاخير لبناني مرتين لا مرة واحدة !

اذا حدثتك عن علي بك فوزي فكأنني

علي بك فوزي — وداء الوظيفة في مصر

أحدثك عن مصر التي نزلت ربوعها في اواخر سنة ١٩٠٣ وانا شاب في إبان الفتوة والنشاط املك من حطام الدنيا بقدر ما املك من الحلم والروية وكل اعتمادي على آمالي الجسام وحفنة من العلم الناقص

كانت مصر في فجر نهضتها وكان القديم المقيم في القاهرة عاصمتها لا يزال يطغو على الحديث الجديد فاكثر ازقتها ضيقة قذرة وجلّ احيائها مكتظ برجال ونساء واطفال يعشش في ادمغتهم الجهل وتنتابهم الامراض والعاهات ويكاد يأكلهم الذباب

الا أن الانكليز كانوا قد بدأوا يتعهدون تلك الاحياء بشيء من الوسائل الصحية وفي مقدمتها تعبيد أزقتها بالاسفلت بحيث يقل عبث الجراثيم المعدية فيها ويسهل تنظيفها وكانت قد أنشئت في بعض نواحيها احياء رحبة الشوارع فخمة الابنية مرعية فيها القواعد الصحية الى اقصى الحدود .
ولكن الانصاف يقضي بالقول أن النعمة التي كانت ترتع فيها تلك الاحياء لم تكن مسببة عن عطف الانكليز المجرد على المصريين ورغبتهم في ترقية البلاد بل لانهم كانوا قد آثروا مواقعها لمساكنهم ومتنزهاتهم ومنتجعاتهم فأصبحت بحكم الطبع المفضلة لإنشاء الفنادق لنزول السياح الذين يؤمون مصر من مختلف الاقطار

عند وصولي نزلت ضيفاً على صهري في ضاحية هي أشبه شيء بصحراء لكثافة الرمال في ارضها ، وبجوارها ترعة ، وكان مسكنه ضمن سور صرح

منيف ولكنه لم يكن يسكن الصرح بل المضيف او (السلاملك) وهو الجزء المتمم لكل بيت اسلامي كبير وكان صاحبه في غنىً عنه لان منزله كان يفيض عن حاجته

اما ساكن الصرح فكان علي بك فوزي – رجل في نحو الاربعين من عمره ربعة القامة معتدل الجسم تركي الملامح لولا بشرته السمراء وعيناه البادينان في وجهه كمصباحين قد قاربا الانطفاء

إلا انه كان متأنقاً في لباسه محباً للهو مولعاً بالترف والبذخ فخوراً بما زان به صرحه من فاخر الاثاث والرياش وما علقه على جدرانه من الطنافس الثمينة والرسوم الزيتية البديعة والتحف الفنية النادرة حتى صيره مقصداً للسياح يؤمونه ليمتعوا ابصارهم بعظمة البذخ الشرقي

اما قرينة هذا الطاووس البشري فكانت زوجه التي كانت دائمة الشكوى من بذخه واسرافه الى حد ان اعتلت صحتها جزعاً منها على مستقبلها ومستقبل اولادها . وكيف لا توجس خيفةً وتخشى سوء المصير وقد رأت ثرونه الموروثة تتبدد وتتبخر شيئاً فشيئاً الى ان تلاشت وبدأ معول الاسراف يهدم ثروتها الخاصة وهي لا ترى الى ردع زوجها المتلاف سبيلاً ولا تشيم منه بارقة ارعواء فكأن كرور الايام لم يكن إلا ليزيده فساداً وجهلاً

وبلغ علي بك ان ضيفاً جديداً امّ المضيف واتفق أن بصر يوماً بي فعرف اني ذلك الضيف فحياني ورددت تحيته بأحسن منها ثم تبادلنا الحديث فدعاني الى منزله وأراني اثاثه ورياشه وتحفه مسروراً بأنه قد رأى بطالاً يتسع له الوقت لمشاطرته إعجابه والإشارة عليه في بعض الشؤون لان العمل كان دائماً في صرحه إفساحاً للمستحدثات التي كان لا يفتر عن اقتنائها وتبديلاً لمراكز القديم من الاثاث والرياش والتحف

وارتاح الى بعض آرائي فازداد استئناساً بي ونمت صداقتنا وارتفعت

الكلفة بيننا فأخذ يكثر من دعوتي للطعام ولكنني لم اكن غافلاً عن امر لم يكن يرتاح اليه ضميري وهو انني اصبحت شريكاً له في الجريمة التي كانت تئن منها زوجه باستحسانى عمله وتجربتي له ضمناً على التمادي في اسرافه الذي يقربه وأسرته من هاوية الافلاس والفقر فكنت اعتذر ما استطعت عن تلبية دعواته المتكررة

ولكنه لم يلبث أن عمل هو على قطع حبل الصحبة بيننا دون ان يدري فإنه كان لا يقتصر على دعوتي الى منزله بل كان يلح علي الكي ازوره في مكتبه وانا امتنع امتنعاداً للثقة ولضيق وقتي اذا خرجت لانني كنت افضل ارتياد دائرة الحربية حيث كان مركز مالية السودان وحيث كنت اسعى للحصول على وظيفة بواسطة بعض اصدقائي هناك . ولكنني رأيت يوماً ان أبلغه امنيته واتخلص من الحاحه فزرته في مكتبه فماذا يظن القارئ اني رأيت ؟

رأيت ذلك المتأنق المتحذلق سليل بيت المجد والنبل وصاحب ذلك الصرح الفخم ، بل المتحف الذي يستهوي كبار السياح ، جالساً بكل عظمته ولقبه الضخم الى منضدة عليها رقاع مشكوكة بسلة قائمة فيدخل عليه بين حين وآخر مستخدمون يحملون مثل تلك الرقاع فيدفعونها اليه فيقيده لم بوجب الكتابة التي عليها الادوات المكتبية المكتظ بها مخدعه . وعلمت انه يتقاضى لقاء ذلك العمل العقيم السخيف الذي يستطيعه خادم حقير سبعة جنيهات في الشهر وهي قيمة ينفقها في جلسة على بضعة من اخدانه المماذقين . وكل بغيته من ذلك هي أن يستطيع القول انه من خدام الحكومة « السنية »

ان ذلك المشهد بخر من امامي علي بك فوزي وأحل مكانه قزماً حقيراً لا مطمع لي بصحبته فتركته غير آسف على عشرته وازددت منذ ذلك اليوم تجنباً له الى ان قيضت لي الاقدار الارتحال من جواره

هذا ما كانته مصر في تلك الايام فقد كانت الخاصة من ابنائها تعشق اللقب والوظيفة ولا تستنكف من التمرغ على الاقدام لاحرازهما لذلك كانت في جحيم · فأين حالها بالامس من حالها اليوم وقد اصبحت موطن رجال لا يؤخذون بالظواهر ويأبون الا التعمق في درس الحقائق ولا يغشون الا الاعمال التي تعود عليهم بالنفع وعلى بلادهم بالخير العميم والارتقاء الصحيح .

فليتنعم اخواننا المصريون بما آل اليه حالهم في ربع قرن

محمد هاشم — مصر في ربع قرن

اعود بالفكر الى احد اصباح شهر كانون الاول سنة ١٩٠٤ إذ ارى امامي صورة لها كل العلاقة بما آلت اليه حال مصر اليوم من الارتقاء الذي يستحيل علي تصديقه إن انا قسته بمقياس سيرها البطيء نحوه في ذلك العهد

امامي محمد هاشم الامين الثاني لبيت المال في حكومة السودان في الخرطوم واقفاً داخل الحاجز والفتى الذي كنته في ذلك العهد واقفاً صدفةً خارجه

كان محمد هاشم في نحو الاربعين من العمر حتى امتلاء جسمه على طوله اذ كان يبدو اميل الى الربعة وهو فوقها فضلاً عن ان شطريه الاعلى والاسفل لم يكونا متساويين لقصر في فخذيه · أما معارف وجهه وملامحه فقد كانت مصرية تركية كسمرة البشرة وسواد الشعر والعينين وسهولة الوجه ونخامته

ولم تكن صفاته الخلقية دون ملامحه إرضاء ولكنه كان على شيء من الروغان الذي كان ولا يزال الصفة البارزة في كل ضعيف لا قوة له على مواجهة المصاعب وتذليلها ولا هو يستطيع احتمالها · وكان في رأس معضلاته

التي لم يتوفق يوماً الى حلها الموازنة بين دخله وخرجه لانه كان يؤثر البحبوحة والعيش السهل وموارده تقضي عليه بالرضي والتقتير لذلك كان كثير التأفف والتذمر دائم الاستعداد للاستدانة قليله للوفاء — عن عجز طبعاً . وكثيراً ما كان يشكو منه رئيس الامناء محمد طه وكان بربرياً أسود طيب القلب نبيل الخلق دقيق الاحساس مسراعاً الى النجدة الى حد مشاطرة سائله طعامه فقد كان تارةً ينجده بما تصل اليه يده ويضطر في اكثر الايام الى الوقوف بجانبه ليرد عنه هجمات المطالبين ويقنعهم بوجوب امهاله ويتفق معهم على شكل الوفاء تقسيطاً

وكان محمد هاشم اكولاً شرهاً ومضيافاً متلافاً الى حد أن يستعبد نفسه لضيفه فما رأيته يوماً يجلس الى المائدة ويأكل مع ضيوفه ولكنه كان يوفق بين شراهته وحبه للقرى بقيامه على خدمتهم فيحضر القصاع ملأى بألوان الطعام فيتكرها قادماً ويجهز على ما بقي عائداً . ومن وقائعه المشهورة في الالتهام أنه اجهز يوماً مع اكول مثله على طعام سوداني كان معداً لعشرين آكلاً لم يستوفوه وعاد مع رفيقه فتغديا مع الرهط من المآكل الشهية التي اعدها

هذه صورة من محمد هاشم كما عرفته في ما تلا من الاعوام لا تلك التي بدت لي في وقوفي معه تلك الوقفة في خزينة حكومة السودان في الخرطوم وانا بعد على وشل من معرفته ، والا لكان استغرابي أشد مما لا يقاس لطرحه عليَّ هذا السؤال الذي يفيد المطالبة السخيفة الجوفاء بالتمني والفرار من كل تضحية مهما تكن زهيدة :

— كيف العمل يا توفيق افندي حتى نخلص من المناحيس دول ؟
(وقد عنى المحتلين ، في حين أنه لم يشترك يوماً في مسعى وطني واحد)

فكان جوابي البسيط المقتضب له :

— بمحاربتهم بسلاحهم وأعني العلم والاخلاق !

تبادلت ومحمد هاشم السؤال والجواب اعلاه في زمن كانت تكثر فيه تظاهرات الحزب الوطني في مصر ولكنها كانت تظاهرات سلمية ضعيفة لم يكن يحتاج رجال الامن في قمعها الى اكثر من إطلاق المياه على المتظاهرين ، حتى ان معظم المصريين لم يكونوا يعتقدون ان اولئك المتظاهرين واعقابهم يمكن ان يتلقوا يوماً بصدورهم الحراب ويثبتوا امام وابل من الرصاص ويكيلوا لمستعبديهم بالكيل عينه لان الايمان بالوطنية كان سطحياً والغاية من طرد الانكليز فاسدة ألا وهي انطلاق يد الجاهل المتعصب في ايذاء نفسه وسواه واستبداد القوي بالضعيف ، فبلوغها إذن كان اضمن وسيلة للتدمير لا للتعمير

ويتبين للقارئ مقدار ادراك محمد هاشم ، الذي يمثل العقلية المصرية في ذلك العهد ، من توجيهه مثل السؤال المتقدم الى فتى مثلي على وشك من الفهم والعلم والاختبار ولكن الغريب ان الجواب الذي فهت به عفواً ، لانني لم أوفق الى سواه ، كان عن غير قصد النبوءة التي تمّ لمصر بتحققها الارتقاء المنشود

كنت قد قضيت في مصر عاماً كاملاً امتزجت فيه بأ كثر طبقاتها ووثقت من ان المصريين آلات تحسن الطاعة والتنفيذ ولكنها لا تصلح للادارة لان مصر كانت مصر الجهل والتعصب ، مصر التخاذل والتواكل ، مصر الخنوع وضعف الثقة بالنفس ، مصر الخاصة دون العامة ومصر الموظفين دون سائر الطبقات من المصريين . وكانت المدارس الاميرية لا تخرّج الا الذين يصلحون للوظائف يلتمسونها بالذل والخضوع و يحرصون عليها حرص من يخشى الموت جوعاً ، والتجار اجانب يهمهم بقاء المحتلين في البلاد والفلاّح المصري يرزح تحت وطأة مستغلي جهده من المحتلين والمتموّلين

الاجانب ، فأنى للبلاد أن تنهض ولشعبها أن يثور ؟

ولكن حسن حظ مصر قيض لها أن تنجب الزعيم البركاني مصطفى كامل الذي ايقظ النيام وألهب الصدور بحرارة الايمان وأفهم المصريين أنهم بشر كرام لهم حق بالحياة الحرّة يجب ان يطلبوه ولو في حلوق الاسود فكانت الحماسة الوطنية والنهضة القومية وكان أنه عند ما جاء سعد وجد الحديد حامياً فضرب وتمّ له تكييفه على ما أراد . فالمرحوم مصطفى كامل إذن اعدّ له الطريق بأن اوجد في الشعب المصري حياة وهو عرف كيف يستفيد من تلك الحياة ، وفي أيامه عكف النشء المصري على طلب العلم الصحيح والتحلي بالاخلاق العالية فاستفادت مصر اساتذة مخلصين عاملين من ابنائها فازدهرت فيها العلوم والفنون وسادها النظام والامن ونشطت الى الاخذ عن الانكليز كل ما كان عاملاً في تسود الانكليز عليها

و بعد أن كنت أستخف سلوك المصريين وآسف لضلالهم المحجة اصبحت اغبطهم وأسر لاهتدائهم وارتقائهم واودّ لو قيض لبلادي بعض ما ظفروا به

العلاّمة المرحوم سعيد الخوري الشرتوني

عرفته سنة ١٩٠٥ وقد اممت لبنان انتجاعاً للصحة مغتنماً العطلة الاولى التي أذنت لي بها حكومة السودان وكان اصطيافي في بيت مري الا اني كنت بين حين وآخر انحدر الى بيروت لتمضية بضعة ايام وكنت اصرف معظم الآصال والامساء في منزل صديق حميم لي هو المرحوم عبد الله النقاش من سراة مدينة بيروت وشعرائها وظرفائها في عهده . وكان الشرتوني يزور هذا الصديق فالتقيت به في منزله وأجرى بيننا المرحوم النقاش التعارف المألوف فكنا نقضي الساعات في

مطارحات وأحاديث ادبية تتخللها العاب بالنرد والشطرنج

وكنت اذ ذاك في شرخ الشباب وفي اوج الحدة والنزق غير ان ما قصرت عن انضاجه شمس الضحى في حالي عجزت عنه شمس الاصيل في حالة صديقي النقاش فقد كان صنواً لي في الحدة والنزق على تفاوت عمرينا وعلمينا وقدرينا

اذكر هذا لا تنقصاً من قدر النقاش بل تمهيداً للامثولة الاولى التي تعلمتها من الشرتوني وهي من الامثولات الباهرة النادرة في سعة الصدر والحلم الذي قيل بحق إنه سيد الاخلاق · ذلك انني بينما كنت يوماً اباري النقاش في مضمار الشطرنج أشار عليّ الشرتوني بلعبة رجحت جانبي فاستشاط النقاش غيظاً وأغلظ للشرتوني القول وضيق عليه سبل الاعتذار وهو الشيخ الجليل والعالم الكبير والضيف المحترم الكريم حتى ذبت عن النقاش خجلاً وشعرت اكثر من الشرتوني بجراحة موقفه وطفقت أعتذر عنه وامتنعت عن العمل باشارته ومع ذلك أبى ثائر النقاش ان يهدأ على الاخص لانني ربحت منه الموقعة دون استمانة · ومما ضاعف استيائي وألمي ان ذلك الشيخ الجليل كان لا يزال فريسة حزن عميق على فقد كريمته عفيفه (على ما اذكر) وكان متشحاً بالسواد

هذا ما كان مني ، أما الشرتوني فكان كصخرة الشاطئ التي تهزأ بالامواج الطامية المتتالية عليها المتكسرة على جوانبها علماً منها ان جل تأثيرها فيها لا يتعدى غسلها وزيادتها صفاء ولمعاناً · فانه في كل مدة هياج النقاش لم تفارق ابتسامة الدعة ثغره ولم تبرحه حتى افترقنا · ولكننا لم نفترق طويلاً لانه جاء في اليوم التالي على جاري عادته كمن يعود الى مربع انس ذاق فيه صبوات لذة وانبساط وأعاد عليه الكرة طلباً للمزيد

وكان يجتمع معنا احياناً الشاعر الظريف الحكيم الياس حنيكاتي

فتزداد اجتماعاتنا بهجةً وينعم فيها مجال المطارحات الادبية اللاذة المفيدة ·
وكان اذا ما وجه أحد الشاعرين (النقاش او الخيكاني) سؤالاً الى الشرتوني يميل عليّ ويسألني رأيي ولم اكن انا اجد امراً إدّاً في الادلاء بما اعلمه او بما يصوّره لي وهمي أني اعرفه فيبتسم ويقول : « لا يبعد ان يكون ما قلته هو الصواب » أو « ارجح ان يكون الحق في جانبك اما رأيي انا فهو ان (هذه اللفظة او العبارة) قد تعني كذا او كذا »

ولا عجب فقد كنت في ذلك العهد الساقية وكان البحر ، والساقية جوّادةٌ بحصاها والبحر بخالٌ بدرّه

ومما حفظته عنه وان انساه هو هذان البيتان :

ما حوى العلمَ جميعاً احدٌ — لا ولو مارسه الفَ سنه
إنما العلمُ بعيدٌ غورُهُ — فخذوا من كلِّ شيءٍ أحسنه

وبفضل الشرتوني الذي أجلّ ذكراه ما حييت وبفضل صراحة من تلاه من الاصدقاء المخلصين طهرت من جانب كبير من داء الادعاء الوبيل وغدوت لا احترم الا الراسخ في العلم المنزه عن الادعاء الجاعل الاستشارة له عادةً حتى في ما يعلمه لكي لا يقع في خطإ التصلب في ما قد يجهله ·
ومثل هذا العلاّمة عرفت الكثيرين ممن لا اوثر عنهم إلا سعة الصدر والرضوخ للحجة والاعتراف بالخطإ وشكر المنبه عليه علانية

هذا شيء قليل بمبناه كثير بمعناه عن احد الاعلام الذين اسعدني الحظ بالتعرف اليهم وفيه الدليل القاطع عَلَى صحة التهم التي كانت تُوجه اليه من حيث سهولة انقياده لآراء الاعلام واستناده الى اقوالهم دون كبير تمحيص وهي حجة له لا عليه لان من كان له اخلاق الشرتوني وسعة علمه لا يخجل ان يأخذ حتى عن الاطفال فكيف به عن امراء البيان

هنري غرزوزي

أصبحت تفصلني اليوم عن هذا الصديق مرحلة من الزمن تربي على ربع قرن قضاها هو في عالم الاموات وقضيتها انا في عالم الاحياء ولست اعلم أينا كان في اثنائها الاسعد حالاً لان المفاضلة بين شيئين تقتضي معرفة كليهما ومع ثقتي بأن العدم خير من الوجود لا يسمح لي وجداني باعتبار الموت عدماً لانه حالة تعقب الوجود ولا يمكن ان نكتشف انا حقيقتها الاَّ اذا صرنا اليها واذ ذاك تتوارى خلف ستار كثيف ترتد عنه الابصار والبصائر كليلة . ولله درّ رزق الله حسون القائل وهو على فراش الموت في بلاد الانكليز :

قد قضى الله ان أموتَ غريباً في ديارٍ دُعيت كرهاً اليها
وبصدري مخبآتٌ معانٍ نزلت آيةُ الحجابِ عليها

اما الرسم الذي مرّ بك في مستهل هذا الكتاب فليس رسم هنري غرزوزي بل هو يمثل حالته بعد ان استقال من خدمة حكومة السودان وقد بعث به اليّ من القاهرة حيث أنفق آخر فلس من المكافأة التي نالها على اثر استقالته لانه لم يتوفق الى عمل أو لان الاضطراب الدماغي الذي استحوذ عليه شلّ ساعده عن كل عمل او سد في وجهه كل ابواب الارتزاق . وهكذا توفي في القاهرة مختل الشعور قبل ان تصله المساعدة الضئيلة التي كان في امكاني ان ابذلها له لو لم تعاجله المنية

على هذا الشكل المحزن انطفأت شعلة الذكاء في دماغ نابغة من نوابغنا وحالت الاقدار دون اشتهاره إلا في محيط ضيق بخال بالتقدير امجزه عن تبين النبوغ في اصحابه وانحطاطه اخلاقياً عن منزلة الجاميع التي تتبين الفضل فتنشط صاحبه وتساعده على الظهور بالمظهر الذي يليق به وبفيد سواه

ولست اذكر ان الاستفادة من علمه تجاوزت نطاق الوظيفة التي كان يشغلها في حكومة السودان أو ان شهرته تعدت حلقة صغيرة جداً من الاصدقاء

الا مرة واحدة بسبب قصيدة نشرها في احد اعداد مجلة المقتطف الزاهرة منذ ثلاثة عقود من السنين تقريباً وبعض القصائد التي نظمها في مدح سعيد باشا شقير الذي كان يقدر نبوغه ويعتمد كثيراً على اهليته . اما مجموعة آثاره الادبية من نظم ونثر، إنشاء وتعريباً ، فقد التهمت النار القسم الاول منها وعبثت أيدي الشتات بالقسم الثاني الذي بقي لديه حتى تاريخ وفاته وقد اشتهر بالرغبة عن الظهور وعدم الحرص على شيء مما كانت تمليه عليه قريحته الفياضة في اوقات الفراغ ولم تكن هذه متكررة ولا طويلة إذ حكم عليه طيلة سنوات متعددة ان يعمل نهاراً وليلاً في دائرة المالية بحيث لم يكن يبقى له الوقت الكافي للاكل والنوم . وكان ككل الناس يتوقع ان يعود عليه جهاده بما يضمن له يوماً الراحة والتفرغ فينفذ رغائبه الادبية ولكن مظاهره جرّت عليه مصاب عدم التقدير وقادته الى الهوة قبل ان يبلغ المنزلة التي كانت تصبو اليها نفسه

والذي اصاب هنري غرزوزي هو ما يصيب كل زهرة طيبة العرف ينظر الناس الى ما نبتت فيه من رغام وما يحيط بها من اقذار فيغريهم ذلك المظهر باحتقار الجوهر ويمنعهم التقزز مما هي فيه عن التمتع بما هي عليه فيكون نصيبها منهم الإشاحة والاهمال ، فقد كانت حياة هنري غرزوزي الداخلية والخارجية قذرة حتى انه طرد من الكلية الاميركية قبل ان ينال شهادتها العليا بأيام لارتكابه زلة لم تستطع عمدة تلك الكلية اغتفارها له

وعندما امت الخرطوم في اواسط سنة ١٩٠٤ لم تجمعني الاقدار بهنري غرزوزي لان مركزي عملنا ولو في دائرة واحدة كانا متباعدين متقاطعين ولم أره يوماً في النادي السوري الذي كنت اختلف اليه كل يوم تقريباً واجتمع فيه بكل طبقات الموظفين في ذلك العهد برغم اني كنت انتقد خطته وأعيب على ادارته المفاضلة التي كانت تقيمها بين اعضائه

ومراعاتها الرتب والدرجات دون الكفاءة الادبية مما يجعله دائرة حكومية اكثر منه نادياً للهو والتسلية

ولكنني في اوائل سنة ١٩٠٦ التقيت بهنري غرزوزي بفضل انتقالي الى مكتب مجاور لمكتبه وهذه المجاورة ادّت الى اجتماعنا بين حين وآخر في القهوة إلا انني منذ عرفته لحظتُ فيه نفوراً عاماً من التعارف والمعاشرة ورغبة في الاعتزال وتنكباً عن المؤانسة والتوادّ فنسبت ذلك الى غرابة اطواره ولكنني بعد الفحص والاستفسار علمت انه واجد عَلَى ابناء وطنه لاعراضهم عنه وحملهم كرهاً عَلَى فصله عن عضوية النادي السوري بحيث لم يعد يُركن الى احد منهم ويفضل مرارة العزلة عَلَى حلاوة الاجتماع بهم

وكان حب الاستطلاع رائدي الى معرفة حقيقة هنري غرزوزي وتبين جوهره فجعلت شغلي الشاغل العمل عَلَى كسب وده وثقته بمجاراته حيناً واستمالته آخر برغم ما كانت تقتضيه المجاراة من التضحية لان الدنو من هنري غرزوزي ومجالسته كانا جحيم حاسة الشم لانه لم يكن يستحم عمره ولا يبدّل شيئاً من ملابسه الا اذا تهرّأ واشترى سواه وقط لم يبتل وجهه بالماء والصابون الا عند الحلاقة دون ان يتعدى منطقة الشعر بحيث كانت دخائل واغوار وغضون وجهه وأذنيه مستودعاً للاتربة والاقذار في جوٍ لا يُرى الا تأثر المثير ولا يُشاهد عَلَى شيء من الركود والصفاء الا نادراً

في تلك المزبلة عثرت عَلَى جوهرة ثمينة فأخذت أكثر من معاشرة هنري غرزوزي ضارباً كشحاً عن نهي الناهين وعذل العاذلين وما زلتُ به حتى اقنعته بما كنتي توسلاً الى اكراهه بالنصح الاخوي عَلَى الاخذ بوسائل النظافة والترتيب والسير عَلَى خطة نظامية في مختلف اساليب المعيشة ومطالبها ثم وضعت له خطة اقتصادية قوامها توحيد ديونه المتعددة و إيفاؤها اقساطاً في آجال معينة لا ينوء بها دخله ومن مستلزمات نجاحها اطراح الكماليات

والاكتفاء بالضروريات عَلَى أن يُعتاض عن تلك باللذات الادبية التي لا تكلف شيئاً وفي جملتها المطالعة والنظم والترجمة والانشاء

عندما استتب لي الامر وكدت اظفر ببغيتي بفضل الاخلاص الذي بذلته لذلك النابغة العاثر والذي حمله عَلَى القاء زمامه بين يديّ وتسليم جميع اموره اليّ هبت ريح الاقدار ففرقتنا طيلة سبعة اشهر جرى في غضونها ما لم يكن بدّ منه لان الانتكاس في دور النقاهة أشد فتكاً من المرض نفسه والنسبي يكون دائماً مقدمة للزوال . وهكذا عدت الى الخرطوم فوجدتها مقفرةً من هنري غرزوزي وما هي الا اسابيع حتى تلقيت منه البطاقة الحاملة ادقّ اشارة وأبلغ طلب والتي اثبتها في القسم المصور من هذا الكتاب . وبينما انا استعد لانجاده انتــه النجدة الحقيقية بشكل دعوة الى عالم البقاء فأسفت كل الاسف عَلَى غرسي التي لم تثمر لان ريح الاقدار ايبستها قبل ان تزهر وما فتئت اترقب الفرص لتوفية صديقي حقه فأقوم بواجب مقدّس نحو راحل كريم جنت عليه يد الاقدار وجعلته عبرةً وكان حقه ان يكون مناراً للمهتدين

هذا شيءٌ من تاريخ هنري غرزوزي وحكايتي معه ولكنها تاريخ وحكاية يعتورهما نقص معيب ولا يكملها سوى الاتيان عَلَى شيء من ادلة نبوغ ذلك الصديق وتفوقه وما اذكره الآن إن هو إلا جزء زهيد مما وعيته وما كنت أُمني به النفس من الحصول عليه لو اسعدتني الاقدار بتنفيذ الخطة التي كنت قد رسمتها وسبق لي ذكرها :

كان هنري الغرزوزي ضليعاً من اللغة العربية خبيراً بأساليب الانشاء الرائق والنظم الشائق ولكنه كان أوفر تعمقاً في اللغة الانكليزية واطلاعاً عَلَى اسرارها بحيث انه كان يفهم شكسبير فهم الاعلام من اللغة الانكليزية له ويجيد ترجمة شعره نظماً عربياً شائقاً وقد روى لي الشيء الكثير من

منظومه الشكسبيري نقلاً عن صفحة ذاكرته فكنت اطرب لكل مقطع من تلك المقاطع الساحرة ولكنني لسوء الحظ لا اعي منها شيئاً ولم يبقَ في ذاكرتي سوى الشعور بجمالها وكم تمحو عوامل النسيان من صورة دون ان نقوى عَلَى ازالة معناها ؟

اما الدليل عَلَى تمكنه من اللغة الانكليزية كالافذاذ من ابنائها فهو ان احد كبار الموظفين الانكليز بلغ منه الاعجاب بأسلوبه حداً استخفه الى مكتب السكرتير المالي خصوصاً لتهنئته بتقرير كان قد رفعه هو الى السكرتير يوضح فيه حقيقة واقع ويشكو قحة خادم لذلك الموظف ظن لغباوته انه بخدمته موظفاً انكليزياً كبيراً اصبح اعلى رتبةً من موظف شرقي وجديراً بمطاولته وازدرائه اذا عرض ما يقضي بخفض الادنى جانبه للأعلى

ومما اذكره من نظمه بيتاً من قصيدة هجا بها السكرتير المالي وكان هذا من رجال العسكرية المشتغلين عن القتال والطعان بادارة الشؤون المدنية . اما البيت فهو :

سيفٌ وحقكَ لم يفارق غِمدَهُ إلا ليمسحَ حدَّهُ خدامُهُ

واختتم قصيدةً هنأ بها سعيد باشا شقير برتبة المتمايز ببيت يتضمن تاريخاً بلغ فيه حد الصناعة في نظم التواريخ لخلوه من كل اثر للتكلف الذي يرتكبه عادةً معظم ناظمي التواريخ وهو :

وامتزتَ بالشرفِ المؤرَّخ قبل أنْ زانوا بإسمكَ رتبةَ المتمايزِ

وأذكر ابياتاً من قصيدة يصف بها اعمدة المصابيح في مصر مشبهاً اياها بقيانٍ قائمة عَلَى هداية الناس حتى يتأكل حديدها التعرض الدائم لفعل عوامل الطبيعة فتماد الى الاتون لتصهر :

خانكَ الدهرُ والصديقُ الحميمُ وكلا الصاحبين ليسَ يدومُ
فاسلُ يا صبُّ عنها بقيانٍ حبهنَّ النضارُ ليس يضيمُ

واقفات على الطريق الخ . .   .   .   .

وفي ختامها :

ما رأت قبلهن عيني نفوساً صالحات جزاؤهن الجحيم

واني مدين الى رفيق الصغر وعشير الصبي الدكتور نجيب شملاني بالابيات التالية التي نظمها هنري غرزوزي بعنوان : « العاشق والبدر » :

انا كالبدر عاشق وكلانا ساهر الجفن خاشع الطرف صابر
نقتل الليل صامتين لئلا يعرف الليل ما تكن الضمائر
ونذيب الانفاس في الصدر كي لا تكشف السر نار تلك المجامر
يا سميري في وحدتي لا تدعني في سكون الظلام وحدي حائر
وحشة الليل والفؤاد فهل لي يا شريك الاسى سواك مسامر
تنجلي يا بدر فيك معاني من حبيبي إذ كان مثلك زاهر
قد تشابهتما جمالاً ولطفاً وكمالاً في الخلق للب ساحر
وتخالفتما مقاماً ووقماً انت في العين وهو في القلب حاضر

هذه هي الشرارات التي احتفظت بها من ذلك القبس الساطع ولكن في القطرة معنى البحر فليستنتج الالباء مما ذكر ما لم يذكر وليرتفع معي من شاء منهم على جناح التذكار ليلقي زهرة الرحمة على ذلك الضريح المنبوذ

نسيب فيلبيدس

في القسم المصور رسم يعيد الى ذهني ذكريات قديمة حلوة وعهداً كثرت حسناته وقلت سيئاته ، ولا غرو فهو عهد الشباب — عهد العاطفة الصادقة والود الخالص والصداقة المنزهة عن الاغراض الدنيئة — عهد الاخاء والوئام والسلام — عهد البحبوحة والرفاه والوفاء — عهد الاشتراكية الحقة والادب الصحيح ، فلا حاجة ولا اطماع ولا مين ولا مصانعة ولا مجاملة ولا تكلف

بل اكتفاء وقناعة واجتماعات وولائم وحفلات تروج فيها المطارحات الادبية والنكات المشعبة والمرح والزهو والسرور

هذه كانت أيامنا طوال اعوام متعددة فلا بدع ان نحن ذكرناها بالخير لاننا لم نرَ افضل منها، لا قبلها ولا بعدها، وكيف نطمع بمثلها وقد جفّ معين الشباب وتشتت الشمل وترحل الى عالم البقاء عدد من الاصدقاء المخلصين الذين كانوا درراً غوالياً في ذلك العقد البديع

وها نحن اليوم في محيط ماديّ جاف لا نعثر فيه عَلَى زهرة حتى تدمي بناننا الف شوكة وكلنا خادع ومخدوع فلا أدب صحيح ولا عاطفة صادقة ولا ودّ اكيد وقد نما التزاحم الى تكالب فالحاجات كثيرة وتحصيل الكفاية يقتضي دوس العاطفة والضمير والعبث بقواعد الاخاء الانساني فليس من تأمن جانبه ولا من تركن اليه ولا يليق بك أن تصدق احداً والا نُسبت اليك البلاهة لان الاخلاص أصبح في هذا العصر عملةً مزيفة . وإن لم تصانع وتجارِ الناس ازدروك واحتقروك وداسوك بالاقدام فعليك، رضيتَ أم أبيت، ان تعيش للناس لا لنفسك واذا أنت قنعت بالكفاف ورأيت اللذة في غير الترف والبذخ والمظاهر الكاذبة عدّك الناس كسولاً جباناً أو ذرفوا عليك دموع التمساح شفقةً

هاتان صورتان من يومنا القاتم وامسنا الزاهي تزيدهما المقابلة تبايناً وتثير عَلَى سطح الذاكرة عاصفة هوجاء تبلغ أعماقها وتنتشل منها الاشخاص الذين كانت تحلو بهم الحياة وفي مقدمتهم نسيب فيليدس

كان كليانتس فيليدس والد صاحب الترجمة يونانيّ الاصل وكان نطاسياً بارعاً قرن الى مهارته في فنه الادب الجم والتهذيب الصحيح فربى أولاده فيليب وجورج ونسيب تربية صالحة وهذب الاخيرين منهم تهذيباً عالياً فنيفا وبلغ الاول منها منزلةً رفيعة في دائرة الامن العام في مصر وكان

كل من عرفه يؤكد لي أنه أرقى من اخيه وانا لا اصدق انه يمكن ان يوجد من يفوق نسيب فيلبيدس رقياً

توفي هذا الصديق في السودان منذ اعوام ولم أعلم سبب وفاته ولكن مهما يكن تعليل الاطباء فمعرفتي التامة بنسيب فيلبيدس تؤهلني للحكم بانه ذهب ضحية ألم النفس بسبب الحادث المكدّر الذي جرى لاخيه جورج في مصر واشتهر امره حتى بين المواطنين في هذه البلاد . ومع ان الشرائع لا تأخذ الاخ بجريرة أخيه ولا الاب بجريرة ابنه أو الابن بجريرة ابيه فقد كان نسيب فيلبيدس فوق الشرائع المعروفة ولذلك أبى عليه ضميره ومنطقه إلا ان يعتبر عارَ أخيه عارَه ويكفر عما أخذ به اخوه بصرم حبل حياته أسىً وغماً . فالشرف كان أعز عَلَى نسيب فيلبيدس من الحياة نفسها وقد كانت وفاته نتيجة دقة احساسه وعدم تسامحه في أيّ امرٍ قد يلقي ولو ظل شك عَلَى صفحته النقية وتجاوزه كل حدٍّ معروف في تفسير كلمة « شرف » التي لسوء الحظ اصبح اكثر الناس يجهل معناها وهذا الجهل هو الذي يحط مستوى الرقيّ البشري ويحوّل المدن الى غابات يفترس فيها الآدميون بعضهم بعضاً عَلَى شكل تأنف منه الوحوش

ولم تكن صلة الاخاء كافية للتأثير في عقلية نسيب فيلبيدس ونفسيته ولكن الذي هدم معقله وجرّده من كل سلاح وزعزع ايمانه حتى في متانة خلقه هو ما اشتهر ورسخ في الاذهان من امر تفوّق اخيه عليه بحيث داخلته الريبة في نفسه وصبح يؤوّل كل نظرة توجه اليه بما يفيد الاشارة الى ما تكشف عنه اخوه برغم انه كان يرفل بحلة من الادب تزري بحلته

وهذا من باب التضامن الموجود بين اسلاك الناس وهو الذي يعكس تأثير الغريبة التي يرتكبها احد افراد سلك ما عَلَى زملائه بوجه عام إذ يقال ان هؤلاء لم يرتكبوا بعد مثلها لان دورهم لم يأتِ أو لان الفرصة لم تسنح لم

ولكنهم فاعلون حالما يصبحون في مثل الحال التي سوّلت لزميلهم ارتكاب تلك الفرية . وعلى هذا الشكل تتزعزع الثقة بناعة الادب والشرف التجاري والعهود التي يقطعها اصحاب المهن الراقية على انفسهم

وعلى انسـاع مجال تمحل الاعذار خان نسيباً منطقه وبيانه ، وحكم على نفسه لان العدل كان صفة ملازمة له

واقد ترددت كثيراً في ايراد معلوماتي عن نسيب فيلبيدس أولاً تحاشياً لما سبق لي ذكره وثانياً تفادياً مما يقتضيني إياه البحث من ذكر رأيه في ولكنني تغلبت أخيراً على ترددي مستنداً الى ان لا حياء في الواقع وأن حسن رأي نسيب فيلبيدس في الفتى الذي كنته كان عيبه الوحيد

أوصافه

كان نسيب فيلبيدس ربعة بدينا يعالج السمنة بتقليل الطعام اسمر اللون أسود الشعر والعينين ذا شاربين معتدلين حليق الصفحتين مائل العثنون

طريقة معيشته

كان متأنقاً في لباسه مع مراعاة التعقل والاعتدال شديد التمسك بقواعد النظافة حتى أنه كان يستحم ويبدل ملابسه لا أقل من مرتين في اليوم ناهيك بغسله يديه ووجهه كل ساعة تقريباً أحياناً لداعٍ وأحياناً على سبيل العادة . وكان حريصاً على النظافة والترتيب في بيته ومكتبه اعتقاداً منه انهما من النعم التي يجب ان يتمتع بها كل انسان لذلك كان يبشر بها اصدقاءه ومعارفه ويعد الاهمال فيها نقصاً في الادراك والتهذيب . واشدة حرصه هذا لم يكن يجلس في مقهى ولا يأكل في مطعم . وكان اذا ما عاد الى منزله مساء خلع ثيابه واستحمّ وتردّى القفطان والجبة ولبدة بيضاء أشبه بالطربوش وبقي في هذه الملابس الى وقت النوم مزوراً وزائراً وهذا ما كان يعود عليه خلا

الزاحة برضى واكرام المشايخ والعلماء والادباء المتمسكين بشرقيتهم وكان هو يفاخر بشرقيته ويعتبرها جزءا من كيانه لا يتنزل عنه إلا اضطرورة مجاراة المحيط الذي يعيش فيه

بعد أن سكن زمنا في الخرطوم انتقل الى ام درمان أولاً ليمارس عاداته الشرقية وثانيا ليتمتع بهوائها الجاف ويروّح عن نفسه بالتنقل منها واليها مرتين في اليوم دون ان يتكلف مشقة العودة للغداء في إبان الحر الشديد اذ كان يدعوه اصدقاؤه بالتناوب لتناول طعام الغداء في منازلهم وكانت كثرة عددهم تقضي احيانا بالتزاحم . في مقابل ذلك كان هو لا يغادر منزله صباح ايام العطلة وعلى الاخص يوم الجمعة من كل اسبوع ويغتنم تلك الايام لدعوة عدد من اولئك الاصدقاء لتناول طعام الغداء على مائدته

استعداده ووظيفته

كان خرّيج الجامعة الاميركية في بيروت وكان عندما عرفته حتى وفاته يشغل وظيفة رئيس الكتاب في الدائرة القضائية في الخرطوم وله حب واحترام في نفوس رؤسائه واقرانه ومرؤوسيه

منزلته الادبية

كان نسيب فيليدس الحجة الناطقة المحسوسة على قابلية الشرقي للارتقاء ليس فقط في علمه ومظاهره بل في ادب نفسه وسموّ اخلاقه لذلك كان يجله الانكليز ويفاخر به السوريون والمصريون على السواء وكان له في ذلك حكم خاص لا يباريه فيه مبار من زملائه الموظفين لا فرق بين من هو دونه أو من هو فوقه منهم في الرواتب او الرتبة أو اللقب . وكان نابغة في التوفيق بين الرصانة والترفع ولين العريكة ودماثة الاخلاق ففيليدس كان في وقت معا الرجل الكبير المهاب والطفل الصغير الوديع ولم اعرف اقدر منه على

إعطاء كل وقت حكمه فيقضي على محدثه منى شاء بتهيبه ويستدرجه متى اراد الى مباسطته وكان فوق كل ذلك ذكي الفؤاد واسع الاطلاع خبيراً بأساليب النقد عارفاً بآداب الاجتماع يخاطب محدثاً ويعجب مصغياً ويسر مباسطاً • ولكنه كان فوق كل ذلك جباراً في كتمان سره وكظم غيظه فلا يُرى إلا مبتسماً ولا يظهر ما داخله من مفاعيل الاستياء او الغضب إلا بين أصدقائه الاخصاء

أصدقاؤه

أما وهذا شأن نسيب فيلبيدس فلا عجب ان يكثر خطاب وده ومريدوه ويتهافت على مجالسه عشاق الادب والراغبون في التمتع والاستفادة • وقد كان شأنه فعلاً شأن الحسناء كثر عشاقها ولكنه كان نقاداً متبصراً يتريث في الحكم ويغالي في التحفظ تفادياً من تكثير اعدائه بتعجيله في مصادقة غير اكفاء لا يلبث أن يُضطر الى مجافاتهم • وكم عرفت من الذين كانوا يحتالون على مصادقة نسيب فيلبيدس باحتذائه ومحاكاته في سلوكه ومختلف احوال معيشته الى حد اقتباس مظاهره وأسلوبه في السير والكلام والاشارت والابتسامات فصح فيهم قول المتنبي :

وكم يتزيا بالهوى غيرُ اهله وكم يصحب الانسان مَن لا يشاكله

وقد أوقعته سلامة طويته في شراك البعض من هؤلاء فتكشفوا له فيما بعد عن ذئاب في ثياب حملان

معرفتي به

لا اذكر بالتمام كيف عرفت نسيب فيلبيدس ولكنني اعلم أني حوالي سنة ١٩٠٧ أصبحت صديقه الحميم دون أن امهد لتلك الصداقة أو اسعى اليها بل بالعكس فقد كنت وربما لا أزال أرغب عن الظهور وأتعمد عرض سيئاتي الكثيرة

وإخفاء حسناتي القليلة اجتناباً للخداع واقتصاراً على مصادقة مهرة الغواصين لكي يكون لي عدد من الاصدقاء الحقيقيين

كنت في تلك الايام عنوان الطيش والنزق متطرفاً في كل شيء وفي مقدمة الخارجين على السلطات الراغبة في تعدي حدود صلاحيتها إرهاقاً لصغار المستخدمين واستعبادهم وكانت كثيرة في تلك الايام وكثيراً ما كنت اثور وأثير عليها زملائي المستخدمين وينالني بسبب ذلك ما لا يسرني وما يضرّ احياناً بمصلحتي . وكنت وفيليبيدس فوق ذلك على طرفي نقيض في اكثر مظاهري ولكنني عرضت له في وقت كانت قد سئمت نفسه فيه المظاهر الكاذبة والتدليس فرأى فيّ ضالته وهي الصراحة بأجلى مظاهرها ومعانيها فتمسك بي وأوسع لي في صدره

ولما كان فيليبيدس على ما قدمت فلا عجب ان اثرت عليّ بسبب مصادقته اياي حقد بعض غير الخاصين من اصدقائه وخطاب وده الذين كانوا يرشحون ذواتهم لمنزلة افضل في رأيه وينكرون عليّ حق السبق على خلو مظاهري من جلّ ما يتفق مع ميول فيليبيدس المعروفة حتى اني تأكدت من وشاياتهم بي مما كان يلقيه عليّ احياناً من المواعظ ولكنني بدلاً من الاضاخة كنت للحال استشيط وأخيره بين مصادقتي على ما فيّ من عيوب او مقاطعتي كأن لم يجرِ بيننا تعارف ، والغريب ان تخييري هذا كان يزيده تمسكاً بي وإعراضاً عما كان يدسه له المغرضون حتى ادى به الامر الى تحذيري من تشذيب مظاهري لئلا افقد اسمى مزية كان يجلني من اجلها وهي الصراحة

ولم يمضِ وقت قصير حتى كسب لي فيليبيدس بعطفه ودّ قرينته الفاضلة فكان يدعوني الى بيته بلسانها المرتين والثلاث في الاسبوع وعندما نكون مصطافة في ربوع لبنان كانت دعواته تتضاعف حتى تزيد على عدد ايام الاسبوع . والذي اذكره اليوم انني لم احترم يوماً امرأة كما كنت احترم

نلي ابكاريوس فيلبيدس نظراً الى ما كانت متصفة بـه من الخلال النادرة وفي مقدمتها البساطة والوداعة وأدب النفس فضلاً عن سعة العلم وتوقد الذهن والاحساس الراقي وقد مرّ بي كثيراً انني اهتديت منذ سنوات عديدة الى مقرّها فهي تقيم في بيروت وقد استطاعت بحكمتها وتدبيرها أن تهذب نجليها جورج وفكتور تهذيباً صحيحاً وقد فاز اولهما منذ عهد قصير بشهادة المحاماة

ومن حوادث صراحتي انني كنت اتغدى يوماً وفيلبيدس عَلَى مائدة أصدقاء عزّاب يعيشون في بيت واحد عَلَى ما كان مألوفاً في ذلك العهد وكان في جملتهم شاب يُدعى سعيد سعاده وهو نسيب سعيد باشا شقير المعروف إلا انه حذف كنيته من اسمه دفعاً للالتباس . وكان سعيد سعاده متولياً رئاسة احد الاقلام في دائرة المالية . ولم تكن وظيفته لتستكثر عَلَى ذكائه واستعداده ولكن ربما كان بين من هم دونه في الرتبة من هم أحق منه بتلك الوظيفة إلا أنهم كان ينقصهم نسبه . وبينما نحن نتجاذب اطراف الحديث قال سعيد انه ابتاع دراجةً بسعر بخس وإنها وقعت له بذلك السعر لان مستجلبها هو احد المستخدمين في مكتبه بحيث يهمه رضاه . وكان المستخدم الذي ذكره قليل الكسب ومضطراً أن يعول بمساعدة اخيه الاكبر أمه الشيخة وشقيقتين لهما لذلك كان يتوسل الى زيادة كسبه باستجلاب بضع دراجات في الشهر فيبيعها بسعر معتدل فباع من صاحبنا دراجة برأس مالها او ربما بخسارة

حالما انهى سعيد سعاده شقير كلامه وقفت وأنبته عَلَى اساءته استعمال نفوذه وقبوله ما يُعتبر بحكم الرشوة من فتى محتاج وكلفته باسم الحق والواجب ان يدفع لذلك الفتى الفرق وإلا فقد عطفنا وصداقتنا . فامتعض سعيد وتلعثم ولكنه لم يلبث ان استعاد روعه فاعترف بخطإه ووعد وعداً شافياً

بالتعويض . اذ ذاك وقف فيلبيدس وقد أخذته نشوة الطرب وأمن على قولي معترفاً بما عده على نفسه جبانةً منعته من التصريح برأيه وكان يود ان يكون السابق الى تلك البادرة

ولم تكن هذه سوى حادثة بين عشرات الحوادث التي كنا ننتصر فيها للحق ايًّا كان المظلوم والظالم وننذر المخطئ شفهياً او كتابةً بضرورة اصلاح ما أفسد لئلا يقع تحت طائلة النبذ والاحتقار . وكنا على ما اذكر عصبةً قوية لهــا التأثير الادبي الشافي على كل من لا يعرف قدره او يتعاظم على سواه بسبب علوّ وظيفته او ضخامة اومته والقابه . ولكننا كنا في عالم آخر امتاز بدقة احساسه ومحافظته على سمعته حتى في ما يعتبره اهل هـذا العصر من التوافه التي لا تعيب احداً

ونمت الصداقة بين فيلبيدس وبيني الى حد انه لم يكن يجسر احد على انتقادي بحضوره وارتفعت الكلفة بيننا حتى انـه كان يعهد اليّ بأن أضع لائحة بأسماء الذين يجب ان يكونوا مدعويه ايام العطلة وان ادعوهم باسمه وباسمي لتناول الطعام على مائدته

وكان عنده طاهٍ اسود اسمه عطا يقول له اذا ما كان على موعد من زيارتي : « يا عطا سيدك توفيق جاي » فيفهم عطا و يزيد الماَ كل و يعددها

في سنة ١٩١١ عرف الدساسون كيف يحملوني على الانقطــاع عن زيارة فيلبيدس ولأمر جبانت عن مصارحته واستجوابــه ثم قضت ظروف بترحلي عن الخرطوم فلبثت بعيداً عنها طيلة عامين دون ان اكتب اليه كلمة ولكن قبل ان عدت اليها بقصد ترك السودان والمجيء الى هذه البلاد كان قد اطلع من سواي على جلية الواقع فبلغ استياؤه حده من اولئك الدساسين ونبذهم نبذ النواة . وعلمت انا ذلك فزرته كأنه لم تحدث بيننــا جفوة ولم نتبادل كلمة عتاب وكانت آخر عبارة سمعتها منه وقد أزف الرحيل : « انتقِ

بما تراه في هذا البيت ما يعجبك واحمله معك تذكاراً مني »

وكانت اشارته الى جلود وحوش وبعض عاديات ومصنوعات سودانية تعتبر في الخارج تحفاً ذات قيمة كبيرة

هذا هو فيلبيدس وهو احد الافذاذ الذين عرفتهم ولم اعرف عمري أفضل منه لذلك كان اسفي على فقده شديداً ، ولست أعلم اذا كنت بما كتبته عنه الآن ، وقد ضمنته اضطراراً ما لا يليق بي ذكره عن نفسي ، قد وفيته شيئاً من حقه ٠ ولكن اذا كنت انا قد قصرت فنسيب فيلبيدس حي في أذهان الكثيرين من ارباب القلم والبيان الذين لا يمكن ان يبخسوه حقه أو يقعوا في مثل تقصيري الاضطراري

وواجب الامانة يقضي عليّ بالاعتراف انني لم اقصد مدح نسيب فيلبيدس وانما انا رسمت صورة من شرقيٍ راقٍ بغية أن يقتدي به المقتدون. أقول هذا علماً مني أني لو مدحت نسيب فيلبيدس في حياته لما استطعت اليوم ان أبدي أسفي عليه كصديق

أعشق أم صفقة ؟ — ١٠ ف ٠

قد لا يدفع عن الف فتاه قوله انه هوي المرأة الشيئية التي اتخذها شريكة لحياته يوم كان هو في الخامسة والعشرين لان كل سابقيه ولاحقيه من اقرانه لم يروا بدّاً من ادعاء الحب إيثاراً منهم الاستهجان على الاحتقار وربما كان أقدم من بلي بهذا النوع من العشق المستهجن والذي لا يسلم صاحبه من احتقار الناس هو القائل :

تعشقتها شمطاء شاب وليدُها وللناس في ما يعشقون مذاهبُ

فكأنه قد صح فيه المثل الفرنسوي القائل :

« الشاب يحب الثمرة الفجة والمرأة الناضجة والكهل يحب الثمرة

الناضجة والمرأة الفجة » ولكن هذا المثل لم يذكر الثمرة والمرأة المتهرئتين

أقول هذا لانني ما سمعت ولا شهدت حادثة كان فيها حب الغصن النضير للحطبة اليابسة مجرداً عن الطمع بمال أو جاه . وأغرب ما شاهدته في حياتي إ كليل شاب يدعى حنا كان قد أم احدى البلدان الاميركية وعاد الى معلقة زحله بثروة صغيرة في ذلك العهد فانه اختار شريكة لحياتــه فتاة اكبر منه سناً وفوق ذلك كانت أقبح نساء عصرها وكل عصر حتى ان الناس كانوا يسمونها « ام دنكوره » فانها كانت مسخة سوداء عجفاء امتلأ جبينها ووجهها وعنقها بدوام كروية الشكل متفاوتة الاحجام من الحمصة الى البندقة تزيدها قبحاً على قبح . ولم يقترن بها إلا طمعاً بمصاهرة أشقائها الذين عادوا من اميركا ومعهم اموال طائلة فابتنوا داراً فخمــة على طريق مدينة زحله ولكنني أذكر انهم كانوا فقراء في العلم والتهذيب

على أن حنا كان ساذجاً الى حد « الحرنة » وبعيداً عن كل تهذيب . أما الف فــاء فقــد كان وحنا على طرفي نقيض من هذه الجهة لاني عرفت فيه شاباً على جانب من الذكاء الفطري وسعة الاطلاع وغزارة المادة فضلاً عن كفايته للعمل واتساع مجال الكسب لديه لانه بدأ حياته العملية وهو في نحو العشرين كمترجم في حكومة السودان براتب احد عشر جنيهاً مصرياً أو ما يضارع في يومنا هذا خمسين جنيهاً بالنسبة الى ارتفاع الحاجيات

وبسبب تقــادم العهــد وضعف الصلات التي كانت تربطني بالف فـاء لا اذكر الا النزر اليسير من تفاصيل نشأته وكل مــا هو عالق بذهني من تاريخه هو انه من مدينة صيداء وقد تلقى علومه في مدرستها الاميركيــة ثم علمت فيها بعد عرضاً أنه كان قوي الحافظة الى حد أنــه كان يعرف اكثر مفردات قاموس محيط المحيط غيباً . ومما روي لي عنه أنه عندما أم القاهرة طالباً الاستخدام في حكومة السودان قادته الى الحانة المعروفة باسم سبلندد بار

نزعته الادبية أو صلة تربطه بأحد افراد الحلقة الادبية التي كانت تلتئم في تلك الحلقة كل مساء تقريباً فكان ينعم بالاصغاء للمباحث والنكات والمطارحات الادبية التي كانت تدور بين اولئك الكتاب والشعراء الظرفاء وفي جملتهم الشميل ومركيس ومطران والشدودي وحافظ ابرهيم . وكان هذا الاخير ولوعاً بتهذيب شعره فلا يستنكف من عرض جل ما ينظمه في تلك السوق العكاظية مستشيراً هذا او ذاك في امر لفظة او تركيب او معنى حتى يتم له ما اراد في أفضل قالب لفظي خالٍ من التعقيد والابهام حالٍ بالبلاغة والانسجام فكأنه كان يُجري عَلَى شعره عملية التصفية او التنقية في تلك المصفاة الادبية فيسوغ ويسلم من كل شائبة . فاذا ما بلغ في شعره غايته من التصحيح والتنقيح وعاد الى رأيه الاعلى في توشيته وإدنائه من الافهام عَلَى شكل يعجب ويخلب ويثير دفعه للنشر وأدار عَلَى ألوف قرائه والمعجبين بنبوغه سلافةً تسكر العقول وتحيي النفوس وتثير الهمم بحيث انه كان احرص الشعراء عَلَى العمل بقول القائل :

لا تعرضنَّ عَلَى الرواةِ قصيدةً ما لم تكن بالغتَ في تهذيبها
واذا عرضتَ الشعرَ غير مهذب ظنوهُ منكَ وساوساً تهذي بها

وكان في ذلك العهد آخذاً في نظم قصيدته المشهورة التي يخاطب بها اللورد كرومر والتي مطلعها : « بنات الشعر بالنفحات جودي » وقد وقف عند مطلع هذا البيت : « اذا اعلولى الصياح فلا تلمنا » فانه لم يهتدِ الى كلمة تفيد اشتداد الصياح وكان قد استعمل كلمة « اشتد » ولكنه كان يراها قلقة ضعيفة لا تعبر عما في ذهنه فأخذ الحضور يعرضون عليه مرادفات لا تفي بالمراد وأخيراً تجرأ الفتى فالقى دلوه بين الدلاء واستأذن حافظاً في اقتراح لفظة تفيد ما اراده الشاعر فأصغى اليه حافظ قائلاً : « ابوا ابوا هات لما تشوف يا جدع يا شامي » فذكر له « اعلولى » فطرب لها

وربت كتفه معجباً بذكائه وأحلها بيته الذي جاء آيةً من آيات الاحكام

ولكن عيب الف فاء الوحيد كان مزاجه العصبي فانه كان يصاب احياناً بالسوداء وقد تحالف عليه مزاجه ونزوعه لتعلم اللغة الفرنسوية فجنيا عليه اكبر جناية يمكن أن يقترفها ضد نفسه شاب في مثل حاله واستعداده وقد كان آخر عهدي به اقترانه بعانس انكليزية تناهز الخمسين من العمر واست اعلم اليوم مقرّه ولا ما آل اليه حاله

ذلك أنه حوالي سنة ١٩١٠ قدمت تلك العانس الخرطوم وأخذت تذيع بين من عرفتهم انها تدرس اللغة الفرنسوية فاعتزم صاحبنا الف فاء أن ان يتلمذ لها في جملة عشاق اللغة الفرنسوية ولكنه بدلاً من ان يبلغ مناه من تلك اللغة الانيقة عَلَى الاسلوب المعروف فضل حيازة تلك اللغة بحيازته المعلمة عينها

واني لا ازال اذكر ما قام بينه وبين أخٍ له اسمه يوسف كان يتجر في السودان من النزاع وكيف ان هذا حاول بكل قواه ان يمنع اقتران اخيه المحبوب بتلك العانس حتى انه سعى ونجح في ابعاده الى مسقط رأسه اعتقاداً منه انه متى افلت من قبضة تلك الداهية وأصبح بعيداً عن جاذبية تأثيرها فقد يعود الى نفسه ويثوب اليه رشده ويشفى من ذلك الغرام الجنوني ولكن المعلمة تبعته الى صيداء واجتذبته ثانيةً اليها وأعادته الى مقرّ وظيفته في الخرطوم واقترنت به عَلَى رغم كل كاشح وعذول بحيث اني عندما عدت الى عاصمة السودان بعد تغيب سنة كاملة عنها كان الف فاء متزوجاً

والذي اذكره ان تلك العانس كانت تملك مما ورثته أو اقتصدته مبلغاً يتراوح بين الالف والالفي ليرة انكليزية ولكن عَلَى جسامة هذه البائنة في ذلك العهد لا استطيع اعتبارها طعماً كافياً لشاب كالف فاء ولا بدّ لي من القول اني متردد في إصدار حكم بات عليه بأن يكون قد استهواه ذلك

القدر من المال دون سواه للوقوع في شراك تلك الحيزبون • ومما يرجح جانب الشك من جهته انه قال فيها الشعر فوقف عَلَى الاطلال باكياً ومقلداً مجانين الشعراء في بث غرامه وشكواه من زمانه وإصراره عَلَى القيام بعهوده وهذا بيّن في القسم الاخير من قصيدة عصماء اثبت فيها تفوقه في صناعة الشعر وقد طرق موضوعاً تدرَّج فيه من الوصف الدقيق لبلاد السودان وحوادث زمانه فيه وأساليب حياة الوطنيين والاجانب في ذلك الصقع البدوي الى ذكر تاريخ النيل وما اسبغه من البركات عَلَى البلاد التي يجري فيها وعظمة المصريين القدماء الى الحكم البالغة في التنديد بطغيان الانسان وجشعه الى ذكر حاله وغرامه وثباته على العهد

الدكتور نون جيم
وفساد نظرية الطبع غلب التطبع

كنا جلوساً الى المائدة وفي جملتنا الدكتور ك لان ذلك اليوم كان يوم عطلة وكان الطعام شهياً ولكن الدكتور ك فقد شهيته وأرهف اذنيه موثراً الاطلاع عَلَى الابتلاع • وكان المحدث الدكتور خ ومؤدى كلامه أننا مدعوون كلنا بعد يومين لتناول طعام الغداء عَلَى مائدة الدكتور ج في بلدة بين التي تبعد عنا مسيرة ساعتين بالقطار

ولكن ما أفقد الدكتور ك شهيته وأثار فضوله لم يكن الدعوة ولا الرحلة ولا تمنية النفس برؤية الدكتور ج فكل هذه كانت اموراً عادية متيسرة في كل وقت ، بل كان امراً غريباً رفعته المفاجأة الى منزلة العجائب وأخضعت لتأثيره عاطفة أشدنا رصانةً وأبعدنا عن الفضول

ان تلك الاعجوبة كانت مجالسة ومحادثة ومؤاكلة الآنسة د ابنة الدكتور ج البارعة الجمال المستكملة شروط التهذيب العالي الى حد انها تفهم

شكسبير كالعلماء المحققين من ابناء لغته وتشرحه لـامعيها بأبسط الاساليب وأقربها الى الافهام لانها رُبيت وتلقت علومها في الولايات المتحدة الاميركية

وليس هذا عَلَى جمامته كل ما يدعو الى استغرابنا واستعجالنا يوم السفر القريب بل كان هنالك مـا هو أبلغ فان الآنسة د من عشيرة توجب التحجب وتفرضه عَلَى كل انثى دون استثناء . اما هي فكانت سافرة وعَلَى الزي الاوروبي في ملابسها داخل البيت وخارجه وربما كانت الاولى من نساء تلك العشيرة التي قضت عوامل استثنائية بانطلاقهـا من سجن العادات الشرقية الذي يُعتبر الخروج منه خروجاً عَلَى الدين والآداب العمومية وهو جرم ربما لم يمحه سوى اهراق الدماء

وكنا في العام الثاني عشر والتسعمائة والالف ، وجاء اليوم المعين فركبنا القطار ووصلنا بلدة الدكتور ج في الساعة المعينة فاستقبلنا هـذا عَلَى المحطة وغالى في الاحتفاء بنا الى حد اوهمنا اننا في ضيافة امير شرقي ولا بدع فالدكتور ج من اسرة نبيلة عريقة ومن عشيرة اشتهرت بالسخاء وفضيلة اكرام الضيف

واشتغل رفاقي بمحادثة الدكتور ج ومبادلته المجاملات المألوفة ، اما انا فلم تكد تقع عيني عليه حتى لهوت عن هـذا الواجب وعدت بالتذكار الى سنة ١٨٩٥ ، أي منـذ سبع وعشرين سنة ، وأخذت استعرض الايام التي قضيتها في صف (د) وكان ادنى الصفوف في الدائرة الاعدادية في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم)

كنت اذ ذاك في نحو الحادية عشرة من عمري ولم يكن بين رفاقي من يزيدني باكثر من سنتين الى اربع إلا واحداً كان في نحو الثلاثين طويل القامة نحيلهـا اسود الشعر والعينين بارز ثنايا الفك الأعلى قليلاً اعقف الانف حليقاً مرسل الشاربين بغزارة مع تهدل يغطي الشفتين

والذي اذكره اننا جماعة التلاميذ كنا نستغرب وجود ذلك الرجل بيننا برغم كونه يفوق اكبر معلمينا سناً وكنا نتساءل من هو وما هو شأنه بيننا نحن جماعة الصغار . ولكن تساؤلنا لم يطل عهده لان ذلك التلميذ الجبار برغم تأخره عن بعضنا نحن الصغار في معرفة اللغة الانكليزية وإساءته التلفظ بها لم يلبث أن ارتقى الى الصف الأعلى وقد يكون انتهى من الدائرة الاعدادية في تلك السنة المدرسية عينها ، ولم يقض في الدائرة العلمية سوى سنة او سنتين حتى انتقل الى الدائرة الطبية حيث انهى دروسه ونال الشهادة التي تخوّله تعاطي صناعة الطب . والأولى بي ان اكتفي بالقول إنه نال الشهادة وأصبح طبيباً لانني لست على ثقة من انه انهى دروسه في الكلية نفسها او انه اكمل دراسته في إحدى كليات اميركا الشمالية ونال شهادتها

وما كاد صاحبنا ينال الشهادة الطبية حتى امّ القطر المصري وانتظم في سلك اطباء الجيش برتبة ملازم وأوفد الى مقر عمله في السودان . ولكنه قبل ان يبرح مصراً تصوّر بيزته العسكرية ولم يمض إلا القليل على وصوله الى السودان حتى سعى الى دخول الدائرة الطبية المدنية وفاز بطلبه فخلع الثوب العسكري وأصبح طبيباً مدنياً

ذلك التلميذ الذي شذّ عن القاعدة في تخطي الصفوف دون تفوّق يبرّر تلك السرعة بحيث اصبح طبيباً في نصف الوقت المحدد للدراسة لم يكن سوى الدكتور ج . ولم يعامل تلك المعاملة الاستثنائية ويُعفى من استيفاء حقّ الدراسة القانونية واستيعاب موادها بالدقة التي لم يكن منها مفرّ إلا مراعاةً لسنه ومركزه وبفضل اوامر سرية صدرت من المرجع الأعلى لهيئة تلك الكلية الادارية وبُلغت سراً للمعلمين فراعاها هؤلاء وكانوا عنوان التساهل في إجازة الامتحانات الركيكة التي كان يقدمها لان

الدكتور الذي كان قد ترمل وتركت له زوجه ولدين صغيرين ، ذكر وأنثى ، رضي بأن يعهد بتربية وتعليم ولديه الى دائرة المبشرين في الولايات المتحدة

ولكن هل كان الدكتور فعلاً ارمل — كلا إلا اذا صح اعتبار الموت الادبي كالموت المادي لان زوجه مـاتت الموت الاول بحبها ثوباً عسكرياً وهو شاء أن يثبت لها ان في استطاعته ارتداء ذلك الثوب برتبة ضابط في جيش ارقى من جيش بلاده وكان سبيله الوحيد أن يصبح طبيباً وينخرط في سلك الجيش المصري برتبة ضابط ، لذلك كان أول عمل تاه عَلَى اثر فوزه بمطلبه هو انه تصوّر بزته العسكرية ، ولست اشك في انه بعث بالصورة الاولى الى مطلقته لكي ترى ان ما ضحت في سبيله بالشرف العالي وعاطفة الامومة المقدسة كان مضموناً لهـا مع بقاء ذلك التـاج عَلَى رأسها وفلذتي كبدها تحت جناحيها لو هي اعربت عما كان يجول في صدره. وجهرت بأمنيتها الكبرى وهي ان تضم بين ذراعيها ثوباً عسكرياً

وغني عن البيان ان حكاية تلك الزوجة التاعسة والام المنكودة الحظ كانت اشبه شيء بحكاية سارق الجمل الذي ادعى انه انمـا سرق حبلاً لا قيمة له ولكن لسوء حظه كان ذلك الحبل رسناً منوطاً به جمل . كذلك هي احبت ثوباً عسكرياً لا يوجد شريعة تحظر حبه ولكن لسوء حظهـا ان ذلك الثوب كان يستر جسماً يزينه ويكسبه جاذبية ليست في سواه

إذن كان الدكتور ج ذلك التلميذ الذي لم نكن ندرك سرّ وجوده بيننا وهـذه ابنته قدمت من اميركا تلبيةً لطلبه عَلَى أن يطوفْ شوقه اليهـا ردحاً من الزمن تعود بعده الى اميركا لاستئناف دروسهـا . لذلك يمكن للقارئ ان يدرك مقدار استغرابي واستغراقي في التفكير بينما كان رفاقي في معزل عما انا فيه وكل ما يهمهم ان يروا الفتاة ويعجبوا بجمالها وذكائهـا وتهذيبها العالي

ظللت افكر وأسارق الدكتور النظرات لكي اتثبت من عرفته حتى بعد أن بلغنا المنزل واستقر بنا المقام في قاعة الاستقبال حيث قدمت لنا المرطبات وتلاها شيء من الشراب والملاطفة . وبينما نحن في الحديث اقبلت الآنسة د باشة مرحبة وكانت فعلاً عَلَى جانب من الجمال معتدلة القوام حسنة الهندام مزدانة بالادب واللطف والاحتشام فحيتنا وصافحتنا وجلست تحدثنا تارة بالعربية بشيء من الصعوبة وأخرى بالانكليزية بسهولة زائدة ثم دعتنا الى المائدة فجلسنا في الاماكن التي عينتها لنا وجلست هي في الصدر تصدر اوامرها الى الخادم وتوزع علينا بلباقة وكياسة انواع الطعام والشراب وتدير كل شيء بحذق ودراية ربات البيوت الراسخات القدم في علم آداب الاجتماع ، غير مغفلة في الوقت نفسه مباسطتنا بايراد النكات المستحبة ومحادثتنا في مختلف المواضيع بحيث صرفنا ساعات وددنا لو انها لم تنقض . وعندما ازف موعد الرحيل ودعنا شاكرين وعدنا معجبين بأدب وظرف تلك الحسناء الشرقية مُكبرين رقي والدها وتساهله في إطلاق حريتها للاخذ بأسباب المدنية والتمشي عَلَى الاساليب العصرية . وقد ظللنا اياماً نذكر تلك الزيارة اللطيفة مرددين حوادثها ومعترفين بما تركته في نفوسنا من جميل الاثر

طالت إقامة الآنسة د مع والدها بضعة اسابيع لم نكن نفتر في اثنائها عن تنسم اخبارها من القادمين من بلدة س الى ان جاء يوم دبّ فيه الى نفوسنا شيء من الجزع واليأس إذ بلغنا عن السنة الجيران ان الذي بهر ابصارنا لم يكن سوى طلاء وان الطبع لم يغلب التطبع إلا في حالة الوالد بحيث نشب خلاف بينه وبين ابنته التي كان التطبع اغلب فيها من طبعها نظراً الى حداثة سنها ورسوخ المدنية الغربية في نفسها لانها بدأت باقتباسها وهي طفلة

ومما راج من الاشاعات علمنا ان الدكتور ج اخذ يسيء معاملة ابنته وينكشف لها عن حقيقته عائباً عليها كل ما تحمله من آثار المدنية ومذكراً اياها بأنها شرقية ويجب أن تحافظ عَلَى عادات وآداب بنات جنسها في بلادها التي تجهلها كل الجهل . وانتهى به الامر الى محاولة ابتزاز وعد منها بن تضمر عكس ما تعلن مخادعةً القائمين عَلَى تهذيبها الى ان تظفر ببغيتها وهي تعلم صناعة الطب لكي تعود عَلَى الاثر الى بلادها وتتعاطى هذه الصناعة بين بنات جنسها في وطنها الاصلي . ولكن تهذيبها منعها من قطع عهد كهذا فضلاً عن انها لم تكن تميل الى تعلم الصناعة التي اختارها لها والدها

وبلغ من إصرار الوالد عَلَى رأيه انه لجأ الى اسلوب مستغرب ظنه الدواء الشافي لعناد ابنته وهو إكراهها عَلَى ذبح خروف اعتقاداً منه أنه اذا ما تولدت في صدرها الجرأة الكافية للاقدام عَلَى النحر ورأت الدم يجري أنست الى علم التشريح وفارقها نفورها من صناعة الطب التي تستلزمه

ومها يكن من صحة هذه الاشاعات او كذبها فالراهن هو أنه في احد الايام استدعاني رئيس الدائرة اليه وأمرني بالاستعداد للسفر في اليوم التالي للقيام بالاعمال الكتابية في بلدة س مدة غير محدودة . ولدى الاستقراء علمت ان الداعي لتلك الرحلة هو أن الدكتور ج ارسل برقية مستعجلة يعلن فيها اضطرابه بسبب فرار ابنته عَلَى حين غرة بحيث لم يعد يستطيع القيام بواجبات وظيفته كطبيب فكيف به اذا اراد الكتابة والحسابة لذلك هو يطلب ان يوفد اليه من يقوم عنه بالاعمال الكتابية عَلَى ان يُبلى باقرب فرصة بطبيب يتولى عمله لكي يبرح بلدة س مفتشاً عن ابنته الفارّة

وهكذا سافرت في اليوم التالي الى س فسرّ بي عن الدكتور ج بقدومي ولولا هياجه وانقباضه لأعلن لي سروره بي ليس فقط ككاتب بل كصديق نصوح مؤاس

وكنت قد نزلت في بيت صديق فألحّ عليّ الدكتور كثيراً بقبول ضيافته فرفضت رفضاً باتاً مكتفياً بمعاشرته في حالته الجنونية في اثناء ساعات العمل . وبلغ من اضطرابه اني كنت احياناً أضطر الى مساعدته حتى في اعماله الطبية لانه كان لا يعي ماذا يصف وكيف يعالج والكلمة الوحيدة التي كان يرددها « بنتي ! بنتي »

كان يجلس الى منضدته ليكتب فيسهو ويستغرق في التفكير وينسى كل ما حوله ومن يحيط به من المرضى ثم يستفيق استفاقة من كان في غيبوبة ويأخذ في سؤالي عن مقر ابنته وماذا يجب أن يفعل لكي يدركها وكانت الايام تمر سراعاً وأمله بالعثور عليها يزداد تضاؤلاً امام نتيجة البرقيات المتعددة التي طيرها الى كل مكان يُعقل أن تعرّج عليه

وهكذا كان كل جهد بذله عبثاً لان الفتاة كانت متعلمة وذكية بحيث عرفت كيف تظهر له الطاعة واللين بينما كانت تستمهله للعمل بأوامره الى ان أعدت عدتها للفرار وقد يكون اعانها عليه أحد افاضل الانكليز ثقةً منه بانه يقوم بعمل انساني وإلا لما استطاعت الاختفاء وبلوغ الاسكندرية دون أن يبصر بها احد . وفي هذا الثغر بسطت امرها لأسرة اميركية كانت عائدة الى بلادها فاصطحبتها معها وهكذا أفلتت من قبضة والدها وكان هذا آخر عهدي به وبها

الرتب والالقاب

لسواد الناس شغف بالرتب والالقاب وإن يكونوا بها غير جديرين ولها غير مستحقين . وقد وعيت في ذاكرتي بعض حوادث تدلّ على هذا الشغف لا بأس بروايتها للعبرة والتفكهة :

١ — في حداثتي شهدت معركة كلامية نشبت بين صديقين كلاهما

حاصلان عَلَى لقب « افندي » بطبيعة كونهما موظفين في الحكومة . ولكن احدهما عثر يوماً فنادى صديقه باسمه المجرد فما كان من هذا إلا أن استشاط غضباً وقال له بصريح العبارة : « افندينى مش من بيت بيّك » !

٢ — عدت من السودان سنة ١٩٠٧ واجتمعت في بيت خالي المرحوم عبده بني بحي ٍ لي من أسرة وجيهة مثرية فقضيت السهرة وأنا كلما عرضت مناسبة أناديه باسمه المجرّد حتى دقت ساعة النوم . وما كاد ينصرف حتى اقبل انسبائي يعنفونني لانني اهملت لقبه فاعتذرت بجهلي وسألت الخبر فقيل لي إنه أصبح عَلَى حداثة سنه « بيكاً » لانه جارى الالوف فتبرع للسكة الحديدية الحجازية بخمس ليرات عثمانية فهلت وكبرت ووعدتهم خيراً . عَلَى ان دهشتهم كانت في المرة التالية اشدّ لانني لم اكتف بإهمال اللقب بل صارحت حامله برأيي في « بيكويته » البخسة وحملته عَلَى الاعتراف امامهم بأنه يفضل أن ينادى باسمه المجرّد !

٣ — كان لي في السودان صديقان من قدماء الموظفين أحبهما وأحترمهما فجاء وقت خسرا فيه نصف هذه « النعمة » اي انهما فقدا احترامي وبقي لهما حبي . وتحرير الخبر أنه في احد الاعياد الرسمية التي تغتنم لمنح الرتب والالقاب أنعم عَلَى اولهما ، وكان في الخرطوم ، بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وكان قبلها حاصلاً عَلَى الرتبة الثالثة التي لا يرافقها هذا اللقب ولكن المتملقين اعتادوا إطلاقه عليه مجاملةً . وأنعم عَلَى الثاني ، وكان متغيباً في مديرية كردوفان ، بالمجيدي الرابع . وبعد انتهاء الحفلة الرسمية في قصر الحاكم العام توجه البك الجديد وأصدقاؤه الى النادي السوري حيث تقبل تهانئهم القلبية او الشفهية وقدّم لهم المشروبات الفاخرة ووجهه يطفح بنور البشر وراح يبدي شفقته عَلَى انداده بالامس لانهم كانوا يقبلون لقب « بك » مجاملة وما هم في الواقع سوى آغاوات !

وركب بعد ذلك حماراً وراح يبشر المارة من معارفه بلقبه الجديد .
ثم توجه الى ادارة البرق وأرسل الى صديقه المتغيب في كردوفان البرقية التالية وهذا نصها :

« أهنئك بالرابع هنئني بالثانية » !

٤ — كان سليمان « بك » رئيس قلم المستخدمين من المتمسكين بالرسميات فكان في المكاتبات الرسمية يبخل على احد اصدقائي الموظفين بلقب « بك » لانه انما كان حاصلاً على الرتبة الثالثة التي لا يرافقها هذا اللقب . واتفق أن لقيني هذا مرة فشكا اليّ جفاف عواطف رئيسي سليمان « بك » وتمسكه بالحرف في حين أن الحاكم العام نفسه لم يبخل عليه بلقب « بك » عندما ناداه وسلمه الفرمان بالرتبة الثالثة ! ثم استشارني في رفع شكواه بواسطة رئيسه الى السكرتير المالي لكي يرغم هذا سليمان بك بمراعاة المقامات ولكنني اخترعت له حلاً يكفيه مؤونة الشكوى ويقيه شر عاقبة نتيجتها واعداً اياه بأنني كلما كتبت رسالةً وارداً فيها اسمه اتبعته بلقب بك فرضي وانتهى الامر !

وبعد عام واحد أنعم على رئيسي سليمان افندي بالرتبة الثالثة فعاد لا يكتفي باقتبال لقب « بك » بارتياح بل يتطلبه ، فسبحان مبدّل الاحوال !

٥ — زرت في صيف ١٩٠٥ المرحوم شاكر البركس زوج السيدة ليزا جحا نسيبتي وسألته عن شقيقها سعيد الذي كان قد عاد من احد المهاجر الاميركية بثروة لا بأس بها وحصل على امتياز بجريدة ورد فيه اسمه مشفوعاً بلقب « بك » ، مبدياً اشتياقي اليه ورغبتي في مشاهدته . ولكن المرحوم شاكر أصر على تجاهله من أقصد وأصررت انا على ايراد اسم سعيد دون أي لقب !

اخيراً اعيتني الحيل فقلت له : « اقصد سعيداً ابن عمي وشقيق

زوجتك » ! فتظاهر بالاستغراب الشديد لا بل انه لم يكتمني استياءه لانني بخلت على ابن عمي بلقب بك في حين انه عندما كان آتياً الى البيت شاهد القائمقام والقاضي وجمهوراً من الوجهاء والاعيان خارجين من زيارته !

وانتهى الامر بأن راهنني على ابرة فرنسوية بأنني لا استطيع ان أنادي « سعيداً » سعيد ولكن لسوء الحظ لم نجده في البيت

على انني في مساء ذلك اليوم عينه لقيته وقرينته الفاضلة ونفراً من الاصدقاء على الصفة في زحله فرحب بي وأضافني تلك الليلة واتفقت واياه على أن لي ملء الحق بأن اناديه سعيداً ولو أصبح باشا !

ولكن لسوء الحظ لم التقِ المرحوم شاكر البركس ثانيةً لكي اتقاضاه الرهان الذي اتفقنا عليه !

نخله بك تادرس
« مال الخسيس لابليس »

كان نخله بك تادرس باشكاتب مالية السودان في الخرطوم عزباً في نحو الاربعين طويل القامة بشيء من البدانة اسمر اللون عريض الجبهة جاحظ العينين احول الطرف عريض المنكبين . ومع انه كان يتناول راتباً كبيراً في ذلك العهد ويستمتع بدخل شهري إضافي لا يُستهان به من اجور بيوت يملكها في الخرطوم نفسها فانه كان بسيط الكسوة قليل العناية بمأكله ومشربه يكره الاسراف والمسرفين ويهزأ بالاناقة والمتأنقين ولم يكن يسلم احدٌ من هزئه ورقاعته . اما انا فظللت في نجوةٍ من عطفه المعكوس هذا حتى شاءت الاقدار أن تجمعني به بصورة دائمة تقريباً وذلك عندما نُقلت بطلبي الى وظيفة كتابية في قلم المستخدمين الذي كان مركزه في القاعة الرحبة التي كان يتصدّرها هو نفسه حتى ان منضدتي كانت مجاورة لمنضدته ، وهكذا اصبحت احدى فرائس دعابته

حيناً ونزقه آخر ، إلا ان رئيسي المباشر كان يردّ عني لان نخاه بك كان يوجه اليه الشيء الكثير من « عنايته » بشكل نظرات احدّ من السهام وعبارات دونها ضرب الحسام ولكن بقالب ظاهره ودّ وسلام ، ولا غرو فرئيسي هذا وكان اسمه تونيتي وهو من أصل ايطالي ومولود في بغداد كان في ملبسه ومأكله ومشربه الاناقة مجسمة حتى انه لم يكن بتنزل في اشدّ الفصول حرارةً عن لبس القميص المكوية الصدر والياقة والكمين ويبدل ثوبه الكتاني الابيض يومياً تقريباً ويأتيه غداؤه المتعدّد الاشكال في قصاع مطبقة مع زجاجة خمر وكأس بلوري وغطاء من كتان ابيض نظيف يمده عَلَى المنضدة ويأخذ في تناول علفته كأنه في اشهر المطاعم وأفخمها

ولا بأس بوصف المسيو تونيتي فقد كان في نحو الاربعين ابيضاً ربعةً بديناً ممتلئ الاوداج حليقاً باستثناء ذقنه المثلثة عَلَى الزي الايطالي في ذلك العهد . اما كيف بلغ مركزه فالعلم لله وحده اذ لم يكن يمتاز بسوى جمال الخط وطالما أعياني التوفيق بين جمال خطه وحسن حظه لان دائرة معرفته كانت ضيقة في العربية والانكليزية عَلَى السواء ولكنه ككل قصير ادراك كان موهوباً قوة المحافظة شديد الحذر الى حد الجبانة كثير المخاتلة والرياء والتحكم . ومن آيات وكله أنه لم تكن تعرض مسألة تستوجب كتابة مرسوم حتى يعود الى المخطوطات القديمة مفتشاً عن سابقة لها يطبق بموجبها حكمه وينقل بالحرف تقريباً المرسوم النهائي الذي صدر بشأنها ، وكم دارت بيني وبينه معارك حامية الوطيس بسبب هذا الوكل الذي يجرّد مع الزمان حتى خبرة العارفين من معرفتهم . اما خارج المكتب فقد كان المسيو تونيتي صديقي ولا ازال اذكر له يداً هي أنه في اثناء عطلة قضاها في اوروبا تكبد في سبيلي عناءً ونفقةً فزار من قبلي شقيقتي في بروكسل عاصمة البلجيك وكانت برفقته عروسه الايطالية الفتية الجميلة ، وطالما دعاني بعد عودته

معها الى منزله الانيق ونالني منه ومن قرينته الفاضلة المهذبة ما لا انساه من تلطف وكرم ضيافة

ولا أعد الآن الى نخله بك فأقول حباً بتقرير حقيقة إن صفقته معي لم تكن دائماً رابحة فقد طالما لان لي وخفض جناحه امامي ، لا كرماً منه واتضاعاً ، بل لانقلابه في مضمار الرقاعة وترقباً منه لسانحة يثأر فيها لنفسه ويمثل معي دور العقرب . وقد عرضت له يوماً فرصة انفجر فيها عليّ انفجاراً دوى في جوانب دائرة المالية والدوائر الاخرى المجاورة لها فهرع الموظفون من مكاتبهم هالعين مستطلعين سرّ ذلك الانفجار الذي كان دونه خوار ثور هائج فلم يلبثوا أن علموا أن نخله بك تادرس الباشكاتب شق جيوبه وقطع ازرار سترته لانني أبيت أن أطيع امره . حتى ان نائب السكرتير المالي استدعاه اذ ذاك كما استدعاني ولكنّ تأنيبه له كان اشد اسلوكه الوحشي في دائرة حكومية وهو الرئيس الاكبر الذي يجب أن يكون خير قدوة لسواه من الموظفين وتفصيل الخبر أنني منذ نقلت الى قلم المستخدمين ترتب عليّ بصفة كوني مارست الصيرفة مهمة توزيع رواتب مستخدمي المالية في آخر كل شهر فرحت اقضيها لا كواجب بل كخدمة طوعية ، ولكنني اخيراً نفرني منها تعنت المستخدمين وتحكمهم في نوع العملة وتكليفهم اياي احياناً ابدال الذهب من الفضة او الفضة من الذهب فخطر لي إلقاء تلك المهمة الشاقة عن عاتقي ولكن نخله بك أصرّ عليّ وجوب قيامي بها فأبيت كل الاباء وكان من امره معي ما كان

ومما اذكره من مداعباته التي جرّت عليه مرةً اعتذاراً مذلاً لم يكن ليرضاه لنفسه لولا خوفه العاقبة الوخيمة انه اهان موظفاً انكليزياً كان تحت امرته بلفظة يستأهل عليها من المهان ضرب الرصاص فتخلص بادعائه جهل معناها الاصطلاحي في حين انه كان اعرف به من ذلك الانكليزي نفسه

ولكن الواجب يقضي عليَّ بالاعتراف انخله بك بأنه كان احياناً يصفو ويروغ فيحاسني وتجري بيننا مداعبات ومطارحات لا بأس بها يطرب لها كل من في القاعة فيقهقهون ويتعالى منهم ضجيج الاستحسان

ومما اقرّ له به من المزايا الذكاء المفرط وسعة الاطلاع والتمكن من اللغة الانكليزية . عَلَى أنه كان يكره النظافة والترتيب ، ومن مدهشاته أنه كان يجمع عَلَى منضدته اكداس الاوراق الرسمية والمحفوظات ويتناولها اذا هو احتاجها او طُلبت منه بكل سهولة وسرعة كأنها منسقة امامه احسن تنسيق ومرتبة بموجب الحروف الهجائية والارقام الهندية المتسلسلة

وكان في غالب الاحيان يتغدى في المكتب عَلَى ان طعامه كان قاصراً عَلَى ما كثرت كميته وقلّ ثمنه من الخبز والجبن والفجل ، فكان اذا ما تناصف النهار ينادي « هدبه » أنبه الخدم البرابرة في المكتب وأبعدهم همةً فيخاطبه بقوله :

« إمسك القرشين دول يا واد وروح السوق جبلي بنص قرش رغيف ولكن استكبره يا واد ، وبقرش حتة جبنه ولكن تكون مبجبجه ، وبنص قرش فجل ولكن مـا تبصش لراس الفجله بص لديلها واستكبره ، وإياك يستعبطوك ويغشوك ، ما تكنش اهبل يا واد » !

فيذهب هدبه ويأتيه بذلك الغداء الفاخر فلا يسلم إلا نادراً من التهكم والنقد لعدم شطارته في المشترى ، وكثيراً ما كان يعود ادراجه لكي يتعلم ويستبدل شيئاً من ذلك الغداء اصغر في حجمه او مخالفته للمطلوب . فاذا ما تمت اخيراً الصفقة دسّ نخله بك غداءه ذاك في درج المنضدة الواقع الى يمينه وبدأ بين فترة وأخرى يقتطع لقمةً من الرغيف يطويها عَلَى قطعة جبن وورقة فجل ويبتلعها ، ويكرر فعله هذا حتى يأتي عَلَى آخر مـا في الدرج فيتغدى ويحمد الله

إلا ان نخله بك لم يكن يخلو احياناً من « التخبيص » فيعرّج بعد انصرافه من المكتب على مقهى فيتناول قطعة حلوى وفنجان قهوة بقرش ويستأنف سيره الى منزله مختالاً وهنئاً نفسه على إقدامه الذي هوّن عليه تلك التضحية

وكان عند انصرافه أصيل كل خميس ينادي هديه فيحذره من التخلف في اليوم التالي وهو يوم عطلة ويقول له :

« بكّر يا واد يا هديه وجيب العيش وياك »

أما الاشارة في هذه التوصية الاخيرة فالى كونه غير معتمد أن يقدّم لهديه سوى الادام وهو الملوخية التي كان يحبها ويطهيها بيده كل يوم جمعة فيكون نصيب هديه من تلك الدعوة صحن ملوخية مائعة فقط لا يمكنه أن يصيد فيه قطعة لحم ولو بأدق الشباك لقاء ذهابه مراراً الى السوق ليجلب المواد المطلوبة وينظف البيت ومواعين المطبخ ومعدات المائدة عن آخرها

وكان هديه يؤكد لنا أن نخله بك كان « يتسلى » اصيل كلّ جمعة بغسل ثيابه بيديه

هذا هو نخله بك نادرس الذي كان على بخله مضارباً ، وطالما رأيته منذماً مستشيطاً لاعناً اباه وأمه وساعة مولده على أثر كل نبإ يرد عليه من مصر بخسارة جسيمة اصابته ، وكان حقه ان يفعل لان الذي يحرم نفسه على الصورة التي وصفتها ، وهو لا زوج ولا ولد ، لكي يجمع مبالغ كبيرة يضارب بها الناس لأرباح طائلة خليق بان يحسب المال من لحمه ومن عظمه ومن دمه وأعز عليه من روحه فلا بدع ان يبكيه بكاء والد يفقد وحيداً!

محمد اباس

لقد انقضى الآن على مبارحتي السودان للمرة الاخيرة نحو عشرين عاماً . وكم اودُّ لو أتيح لي ان

ازوره اليوم مفتشاً عن ذلك العقد الثمين من سنيّ شبابي الذي خلفته بين غاباته وصحاريه — ذلك العقد الذي هو خير حلية في جيد الحياة والذي كنت ارى كل شيء على لمانه جميلاً خلاباً حتى الصحارى القاحلة والبقاع الجرداء

هل نعمت فيه ؟ — كلاّ ، ولكن في تلك الايام كنت اخال الشقاء نفسه نعيماً فلا غروَ إذن ان انظر اليه نظري الى النعيم

ولكن مطية العاجز الخيال فلأمتطه وأعد القهقرى الى ذلك العهد الذي كان كل شيء فيه يطفر ويغني ويحدّث بما هو اعذب من نغمات الاوتار ونشوة بنت الكروم

ها قد رأيت الشاب الذي كنته اذ ذاك يمشي الخيلاء ويتيه بمثل حلة الملك من الصبوّة وعلى رأسه تاج الصحة وفي يمينه الصولجان الذي لا يمس به شيئاً حتى يحوّله الى اداة لهو وطرب واغتباط

انه يسير نحو دكان حقير يبيع السلع البخسة للوطنيين المقيمين في حيّ خاص واقع شرقي مدينة الخرطوم عاصمة السودان

وما الذي يستهويه في هذا الدكان ؟ — صاحبه « ابو علو » وهو شاب ربعة القامة نحيل الجسم اسمر اللون اسود الشعر مائد الطرف أحوله يلبس قفطاناً يمسكه عند وسطه بحزام حريري عريض مُعلَم وفوقه سترة افرنجية سوداء

ويغلب ان يكون ابو علو حلبي النشأة كردي الاصل وقد عرف حمصاً والشام وبيروت وسواها من البلدان وكان له شأن مع « القبضايات » ومعرفة « بآداب » مجتمعاتهم فهو محدث خفيف الروح وراوية لا يستقرّ لجليسه قرار فهو ابداً ينقله من مكان الى مكان ويجمعه بمن شاء من الانس والجان ، على الاخص متى كان بينهما مائدة شراب مستوفية شروط الاتقان

وقد جمعت الشاب « بابو علو » الصدفة فعرف قيمته التي كان يجهلها الكثيرون لان سواد الناس يوْخذون بالظواهر ولا يعشقون إلا الرواء الذي لا يستر عادةً إلا الخصائص التافهة الجوفاء

ويكفيك من افضال ابو علو عليَّ أنه عرّفني الى محمد اياس المثري البيروتي المعروف الذي اشتهر بحرصه اشتهاره بغناه حتى ان الكثيرين ليروون عنه ما يصعب تصديقه أو يعتبره سامعه من المبالغات غير المعقولة ولكن الرواية العيانية التالية تؤيده كل التأييد

أمَّ محمد اياس الخرطوم حوالي مغيب سنة ١٩٠٥ ومطلع سنة ١٩٠٦ لما اتصل به من تحرك ثمن الاراضي فيها عَلَى شكل يغني السماسرة فكيف بالشارين وخصوصاً اذا كانوا مثله اغنياء . وغريب طبعاً أن يغادر شيخ غني مثله موطنه بيروت ويؤم السودان سعياً وراء ثروة جديدة يضيفها الى كثيره الذي يكفيه منه أقل من القليل ولكن هو الطمع الذي قال فيه قائل وأجاد :

لكن انكر انَّ المرء ذو طمعٍ وكلما زاد مالاً زاد سعاهُ ؟

دخلت عَلَى ابو علو صباحاً وكانت الساعة لم تبلغ بعدُ السابعة بقصد أن اتناول معه طعام الفطور عَلَى عادتي احياناً . وبعد ان حييت وجلست استهللت حديثي باستشارته في نوع الطعام لكي يأتينا به الغلام من مطعم مجاور فأجاب باسماً : « مهلاً فاننا سنفطر اليوم مع محمد اياس ولكن يجب أن نجاريه لكي لا ننفره فنتظاهر امامه بان كلاً منا يشتري ما يحلو له من جيبه الخاص وسيكون فطورك اليوم رغيفاً بنصف غرش وبضع حبات زيتون بنصف غرش والمجموع غرش واحد لا غير

— ولكن اي محمد اياس تعني ؟

— لم اعنِ سوى محمد اياس المثري البيروتي المشهور

— وما شأنه هنا ؟

— إنه قادم ابزيد ثروته بشترى الاراضي الرائجة اليوم على ما تعلم

— وفي اي نزل هو ؟

— سانبي اولاً في أية درجة أتى !

— وفي اية درجة ؟

— في الثالثة ، وهو يفاخر بأن المركبة التي استقلها وصلت قبل الثانية والاولى ، ولحماقة الذين خفوا لاستقباله لم يجدوه لانهم فتشوا عنه في الدرجة الاولى فقط فعادوا ادراجهم حاسبين انه لامر تأخر في القاهرة وتعذّر عليه الابلاغ

— عافاه الله ونفعنا ببركاته ! وأين كان نزوله السعيد ؟

— في منزل سوداني هديته اليه فاتفق مع صاحبه على أن يدفع له خمسة غروش اجرة المبيت وقد فضل هذا الحي اولاً لانه وطني ! وثانياً لان الطعام والشراب فيه رخيصان . وخير ما اعجبه ان فنجان القهوة يُقدم بمليمين في حين ان ثمنه في المقاهي الاجنبية نصف غرش

— ليته يستطيب الاقامة هنا فلا يعود لكي يعطينا بضع امثولات في الاقتصاد !

— ثق انه لو بقي هنا سنة واحدة لفتحنا في آخرها بنكاً بعنوان : « ضمون وابو علو وشركاه » !

وما تلاشت رنة ضحكنا حتى دخل محمد اياس بقامته الطويلة ولحيته المتدبرة البيضاء وحلته الواسعة السوداء لحيا بتواضع يمازجه الوقار فعرّفني ابو علو اليه فصافحني بتأدب وجلس يرمقني بطرف يلمع فيه بريق الذكاء كأنه يحاول استشفاف دخائلي خشية ان اكون من المسرفين الذين لا يرون حرصه ولا يقنعهم مثل فطوره

ولكن ابو علو اسرع الى تهدئة باله بقوله إني صديق من اهل الرضى ومحبي « العشرة الحلبية » وإني اتيت للتعرف بشخصه الكريم وتناول الفطور معه من جيبي الخاص . فاطمأن وأخرج من جيبه غرشاً وفعلنا نحن مثله ورأى لسروره ان ذوقنا ينطبق عَلَى ذوقه لاننا اوصينا الغلام عَلَى مثل طعامه وهو رغيف وبضع حبات زيتون

وأكلنا علقتنا « الأباصية » وافترقنــا وكان ذلك اول وآخر عهدي بمحمد اباص .

الدكتور سليم عطيه

كان الدكتور سليم يقطن مع عيالـــه أم درمان وكنا نضيفه احياناً عَلَى اننا كنا نستمتع بأدبه اكثر منا بمائدته لانه كان ذا ذكاء ومن خيرة الشعراء والمنشئين والمحدثين فلا عجب انه كان يحب الشراب ولكنه كان ممتنعاً عليه بسبب مرض الكلى الذي توفي به لانــه برغم علمه لم يكن يتقي كما يجب ، والذكي عادةً يفضل الحياة قصيرة عريضة عليها طويلةً ضيقة

كان رحمه الله يطلعني عَلَى جلّ ما تجود به قريحته واليك مثــالاً من امثلة تدقيقه واهتمامه بالحلة اللفظية التي يُلبسها بنات افكاره الحسان :

زرته مرةً عَلَى اثر ارساله موشحاً للنشر في مجلة الكلية ضمنه ذكريات عذاب تقضت في ربوعها فأبدى لي اسفه لانه لم يستطع اطلاعي عليه قبل ارساله عَلَى ان هذا الفوت لم يمنعه من تلاوتــه امامي فمرّ بأبيــات تشير الى الاعتداء عَلَى حديقة الرئيس واقتطاف الورد منها فخطأته في استعمال عبارة « كم سرقناها » مؤثراً عليها « كم غزوناها » فضرب كفاً بكف وقام لساعته فأبرق الى ادارة المجلة في بيروت لكي تبدل هذه من تلك

روزفلت في الخرطوم

سمعت الخطيب المفوّه المرحوم تيودور روزفلت احد رؤساء الولايات المتحدة الاميركية في الخرطوم يوم أمها عائداً من رحلته في اواسط افريقيا ودعته مدرسة اميركية هناك لإلقاء كلمة على طلبتها السودانيين كما دعت لسماعه الموظفين فألقى خطاباً بليغاً نصح فيه لاولئك الاحداث بان يضعوا نصب اعينهم خدمة حكومتهم لان الحكومة من الشعب وللشعب ولكنه حذّرهم من اخذ نصيحته بظاهرها فان خدمة الحكومة في رأيه تقوم بالابتعاد عن الوظائف والسعي الى الكسب الحرّ وزيادة موارد البلاد من الزراعة والصناعة والتجارة ، وفي عرفه أنه متى خرجت الوظيفة عن أن تكون تضحية اصبحت مضرّة بمصلحة البلاد وأن ذوي الاهلية للوظائف الحكومية هم اولئك الذين تفتش عنهم الوظيفة لا الذين يفتشون عنها .
وأذكر أن خطابه كان من اجمل ما سمعت ولكنه كهرب صديقاً لي اسمه هزيمه الرامي فلم يتمالك أن نهض وهتف لراية الخطوط والنجوم فتبعناه جميعنا . ويسرني أن علمت آخراً من صديقي وليم جباره الذي أمّ الولايات المتحدة منذ عهد قصير أن هزيمه الرامي اليوم يُعدّ من اشهر اطباء الاسنان في الولايات المتحدة وأصبح من الواجب أن يُسمى غنيمه تطبيقاً لاسمه على مسماه .

اسعد يحيى المساح

لا أعلم كيف جاء الخرطوم ولكنني لقيته فيها حوالي سنة ۱۹۰۷ . وعندما عرفته كان في نحو الخامسة والثلاثين فوق الربعة معتدل الجسم اسمر اللون أزرق العينين أقنى الانف اشقر الشعر كثّه حليق اللحية بشاربين معتدلين ولبس في ملامحه ادلة ذكاء تؤهله لامتهان الصحافة كما ان ليس في ملابسه ما يدلّ على شيء من السعة

ولكن احمد افندي كان مقداماً فلما يحسب للعواقب حساباً لذلك اتخذ له مكتباً في غرفة داخلية هي أصلح لمستودع بضائع منها لمكتب لوقوعها في قلب بناء كبير مربع مقسم حوانيت ومستودعات ويخترق وسطه زقاقان بشكل صليب فلا ينفذ الى الحوانيت القائمة عَلَى جنبيهما إلا القليل من النور والهواء

اما اثاث هذا المكتب فكان صندوقين من خشب الواحد مطبوب عَلَى وجهه ، وقفاه الى الاعلى ليصلح كنضدة ، والثاني نائم عَلَى جنبه عَلَى مسافة قصيرة من اخيه وفتحته متجهة نحوه ليجلس عليه الكاتب ويودع جوفه اوراقه ومحفوظاته فيسهل عليه تناولها منه وإعادتها اليه كلما عرضت مناسبة تقتضي ذلك . فاذا قدم زائرٌ مهمته تستدعي الجلوس وجد فسحةً لإراحة احد فخذيه عَلَى النضدة واذا اتفق أن قدم زائران وجد الثاني فسحةً اخرى للغرض عينه عَلَى الصندوق النائم الى جنب الكاتب

هذا المكتب كان ادارة جريدة الخرطوم التي انشأها احمد بسمى انشاح كصحيفة حرّة غير مقيدة بطاعة الحكومة كجريدة السودان شبه الرسمية وراح يودعها آراءه الناضجة ونقداته الصائبة بخط غير أنيق ويطبع نسخها موقتاً بواسطة الجيلاتين . وبحكم الاضطرار ايضاً خط اسمها واقتطعه من شقة نعل وسمره عَلَى قطعة خشب ولذلك كان يظهر فيه دائماً اثر المسامير وينمدّد حيناً وينقلص آخر تبعاً لما يعتور النعل من رطوبة او جفاف . وبعد حين اصبحت جريدة الخرطوم تُنضد بالحروف ولكن اسمها ظلّ عَلَى حاله ربما إبقاء عَلَى ذكرى نشأتها الاولى

وكانت جلّ موضوعاتها انتقادية فيغمز احمد افندي تارةً قناة جريدة السودان وتارةً أخرى جريدة التيمس الانكليزية مستعيناً ببعض أصدقائه الموظفين عَلَى تفهم ما يرد فيها مما يستوجب النقد ، وكان يذيل كل

نقدة يصوّبها الى تلك « الرصيفة » بتحذيرها من ذرّ الرماد في العيون ويؤكد لها انه لها بالمرصاد

وشاء مرّةً أن يعيب عَلَى بعض الموظفين تهتكهم واستسلامهم الى ما لا يجيزه الادب فروى او تخيل حكاية مجلس شراب ضمّ نفراً من الشبان وغانيةً أُسيء اليها حسب روايته عَلَى شكل بعيد عن التصديق فكان مقاله هذا شؤماً عليه وكاد يقضي عَلَى الجريدة بالاقفال لولا أنه جاهر بالتوبة وتعهد بعدم التعرُّض لمثل ذلك الموضوع ثانيةً

وقد كان في وقت معاً المحرّر والمنضد والموزع والجابي يزور المشتركين والى جنبه حقيبة تتضمن الاعداد يوزعها عليهم ويقدم للمدينين منهم وصولات ببدل الاشتراك الشهري وقدره خمسة غروش

وأذكر انه ابتزّ مني مرةً مقالةً نسيت موضوعها ولكنها كانت ادبية خيالية وحذرته من الاغلاط المطبعية لانها بدون هذه فيها من الاغلاط اللغوية ما يكفيها فأكد لي انه متعهدها بتدقيق يحول دون تشويهها بأية غلطة مطبعية ولكنني عندما تلقيت ذلك العدد المشؤوم الذي ظهرت فيه لم اتمالك أن صعقت لانني عثرت في تلك المقالة الصغيرة عَلَى سبعين غلطة تقريباً

ومما زاد في اضطرابي وألم نفسي ان رئيس القلم الذي كان بيني وبينه حزازات طالعها وتبسم عن درّ وتوقع لي مستقبلاً باهراً في عالم الإنشاء وعاب عليّ رضاي بوظيفة صغيرة في حكومة السودان وأنا قادر ان اكون كاتباً شهيراً في مصر !

وبالطبع لم استخلصه لانني انا نفسي لم اكن متثبتاً من وضوح ما أردت قوله في تلك المقالة فكيف بها وقد شوهتها سبعون غلطة مطبعية ؟ لذلك اكتفيت بكظم غيظي اعترافاً مني بأن الذنب ذنبي وانفجرت في

مصري على اسعد بـي المـاح بـا لا يروقه سماعه ومنـذ ذلك الحين خسر صداقتي وانبذت كل علاقة ادبية بيني وبينه وما فتئت واجداً عليـه حتى اليوم وما احسبني وفيته بهذا الفصل حقه فالى يوم النشور !

الياس مخلوف

كان الياس مخلوف كهلاً سميناً دموياً بركاني الطبع يشتغل في احدى الشركات الاجنبية في الخرطوم ويعيش بحكمة مع شقيقة له تجيد الطبخ وكان يدعونا احياناً لتناول الطعام على مائدته فنتلذ المآكل التي تطهيها شقيقته على انواعها فنبدي له استحساننا وشكرنا . وكان للتكرار تأثيره في نفس صديقنا الياس فأخذ شيئاً فشيئاً يكره وظيفته ويرى في إنشائه مطعماً متقناً كسباً اوفر ومستقبلاً افضل . وما هي إلا اشهر حتى انشأ صديقنا الياس مخلوف مطعماً لا بأس به عهد بإدارة مطبخه الى شقيقته نفسها وبالطبع كانت المآكل التي تُقدم فيه من افخر ما طهى الطاهون ولكن بحكم المساوقة كانت اثمانها فاخرة ايضاً فلا بدعَ أن تعذر على الكثيرين التلذذ بها . وقد فات الياساً ان الطعام مجاناً يصبح غيره بثمن وأن المستحسنين مدعوين ينقلبون الى ضدهم منتقضين . ولم يقتصر الاستغلاء على العاجزين بل تناول القادرين ايضاً نظراً الى عظم قدر اليـاس لمطبوخات شقيقته الماهرة . ومما لا ازال اذكره شكواه المرّة المتكررة من مشائخ لبنانيين اثرياء كانوا يأكلون في مطعمه فكان كلما قدّم لهم الحساب الشهري يعترضون عليه قائلين : « أيش كلنا يا عمي أيش كلنا » (عانين « ماذا اكلنا » ومعتقدين ان في الحساب غلوّاً) !

لذلك لم تطل حيـاة ذلك المطعم ولكن عندما اقفله الياس يأساً واضطراراً انفتح له باب كسب منه ثروة طائلة لا تقل عن ستة آلاف جنيه مصري بتوسطه في بيع ومشترى العقارات إبان ارتفاع اثمان الاراضي في

مصر والسودان سنة ١٩٠٥ ، على أنها كانت ثورة وقتية لم تدم بضعة اشهر حتى خمدت فأمّ الياس القاهرة مصطحباً ثروته الطائلة وهناك بدّدها عن آخرها في معيشة بذخ وترف حتى اني سمعت والعهدة عَلَى الراوي انه كان أول من اقتنى سيارة في مصر

وبعد ان بدّد ثروته المستحدثة عن آخرها بأقل من الوقت الذي انفقه في جمعها عاد الى مسقط رأسه بيروت ومات فيها فريسة الفاقة والعوز

من اجل سرج حمار

كان امين افندي الحداد السوري يشغل وظيفة كاتب ومترجم في الدائرة الحربية المصرية في الخرطوم وظللت اعجب كيف أن ثلج المشيب لم يطفئ لهيب حدته وأن صدره لم يستعر شيئاً من سعة وترامي البلاد التي يسكنها حتى علمت سبب نزقه وضيق صدره وهو أنه حوكم مرةً لقبوله سرج حمار هدية من احد ذوي المصالح من مشائخ السودان وُحكم عليه بفقدان « اسبقيته » فظل أعواماً عديدة واقفاً ورفاقه يمشون حتى علاه من كان دونه رتبةً وراتباً ، وهكذا كان احد فرائس العدالة الانكليزية التي لم أرَ اشدَّ منها وطأةً عَلَى الراشي والمرتشي ، الا في المستعمرات حيث تؤاخذ الموظفين وتعذر الوطنيين لاعتبارها أن هؤلاء ربوا بين احضان الجهل وتحت رهبة الظلم

وهي تنظر عَلَى السواء الى الانكليزي وغير الانكليزي إلا أنها ترغب في الابقاء عَلَى حرمة رعاياها في نفوس الوطنيين وسواهم فتعاقب المذنبين منهم في بلادهم . من ذلك ان صديقي ابرهيم بك ديمتري ، الذي سرّني ان علمت آخراً انه حي يرزق ومقيم في حيفا ، روى لي حكاية كبير انكليزي عوقب بالنبذ لاساءة ارتكبها في السودان فقد رآه في لندن آخذاً بزمام

حصان انتظاراً لعودة صاحبه لقاء اجر زهيد يتقاضاه عَلَى خدمته تلك

الضيافة العربية

كان حبل الودّ ممتداً بيني وبين جورج يعقوب عزيز بحكم صداقة قديمة كانت تربط بين والدينا في المعلقة ، وبيننا منذ الحداثة ، وكان والده يشغل وظيفة مستنطق ويجيدها بفضل اساليبه التركية الناعمة التي اقتبسها عنه ابنه جورج وأضاف اليها الدهاء جرياً عَلَى سنة الارتقــاء ، حتى انني بعد أن عرفته بصديقي فيليدس بأيام قليلة أطلق عليه لقب « استيكو افندي » الذي لزمه كل مدة إقامته في الخرطوم وقد استعاره له من رواية انكليزية كان آخذاً في مطالعتها لان بطلها يشبه من كل الوجوه صديقنا المذكور

وكان جورج ذكياً ضليعاً من الحسابات إلا أنه كان يعتمد في الدرجة الاولى عَلَى إرضاء رؤسائه واكتساب عطفهم بليونته وطاعته وبنوع خاص رئيسه المباشر صديقي توفيق غرزوزي

واتفق ان هذا أعرب لجورج عن رغبته في اغتنام عطلة حصل عليها في صيف ١٩٠٩ ليقضي منها بضعة ايام في مدينة زحله فحمله لوالده كل مــا يكنه قلب الولد المطيع من الشوق والاحترام ورسالة وصاة يسأل فيهــا والده أن يبالغ في اكرامه . فعندما بلغ المعلقة كان اول ما فعله أنــه زار المرحوم يعقوب عزيز وأبلغه اشواق وتحيات ابنه وسلمه الرسالة التي يحملها فاستقبله المرحوم بذراعين مفتوحتين وأحله برغم كل اعتراض ضيفاً كريماً في منزله العامر .

ولما استقر بتوفيق المقام سأل يعقوب افندي عني مؤكداً له انني في زحله منذ يوم او يومين فكانت نتيجة سؤاله هذا انني في مساء ذلك اليوم عينــه امست منزل يعقوب افندي لا للتسليم عليه او عَلَى ضيفه بــل للاجتماع

بحقائبي التي سُحبت بأمره من فندق فادري في اثناء تغيبي عنه ذلك النهار .
وما ساعت حتى انهال عليّ يعقوب افندي بأنواع العتب لانني انزل في فندق ولي بيت في المعاملة فشكرته شكر ولد لوالد وقبلت الضيافة مكرهاً . ومع اني عشت في معاملة زحله حتى بلغت العشرين لم اعرف ما هي الضيافة العربية حتى هاتيك الايام القلائل التي قضيتهـا وصديقي توفيق غرزوزي في منزل يعقوب افندي . إننا والحق يُقال تضايقنا وتألمنا خجلاً من مظاهر الاكرام التي كان يحيطنا بها على شكلٍ لا يفي به شكر حتى كدنا نعتقد انـه يقرأ افكارنا تلبيةً منه لحاجاتنا و يعدُّ لنا ولائم فاخرة ثم هو يحرمنا شهيتنا بامتناعه عن مجالستنا على المائدة ليقوم نحونا بواجب الخادم المطيع ونحن نُرانا بالنسبة الى سنه ومقامه والدَين له مقيدَين بواجب احترامه

اما الساعات الوحيدة التي قضيناها برفقته وشعرنا فيها بلذة حقيقية لا يمرّرها الخجل من تنازله ومغالاته في مجاملتنا فقد كانت في كرم له بلغناه باكراً وكان ابنه جان قد سبقنا اليه قبل الفجر ومعه كل المعدات والاغذية بقصد التبكير لاصطياد العصافير فكان صبوحاً لا اشهى منه ولا ابقى في الذاكرة

وعندما ودعت يعقوب افندي كنت قاصداً حمص وألححت عليه بأن يوليني جميلاً بتكليفي خدمة فكان أنه طلب مني اذا امكن اكلة سمك خضري ولكنني حسبت هذا النوع من السمك لا يخلو منه السوق فلم أبلغ حاجتي احداً ولكن عندما أزف موعد عودتي ولا مرد علمت ان التوصية كان يجب ان تكون سابقة فأضرب لغيري موعداً تبعاً لوجود السمك في السوق لذلك كان استيائي شديداً لانني عجزت عن الوفاء وقد كان جبيني يندى بالخجل المحرق عندما وقفت امام مضيفي الذي لم ارَ له نداً عمري وقفة المقصر المعتذر ولكنه رحمه الله كان عاذراً اكرم منه مضيفاً

س. ر. والبحار

عرفت س. ر. في الخرطوم وكان شاباً ربعة مستدير الوجه شديد السمرة اسود الشعر والعينين ، مما يفيد أنه كان ابعد الناس عن ان يكون انكليزياً ومع ذلك شاء مرّة أن يوهم احد الناس بأنه انكليزي فناله قصاص فظيع على ما سيجيء.

عاد س. ر. موفقاً من رحلة في اواسط السودان إذ قابض عليّ مقدار لا يستهان به من العاج بكل بخس ثمن من السلع كالحلى النحاسية والزجاجية وشاء ان يتمتع بثمرة جهاده في بلدة برمانا مسقط رأسه واتفق أن كان رفيقي وبعض الاصحاب القاصدين لبنان لتمضية العطلة الصيفية سنة ١٩٠٧

في القاهرة ارتكب سليم مخالفات عديدة كلفته مالاً وخيبة مرّة ولكن لم تكن صفقته خاسرة في ما ابتاعه من ملابس فاخرة انيقة روعي فيها تناوق الالوان بين الثوب والحذاء والأبنة ما خلا قبعة من قش بناما الفاخر عَلَى رأسه وسلسلة ساعة ذهبية ضخمة عَلَى صدره وعصا من العاج الخالص يتوكأ عليها ابافةً لا عجزاً

اخيراً بلغنا بيروت ولكن باخرتنا وُضعت تحت الحجر الصحي مدّة خمسة ايام كنا قد صرفنا يومين منها في السفر . وأمها بعض البحارة يحملون طعاماً ومأكولات ومشروبات يبيعونها من الركاب فابتعت ما كنت في حاجة اليه من احدهم واتفقت معه عَلَى أن يوصلني الى اليابسة بعد انتهاء الحجر

اما سليم فاختار أن يظل طليقاً فلم يعقد اتفاقاً من هذا النوع مع احد. ودنت ساعة الافراج فصعد البحارة الى الباخرة ضاجين صاخبين وكل منهم يرشح نفسه لعطف كل من يصادفه من الركاب ، وبعضهم يهاجم من يرى معه رزمة او حقيبة فينتزعها منه ويرمي بها الى رفاقه في الزورق فيضمنه زبوناً مكرهاً

وجاءني بحار طويل القامة مفتول العضل يطلب مني حقـائبي فأجبته ان قد سبق لي الاتفاق مع الحاج محمد الذي قضى معنا مدة الحجر فلم ترقـه تلك الخيبة وسأل الحاج محمداً أن يتنزل له عني فكان جواب هذا بالحرف : « العمى في قلبك ، كيف بدي خليلك ياه ؟! نحنا رعبنا عليـه من الاول وإلنا معه مصاري » !

فتركني البحار وسار نحو سليم وكان هـذا يتمشى مختالاً ببدلته الطاووسية ويلوّح بيمناه بعصاه العاجية ويفتل بيسراه شاربيه الصغيرين ، فطلب منـه غفشه فهزّ رأسه علامـة الرفض وأجابه باللغة الانكليزيـة Go away أي « إذهب في سبيلك »

فما سمع صاحبنا البحار هذه العبارة حتى انحنى ملقياً كفيه عَلَى ركبتيه وأخذ يتفرّس في وجه سليم ثم انتصب وأحاط ذقنه بمجموع كفـه وضيق جفنيه ليجمع بصره تذكراً واستشفافاً وقال وهو يهز رأسه دهشةً واستخفافاً: « ولك ما إنتِ بتاع برمانا ؟ شو حسبتني نسيتك » !

وإذ لم يسمع جواباً استوثق وشعر شعور الاسد امام فريسته المذعورة بعد ان تبدت له كفوءاً بما تلبسته ايهاماً فصاح وكأنـه يستجير : « يا امة محمد ، تعوا شوفوا بتاع برمانا بيحاكيني بالانكليزي » ! ثم انهال عليه بالشتائم والمزريات عَلَى انواعها موءكداً له انه دائس قبعته بحذائه وكاسراً عصاه عَلَى قفاه ومثلاً به اي تمثيل ، اذ كان اهون عليه في رأيه ان يطعنه بخنجر ويهينه ويطرده طرد الكلاب باللغة العربية عَلَى ان يعتذر اليه الطف اعتذار باللغة الانكليزية !

وسمعت الصيـاح فهرعت وهرع سواي لتلافي الامر وطفقنـا نلطف غضب الحاج بتصويب اقواله ولوم سليم وأخيراً سلمه هذا حقائبه عن يـد وهو صاغر ونزل في زورقه وابتز منه اضعاف الاجر المعتاد وهو شاكر حسن

طالمه لان المسألة وقفت عند ذلك الحسد ولا عن الساعة التي زين له فيها شيطان الغرور ان يمثل دور سيد انكليزي عزيز الجانب والبس في ملامحه من الانكليز إلا بقدر ما في الحمل من ملامح الذئب !

فريسة المزاح الثقيل

وأين حرّ بورت سودان على شدته من الغليان الدموي الذي حدث لشاب يوناني كان مستخدماً في دائرة الجمرك احتال عليه اصحابه فأقام لهم وليمة انفق عليها كل ما كان قد اقتصده في اشهر عديدة ، ذلك انهم استصدروا برقيـة من الاسكندرية مفادها أن سهم البنك العقاري الذي يحمله ربح اربعة آلاف جنيه ثم انجلت له الحقيقة في اليوم التالي !

ملك الصحافة الاميركية

في احد الايام دخل ميناء بورت سودان ورسا فيه يخت جورج بنت ملك الصحافة الاميركية فاذا به باخرة بيضاء معتدلة الحجم حمولها ستمائة طن ولكن آلاتها تكفي لتسيير باخرة بضعفي حجمها واسمها « ليس ستراتا » او طريق الزئبق . وكان جورج بنت قائماً على يخته هـذا برحلة في البحر الاحمر وخليجي العرب والعجم وبصحبته نخبة من اصدقائه الاميركيين والفرنسويين . على ان مظهر اليخت لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى مـا يضمه من آيات الفن ووسائل الراحة ومعجزات البذخ والترف فقد كان كناية عن قصر ملكي عائم بغرفه وقاعاته ومنتفعاته وما يزينه من فاخر الاثاث والرياش كالطنافس الشرقية والكراسي والمناضد العاجية وممرّاته المرصوفة بالفسيفساء وحماماته البخارية ومراوحه الكهربائيـة وعلى ظهره سرادق شرقي بديع الزركشة والهندام مفروش بأفخر الطنافس وأحدث معدات الراحة . وفيه حتى الابقار الحلوبة للانتفاع بلبنها ولها مرابض

تلطف حرارتها المراوح الكهربائية . وقد تمتعنا بتفقد ذلك القصر العائم ورأينا صاحبه وربانه معاً بثوبه الكتاني الابيض لا يفرق فيه عن اعوانه وبحارته الذين يحصون بالعشرات . وليتنا لم نر هذا اليخت إذ ان مرآه هاج فينا الى وقت طويل طموحاً جاهدنا كثيراً في سبيل إخماده

المرحوم الدكتور هوَرد بلس

بعد ايام رسا في الثغر عينه يخت المستر جونس ملك النحاس الاميركي ، وهو دون ذاك حجماً وجمالاً وأناقة ولكن فيه مزية مستلطفة هي انه يسير بالشراع وبالبخار عَلَى حد سواء ، ومزية اكبر من هذه هي انه كان عَلَى ظهره رئيس جامعتنا المحبوب الدكتور هوَرد بلس صديق ذلك المثري وقد اتفق معه عَلَى أن يرافقه في تلك الرحلة عَلَى شواطئ البحر الاحمر ثم يعيده الى بيروت فوافاه الى بورت سعيد وقدم معه الى بورت سودان

وبالطبع عرفنا بوجود رئيسنا المحبوب عَلَى ذلك اليخت فزرته بصحبة اصدقائي الاطباء السوريين ابناء الجامعة فرحب بنا كثيراً وعرفنا الى صديقه فأحسن هذا استقبالنا ومتعنا بتفقد يخته الجميل الانيق ثمَّ دعونا الرئيس لزيارتنا في المستشفى فلبى شاكراً مسروراً وقضى بيننا ساعات استعذبناها كثيراً لما تبادلناه فيها من الذكريات والاحاديث المستلطفة

وكان قد أُدخل في ذلك الوقت عَلَى الجامعة الاسلوب الاميركي في تشغيل التلامذة المساعدين لقاء ما يُترك لهم من الرسم السنوي فلم اتمالك أن ابديت امام الرئيس استنكافي من ذلك الاسلوب لانني كنت احسبه حطةً في الشرق وإن يكن رفعةً في الغرب لان الفقر في الشرق عار لا يمحى والغنى رداء فضفاض من الشرف يستر كل عيب . وفقير الشرق عبد رق وإن لم يبع نفسه وغنيه سيد وان لم يبذل درهماً يشتري به حرية سواه .

وفي الشرق كبرياء حتى لتنطح الرؤوس السحاب وذلة حتى لتلاصق الجباه التراب فهل يصح بعد هذا أن نعرّض الفقراء لامتهان الاغنياء فضلاً عن متوسطي الحال الذين يستطيعون دفع الرسم كاملاً فلا يسامون ما يُسامه المساعدون من ذلة وهوان ، عَلَى الاخص والتشغيل منحصر تقريباً في الخدمة عَلَى المائدة ؟ — اني افضل الجهل عَلَى العلم اذا كان تحصيل هذا متوقفاً عَلَى مثل هـذا الخسف . وأين الفتى الاميركي الذي يعتبر كل عمل شريف ويحترم العامل ايّاً كان من الوجيه الشرقي الذي يؤثر الفرار من وجه دائنيه كأحقر المجرمين عَلَى أن يلوّث يديه الكريمتين بعمل لا يتفق ومكانته السامية ! إذن كنا في حاجة الى التهذيب الكثير قبل أن نحتذي الاميركيين الذين سبقونا مراحل عديدة في مضمار الرقي

وطال الحديث دون ان نتوصل الى نتيجة حاسمة ، وتكرم الرئيس فاعترف بأن انتصاره عليّ في مضمار الحجة لم يكن تاماً فاتفقنا عَلَى أن نستأنف حديثنا في بيروت وكنت مزمعاً السفر اليها في عطلة وفعلاً زرت حال وصولي الرئيس في منزله في الجامعة وكدت اقنعه بضرر تطبيق النظرية الغربية في الشرق لولا أن المعدة كانت قد أفرغتها وأصبحت ضاربة وقد تضاءل مع الزمن التذمر منها .

جورج الخامس في بورت سودان

عاد الملك جورج الخامس والملكة ماري من الهند حيث تُوّجا امبراطورين وكانت تقلها اكبر وأفخم بواخر شركة البحار الانكليزية عَلَى انه لم يكن قد استقلها احدٌ قبلهما إذ اتفق أن تكون عَلَى وشك الانتهاء عندما كانا مزمعين القيام برحلتهما التتويجية فاستُحدث فيها كل ما يليق بملكين عظيمين مثلهما فكأنها بُنيت خصوصاً لهما

وبلغت الاستعدادات لاستقبالها منتهى الابهة والفخامة فغرش الرصيف بالطنافس الفاخرة وأقيم في منفرج بين مستودعين من مستودعات الجرك مدرّجان فرشا بالسجاد ايضاً احدهما للموظفين والآخر لأعيان البلاد ومشايخها وذوي المقامات والرتب من ابنائهـا ، وبينهما مدرّج ثالث يؤدي الى القطار الملكي المعدّ لبقلّ الملكين وحاشيتهما في رحلة قصيرة الى ناحية جبلية في الداخلية

وكان في مقدمة مستقبليهما ، وقد أتى من مصر خصوصاً لهذا الغرض ، اللورد كتشنر الشهير وكان مرتدياً بزته العسكرية الانيقة التي تأخذ بمجامع الابصار بسترتها الحمراء المزركشة بالذهب والمناطة بصدرها الشارات المختلفة الالوان ، وقد تدلت منها الاوسمة المرصعة والمداليات الذهبية ، وعلى رأسه خوذة يعلوها ريش النعام يداعبه النسيم فيتمايل طرباً واعتزازاً والى جنبه سيفه الذهبي المرصع ، ويزيد منظره مهابةً وجلالاً قامته العملاقية وجسمه الملئ، وخلقه السوي وشاربان لم يعتز يوماً بمثلهما فخور بالشوارب

وما رست الباخرة حتى صدحت الموسيقى فنزل الملك تتبعه الملكة وهو بثوب يجري من الكتان الابيض تساوقه قبعة وحذاء من اللون نفسه وليست عليه اقل شارة يستدل منها على منزلته وسار مستعرضاً صفاً من الجنود والى يساره اللورد كتشنر بالبزة التي تقدّم وصفها . ولما كان الملك دون الربعة فقد كان بثوبه البسيط وهيئته الساذجة يبدو للمشاهدين بازاء اللورد قزماً لا شأن له

ولكن المضحك في كل هذا ان المشايخ والاعيان الذين شهدوا هذا الاحتفال ورأوا خضوع اللورد كتشنر وكبار الموظفين الانكليز لذلك الرجل الملتحي النحيف الجسم القصير القامة المرتدي ثوباً يلبس افضل منه اصغر موظف في الحكومة، انكليزياً كان ام غير انكليزي، اخذوا يهزون رؤوسهم

ويغمزون بأعينهم موكدين للمدير وسواه من الموظفين انهم أبعد نظراً وأوفر اختباراً من ان يوخذوا بذلك التمثيل المضحك وتنطلي عليهم تلك الحيلة التي لا تجوز على الاطفال !

وما هو ذلك التمثيل او تلك الحيلة في عرفهم ؟ — هو ان يكون ذلك القصير الساذج البسيط الملابس والسلوك هو ملك الانكليز وامبراطور الهند ، بل أن الملك والامبراطور الحقيقي في عرفهم هو ذلك الجبار المتكبر ذي البزة التي تأخذ برونقها وزخرفها بمجامع الابصار وانه يمثل امام ذلك السائح الانكليزي وزوجته البسيطة الهندام ايضاً ، والتي لا تلبس تاجاً ولا مخنقاً ولا سواراً ، دور التابع والمأمور الخاضع مداعبةً لها !

وقام الملك برحلته في الداخلية وعاد منها وودع كما استقبل ومع ذلك بقي اولئك المشايخ والاعيان في حذرهم وانكارهم مهنئين أنفسهم على نباهتهم وذكائهم وعدم تمكن الانكليز من خدعهم !

الدكتور حبيب كحيل — العنس جحيم

العنس هو ان يسن الرجل ولا يتزوج والفتاة فتمكث في بيت ابيها طويلاً ولا تتزوج ويسمى كل منهما عانساً .

قلت ان العنس جحيم على ان قولي هذا ليس من باب النبوات أو الآراء المبتكرة التي لم يهتد اليها سواي فأكثر الناس يعلمون بالمشاهدة والاختبار ان العنس حالة غير مرغوب فيها ولكن شعورهم ينصرف بالاكثر الى الفتاة العانس دون الرجل اعتقاداً منهم ان تقيد تلك وانطلاق هذا يجعل من حياة الفتاة جحيماً ومن حياة الرجل نعيماً

والحق يقال اني ما كنت لأفرق عن سواي من هذا الوجه لو لم

اقيض لي الاقدار ان شاهدت جحيم الماس بعيني ولمسته بيدي وسمعت وصفه بأذني من صحيحين له . ولا يتوهمن أحدٌ انهما من النساء فيخطئ لانهما فعلاً من الرجال

نعم عرفت رجلين انفتحت امامهما ابواب التمتع في شبابهما على مصراعيها فاقتطفا وأكلا وشبعا الى حد التخمة من كل الملذات التي يوفرها العالم المتمدن الواسع الصدر المرخي العنان المغمض الجفن الموصد السمع دون كل ما يستفظعه ابناء الشرق المتهمين بالغباوة والتقهقر والمحافظة حتى الموت على ما يُعتبر في بعض بلدان الغرب سلعة مبذولة لكل قانص جوّاد

وقد عرفتهما في سنّ اليأس وعهد نضوب معين القوة وفقدان المشتهويات بحيث خلتهما شجرتين ذاويتين ليس فيهما زهرة تُشم ولا ثمرة تُقطف ، فاذا ما مرت بهما الحسان اشحن بوجوههن عنهما دون أن تتحرّك فيهن عاطفة او يذرفن دمعة على الشباب الذاوي والقوى الناضبة

ولا تزال في ذهني صورة أخرى منهما تدل على حقيقتهما اريد أن ارسمها للقارئ لعله يتعظ بها او يرسمها بدوره لسواه :

الوقت مساء وقد مالت الشمس الى الغروب

على ضفة نهر هائج لا يصل بين ضفتيه جسر ويستحيل قطعه على أمهر السابحين قعد رجلان القرفصاء وكان حقهما ان يستلقيا لشدة الاعياء والى جانبهما عدة صيد وسلة للزاد فارغة

وراءهما الغابة التي صادا فيها وأصلحا ما صاداه وأكلاه ولكنها في الليل مسرح للوحوش الضارية التي تخرج من اوجارها طالبة فريسة . وكان العرق البارد يتصبب من جبهة الرجلين لمجرد تصوّرهما ما سيحل بهما اذا هما باتا ليلتهما في ذلك المكان الخطر عرضةً للنهش والتمزيق ولا نجدة لهما من نواهما ولا يريان أنّى تلفتا مجيراً

أما ابصارهما فكانت مصوّبة نحو القرية الواقعة على الضفة الاخرى التي غادراها في الصباح صباحة ً متمددين قوة سواعدهما غير عابئين بهياج النهر . وفي نظراتهما وأساريرهما معنى الوجد والحنين وقلباهما يخفقان بعوامل التلهف والندم ومؤاخذة النفس عَلَى الطيش والغرور اللذين قاداهما الى ذلك المصير وحرماهما لذة الراحة والامن والسكون في مربع انسهما ولهوهما الماثل امامهما وهما لا يريان الى بلوغه سبيلاً

أما المشهد الذي كان باديًا أمامهما في ذلك المساء فقد كان حافلاً بكل ما يشتهي النفس ويملك الحس من مرح وزهو واكتفاء ودعة وأمن وسلام — الحقل بسنابله الذهبية والمراعي بخضرتها السندسية والاشجار بحلاها البديعة الشهية وقد قامت فيها خطباء الطير تسبح باسم الطبيعة وتدعو السامعين الى الشكر ، والرجال مستلقون طلبًا للراحة والنساء تُمد لهم الطعام والامهات يُرضعن اطفالهن والجميع يراقبون لعب الصغار ويسمعون رنات ضحكهم العالية والرعاة يعودون بالماشية الى مبيتها عَلَى نغمات المزمار والاودية العميقة تردد صدى الضحك والانغام والمعاء والثغاء والخوار

وما هو إلا القليل حتى تُمدّ الاسمطة فيجلس الجميع حولها وبعد ان يأكلوا هنيئًا ويشربوا مريئًا يأوون الى منازلهم ويستلقون عَلَى فرشهم مستسلمين لسلطان الكرى فيخيم عَلَى القرية الآمنة سكون الليل العميق

في ذلك السكون الرهيب يطرق مسامع الرجلين العواء والزئير فينخلع قلباهما وتصطك ركبهما وتأخذهما رعدة الموت

ليتصوّر القارئ حالة هذين الرجلين الجازعين النادمين عَلَى مغادرتهما ذلك النعيم الذي زاد جماله وبهجته في أعينهما ما هما فيه من جزع والتياع تكن له صورة من العانس

لمن شاء أن يستهين بالزواج ويحسبه عبئًا لا يطاق ويعتبر المتزوجين

مجانين ، ولكن ليذكر دائماً أنه صائر يوماً احد الرجلين اللذين رسمت له صورةً منهما

ليذكر الشاب المباهي بغصنه الرطيب وما يحمله من زهر عطر وثمر شهي يتهافت عليها العاشقون والمجنون أنه صائر يوماً الى مثل الحال التي وصفتها حين تخذله الشوافع ويقابله العالم بمثل جفافه وكلوحه ، لعل هذه الذكرى تحمله على الاتئاد وتقوده الى الارعواء قبل أن تمد اليه الشيخوخة القاسية يدها الباردة وتعتصر منه ماء الشباب وأريجه وتتركه جثةً متحركة تسير بين مدافن الآمال

وليت مصابه او المصاب فيه يقف عند هذا الحد بل ان العاطفة الزوجية والوالدية التي اودعتها الطبيعة صدره منذ وجوده تأسن في داخله لعدم انصرافها وتجددها وتتولد من نتنها جراثيم الانانية والحسد وسوء الظن وضعف الارادة والحرص والفضول فيصبح عالةً على نفسه ومكروهاً من جميع عارفيه

هذا هو المصير الذي يجب ان يتوقعه كلُّ صائر نحو العزوبة بقدم ثابتة مفضلاً ان يكون ضحية انانيته وشهواته على أن يتمتع بلذة العيش سواه المستفادة من عيش سواه له

واني محدث الآن قارئي عن احدى الفريستين اللتين ذكرتهما وهو الدكتور حبيب كحيل الذي صدَّرت باسمه هذا المقال ومتبع به حديثي عن الفريسة الثانية . ولكن قبل ان ابدأ حكايتي يقضي عليَّ الضمير والواجب بالاعتراف بأن صديقي الدكتور كحيل كان أولى بالشفقة منه بالمؤاخذة لانه لم يكن جانياً بل مجنياً عليه

في شهر شباط سنة ١٩١٢ أممت بورت سودان الواقعة على البحر الاحمر وهي ميناء السودان الجديدة التي كانت قد أنجزت في ذلك العهد

وأصبحت القطر الحديدية تبلغ رصيفها الخارجي وتحاذي السفن لنقل الركاب والامتعة من هذه واليها وهي مجهزة بالآلات الرافعة التي تدار بالقوة الكهربائية لنقل الاثقال

وكانت اكثر ابنية هذه المدينة في ذلك العهد خشبية فأذن لي المفتش الطبي بالسكنى في احدى غرف المستشفى في الجناح المفرد للاطباء لانني أتيت بورت سودان كموظف في دائرة الحجر الصحي التابعة للمصلحة الطبية وهكذا عايشت الاطباء وقضيت معهم المدة التي لبثتها في ذلك الثغر على أفضل شكل ممكن في تلك المدينة الفقيرة بالمتنزهات وأماكن اللهو العمومية على انها كانت لحسن الحظ آهلة بنفر من خيرة السوريين علماً وأدباً وأخلاقاً وكنت على معرفة سابقة ببعضهم فكانت لي عشرتهم خير تعزية في تلك المدينة الشديدة الحر والرطوبة الى درجة تكاد لا تطاق حتى اني كنت أجول في شوارعها عاري الساعدين وطليقاً من قيود كثيرة يعتبرها العالم المتمدن حلى لا يليق بأحد ان يكون عاطلاً منها كالسترة والطوق والاربطة والقبعة ، وكان هذا الزي مألوفاً ومتبعاً من الكثيرين بحيث لم يكن يستهجنه حتى المحافظون

ولحسن الحظ ان مكتب الحجر الصحي كان واقعاً على البحر فكنا نتمتع بالنسمات المنعشة طيلة ساعات العمل الخمس التي كنا نقضيها يومياً فيه

في اليوم التالي لوصولي توجهت الى المكتب فاستقبلني فيه الطبيب الملازم ورئيسي المباشر العتيد وكان ينام في غرفة محاذية للمكتب ويأكل مع زملائه الاطباء في المستشفى الذي يبعد مسيرة عشر دقائق عن الميناء ، ولم يكن سوى الدكتور حبيب كحيل الذي انا بصدده

وجدت حبيب كحيل كهلاً وخط الشيب رأسه وعارضيه ونمت الغضون دورها في جبهته ووجهه ولكنه كان طويل القامة معتدلها متناسب

الاعضاء وفي عينيه وأسارير وجهه لمحة من الجمال قصرت عنها يد الايام كما ابقت ذكريات الشباب زاوية للحب في قلبه الخفاق . وقد لحظت لاول وهلة انه من الكهول المتصابين لانه كان يعالج الشيب بما هو اكثر منه عيباً وأعني به الخضاب الذي يموّه به الكثيرون عَلَى انفسهم وعَلَى سواهم جاهلين او متجاهلين انهم لا يخدعون إلا انفسهم

وكأنه لم يشأ ان يكون خضابه دليلي الوحيد عَلَى تصابيه فدعمه للحال بدليل اكثر وضوحاً اذ لم نكد نتبادل التحية ويجري بيننا التعارف المألوف حتى ابتدرني بسؤال مستهجن جداً في بدء كل تعارف فقال :

— كم تظن ان لي من العمر ؟

فأدركت للحال انه من اولئك الذين تدفعهم أمواج الايام المتتالية نحو المجهول وهم يحسبون انهم سائرون نحو الشاطئ ، لاهين عن دنوّ الاجل بالتعلل بالامل . واذا هم أرغموا عَلَى ادراك الواقع ولمس الحقيقة المرّة تمسكوا بحق العيش في الماضي والتعلل بالتذكارات المستعذبة ، فرأيت ارضاءه اولى اذ لا يترتب عليه ارتكاب اساءة او اذية او خيانة ضمير فأجبته :

— اظنك في الاربعين أو حواليها

فقال وقد استكثر هوادتي :

— لا بل انا في السابعة والاربعين وهذا ما لا اصارح به سواك

ولكنني ادركت دون إعمال روية ان هذا ما يقوله لكل قادم جديد اذ لم تكن قد ربطتني به بعد صداقة توجب عليه مصارحتي بعمره وأيُّ شأن يمكن ان يكون لي بعدد سنيه قلّت أم كثرت . ولكنه مع ذلك لم يصدقني الخبر بل قصد التمويه عليَّ بأنه يعطيني وهو انما يأخذ مني فقد غالط عمداً عَلَى الاقل بثماني أو عشر سنوات لانه لم يكن دون الخامسة والخمسين .

إلا انني عَلَى شدة كرهي للكذب والخداع وازدرائي الذين يمحون السنوات جاهلين او متجاهلين انهم انما يمحون جزءاً من كيانهم او شخصيتهم وأنهم يرتكبون بذلك جريمة التفليس عَلَى الطبيعة بإرصادهم لحسابها دون ما اسلفتهم اياه من الايام وما متعتهم به من لذات لم ألبث ان شفقت عَلَى ذلك الكهل الذي كان عَلى باب الشيخوخة وأبرأت ذمته من جريمة الحذف لانه فعلاً لم يعش تلك السنوات التي محاها ولم يكن مسؤولاً عن مرارة عيشه فيها ، ذلك انه بعد ايام ثلاثة سرد عَلَى مسامعي دون طلب مني تاريخ حياته وكأنه كان ينتظر قدومي لكي يشكو اليَّ ظلم الدهر الذي اقام له من أمه نفسها خصماً عنيداً يحول بينه وبين الزواج . اما حكايته فهي في ما يلي :

"ربيت يتيماً مع اخوين لي فبذلت امي جهدها في تعليمي وتهذيبي حتى أحرزت الشهادة الطبية وأهملت نوعاً امر اخويَّ فنشأ من اصحاب الصناعات والكسب المحدود الذي يكاد لا يفي بحاجاتهما فكنت بحكم الطبع والضرورة البقرة الحلوب وشاءت امي أن تستوفي مني ما انفقته في سبيلي لكي تعيش عيشة رفاه ورخاء وتعين اخويَّ عَلَى امرهما من مالي فكنت اشتغل في مصر وأبعث لها شهرياً بمبلغ اثني عشر جنيهاً مصرياً وكان هذا مبلغاً باهظاً في ذلك العهد يفي بحاجات عيلة كبيرة

ومرَّت السنون وأنا قائم بهذا الواجب احسبه اقل ما يترتب عليَّ نحو امي التي ربتني وأنفقت كل ما تملكه في سبيل تعليمي ولكنني ككل شاب رغبت في الزواج فأممت بيروت وهناك احببت فتاة أردت ان اجعلها شريكة حياتي فقامت امي في وجهي قائلة اني لا ازال صغير السن وغير اهل لتحمل اعباء الزواج والحقيقة ان الدافع الوحيد لوقوف امي في سبيلي هو انها كانت ترى في زواجي انقطاع المورد الشهري او بعضه عنها دون ان تصارحني بما يجول في ذهنها وأنا برغم ادراكي لهذه الحقيقة لا أرى سبيلاً الى مفاتحتها

بهذا الامر وازالة وهمها . وهكذا رجعت الى مقرّ عملي في مصر وحدي وبعد سنوات قليلة أعدت الكرّة فأتتني امي بالاعتراض الاول نفسه وحصلت النتيجه الاولى عينها

اخيراً عقدت العزم على الاقتران في مصر فصبرت سنوات أخرى الى ان علقت فتاة بارعة الجمال حسنة الخلال من أسرة سورية تعيش في القاهرة فما كان من امي إلا ان اتت خصوصاً لتقف في سبيل زواجي وتؤكد لي باللغة المصرية انه « لسّا بدري » فانصعت لرأيها وكرهت نفسي الزواج وأقسمت ألاّ اتزوّج وهكذا اصبحت « عانساً » كزهرة ذابلة فقدت رواءها وطيبها ولم يعد في ما يستهوي فتاة تهفو اليها نفسي وهيهات أن تستهويني من ترضى بي فأنا اريد غصناً رطيباً لا حطبة

هذه هي حكاية الدكتور حبيب كحيل الذي جنت عليه انانية امه فتركته حليف الوساوس والاكدار وكثيراً ما كان يسألني ما اذا كنت ارى فيه ما يؤهله للزواج ويريني كما سنحت فرصة براعته في المغازلة ومناغاة الاطفال ومداعبة الصغار

وقد كان بالاختصار مجموعة ظنون وأوهام لا طاقة له باجتناء الملذات ولا هو مطمئن الى الرجوع عنها بخفي حنين فهو راغب راهب في وقت معاً يرى الزهرة فيود لو ينشقها والثمرة فيشتهي لو يستطيع اقتطافها ولكنه في الحالين كان يقعده العجز ويؤلمه الحرمان بحيث ان حياته كانت بمثابة جحيم مقيم

واذا كنت قد تزوجت في نحو السابعة والثلاثين بعد أن كنت من اشياع ابي العلاء واتباعه في الرغبة عن الزواج فلأنني رأيت العزوبة بلا امل ماثلةً أمامي بشكلها المريع في شخص الدكتور حبيب كحيل وزميله الآخر الذي سآتي على ذكره

ان الدكتور حبيب كحيل كان ممن فسدت دخائلهم على ما قدمت فكان مستجمعاً لكل الصفات التي تتولد من أسن العاطفة الراكدة والتي ذكرتها في ما سبق وكانت حياته فوق ذلك مزيجاً من اليأس والامل المتعاقبين في نفسه تعاقب الليل والنهار المتباريين في صدره تباري خصمين عنيدين فليتصوّر القارئ ما يكون حال صدر اصبح ميدان عراك لأميال متناقضة وعواطف متباينة وأوهام متطاحنة

كيف كان يقضي اوقات عزلته لا اعلم لانني لا احب الفضول وأمقت التجسس ولكنني أعلم انه لم يكن يسمح لاحد بأن يسبقه الى الاقتطاف او التناول ويود لو كان كل شيء له وإن لم يستطع تذوقه أو اهتضامه ، لا فرق عنده بين أن يكون مبارياً لأباعد او لأقارب

ومن حوادثه انه كان مبتلى بتقرح الامعاء وكان هذا الداء يبرّح به بين حين وآخر حتى انه كثيراً ما كان يضطر الى ملازمة فراشه وتجرع العلاجات ، وأمرّها عنده التقيد بنظام الوقاية لانه كان ضعيف الارادة عاجزاً عن كبح جماح شهواته فاذا ما رأى الطعام اقبل عليه بشراهة الطفل الصغير غير حاسب للعواقب حساباً، وهو الطبيب الذي لا يجهل نتيجة شراهته

وظلّ على ضعفه هذا حتى اصبحت تلك العلة عنده زمانةً وبسبب تكرر نوباتها عليه اكرهه يوماً الحكيم الانكليزي على ملازمة المستشفى المدة الكافية لشفائه التام فبلغ من ضعف ارادته انه رشا الممرضة المصرية لكي تأتيه بصحن أرز بحليب خفيةً عن الطبيب وخروجاً على اوامره المشددة بالاقتصار على الشاي الصرف اياماً معدودة

واشدة انانيته لم يكن يتوجع إلا لاوجاعه ولا يرثي إلا لحاله فكأنه فرع من جسم البشرية انفصل عنها فلم يعد يشعر بما يعتورها من اسقام وأوجاع ولا يهتم إلا بما يصيبه هو

هذه هي العزوبة بلا امل من الزواج وهي جحيم مقيم لانها تجرّد الانسان من المزايا التي هي ركن التحابّ بين البشر والصفات التي توجد له الاعوان والانصار وتُغدق عليه بركات العطف والرفق وتغمره بحسنات الغيرية كلما انتابته علة او احاق به ضيق

ومما كان يسوء الدكتور كحيل كثيراً هو استادنا احترامه وتمييزه في المجالس وعلى المائدة الى تقدمه عنا في السن في حين ان التفاوت بيننا لم يكن يحتمل ولو ظلّ ريب ولكن هو العكس يحيل الامور في نظر صاحبه ويحبب اليه الخداع والانخداع على حدٍّ سواء

وكم حاولت ان اشفي ذلك الصديق الذي كنت احبه وأشعر معه من امراضه الاخلاقية التي جرّها عليه عنه الذي لم يكن مسؤولاً عنه على ما قدمت ولكنني انما كنت احاول المستحيل فقد كنت اثير فضوله ثم ألوذ بالتكتم وأصر عليه فيتألم مني ويحرق الارّم غيظاً حتى ان اصحابنا كانوا يشفقون عليه ويحذرونني من عواقب إثارة عواطفه على ذلك الشكل ولكنني كنت اكره الفضول ولا اجد سبيلاً الى الشفقة على فضولي

وكان الدكتور كحيل يؤاكلنا في المستشفى إلا انه كان يفضل تناول طعام الغداء في منزله لكي لا يتجشم عناء السير في الحرّ المحرق فيبعث بخادم يحمل اليه نصيبه من الطعام فاذا ما كان دوري في مراقبة الخدمة المنزلية كنت أوصي الطاهي بأن يتأخر في اعداد أشهى اصناف الاكل ويعطي خادم الدكتور مما نضج وحضر على ان يريه ذلك الصنف الذي لم يُنجز بعد فكان اذا ما عاد الخادم يسأله الدكتور بتدقيق لا يفطن اليه حتى المتنطق عن كل ما شاهد فيذكر له طبعاً ذلك الصنف فيؤنبه على تركه ويوصيه بالانتظار دائماً ولو تأخر ساعة كاملة لكي يأتيه بنصيبه من كل ما أُعد للمائدة في ذلك اليوم ولكنني كنت افسد خطته هذه باكراه الخادم على التعجيل

في الرحيل نظراً الى تأخر الساعة ولكي لا يحمل الدكتور مرارة الانتظار ومضض الجوع ، دون ان ينتظر الصنف الذي يكون على وشك الاعداد .
كنت اتمهل ذلك لاحارب فضول الدكتور وشراهته غير المبررة بسبب مرضه وعدم موافقة الاطعمة الشهية له

وكان يبلغ من فضوله وحرصه انه كان يسأل خادمه اذا كان ما احضره من الفاكهة يماثل ما بقي او يفوقه أو يقل عنه من حيث الكمية والنوع غير حاسب لهذا التبذل أمام الخادم حساباً فيجيبه هذا دائماً جواباً يسوءه

وما كنت اقف عند هذا الحد بل كنت اوصي اصدقائي الاطباء بان يسلكوا سلوكي رحمة بزميلهم الدكتور كلما جاء دورهم في المراقبة

وكان الدكتور يعاتبني كلما اجتمع بي في المساء او عندما نلتقي صباحاً في المكتب فأتمحل له اعذاراً كان يقبلها لا اقتناعاً بل كرهاً لصعوبة التصريح عليه

وكان يحاول ان يثأر لنفسه ايام الاعياد التي كان يأتي فيها الى المستشفى باكراً ويلبث حتى وقت الغداء وفي المساء عندما نجلس الى مائدة العشاء لان كبر سنه كان يقضي باجلاسه في صدر المائدة والتنبيه على الخادم بأن يقدم له قبل الجميع فيأخذ ما يشاء ويختار خير ما في الصحون والقصاع من خضر او لحوم او فاكهة بعد أن يجس ويفحص ويوازن تاركاً ما يفيه لسواه حتى الجأني الى وضع نظام يفسد عليه ميوله وهو اني قضيت على الخادم بان يبدأ كل مرة بواحد دون تمييز واتفقت مع اصحابي على ان نسلك سلوك الدكتور عندما يكون دورنا فنفعل فعله ونريه تأثير صنيعه في نفسه ومع ذلك لم يكن يتمالك من التألم

ولما كان التكرار يقطع حزة البئر فقد فارقت الدكتور حبيب كحيل واثقاً من أنه لو قيضت له الاقدار ضاغوطاً مثلي عندما كان عوده ألين

وأكثر قابلية للتقويم لاستقامة حاله وشفي شفاء مرضياً من بعض امراض النفس القتالة

والآن لا بدّ لي من القول إن كل هذه المصائب على جسامتها لم تكن لتواري عن ابصارنا ما للدكتور حبيب كحيل من حسنات فقد كانت له ساعات تفارقه فيها نوبات الانانية والفضول فيصفو ويسوغ ويجتذب اليه القلوب ببشاشة محياه ورقة حديثه وإيراده النكات المستحبة عن نفسه وعن سواه ويطرب للاحاديث الادبية والمجون الراقي . وكان افضل ما يدور من النكات حول مشاغله وأعماله الشاقة فان اعتلال صحته جعله كسولاً ملولاً يستكبر كل ما يأتيه ويستصعبه ولو كان توقيع اسمه لان عمله كان على الحقيقة اسهل الاعمال وأهونها فانه لم يكن يتجاوز مراقبة باخرة واحدة في اليوم واجازتها أو اصدار امره بتطهيرها او وضعها تحت الحجر الصحي ورصد النتيجة في سطر واحد في دفتر خاص ، حتى انه لقلة العمل في المكتب اصابني ملل لا يطاق وكان سروري عظيماً عندما شغلت وظيفة اضافية في المستشفى

وكان خير ما في الدكتور كحيل قلبه فانه لم يكن يعرف الضغينة ولا يحمل حقداً بحيث اني لم ارَ له في هذا المضمار شبيهاً إلا بين الاطفال الودعاء وهذا كان شافعه الاكبر الذي يوسع له في صدورنا ويقضي علينا اليوم بتقديس ذكراه

حنا حداد — النفس جحيم

كان حنا حداد فريسة في النفس الثانية وهو ناصري تلقى اللغة الانكليزية وبعض العلوم في احدى مدارس المرسلين وشاء ان يفي المحسنين اليه بعض ما قلدوه من جميل فاعتنق المذهب البروتستانتي ثم أم

انكلترا حاملاً توصيات تضمن له عطف وعون المتدينين الموسرين وأقام في لندن زمناً يدرّس اللغة العربية لهواة اللغات الشرقية والراغبين في زيارة الشرق او الاقامة فيه ، إلا انه بسبب نحول جسمه وضعف اعصابه وفقر دمه لم يتمكن من الاقامة طويلاً في ذلك الصقع الشديد البرد والرطوبة حيث مُني بداء الرثية (الروماتزم) واضطر الى مغادرة بلاد الانكليز غير آسف عليها

بيد انه لم يكن يملك في الناصرة ثابتاً ولا منقولاً ولا يطمع ان يجد فيها عملاً او يستند الى انسباء او اصدقاء في تيسير امر او كسب رزق فضلاً عن انه أصبح مما برّح به القرّ يشتاق الحرّ ويرى فيه خير دواء لدائه وكان هذا الشرط تاماً في بلاد السودان مع توفر اسباب العمل والكسب فيها وعَلَى الاخص للمُلِم باللغة الانكليزية وذي نزعة تبرّر طاعيته بعطف الانكليز وعونهم — فمن اجل كل هذه الاسباب والمبررات قصد ثغر سواكن القائم عَلَى البحر الاحمر وأقام فيه الى ان أُنشئ الميناء الحديث في بورت سودان وانتقلت الحركة التجارية اليها فاتخذها مقراً حتى ادركه هادم اللذات ومفرّق الجماعات

أما العمل الذي اعتمده حنا حداد في سواكن فلم يكن كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة الاستخدام في احدى دوائر الحكومة بل الاتجار ولكن عَلَى شكل مصغر يكاد يكون مكرسكوبياً : أولاً لقلة رأس المال وثانياً خوف الخسارة وثالثاً لزهادة المطالب نظراً الى رخص الحاجيات وامكان الاقتصاد ولو من ربح ضئيل . وقد أعانه عَلَى امره ما اكتسبه من الاختبار في بلاد الانكليز فكان يستجلب ساعةً واحدة او دزينة محارم او بضع مناشف ليبيعها بربح معتدل ويعتمد ما لديه من قوائم السلع ورسومها فيقنع الموظفين باستجلاب ما يلزمهم من الملابس بواسطته ويتقاضاهم اجراً

زهيداً بصفة عمالة ، وكانت نتيجة هذه الصفقات الصغيرة ، مع حسن السلوك والاقتصاد ، أنني عندما أممت بورت سودان في سنة ١٩١١ كان حنا حداد صاحب محل لا بأس به فيها واتفق اني كنت اذ ذاك في حاجة الى بعض الملبوسات فاشتريتها من محله وبلغ ثمنها نحو خمسة جنيهات واشتريت منه في الوقت نفسه قاموساً انكليزياً عربياً ضخماً مطبوعاً في انكلترا بجنيهين فكانت نتيجة هذه المعاملة انه اوسع لي في صدره وأصبحت لساعتي صديقه الحميم وبات يراقب فرصة تسنح ليعرب لي عن امتنانه بصورة محسوسة لان مثل تلك الصفقة لم تكن لتعرض له في خلال اعوام ، ولكن عندما سنحت الفرصة وفاز بما طالما منى به النفس ندم عَلَى تهوره لانه دعاني لتناول شيء من الحلوى معه وأدرك بعد أن سبق السيف العذل انه دعا اشخاصاً عدةً لا شخصاً واحداً وهو لا يدري لاني كنت في ذلك العهد اكولاً محباً للحلوى من الطبقة الاولى . وبلغ من دهشه وندمه عَلَى إضاعة جزء كبير من كسبه من تلك الصفقة الرابحة التي أغرته بهذه الدعوة الخاسرة أنه عندما دعوته بدوري في فرصة اخرى رفض قبول دعوتي رفضاً باتاً وقال لي بكل صراحة إنه لا يمكن ان يجالسني ولو لتناول فنجان « كهوة » (كذا بلغته الناصرية)

هذا مختصر تاريخ حياة حنا حداد ، أما اوصافه عندما عرفته فهي انه كان متجاوزاً الخامسة والستين ولم تكن قد زادته الاقامة في تلك البلاد الحارة إلا نحولاً وشحوباً . وكان طويل القامة يجلله الشيب إلا بضع شعرات سهت عن تبييضها يد الايام وكان يداوي كلال بصره باستعمال النظارات . ومما يسجل له بمداد الشكر هو انه كان يكره الخضاب ويزدري المموهين عَلَى انفسهم وعَلَى الناس

وقد كان ككل عانس يحسب عدم الزواج من مقتضيات الشيخوخة والهرم والمبقيات عَلَى الفتوة ورواء الشباب ولكنه كان في الواقع رازحاً

تحت ثقل السنين يمشي متثاقلاً متوكئاً على عصاه وهو يلهث تعباً في السهل كأنه مصعد في جبل . هكذا كان يبدو حنا حداد لرائيه المتواري عن نظره فاذا ما بصر بقادم من معارفه انتفض ولا انتفاض عصفور بلله القطر كأنه ينفض عن عاتقه حمل الايام الثقيل وقوم ظهره وصار يقدم ثابتة كأنه في العشرين ، واذا ما دانى القادم صافحه بعنف وأكد له انه بصحة جيدة للغاية ، وهذا جوابه الحرفي على كل سؤال كان يوجه اليه بشأن صحته : « الحمد لله صحتي جيدة مثل الحصان باكل ما بشبع » !

غير ان ذلك الانتعاش المفتعل كان يكلفه جهداً لا تتحمله بنيته الضعيفة فيمنى برد فعل لا يدرك شدة وطأته إلا من كان في مثل حاله لذلك كان بعد كل محاولة من هذا النوع يزداد احديداباً وإبطاءً

. . . .

بعد ان قضيت في بورت سودان بضعة أشهر فوجئت يوماً بنبإ دهشت له للغاية وهو ان حنا حداد عازم على ارتياد القطر المصري طلباً لعروس فبروليت اليه وسألته عن صحة الخبر فاكده لي قائلاً إنه يخشى ان يصيبه ما أصاب ذلك العبد الذي دفن وزنته لذلك هو يرى ان يقابل الديان بوزنة اخرى على الاقل شأن من تاجر وربح

وكانت مختارته معلمة من مواطناته كانت تتعاطى مهنتها في احدى مدن الصعيد وقد عرفها في زمن الشباب ولا يزال رسمها منقوشاً على صفحة قلبه الذي يحتفظ في احدى زواياه بابتسامة تفسرها الآية : « اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم » فعندما سمعت بيانه لم اتمالك من مصارحته برأيي قائلاً :

كل هذا حسن يا عم حنا ولكنني ارى عودك الى الشباب ايسر من تحقيق حلمك بما تعد به نفسك من هناء فهل نسيت ان الزواج شركة وان

اساس كل شركة هو توازي رؤوس مال الشركاء ، لا فرق بين أن يكون رأس المال نقوداً او ما يقوم مقامها وبفعل فعلها من علم او اختبار او سعي ، وأن من ينقص رأس ماله يكون بحكم الغابن لشركائه الآخرين والغابن لا يهتم ان يصبح مغبوناً اذ يعود عليه غبنه سواء بنتائج سيئة لا حصر لها تفقده لذات لا يضارعها الربح المستفاد اجحافاً و إلا وجب ان ينقص معدل ربحه بنسبة نقص رأس ماله ، فأنا اقول لك سلفاً ان التفاوت كبير بينك وبين الفتاة التي تنوي ان تمنحها هذا الشرف أيًّا كانت . وعلى فرض انك كنت واياها ثمرتين ناضجتين فأنت ثمرة مقطوفة وهي ثمرة على غصنها فالتهرؤ لا محالة مدركك قبلها في حين انه يستحيل عليك ان تجاورها في مكانها وأرى انك ترتكب جريمة يرجع ما تستوجبه من عقاب على ما تبتغيه من ثواب اذا انت قطفتها لتجاورك في مكانك مبرراً عملك برغبتك في الاتجار بوزنتك . افتكر يا عم حنا بالعهود التي يقيدك بها الكاهن عندما يرفع يده ليبارك قرانك واحذر من ان تخدع نفسك وتخطىء في تقدير اهليتك للقيام بها في حين انك عاجز عن اتمام بعضها وأخص منها التدفئة وأنت تشكو القرّ في فصل الحرّ فارضَ بجنايتك على نفسك ولا تضف اليها الجناية على سواك ، وعوّض عن عقم تجارتك بمناعة نفسك ضد ايصال الاذى الى سواك

ولكن لو كان لي في ذلك العهد اختباري اليوم لكفيت نفسي مؤونة الكلام الذي لا يجدي فالذي كان يهيب بالعم حنا هو العجز الذي يريد ان يظهر بمظهر القدرة ولم ارَ عمري مقدرةً تفوق هذا العجز تأثيراً في النفس واستيلاء على المدارك فالعاجز الذي يتوهم في نفسه المقدرةَ يقيم في ذهنه معارك خيالية يأتي فيها العجائب التي تعجز عنها الابطال وما ذلك إلا لانه ينفذ فعلاً بالخيال كل مستحيل في عالم الحقيقة فيتم له وهو في مجلسه او على فراشه ما لا يتم للذين يتجشمون الصعاب ويغامرون بالنفس في طلب المعالي

وعلى هذا الشكل ينال النصر المبين ويضع على رأسه بيده اكاليل الغار

اما برهاني على صحة رأيي اليوم وخيبة فألي بالامس فـستفاد من منطق ألم حنا وهو في ما يلي :

لقد فاتك يا صديقي انني وان كنت قد تقدمت في الايام فتلك الفتاة لم تتوقف عن السير الى الامام فالنسبة إذن محفوظة ولا يمكن ان اكون قد فقدت انا من القوة والرواء اكثر مما فقدته هي من البضاضة والبهاء ولذلك أقدّر أن ذلك البريق الذي اوريته بنظرة لا بد ان يكون مكانه واذا كان قد خبا بفعل البعد او استتر تحت رماد اليأس فان نظرةً ثانيةً كتلك تعيد الاتصال وتنهدة واحدة تـفي الرمال وتبدي الوميض

وكان قد أعدّ الم حنا عدته فاستقدم قبل الموعد نسيباً له دربه على العمل ووثق من اهليته للقيام مقامه مدة تغيبه التي لا يجوز ان تزيد عن شهر واحد وهكذا رزم حقائبه وودّع اصدقاءه واقتعد غارب السفر مزوّداً بخير الادعية وأخلص التمنيات

. . . .

قبل مضي ثلاثة اسابيع على مغادرة الم حنا بورت سودان ذاع خبر عودته اليهـا فهرع اصدقاؤه وأنا في جملتهم للسلام عليـه وتهنئته بسلامة العودة وبقرانه الميمون ولكن سرعان ما خابت آمالنا لان الم حنا عاد منفرداً وهكذا انقلبت التهنئة قبل أن نفارق شفاهنا الى تعزية عن خيبة مرة قضت على الم حنا بأن تظل وزنته مدفونة وان يواجه الديان وجلاً جازعاً لعجزه عن تبرير نفسه إلا بحجة خيبة المسعى ومعاكسة الدهر لامانيه لان تلك التي بسمت للشاب اعرضت عن الشيخ مع انها هي ايضاً فارقت الشباب . واذا كانت قد مُنيت بخسارة اقل بالنسبة اليه فالفضل في ذلك راجع الى سهولة تغلب الصغار بالنسبة الى مكافحة الدهر ومعاركة الكبار وأنها لم تتعرّض مثله

اقرّ انكلترا الجمد وحرّ السودان المذيب ولم تقاس مثله مرارة الوحدة وشظف العيش

أما الواقع الذي لم يشأ ان يعترف بـه العم حنا فهو ان الزهرة كانت راضية بأن تجاور الغصن النضير ولكنها برغم انهـا اصبحت ثمرة ناضجة لم ترَ سبيلاً الى الرضى بمجاورة حطبة وهكذا عاد العم حنـا يعض اصابع الندم ويشكو الايام لانها لم تبسم له قبل ان عبس له وجه الشيخوخة

والآن وصلت الى إقامة الدليل عَلَى ان العنس لا يوهن فقط الاخلاق بل قد يضعف المدارك وهذا ظاهر مما حلّ بالعم حنا مدة اقامته في القطر المصري أرويه للقارئ بلسان ذلك الشيخ المتصابي نفسه :

الحادثة الاولى — « جلست ذات يوم في احد مقاهي القاهرة منفرداً شأن كل غريب مقيم عَلَى سفر ولكنني ما إن جلست وطلبت فنجاناً من القهوة حتى اقبل علي شاب حسن البزة طلق المحيـا فانحنى مسلماً عليّ سلام متأدب محتشم واستأذنني بالجلوس الى جانبي فأوسعت له مستبشراً مسروراً وأمرت الخادم بان يصدع برغبته في ما يحلو له من شراب ثم اخذنا نتجاذب اطراف الحديث حتى خلت نفسي اسير ذلك الشاب المهذب الذي خلب لبي بلطف حديثه ورقة شمائله وعذوبة مباسطته بحيث تمنيت لو نعمت بمرافقته طيلة مدة إقامتي في القاهرة أو عَلَى الاقل لو تكرّر اجتماعي به لتناول القهوة مرة أو اكثر في اليوم . وأخيراً تم احتساؤنا القهوة ونضب معين الحديث فأخرجت محفظة دراهمي ودفعت المطلوب برغم احتجاج مجالسي ومحاولته القيـام بهذا الواجب حتى انـه ردّ يدي الممسكة بالمحفظة مراراً ولكنني أصررت عَلَى ان اكون المضيف بحق سبقي اياه الى الجلوس وقدومـه عليّ بعدئذٍ كضيف . ولدن افتراقنا عرضت مناسبة استوجبت مني تفقد محفظتي فوجدت لدهشتي انه قد نقص منهـا مبلغ ستة جنيهات ومع تأكدي أني

فقدت هذه القيمة في اثناء الفترة التي قضيتها برفقة ذلك الشاب فانني نظراً الى تأدبه ونبل مظاهره لم اسمح وان اسمح لنفسي بالشك في امانته واتهامه بسرقة دراهمي »

الحادثة الثانية — «في اصيل يوم اشتد حره في مدينة الاسكندرية جلست الى احدى الموائد المصفوفة على الرصيف أمام احد المقاهي الكبرى ونظراً الى شدة الحر وتصبب العرق من جبيني انتزعت قبعتي الجديدة ووضعتها على كرسي بجانبي . وبعد ان تناولت شيئاً من المرطبات وشعرت بانتعاش اغراني باستئناف السير نهضت انوي الذهاب ومددت يدي لاتناول قبعتي فاذا انا امام كرسي فارغ وعبثاً استعنت بالخدم على تقصي مقرها لانهم لم يعثروا على شخص واحد يلبس او يحمل اكثر من قبعة وهكذا هرعت الى مخزن مجاور فاشتريت قبعة أخرى وانصرفت راثياً حال سارق قبعتي لثقتي انه كان عاري الرأس وليس في جيبه ما يشتري قبعة »

الحادثة الثالثة — « بينما كنت سائراً في احد ازقة الاسكندرية المقفرة مر بي رجل عرض علي خاتماً من ذهب مصوغاً بحجر من الماس قائلاً انه يبيعه بجنيهين فتأملت الحجر والخاتم ملياً وقلت للرجل بصريح العبارة إنه إما ان يكون غشاشاً او سارقاً فاذا كان الحجر مقلداً فالخاتم لا يساوي اكثر من ثلاثة ريالات واذا كان اصلياً فيجب ان يكون ثمنه عشرات الجنيهات . ولكن الرجل اجابني بخشونة قائلاً إنه ابعد الناس عن الغش وانه حر ان يبيع ما يشاء بالسعر الذي يروق له وليس لي إلا ان أرضى وأشتري أو ارفض وأسير في طريقي . ولكنني بدلاً من ان اعمل بنصيحته فضلت تحكيم ضميري ووجداني فأغراني بالقبض على ذلك الرجل كسارق واقتياده الى دائرة الامن لينال جزاءه العادل وهكذا أبيت تسليمه الخاتم وأشرت اليه بأن يتبعني فما كان منه إلا ان امسك بيدي وانتزع منها الخاتم

بضعف رض خنصري الذي لا ازال اتألم منه واداويه حتى اليوم »

الحادثة الرابعة — « بعد كل هذه الحوادث او بالاحرى المعارك التي خرجت منها كلها مغبوناً مدحوراً عدت الى بورت سودان فوجدت ان خادمي قد أضاع كل الربح الذي استفاده مدة تغيبي بقبضه ورقة بالف غرش مزيفة قائلاً انه قبضها من سائس في خدمة احد الضباط الانكليز ولكن السائس انكر تلك الورقة بتاتاً ولزمتني الخسارة »

من هذه الحوادث مع ما تقدم من الوصف تتمثل للقارئ شخصية قائمة بذاتها تؤيد رأيي المتقدم وهو ان العنس لا يضعف فقط الاخلاق ويصيب مواطن الاحساس بل يوهن المدارك ويذهل العانس عن نفسه ويحيل رأيه في كل ما يقع تحت نظره او حسه لذلك كان حالة يجب ان يتداركها كل عاقل قبل ان يدخل في الدور الذي ينطبق عليه فيه قول القائل :

وقف الهوى بي حيث انتِ فليس لي
متقدّم عنه ولا متأخر

ف · ج · س ·

كانت صلتي بوالده انه كان يعلمني الخط في الكلية سنة ١٩٠٢ وصلتي به اني ساكنته في الخرطوم اياماً كان فيها ضيفاً عَلَى احدنا وأبيت وصديقي الآخر ان يحل في منزلنا حلولاً دائماً لانه كان ممتلئاً من نفسه فخوراً بالشهادة العلمية التي يحملها ويحصي راتبه بالشلنات حباً منه بتكثير العدد ولو ظلت القيمة عَلَى حالها ، وقد ذكرته عند قدومي الى هذه البلاد لان الالوف فيها تساوي العشرات في سواها · عَلَى اننا لم نعجل عليه بالانتقال بل افهمناه ان البيت بيته والمائدة مائدته ما اقام · ولكنه لحماقته حرد واقتصر عَلَى المبيت محترساً ألا يؤم المنزل إلا وقد تغدى في السوق او تعشى

وظل ف على مسلكه هذا حتى وردت البشائر البرقية بإعلان الدستور في تركيا وقرّر السوريون في الخرطوم إقامة وليمة عشاء كبرى احتفالية يرئسها كبيرهم وزعيمهم في ذلك العهد سعيد باشا شقير واختاروا لاقامتها اعظم نزل في عاصمة السودان وأوصوا ادارته على نفر المآكل والمشروبات وجعلوا ثمن الكرسي جنيهاً انكليزياً كاملاً وبالطبع اشترك في هذه الوليمة جميع الموظفين وفي جملتهم ف ولكنه حسب قاعدته دفع ٤٥ وحدة لا وحدة واحدة كرواه

وبات ف ينتظر ليلة العشاء بفارغ الصبر وجاء موعدها فعاد الى المنزل باكراً لكي يظل الوقت متسعاً لديه لتبديل ثيابه ، ولكنه ما دخل ورآنا نحلق وأمامنا الملابس الليلية بدلاً من ان نكون كالعادة على مائدة العشاء حتى ضرب كفاً بكف وثنى على جبهته فلطمها لطمة عنيفة فحسبنا انه تلقى نبأ صادعاً يحرمه حضور تلك الليلة بعد أن كانت بشالكه الخمسة والاربعين قد غيبها صندوق النزل الفخم وهرعنا اليه كشخص واحد لمؤاساته والتخفيف عليه ولكنه لم يلبث ان هدأ ما بنا وقلب غمنا الى مرح وتجهمنا الى ضحك وندّى مآقينا بدموع السرور بدلاً من عبرات الحزن بقوله ان المصاب الذي حلّ به واستوجب منه ذلك المظهر الصاعق هو أنه نسي وتعشى !

ورحنا نحاول إذهاب غمته وتهدئة روعه فوصفنا له شتى العلاجات التي تساعد على الهضم ولكنه أبي أن يتعزى

وتغافلنا عنه قليلاً لكي لا نحرجه واذا بنا نسمعه يتأفف ويصيح ويشتم فالتفتنا واذا به قد انتعل مجدداً حذاءه القديم الذي كان قد خلعه لينتعل الجديد . فاقتصدنا في القهقهة لكي لا نثير غضبه علينا ، ولكن ما هي الا فترة ثانية حتى عاد الى تذمره والتفتنا فرأينا خديه قد توردا وعينيه

قد حفظنا اختناقاً لانه لفيظه كاد يخنق نفسه إذ وضع ربطة رقبته في عنقه عكساً . وكانت البلية الثالثة انه حسب بدأ الهيمنة قد امتدت الى صدرته الجديدة فقطعت ازرارها عن آخرها لانه لم يهتد الى واحد منها فلما التفتنا كظمنا ضحكنا ونبهناه الى انه لبسها عكساً ايضاً

اخيراً انتهى ورافقنا الى المنزل وكنا نستعجل وهو يستمهلنا لاننا شعرنا بجوع مبرّح لشدة الضحك وهو زاده اضطرابه تخمة . وكانت النتيجة انه لم ينجع فيه علاج ولم يستطع أن يزدرد لقمة او يرطب حلقه بجرعة بمكننا نحن فاننا التهمنا عشاءه في تلك الليلة مضاعفاً !

اقرأ تفرح جرّب تحزن

منذ سنوات انبأني قادم من بيروت أن صديقي الشاعر الحكيم الخماس « حامل الخرج » أبى ان يقترن بفتاة « أحبها » إلا بعد أن تقاضى والدها بائنة (دوطه) تبلغ بضعة آلاف ليرة . ولم يكن هذا يملك كل هذه القيمة فاضطر أن يستمين بكل انسبائه الاقربين والابعدين في سوريا ومصر لكي تجتمع له بكاملها فينيل بواسطتها ابنته المحبوبة شرف الاقتران بذلك الشاعر النبيل

عدت بالفكر الى عهد الفتوّة ايامَ كنت ونفراً من الرفاق بينهم حامل الخرج نحوم حول مذبح الادب حوم الفراش حول النور وننوم في آصال بعض الآحاد حيَّ الاشرفيه فنستلقي عَلَى الارض مستظلين اشجار الزيتون ونأخذ في تناشد الاشعار روايةً ونظماً ومساجلةً وإجازة ، وكان حامل الخرج اقدرنا لغةً وبياناً وأبعدنا خيالاً وأمتننا نظماً

وكنا بين حين وآخر نسرح ابصارنا في قصر فخم لثري اشتهر بالشح الى حد أنه كان يستعيض عن المهلات ، عَلَى زهادة قيمتها ، بتبريد بطنه ،

وذلك بأن ينام قرب نافذة مفتوحة ويحسر عنه الغطاء . واتفق يوماً ان احد العملة المشتغلين في بناء كان يشيده كسر جرّة وكتم رفاقه امره لحبس من اجرة كل فاعل عَلَى السواء مليكاً فاجتمع له اكثر من ثمن الجرة . كنا ننظر الى هذا القصر ونترحّم عَلَى صاحبه وهو بعد في قيد الحياة

وكان حامل الخرج اوفرنا ترحيباً عَلَى ذلك المادي الحقير ولكن ليته وقف عند هذا الحد في إدانة « المادية » اذ انه روى بعد ذلك واقعة حال في قصيدة بديعة سلسة التركيب نالت استحساناً عاماً ، ولكن من كان يدري إذ ذاك أنه انما كان يستشف حكايته نفسها من وراء ستار كثيف من السنين ، لان الحادثة التي رواها تشير الى عرس ابى فيه العريس أن يعقد له عَلَى عروسه في الكنيسة قبل أن يقبض البائنة فارتبك اهل العروس وحدث هرج ومرج بين المدعوين ولكن العروس لاذت برباطة الجأش وأوعزت الى والدها بأن يأتي بالصرة المتضمنة البائنة المتفق عليها ، وعندما أحضرها التفتت الى الكاهن وأشارت اليه بأن يعقد للعريس عليها !

ولكن الذي اقترن عَلَى الشكل المتقدم وصفه ونـي قصيدته الآنفة الذكر لم يكن الشاعر الحكيم الحساس بل الصيرفي المثري الجشع لان حامل الخرج ارتقى من ذلك الفتى الفقير النبيل العواطف الذي عرفناه الى ذلك الصيرفي الذي نودّ اليوم لو اننا ما عرفناه !

جحشين

اشتهر المصريون بحب النكتة والاحتيال عَلَى كل لفظة او عبارة بغية اخراجها بالتحريف عن اصلها فتصبح تحتمل معنيين ويتبدى لسامعها الذكي وجه النكتة في إحالتها فيطرب ويضحك

ومن الالفاظ التي احتال عليها ذوو الدعابة من المصريين في الخرطوم

لاءِ كـابها هذه الصفة اسم عائلة « جهشان » البيروتية فقلبوا الهـاء فيهـا الى اقرب حرف يجانسها وهو الخاء وراعوا خبثاً اللهجة البيروتية في إمالة حرف العلة فيها حتى يصبح وسطاً بين الالف واليـاء فجاءت على اسهـل شكل « جحشين »

وكانت سوق الدعابة رائجة بـين بديع الحوراني ابن المرحوم العلاّمة الشيخ ابرهيم وفيليب جهشان ابن شقيق صديقي المرحوم عزيز جهشان الوارد ذكره في هذا الكتاب . واتفق ان الاول برح الخرطوم الى مصر وأراد ان يداعب صديقه عن بعد فاختار بطاقة بريدية عليها صورة جحشين وبعث بها اليه بعنوان فيليب بالخرطوم . وفعلاً حملها ساعي البريد الى هـذا الصديق لان عمال البريد لم يطل بهم الامر حتى فطنوا الى جمال النكتة بجمعهم بين الاسم والكنية المستفادة من الرسم فكان لهم الفضل

الحمير

بعد حمارة بلعام التي انطقها الله ونالت شرف الذكر في الكتاب المقدَّس ، والجحش ابن الأتان الذي امتطاه المسيح الى اورشليم ، يخطر على بالي ذكر ثلاثـة حمير ذات شأن في تاريخي الخاص : الاول رأيته يصعد سطحاً وينزل عنه بكل سهولة وتفسير ذلك انه لم يصعد ولم ينزل وحده بـل حمله احد شبـان زحلة الابطال وهو صديق الصغر ابرهيم القرعوني ، ولقبه « ابو ملحم » . والثاني رأيتـه في السودان واطلقت عليه لقب « فوضوي » فقد عنَّ له أن يحتج على المعاملة السيئة التي لقيها على يد صاحبه دون مبرّر فوقف في منتصف الطريق ولم يزحزحه شيء زهاء ساعة كاملة وأنا اراقبه وأعجب لثبـاته برغم الضرب المبرح الذي ناله حتى خيل اليَّ انه عقد نيته على الثبات حتى الممات

أما الحمار الثـالث فهو الذي روى لي قصته الصديق جبرائيـل صانع

الذي يتجر في ثغر سانطس وكان فيما مضى تاجراً في مديرية كردفان

ورواية السيد جبرائيل انه كان ذات يوم مسافراً ونفراً من رفاقه التجار ممتطين حميراً وسائرين وراء قافلة الجمال التي كانت تحمل بضائعهم وأمتعتهم وزادهم والظاهر ان صاحبنا الذي يحب الكلام ويحسن الرواية التهى وألهى رفاقه فأبطأت المطايا السير وتأخرت عن القافلة فضلَّ الركب الطريق وتاهوا في قفر ارضه مائمة ومكسوة بنبات شائك . وكان قد برَّح بهم الجوع والعطش وهبط الظلام فازداد ألمهم وقلقهم

في ذلك الموقف الرهيب تكرَّرت اعجوبة حمارة بلعام ولكن ليس بواسطة النطق بل بالاشماع الاثيري إذ انفى حمار السيد جبرائيل ورفع رأسه ومثل في ذلك القفر دور البواخر في عصرنا هذا فتجاوب صدى استنجاده في هاتيك الانحاء وسُمع جوابه بعد ثوانٍ فسار الحمار متجهاً نحو الصوت الضئيل الذي بلغ سمعه . وظلَّ الركب يسيرون متأثرين خطوات ذلك الحمار « الماركوني » حتى بلغوا محلةً رأوا فيها شيخاً اسعفهم بالماء وبلغة من الطعام وهداهم الى الطريق فلحقوا بالقافلة وهكذا اصبحوا مدينين بحياتهم لنباهة ذلك الحمار

استقلال سوريا

هذا ما كنا نحلم به في السودان منذ ربع قرن حتى ان صديقي فريد عطيه انبأني انه بينما كان مرَّةً في صفر بعية المستر كري مدير المعارف سأله هذا : « من تفضلون من الدوَّل اذا انقاص ظلَّ الاتراك عن بلادكم » فأجابه بكل جرأة: « اننا نفضل ان نعيش احراراً مستقلين ولا نريد ان تحكمنا دولة اجنبية أيًّا كانت ، وفي رأس القائمة انكلترا »

وهذا ما كرَّرته كتابةً جواباً على سؤال وجهه اليَّ المستر الذي سنة

١٩١٦ في هذه الحاضرة ، وكان قنصل بريطانيا العام فيها
والحقُّ يقضي بالقول ان نصيب هذين الجوابين كان الاستحسان

الاشخاص الذين عرفتهم

عرفت اشخاصاً تدرَّجوا في سلم الارتقاء وتسنموا مراتب عالية فرأيت من الواجب التنويه بذكرهم في هذا الكتاب وهم :

فارس بك الخوري — هو الكاتب والشاعر والخطيب ورجل الشرع والسياسة والاقتصاد المشهور في دمشق وفي العالم العربي قاطبة . كان معاصي في معاقة زحله منذ اربعين عاماً وكان في ذلك العهد يجمع بين الرصانة والروية وتوقد الذهن . وأذكر انه أمَّ مرةً بيروت وأنا في الكلية أتأهب للعودة الى المعاقة لقضاء العطلة السنوية ولكن كان يعوزني المال لأفي ما عليَّ لاصحاب المطاعم المجاورة للكلية وكان هو رسول الخير الذي عهد اليه والدي بدفع ديوني واصطحابي عائداً الى المعاقة

وفي السودان عرفت شقيقه خليلاً الذي ارتقى بذكائه وجده من وظيفة مترجم في الدائرة القضائية الى منصة القضاء الرفيعة

وفي هذه البلاد عرفت شقيقه داود الصناعي المعروف في مدينة اراراكوارا الذي خبرت فيه الشيء الكثير من معاني وخصائص اخيه الكبير

وفيها أيضاً عرفت شقيقه فائز بك يوم أمها لاطفاء شوقه الى اخيه وأنسبائه فيها وكان له الفضل في ايحاء بعض الرسوم والرموز الفينيقية الى المثال الايطالي المرحوم شيمنز الذي صنع التمثال الذي اهداه المواطنون لهذه البلاد المضيافة بمناسبة مرور مئة عام على استقلالها

ومن غرائب الصدف ان فارس بك تلقى من هذه البلاد هدية قيمة كانت في حوزتي وهي نسخة فاخرة التجليد من الموسوعة البريطانية وكان

مهديها اليه صديقي وابن شقيقته الاديب المرحوم سليم ابو جمره

وليم بك زلزل — كان باشكاتب مديرية الخرطوم في السودان وكان مولعاً بقرض الشعر باللغتين العربية والفرنسوية التي يجيدها وقد اسمعني مرة وصديقي المرحوم نسيب فيليدس ونحن على مائدته قصيدة فرنسوية من رائع منظومه طربنا لها، على الاخص لانه كان يلقيها بحماسة وبيده سكين كبير لاقتطاع الخبز. وقد سرني كثيراً ان علمت من صديقي ابن شقيقته الاديب فريد عمبتي المقيم في هذه البلاد أن الحظ قد بسم له وهو يعيش في القاهرة

الشيخ فؤاد الخطيب — عرفته في الخرطوم حيث كان مدرساً في كلية غوردن . ومع انه كان على جانب من الذكاء وسعة الاطلاع لم اكن اتوقع له المنزلة السامية التي تسنمها في الحجاز على ايام المغفور له جلالة الملك الحسين ولا بلوغ الشأو الذي احرزه في عالم الشعر

خليل بك ثابت — كان معلمي في الجامعة الاميركية وقد سرني ان شاهدته في الخرطوم في اوائل عهدي بنزولها أيامَ كان قائماً على تحرير جريدة السودان فيها وإدارة مطبعتها وهو اليوم رئيس تحرير جريدة المقطم الزاهرة

لبيب جريديني — سبق لي ان ذكرت فضله علي أيامَ كان يعلم الرياضيات في الجامعة الاميركية وقد اجتمعت به في الخرطوم إذ خلف خليل بك ثابت في تحرير جريدة السودان وفي عهده تولى ادارة مطبعة السودان صديقي اسكندر شاهين مكاريوس الصحافي في مصر اليوم

نجيب بك هواويني — عرفت هذا الاديب والخطاط الشهير الذي يزين صحف مصر بآيات فنه البديع سنة ١٩٠٥ في نزل العجيل في ضهور الشوير حيث كان كل صباح يجلس في الرواق ويخط فأجلس انا بجانبه لامتع طرفي بجمال خطه . وكصاحب كل فنّ كان يرونه اعجابي بفنه الراقي واذكر انه نشطني مرةً على تعلم الخط ولكنني أبيت علماً مني ان تحسين خطي

لا يقلُّ استحالةً عن تحسين حظي

الدكتور نجيب شملاني — هو صديق عرفته على مقعد الدرس في الجامعة الاميركية سنة ١٨٩٥ ثم قضت الاقدار بأن تجمعنا في السودان سنة ١٩٠٥ وفي هذه الحاضرة منذ سنة ١٩١٤ وهو منذ ذلك العهد مشهور بين المواطنين والوطنيين بأنه من كبار الجرّاحين

ولولا نزوع هذا الصديق الى العلى ورغبته الملحة في ان يُصبح يوماً من الذين يُشار اليهم بالبنان في فنّ الجراحة لظلّ حتى اليوم في السودان يتعاطى مهنته في الدائرة الطبية تحت إشراف طبيب انكليزي ، ولا يُسمح له إلا في حالات استثنائية جداً بأن يُجري عملية جراحية إذ ان عهدي بالاطباء الشرقيين في السودان ان لا تتجاوز مهمتهم ، إلا في ما ندر ، إعطاء المسهلات والمقويات وتضميد الجراح

والذي أرجحه أن الشملاني كان في الخرطوم على عهد الطبيب كريستوفرسن الذي كان مدير المصلحة الطبية وقد اشتهر بالخفة والنزق . ومما أوثره عنه تحكمه يوماً في طبيب سوري أظنه من أُسرة عطيه منكراً عليه لبس القبعة ولكن ذلك الطبيب السوري أصرّ على لبسها مفضلاً ترك الخدمة على التنزل عن حريته فاضطرّ الدكتور كريستوفرسن الى التساهل . ولكن بقي عليه أن يوفق بين تساهله الاضطراري وحرصه على كبريائه ومنزلته كرئيس بازاء مرؤوس أبى اطاعة امره فحل هذه المعضلة بإصداره امره الى ذلك الطبيب بلبس القبعة فأصبح هذا يلبسها مكرَهاً لا مختاراً !

وأظن الشملاني كان في مستشفى مديرية دنقله عندما بدأ يجري عمليات جراحية ويبعث الى الدائرة العمومية بالبلاغات عنها بعد إجرائها وإبلال المرضى في حين ان النظام المرعي كان يقضي على الطبيب الشرقي باستقدام طبيب انكليزي ليجري العمليات ويكون هو مساعداً له . حتى ان

المستشفيات التي لم يكن فيها طبيب انكليزي بصفة دائمة لم تكن تحوي كل الآلات والمعدات اللازمة فكان المشملاني يستحضر كل ما يلزمه من مصر لحسابه الخاص ويستعين به على إجراء العمليات

وبرغم التنبيهات والتحذيرات التي كان يتلقاها المشملاني من الدائرة العمومية ظل مثابراً على خطته ومصراً على حقه في اجراء العمليات كطبيب يحمل شهادة قانونية تخوله هذا الحق . وكان هذا اخيراً السبب الذي أدى الى انفصاله عن الخدمة في حكومة السودان وقدومه الى مصر ومنها الى هذه الحاضرة حيث يمارس فنه الراقي بمهارة نادرة

احمد حسن مطر — على قلة المهاجرة المصرية لم أعجب لرؤيتي بعض المصريين في هذه الديار . ولكن دهشتي بلغت اشدها عندما وقع نظري للمرة الاولى على شاب سوداني لا يمتاز بطول ولا بعرض ولا بذكاء خارق . ولكن بالاختبار وجدته داهية ذا جاذبية هائلة وتأثير يكاد لا يصدق في الاجانب حتى انه شق لنفسه طريقاً في هذا المهجر ودخل في خدمة بعض الصحف البرازيلية وسافر مرتين الى اوروبا وبلغ في أولاهما روسيا ، وجميع عارفي دخائله يعجبون كيف تهيأت له وسائل السفر ونفقات الارتحال والاقامة . وقد اعتنق الجنسية البرازيلية وبرح هذه البلاد قاصداً الصين لكي يوافي بعض الجرائد بأنباء الحرب الصينية اليابانية

ومما رواه لي أنه قبل قدومه الى هذه البلاد كان في الريف وبلدان أخرى من المغرب، وقد اطلعته على بعض فصول كتابي هذا فأكد لي معرفته بعض الاشخاص الذين ذكرتهم واعقابهم ومنّاني برواج هذا الكتاب بين الناشئة السودانية النابهة .

كلمة الختام

هذا ما بلغ اليه جهدي الذي لا استكثره ولا أمنّ به على احد لانني انما لنفسي عملت . على أنني

اطمع بشيء واحد هو أن يستخلص القارئ في كل ما رويته عني او عن سواي ويجل عنده انني راعيت جانب الامانة في التأدية واستنفدت كلّ ما املكه من قوى ادبية ومادية لابلاغ هذا الكتاب ارقى مستوى في استطاعتي

ومما لا ارى بداً من توجيه نظر القارئ اليه هو أن الاشخاص الذين ذكرتهم ، احياء كانوا ام امواتاً ، ليسوا بالهدف المقصود وإنما كان ذكرهم ورواية حوادثهم من أي نوعٍ كانت حيلةً على إساغة العبرة واسترعاء ذهن القارئ . اما الاموات منهم فلا يخرج ذكري سيئاتهم عن حد تشريح الجثث في المعاهد الطبية، لا رغبةً في تشويهها او الانتقام من اصحابها بل لفائدة الاحياء الذين قد يتعرضون لمثل الداء الذي افقدها الحياة . والذي يجعل للميت فائدةً في لحده وينطقه بالعظات البالغة يسمعها الاحياء من ابناء جلدته ويتعظون بها لا يكون بحكم المشتهين بذلك الميت

والذي لا أرى لي بداً من تسجيله بعاطفة الشكر والامتنان ادلة الاستحسان والتقدير التي جاد عليَّ بها الكثيرون من الادباء في سوريا ومصر وهذه الديار لبعض فصول هـذا الكتاب التي كنت قد نشرتها في مجلتي « الدليل » تحت عنوان « الباب الادبي » مما كان في رأس العوامل التي جرأتني عَلَى إصدار هذا الكتاب ، خاصاً بالذكر فقيد الشعر والادب والشباب المرحوم فوزي المعلوف الذي طالما ابدى لي استحسانه لهاتيك الفصول

وإني ملحق بكتابي هذا رواية حياتي التي دوّنتها منذ اربعة وعشرين عاماً وبعثت بها الى نسيبة حساسة محبة أطلعت عليهـا فتاةً اديبة كانت عَلَى حقٍ في أنها انصتني محباً وأدنتني صديقاً فاستهلت رسالة تعزية بعثت بها اليَّ بهذه العبارة : « ظننت لاول وهلة يا توفيق ان حكايتك مختلفة قصدت بها ان تولد الحب من الغيرة »

اما حكاية هذا الحب الاول فهي انني في اواسط سنة ١٩٠٧ أتمت

أحد مصايف لبنان وغاقت فيه عَلَى أثر المقابلة الاولى السطحية التي لم تدم سوى بضع دقائق فتاةٌ اديبة ذكية نفرتها مني عا ابديته من تسرّع وخفة وطيش وتدله . ذلك انني في مساء اليوم الذي لقيتها في صباحه كتبت اليها رسالة بركانية او بالاحرى جنونية اسألها فيها يدها موكداً لها ان عيشي لن يطيب إلا بقربها فلم ترَ من الحكمة ان تبتّ لفورها حبل آمالي مخافةَ ان تحمل مسؤولية جنوني او انتحاري

وهذا الحب هو الذي اوحى الي المقطعين التاليين اللذين اعجبا الكثيرين من الادباء والشعراء وهما في الواقع يتضمنان حكاية حالي مع تلك الفتاة :

قالت دلالاً يا صبي دع عنكَ حبي
قلت بري وأبي قولي لقلبي

قالت فسله يتقي قلتُ حربه
قد صار يصبني «الشقي» مُذ صرتِ قربه

وبعد عامين ذقت فيها الامرّين وحسبتها جيلين انتهى امري معها بأن اتفقنا عَلَى أن نستبدل من الحب الذي كنت اشعر به وحدي صداقةً متبادلة وهكذا ركبت في اواخر سنة ١٩٠٩ احدى بواخر الشركة الخديوية عائداً الى مقرّ وظيفتي في السودان وقد شُفيت من ذلك الحب القتال العقيم واقتنعت كل الاقتناع بصحة القول الحكمي المشهور : « المرأة كظلك ، ان تبعته هرب منك وإن هربتَ منه تبعك » . ولذلك كنت موطناً العزم ، وقد لمست الحقيقة في الشطر الاول من هذا القول، عَلَى ان اجرب صحة الشطر الثاني . ولم يطل انتظاري لفرصة تهيئ لي تلك التجربة اذ ما رست باخرتنا في ثغر يافا حتى صعد اليها رهط كبير من السياح الاميركيين وبينهم الفتاة التي تدور عليها روايتي

كان يرافقني صديق حميم لي من أسرة دمشقية كريمة يقطن مصر وكان في الباخرة سوانا شبان عديدون وجميعهم يحومون حول الفتاة حوم الفراش حول النور فلا ترى بينهم إلا كل من يطل على محاسنها النادرة بقلبه من نافذتي عينيه متوقعين اشارة من يديها او عينيها لكي يلبوا نداءها ويطيعوا امرها ، باستثناء الشاب الوحيد الذي كان اذا وقع نظره عليها اتفاقاً يشيح بوجهه كأنه لم يرَ إلا فتاةً عادية لا تستحق منه التفاتة

وكان انها أعرضت عن كل اولئك الشبان المتهافتين المتهالكين المسبحين العابدين وجعلت هدفها الوحيد ذلك الشاب المتمرد الغريب الاطوار الفاقد النظر والذوق . وربما خيل اليها انه احد الوحوش البشرية المتصلبة العاطفة المتحجرة القلب في حين انني كنت الشاب الوحيد الذي فتنته وحولته الى آلة لا تفكر إلا بها ولا تتحرك إلا بمشيئتها ولا تسير إلا بسحر محياها وجاذبية عينيها . ولكنني كنت هارباً من الظل وقد تبهني الظل على ما يراه القارئ في روايتي التي كتبتها لنفسي وما هي إلا عصارة من دماغي ونطفة من قلبي وقبس من روحي . ولكن هناك شيئاً واحداً أغراني بتدوينها في هذا الكتاب المعروض للبيع ولكن دونها ، وإن يكن يضمها ، وأعني بذلك الشيء الادب الذي اقدسه وقد عوفت ان اعيش لاجله وأضحي بكل شيء حتى راحتي وهنائي في سبيل رفعه في كل محيط حللته الى المستوى اللائق به لانه في عقلي قبس إلهي وفي صدري دين وفي مذهبي عبادة

والآن أثبت رسالتي لا راغباً في اجر ولا راهباً التهم التي انما تصدر عن أناس يزنون بغير موازيني ويقيسون بغير مقاييسي وليس في قاموسهم كلمة واحدة من احلامي ومرامي واماني .


Isabel

غرام اربعة ايام

« الحب رباني وعلمني الادب »

تمهيد

تُوفيت أُمي وأنا بعدُ في نحو السادسة من عمري فلم انتبه الى فداحة خسارتي بها ولم يطل عهد تذكري لينبوع الحنان الذي كان يتدفق من عينيها والشعاع السماوي الذي كان يشرق به محياها والعاطفة العلوية التي كانت تكهرب كيانها كلما نظرت اليَّ وابتسمت لي وضمتني الى صدرها ، وهكذا لم اشعر طويلاً بذلّ اليتم ولا صهرت نفسي نار الحزن . فلا بدعَ انني ظللت حتى السادسة والعشرين احتاج لإنضاج أدبي وتفجير ينابيع نفسي وتهذيب اخلاقي وإلانة طباعي وإبراز ما فيَّ من جوهر ، كثر او قلّ ، الى نار حزن أتونية تصهرني فأخلص من جلّ ما تأصل في ذهني وعلق بنفسي من شوائب . وهذا ما تمَّ لي في اواخر عام ١٩٠٩ إذ ذقت صابةَ الحزن وعلقمه وصهرتني ناره الآكلة عَلَى شكل ما توقعته عمري ، ذلك انني بعد أن دخلت اتفاقاً نعيم الحب ورتعت فيه اياماً حسبتني فيها قد بلغت اوجَ الهناء هبت اعاصير الردى فقوّضت صرح آمالي وأتلفت حديقة حبي وحوّلت نعيمي الى جحيم فظللت عامين كاملين لا يعودني عائد التذكار حتى تندى مآقيَّ ولا يلقاني احدٌ الا ويتبين في عينيَّ أثر الدموع عَلَى نعيمي الذي وددت بعد ان فقدته لو أنني ما وجدته

ايزابل

اذا باكرتِ حديقةً غناء حوت من الزهر احرصه على نـدى السحر وأنعـمه بعبير الفجر وأوفره انتشاء بنسمات الصباح البليلة . ثم لفتت نظركِ زرقـةُ الجلد وأخذت بابتسامة الأفق وقد حانه الشمس مهداً ، وأذكرتكِ اللآلئ الكامنة في اعين الزهر الدموعِ التي أسالها اليأسُ فأجدها الرجاء ، وحيركِ وجومُ العصافير فما تدرين أتعزينه الى بقيةٍ من رهبةِ الليل أم الى عائد اغتبـاط بانبلاج الصباح — كانت لكِ صورةٌ من ايزابل صامتة

فاذا مـا شرعت الشمس تحبو صعداً وكأن اشعتها انامل تحلُّ بهـا عقال السنة العصافير فتأخذ في التغريد ، وتوقظ النسيم الراقد بين معاطف الاودية فيهبُّ بلطف مرنحاً الاغصان ومُرقصاً الازهار وموشياً صفحة الماء فكأنه يحمل بين طياتـه روحاً تدبُّ في كل حيٍ تولاه الجمود ، او هو رسول اليقظة الى الوجود — كانت لكِ صورة من ايزابل اذا ما لاحت على محياها الوسيم ابتسامة وملأتِ الصمت

حجر في جدار معبد ، يحدجه الجاحد بازدراء فلا يزداد صلابةً ويسيل عليه قلب المؤمن فلا يذوب — هذا هو موقف ايزابل تجاه العالم

« سيان » — لازمةٌ ترددها كلما خُيرت بين شيئين مهما تكن رغبتها في احدهما عظيمة

نظراتها نظرات طفل وديع وربما كانت أضنّ بكلامها من البخيل بدرهمه . ثيابها مزيج من زي القرنين الماضي والحاضر وحول رأسها من شعرها عصبةٌ تشبه العمامة

وكأنها تعلم ما يقاسيه جليسها من ظماءٍ وجوع فلا تفتر تسكب له كوثراً من عينيها وشهداً جنياً من شفتيها

بين العشرين والحادية والعشرين تسير متنقلةً من صقع الى صقع مدة

سنة كاملة وكأنها في سيرها تبحث عن مفقود لا تهتدي الى مقره

في اوائل تعارفنا وقفت الى جانبي ذات عشية وكانت الباخرة راسية وأشعة النجوم تخترق صفحة الماء ومصابيح الشاطئ تقاطعها كأنها تحاول توفية جارها البحر سهامَ السماء . قلت في ذهولي : « كل هـذا يدعو الى الحب » فسألتني : « ما هو الحب ؟ — انا اجهل هذه العاطفة تماماً » قلت : «الحب عاطفة تخالج قلوبنا فتلهبها فنجد لذةً في إطفائها بالتنهدات والدموع».

هـذه الزهرة العطرة أحنت رأسهـا وقالت أنشقني ، وهـذه القيثارة الملوية اصبحت موسيقيهـا ، وذلك القلب النقي لم يرض ما كنـا سواي ، فنشقت وعزفت وحللت فنمات وطربت وسموت

أغرقني الشك فانتشلني اليقين ، حلمتُ بالسعادة فكانت اول مـا فتحت عليه عينيّ ، سألتُ جازعاً فأعادني جوابها آمناً

وكيف لا ارتع في بحبوحة من الدعة والأمن وقد طوّقني ذراعان اذكراني ذراعي أُمي فغدوت ارى الطبيعة بأسرها سريري كأني عَلى عرشٍ من دونه العروش

بعد ان راقبتني يوماً وبعضَ يوم واستشفت بعض مـا يحويه صدري وقفت امامي وقفة فتاةٍ لا تفاخر بنسب ولا بحسب ولا تملك من حطام الدنيا سوى قلبٍ شريف سكبت فيه الملائكة جامَ الحب وخصه الله بالطهارة والنقاء

النظرة الاولى

بعد أن قرأت عدة مجلدات من كتاب الوجود وبضع صفحات من كتـاب وحيرت كثيراً من الرسائل رأيت ان اسمح لجسمي ببعض الراحة بعد عنـاء طال واشتدّ فسرت من الردهة الى غرفتي في ممرٍ ضيق الى جانبيه غرف كثيرة

وبينما انا في الطريق رأيت فتاةً ذات شعر كسنابـل القمح إبان

الحصاد وعينين زرقاوين كأنهما خلقتا لاجتذاب القلوب وثغر خيل الي أنه لو مرت فيه لفة الجحيم لاستحالت في الاسماع الى نغمة ملائكية تسبي العقول ، على بساطة في الكسوة تنم بذوق سليم وعقل راجح وخلق سوي

وما أن بدت لي حتى تراجعت تأدباً وأفسحت لها مجالاً للمرور غير أن قلبي ابى إلا ان يعرقل سيرها فانطرح على قدميها بدليل ما شاهدته من ارتباكها وتعثرها عندما اجتازتني واستأنفت انا سيري الى مخدعي وهناك استلقيت على سريري وأطلقت لفكري العنان املي اهتدي الى تفسير معقول لعلامة دهش علت محياها فور التقاء نظرينا

بعد تأمل طويل عدت الى نفسي فضحكت ملياً وعدوت التأويل الى المعقول فقلت : « الدهش انفعال طبيعي لا بد من حدوثه عند كل مفاجأة ولا سيما متى كان المرء يسير مفكراً وأية غرابة في ان تكون هذه الفتاة مفكرة ؟ » ولكنني عدت فقلت : « اذا كان هذا التفسير صحيحاً فعلام تبعها قلبي وأطال غيبته ؟ » . وهذا التأويل الاخير بالاشتراك مع اهواء الشباب حملني على القول : « هذه هي » والتقدير أنها قالت في نفسها : « هذا هو »

ثم صعدت الى ظهر الباخرة فكان اول من وقع نظري عليه صديقي الذي سبق لي ذكره فأقبلت نحوه محيياً فاستعاض عن رد تحيتي بقوله : « أنظر ما أجمل هذه الفتاة » . التفت فوجدت فتاتي جالسة الى جانب فتاة ثانية وشابين فأوجست خيفة من تبدد آمالي . ولكنني استجمعت قواي وقلت بلهجة غير مكترث : « حقاً إنها جميلة ولكن كن على ثقة يا عزيزي من أنه اذا قدر أن يكون لاحدنا شأن مع هذه الفتاة فلا تكون انت صاحب ذلك الشأن بل انا » . فأنكر علي قولي فلذت بالاصرار وكانت بيننا مغايظة لطيفة

عندما نزلت الى قاعة الطعام سُررت لأني رأيت فتاتي ورفيقتها (فيما بعد اختها) والى جانب الاولى سيدة كهلة (أمهما) والى جانب الثانية رجل كهل (والدهما) . هنا تبادلنا النظرة الاولى عينها

أمل وألم

بعد أن تمشيت قليلاً على ظهر الباخرة بعد العشاء عدت الى غرفتي وهناك شعرت بأني في اليمّ للمرة الثانية . غير أني كنت اثبت جأشاً وأوفر تمرُّساً وأشد ساعداً فشكرت صدري الذي حفظ من لهيب الماضي شعلةً ترشدني في طريقي المظلم في المستقبل بحيث امشي متئداً ولا اضع قدمي إلا على اليبس ولا استعين إلا بالغصن الاملس فلا تُدمي كفّي الاشواك وهي كثيرة على جانبي الطريق

نهضت في صباح اليوم التالي فكان اول من وقع عليه نظري صديقي المارّ ذكره فقصّ عليّ كل ما تهمني معرفته ، قال : « الفتاة وأختها وأبوها وأمها عائلة اميركية مقصدها السياحة في العالم مدة سنة كاملة ، والشابان : الواحد سائح افونسي اسمه سان ماكسان وأبوه تاجر عاديات في باريس ، جمعه بهم سواء السبيل ، والثاني غسوي ابن صاحب نزل كبير في اورشليم له حاجة في مصر يسير اقضائها وسبب اجتماعه بهم انهم اقاموا في نزل ابيه كل المدة التي صرفوها في مدينة الانبياء . وهذه العائلة تلبث في مصر زمناً غير يسير وقد تعرَّفتُ اليها منذ الآن . اما انت فتسافر الى السودان بعد وصولك الى مصر بيوم واحد ، ومع ذلك تعتقد ان سيكون لك شأن مع الفتاة » !

وكان تعليله صحيحاً لا غبارَ عليه : ففي صباح اليوم التالي نصل الى بورت سعيد وفي مساء اليوم الذي يليه أُغادر مصر عائداً الى الخرطوم

من ألم الى امل

أبت المقادير أن تبقى هذه الرواية في عالم الغيب لانه عند وصولنا الى بورت سعيد

أنبئنا بوجود حجر صحي عَلَى بيروت مدة خمسة ايام كنا قد قضينا منها ثلاثة في السفر وأمرت باخرتنا بالإبحار الى الاسكندرية لتمضية الباقي هناك وهكذا ابحرت بنا عند المساء قاصدةً عروس القطر المصري وعَلَى ظهرها شاكر واحد هو انا وشاكون كثيرون هم سياح حالَ هذا التأخير دون سفرهم الى الهند عَلَى باخرة تغادر بورت سعيد ذلك المساء

بعد ان تناولت طعام العشاء صعدت الى غرفة الموسيقى وجلست عَلَى مقعد هناك ارقب عن كثب اخت فتاتي وصديقها يلعبان العاباً مختلفة بالورق ولكنني ما لبثت قليلاً حتى أعرضتُ عن مراقبة الالعاب وغرقت كعادتي في بحر من التأمل

بينما انا عَلَى هذه الحال اذا بفتاتي قد ازاحت ستار الباب وفي وقتٍ معاً غمامةَ الهموم عن قلبي وأقبلت نحوي كأنها تقترب من صديق قديم وجلست الى جانبي تماماً في حيز ان المكان متسع يمكنها من تجنب البركان

شعرت اني في حلم وأخذت أخير نفسي بين ان استوثق من الحقيقة او ابقى عَلَى الظن خوفاً من فقد ما اسعى اليه بنظرة القيها عليها ربما تبعدها عني ففضلت القناعة بهذه المنحة السماوية وأخذت أمسك كل حركة في جسمي حتى نبضات قلبي كأن استمرار حلمي العذب متوقف عَلَى سكوني

« هي » الى جانبي وشعرها الذهبي الذي كانت تداعبه النسمات البليلة يلامس رأسي وصوت انفاسها في سمعي ؟ — حالةٌ تستدعي الجنون لولا ان دوامها كان متوقفاً عَلَى التعقل في زعمي

شعرت بأنها تنظر اليَّ . وتكررت النظرة وتلتها غيرها وانا ازداد سكوناً وتنعماً تحت اشعة تينك العينين الساحرتين

غبت عن الوجود فأعادني اليه صوت كنغمة الشحرور رنَّ في اذني فهاج اوتار قلبي بتموجاته المطربة . قال الصوت « بماذا تفكر » قلت لنفسي :

« اني احلم » وعاد السكون فانفسح مجال للتأمل بعذوبة الصوت ورقة الالقاء: صوت ملؤه عطف وحنان يداعب قلبي كما يداعب النسيم اللطيف زهرة لينة الساق . هدأت التموجات وعاد السكون ثم عاد الصوت : « الا تزال تفكر»؟ « نعم » . هزة ثانية تلاها السكون ثم شعرت بيد تلامس يدي بكل ما في الملامسة من الرقة المتهذبة والجرأة المتحببة وسمعت الصوت يقول : « الم تشبع بعد من التأمل فتشاركنا في احاديثنا ؟ » قلت « بكل سرور » . عند هذا الحد كان قد انتهى لعب الورق وأتى الشاب النمسوي فدار الحديث ببطء

تكلمت قليلاً ثم عدت الى السكوت وبعد هنيهة ارتأى البعض الصعود الى اعلى الباخرة فكانت فتاتي تنظر اليّ كأنها تستشيرني في الامر ولكنني لم أبدِ حركة البتة . نهضت متثاقلة وارتدت معطفها ونباطأت قليلاً كأنها تنتظرني كي انهض ولكنني لم أبدِ حركة ايضاً . اخيراً قالت لي « ألا ترافقنا في رحلتنا ام تفضل ان تبقى هنا وتحلم ؟! » قلت « اشكرك ، أفضل أن ابقى وأحلم » . فنظرت اليّ نظرة عتب لم اكن لأفقه معناها في ذلك الحين وأخذت تتبع القوم متثاقلة كأنها مرغمة على السير . اما الحقيقة فهي أني فضلت البقاء لانني منذ تلك اللحظة شعرت بميل الى الانفراد بالفتاة وصرت اكره أن اراها بصحبة سواي

بعد قليل كنت في فراشي استحضر ما مضى . وفي صباح اليوم التالي كنت اول القادمين الى الردهة وهناك اخذت انتظر فتاتي كأني واباها على موعد ولكن عبثاً انتظرت . لم تأت الى المائدة ولم تصعد الى ظهر الباخرة البتة ، ولكن عندما نزلت لتناول طعام الغداء رأيتها في مكانها فحييتها بابتسامة يمازجها العتب فبادلتنيها بمثلها ممتزجة باعتذار

وجاء وقت العشاء فجلست الى المائدة وأنا في حالة زهو لا ادري له

صباً . وكان الى جانبي رجل نمسوي يتلفظ بالانكليزية بلهجة وباسلوب مضحكين للغاية فحملني لفظه مقترناً الى استعدادي على الضحك الى درجة خجلت معها من نفسي فاستغفرت عما كان قد بقي من اصناف الطعام وصعدت عدواً الى ظهر الباخرة حيث ظللت اضحك برغم بعدي وانفرادي

بينما انا مستغرق في ضحكي اذا بصوت فتاتي يرنّ في أذني بما معناه : « ماذا يضحكك » فبحت لها بالسبب فشاركتني قليلاً في الضحك ثم وقفنا نرقب صفحة البحر بما يبدو عليها من انعكاس اشعة السماء وأنوار الشاطىء .

وبعد ان تحدثنا عن الحب بما مرّ ذكره سألتها ما اذا كانت تحب مرافقتي الى اعلى الباخرة فأشارت بالقبول وهكذا صعدنا وجلسنا على مقعد خشبي مستترَين عن الاعين ، وبعد قليل افتتحت الجلسة بقولي : « اما وقد جرى بيننا حديث افلا يجدر بنا ان يعرف الواحد منا اسم الآخر ومقرّه حتى اذا ذكر هذا الاجتماع الذي يسرته صدفة نادرة واحب ان يُذكر رفيقه به كتب اليه بسطر » فقالت باسمة « حسن » وللحال اعطيتها بطاقتي فكتبت عليها اسمها وعنوانها وقدمت لها بطاقة ثانية لتحفظها معها

بعد هذه المبادلة شعرت باني احمل في يدي عنوان سعادتي . وعلى اثرها قالت « انا لا احب اسمي لان معناه سمراء وهو من الاسماء القديمة » قلت : « اسمحي لي بان أخطئك في هذا الاعتقاد لان اسمك جميل وقد سُميت به عدة ملكات وليس بينهن من تفوقك جمالاً وجلالاً »

بعد هذا الحديث الاجوف لانه غير ذاك الذي يجيش به الصدر وتكتمه الشفتان استحياء قالت لي « لقد وعدت بأن اعزف على البيانو لجماعة يريدون الرقص فهل ترافقني » ؟ فكان جوابي النهوض واللحاق بها بخضوع

جلست الى البيانو ووقفتُ الى جانبها انظر اليها وهي تنظر اليَّ — نظرات ذات معنى وانما كان تأثيرها كتأثير لغة مجهولة كأني اقول لها « انا

أحبك » بلغتي وهي تقول لي« وانا ايضاً احبك » بلغة اجهلها : الشفاه تتحرك والملامح تدل عَلَى الحب ولكن هل يصح الاعتماد عَلَى الظن ؟

بعد أن عزفت قليلاً تظاهرت بالتعب وقامت فأمسكت بيدي وسارت بي الى مقعد جلسنا عليه جنباً الى جنب وبدأ يبدو كأننا استعضنا بالاشارات عن الكلمات . ثم اخذت ورق لعب وابتدأت تستطلعه ما يضمره لها الغيب فكانت تُخفق وتنظر اليَّ بخجل كأنها تشكو اليَّ سوء حظها وأنا يحرق قلبي اللهيب الذي كان يعلو خديها . وكان أن اخفقت للمرة الثالثة فقلت لها : « إن قلبي يتسحق لإخفاقك ولكن ما اظنك تجهلين قصر يدي عن مساعدتك بسوى نصحك أن تتركي الورق وشأنه » . وللحال تركت الورق وشكرتني بلطف وهزّت يدي بعنف

وكان بعد ذلك أن اقترحت اختها لعبةً نلهو بها فيجازى المخطئ بقصاص يُفرض عليه ، كأن يقبّل الحائط او يغني او يقلد صوت حيوان ، الى غير ذلك من المزربات ، فساعد تشتت افكاري عَلَى وقوعي تحت طائلة القصاص فحكم عليَّ احكاماً مختلفة كانت ترفض هي تنفيذها الى أن داخل احدهم ريب فأراد أن يزيله فقال لها : « إذن ماذا تريدين ان نقاصه ؟ أبأن يركع امامك ويلقي عليكِ حديث غرام ! » فأجابت بثبات جأش « نعم » والتفتت اليَّ قائلة « ألا تريد ان تفعل ؟ » فماذا كان جوابي سوى اني جثوتُ عَلَى ركبتيَّ للصلاة وأخذت يدها فقبلتها وقلت لها : « أحبك يا حبيبتي ولست اتردد في تضحية حياتي من اجلك » . فأغرب الجميع في الضحك تشفياً او استخفافاً وشكرنا نحن حسن ظنهم

وأزفت ساعة الرقاد فتفرّقنا ، ولكن لم يفتني قبلَ توديعها أن اعاتبها عَلَى تأخرها ذلك الصباح فوعدتني بأن تنهض باكراً واعتذرت عن الماضي بقولها إنها لم تكن تجد ما تعمله فوعدتها بأن أُوجد لها عملاً

الى هنا ترين أني لم اكن البادئ في تأسيس دعائم حبنا العظيم ، ولست اقول هذا تنصلاً من الرغبة بل حباً بتقرير واقع

الصباح الداجي

نهضت صباحاً وكان اول ما ذكرته أننا نغادر الباخرة الساعة الخامسة مساء وقطار السودان يبرح محطة القاهرة الساعة الثامنة فاقامتي في مصر اربعة ايام مضمونة بفضل هذا التأخر القسري . لذلك كنت اسعد من على الباخرة

صعدت الى السطح الأعلى ، ولم يطل بي الجلوس حتى رأيت فتاتي مقبلة نحوي وعلى وجهها ابتسامة كالصبح تفصر ما في قلبها من جذل فمددت اليها يدي وكأني اقدم لها قلبي ، لان قلب العاشق في يده . فأمسكت بيدي وأخذنا في حديث أنستنا لذته اليدين المتماسكتين فبقيتا كذلك الى ان سمعنا ما حول سرورنا الى كدر وهو ان قد صدر قرار من مصلحة الصحة يبيح لنا مغادرة الباخرة الساعة الحادية عشرة قبل الظهر لكي نستطيع مبارحة الاسكندرية الساعة الثانية عشرة تماماً ، وفي هذه الحالة يجب أن اسافر عند المساء تاركاً ورائي نعيماً خيل الي انني على وشك الدخول فيه فأحببت أن اتحقق من صحة تخيلي وهكذا سألتها عما اذا كانت لا تعتقد ان مدة الحجر الصحي كانت في منتهى القصر فأجابت بنعم وأردفتها بنظرة تشف عن حزن عميق . وعلى الاثر طلبت مني ان ابعث اليها برسمي بالطربوش وأن اكتب اليها دائماً . فكان جوابي : « سأفعل ذلك بكل السرور على شرط ان تعديني بالمبادلة ، ولا تمضي سنتان حتى تزور اميركا لكي اراكِ هناك » فأجابت : « ما احب ما تقول ، ومتى وصلت الى نيويورك يجب ان تسرع الى التليفون وتناديني قائلاً : « ايزابل ! انا هنا وسأسافر الى لوسفيل في اول قطار » فأجيبك « اهلاً بتوفيق ، ستراني على المحطة »!

. . . .

عَلَى ان رجاء العيون الساحرة لا يخيّب لان في اشعتها ما ينير كل طريق ويهوّن كل صعب . بعد سكوت عميق وتأمل طويل رفعت نظرها اليّ وقالت : « ولكن ألا يمكنك ان تتأخر ؟ » فأجبت لفوري : « بل يجب ان افعل ! » وهكذا عاد الابتسام الى محياها وبريق السرور الى عينيها

في القطار

بين عاملي الإقدام والإحجام ، والمقارنة بين حلاوة الفوز ومرارة الفشل ، وإمكان الندم عَلَى فوات فرصة وخشية عاقبة اغتنامها ، فاجأتها وطبعت عَلَى خدها القبلة الاولى فنظرت اليّ نظرةً تعني كل شيء عَلَى انني اخترت لنفسي معنىً واحداً من ذلك الكل اغراني بتقبيلها ثانيةً ولكنها لم توافقني عَلَى ظني بل تراجعت الى الوراء وتركتني في حيرة انستني لذة إقدامي ولكنني لم البث ان افقت من سكرتي فسألتها بجرأة : « الا تسمحين لي بتقبيلك ؟ » فأجابت بلا وأغرقتني مجدداً في لجة حيرة لم نلبث ان انتشلتني منها بمغادرتها الغرفة لتتناول طعام الغداء ولكنها قبل ان تذهب هزّت يدي

لم تكن لي شهية الاكل فبقيت وحدي مسنداً رأسي الى كفي وغارقاً في لج التفكير . عَلَى ان انتظاري لم يطل حتى شعرت بيد تلامس يدي فرفعت بصري واذا بي اراها الى جانبي وأسمع صوتها يرنُّ في اذني بما معناه : « الا تشعر بجوع ؟ » فأجبتها : « نعم ، ولكن الى مرآكِ » ونهضت فأخذت بيدها وأجلستها الى جانبي

جلسنا دون ان يفوه احد منا بكلمة في ما يختص بموضوع التقبيل ، وكان القطار قد اقترب من القاهرة فأخذنا نتحدث في موضوع اجتماعنا فيها وضربنا الساعة الخامسة موعداً لتناولنا الشاي سويةً في فندق كونتيننتال

في الحديقة

عند الساعة الخامسة تماماً كنت في ردهة ذلك الفندق استوقف الوقت واستعجل فتاتي ولكنها لم تقدم إلا بعد أن قطع عقرب الساعة نصف دائرتها وأنا احسبني قد انتظرت نصف جيل فأنبت قلبي عني في استقبالها ولبثت في مكاني الى ان دانتني فوقفت مصافحاً وأجلستها الى جانبي

وما استقرّ بنا المقام حتى قالت : « هيّا الى الشاي » فقلت : « دعي الشاي لأناس لا يتمنى لهم ما هو افضل ولا تذكري لي الطعام والشراب فأنا اتغذى عَلَى حديثك وأرتوي من محياكِ — انتِ لا تعلمين حتى الآن أني فينيقي بلهيه الجمال وعربي يسومه الحبُّ الهلاك فلا يؤخر قدماً . انا من قومٍ صدَرَ عنهم الشعر فلا تفعل محاسنه إلا في نفوسهم ، ومن أولى باحتضان الطفل سوى أمه . هل تحبينني كما انا ؟ » فأجابت بصوتٍ مرتعش : « مَن لا يحب الوربين ، لا شكّ ان من يكرههم همجي » !

بعد هنيهة سألتني عما اذا كنت قد وجدت قاعةً ننفرد فيها فأجبتها اني مررت عليها كلها فلم اجد واحدةً خالية . عَلَى انها ألحت عليّ بمرافقتها لشارفة هاتيك القاعات وكأنها عَلَى ثقةٍ من ان باصرتها المنارة بشعاع الحب كاشفة لها ما خفي عليّ . وهكذا مررنا في ممرٍ فسيح الى ان انتهينا الى باب لم اكن قد اهتديت اليه فدخلناه ومنه اطللنا عَلَى حديقة غضة انتشرت فيها انوار متباعدة حتى ليمكن تحاشيها لمن يحمل نوره بين جنبيه

جلسنا وسكتنا وسكن كل ما حولنا كأن الطبيعة تصغي الى ما نقول ، ولكننا لم نقل شيئاً . ملّت الطبيعة الانتظار فرأت ان تسير في طريقها شأنَ من يقطع الامل من الوقوف والاصغاء فهبت من جوف الشمال نسمة حرّكت كل غصن وطردت رياح الاعالي كل غيمة الى الجنوب فانحسرت الحجب عن وجه رقيب ألف البشاشة منذ صباه ولكنه لم يعد قطُّ بدا

التفريق لانه أقطع ولم يهمس في أذن فضولي لهيج الظنون لانه ابكم ،
ومن حوله كرات من النور نقول معه بما يقول

كل ما في السماء وعلى الارض يجتذب الابصار ويميل القلوب :
فتاتي الى جانبي كتمثال أبدع الصانع في نحته وزانه بالصمت لكي تتملى
من جماله العيون ونفخ فيه الحياة دلالةً على حقيقة الوجود فهي تنسكب
من محياه ينابيع من الكآبة والسرور واليأس والرجاء والتردد والإقدام
والإباحة والكتمان وتنبعث من عينيه اشعة مصدرها الجوهر الاعلى ومعناها
« الحب » او « الله » — جمال وجلال يعبدهما كلُّ مؤمن بالقوة الخفية
التي نسميها الحق

قلت هذا هو الحق لم يجد في الغرب من يحسن العبادة فأمَّ الشرق
مهبط الوحي ومنبت الانبياء فوجد عبداً يعبد بالروح والحق

حلقت نفسي حتى جاورت مساكن الاطهار وسجد قلبي للتسبيح ٠

قلت كرمًا لتلك النفس وهذا القلب يجب ان ينال الجسم الذي يحلانه
نصيباً من هذا المجد وهكذا ضممت المعبود وقبلته فارتعش فقلت معتذراً :
« عفواً يا تمثالي المحبوب فقد شغلني خشوعي عن الاستئذان » فقال بصوت
متهدج : « على فرض اني قلت لا فماذا كنتَ تفعل ؟ » قلت : « امتنع
امتثالاً لا ملالاً » اجاب : « ولكنني لم اقل لا » فضاعفت له شكري

عند هذا اخذت فتاتي تفرك يديها وتنظر تارةً الى حركاتهما وتارةً
الى سكوني وهي لائذةٌ بالصمت فرسم لي خيالي الصورة التالية :

كأني عندما قبلتها انتزعت قلبي من صدري ووضعته بين يديها
فطفقت تقلبه وترمقه باجفان منكسرة تحبباً ثم تقول لي بنظراتها : « أأنت
صاحب هذا القلب ؟ إن قلباً كهذا خليقٌ بالتقديس »

تصوري جسماً تجول في ذهنه هذه الافكار تكن لك صورة من

فتاتي في ذلك الموقف

قالت هذا في سرها ثم فتحت ذراعيها وكان عناق عدت فيه بالفكر الى عهد بني اسرائيل فقطعت معهم برّية التيه ودخلت وإياهم ارض الموعد حيث القت غذائي اللبن والعسل وعملي التسبيح لإله صهيون

سوف نبقى في السماء الى الابد والى الابد سوف نهجر هذه الارض الشقية · لا تبطلي العزف ايتها الاجواق الملوية، لا تمنع عني خمرةَ النعيم لحظةً ايها الساقي · وأنتَ يا ملاك السعادة استعر من اللانهاية قوةً تعينك عليَّ حملنا وطر بنا الى الابد لكي نشاهد كل مقاصير هذا النعيم السماوي

عودٌ الى الارض

أفقتُ من سكري ورجعت الى عقلي فوجدته مضطرباً · قلت في نفسي هذه فتاة نشأت في مهد الحرية وترعرعت تحت سمائها · ابصرت النور في بلاد تبيح شرائعها للفتاة ما تبيحه للفتى · اما انا ففتى قُدّر له عكس ما قُدّر لها موطناً وبيئةً وعادات فكيف اعلم ان الهواء الطلق الذي اعتادت تنشقه منذ ودعت حداثتها لم يحمل اليها شيئاً مما يقذفه تيار الاهواء فلم تعد تجد امراً إدّاً في التلاعب بعواطف فتى يفاخر بانه لم يعرف الخداع عمرَه ·

صارحتها بما جال في ذهني فزاد سكوتها ريبتي فجزمت بانتصاري ونبهت فيَّ كل عواطف الفتى الشرقي وخاطبتها قائلاً : « انا الآن نادمٌ لكوني تماديتُ معكِ وسمحت لعواطفي بالتغلب عليَّ الى درجة تمكنتِ معها من الاستهانة بي · وأشكر الله عليَّ انني لا ازال في اول الطريق وعند هذا الحد يجب أن اقف · كوني على ثقةٍ يا سيدتي من انني لست بالشاب الذي تستطيعين أن تقطعي معه الوقت اغتناماً لساعات لهو لا يتعذّر عليكِ اجتناؤها مع سواه متى غيّبه عنكِ الزمان ، اذا كنتِ الى هذه الغاية

نعمين . انا فوق ما تتصوّرين لانني أعدّ اجتماع الاجساد امراً ثانوياً واهون من أن يوحي الى النفس شيئاً من السعادة ، وجلّ اعتباري له ينتهي عند حدّ كونه متمماً لسعادة النفس ما دامت مرتبطة به ، واني ارفض السعادة بتاتاً اذا كانت متوقفةً عليه » !

فأجابت : « كلّ هذا يرفع منزلتك في عيني ويوسم لك في قلبي ، ولك أن تستنتج من سكوتي ما يدعو الى ريبتك . لا اكتمك ان في بلادنا حرية متناهية ولكن برغم حبي العظيم لك وحاجتي الكاية الى حبك لا اقول لك اكثر من جملة واحدة لكي تثق بصدقي وبعدها أ كل الى نفسكَ الكبيرة فهم شعوري لانك اذا كنت من المتعصبين الميالين الى التضييق لا تفلح في إقناعك المجلدات : كل ما اقوله لك هو أنني لم اشعر عمري بما اشعر به نحوك وليس في قلبي ولا في ذهني اثرٌ لسواك » ثم عادت الى إطرافها وتفكيرها

وانا اخذت اناجي نفسي : « بماذا تفكر هذه الفتاة ؟ وما بالها مطرقة إطراق الحائر ؟ أليست طليقةً فتغادر رجلاً وقف منها موقف الحكم لدى المتهم ؟ هل توجد قيود غير منظورة تكبلها الى جانبه ؟ ربما . . .

وما كان افتنها وهي تنتظر عودة الحديث

يجب ان نتكلم

بعد سكوت عميق اقتُصر فيه عَلَى قراءة الافكار عَلَى صفحات الملامح وسماع أنغام القلب تردّدها الانفاس رأيت ان اتكلم فقلت : « هل تحبينني يا ايزابل ؟ » « أحبك » . « وما هي ضماناتي عَلَى انك تحبينني ؟ » . « هي اني أحبك » !

وهنا تناثرت قُبلٌ بعضها مصيب وبعضها مخطئٌ فخلت انا في اليم ثانيةً ، موجةٌ تقرّ بنا وموجة تبعدنا — فوقنا جوٌ قاتم وتحتنا عمق بعيد —

اختلطت فلسفة العقل بشهوات القلب وارتبكت النفس فاستحال التمييز بين المرّ الذي يحلو والحلو الذي يمرّ وعجز اللسان عن البيان . لا ينقذنا من الارتباك سوى حادث خارجي : قرع جرس العشاء !

الى اللقاء

اتفقنا على ان نلتقي الساعة التاسعة للذهاب بصحبة اصدقائنا الى حلقة الزلج وهكذا كان

اما حلقة الزلج هذه فقسم من الارض مربع او مستدير مصقول يسير عليه الناس بدرّاجات تناط بالاحذية الكلّ منها اربعة دواليب . ويُشترط في الزالج أن يكون قادراً على حفظ توازنه ، وهـذا لا يتمّ إلا للمارس على السقوط زمناً قبل أن اصبح في مأمن منـه . لذلك رفضت الزلج برغم رغبة فتاتي ووعدها إياي بان تساعدني لكي لا اسقط ، وكان يحرّضها على الالحاح اصدقائي الذين كانـ يروقهم أن يضحكوا من سقوطي ولذلك كانت تزداد إلحاحاً كلما ازددت رفضاً فتعود اليّ بعد كل جولة طالبةً مني ان ارافقها

هذا الالحاح عينه هاج ظنوني فأشرت اليهـا بان تتبعني الى مكانـ منفرد وهناك قلت لها : « انا اعلم حسن قصدكِ ولا اشك في ان الدافع لك على إلحـاحك ليس إلا حبـك لي وميلك الى مشاركتي اياك ليزداد سرور نفسـكِ بما تفعلينه ولكن يجب ان انبهك الى ان وراء كل هذا انخداعاً بمـا يقوله اصدقاؤنا الذين يقصدون الضحك ولكن اذا جاز هذا القصد لصديق فلا يجوز قط لحب ولذلك لا افهم منكِ عندمـا تلحين عليّ بمرافقتك سوى انكِ لا تحبينني »

فأطرقت مليـاً ثم قالت بلهجة الخجل النـادم : « انت مصيب كل الاصابة في ما قلته واني آسفة كثيراً لانه فاتني منذ لحظة ما كان يجب ان انتبه اليه وأعده الآن واجباً — ارجو منك ألاّ تشك في حبي واقبـل مني

كفارة عن سلوكي انسحابي من هذه الحلقة » وبرغم اعتراضي الجأني الى مساعدتها في تركها ونزع حذاء الزلج . ولم تمض هنيهة حتى انصرفنا من هناك يداً بيد عائدين الى النزل

في المركبة

صرفت معظم النهار التالي في فضاء اشمالي ورجعت في المساء لارتشاف خمرة النعيم بعد ان تعشينا ولجنا مركبة سارت بنا الى متنزه في طريق الاهرام . وما استقر بنا المقام حتى خاطبتني بلغتي بلهجة العاشق الولهان قائلة : « انت حبيبي ! » فأدهشتني بلهجتها وضممتها الى صدري قائلاً : « وأنت حبيبتي — احقاً انك تعرفين شيئاً من لغتي ؟ » فأجابت : « قد اجتهدت كثيراً اليوم لا تعلم هذه اللفظة وأحفظها تماماً لعل هذا يبرهن لك على حبي الثابت وان يكن البرهان زهيداً لا يعبأ به — انا اعلم اني لست جميلة ولست استحق حبك ولكن ماذا افعل وكلي قلوب تحبك وتحن الى نظرة رضى منك ؟ » . قالت هذا بلهجة من يخاطب نفسه وألقت رأسها على صدري فأشعلته بتنهدات كالجمر وأوشكت ان تطفئه بسيل من الدموع لولا اني ابرأت سقم اجفانها المبللة بقبلات حارة ايقنت منها اني قد غرقت في اليم ولم يعد لي امل ولا رغبة في النجاة فوجهت نظرها الي وراحت تخدع عيني بطرف متكسر ونقبلها بشفتين تكادان تسيلان عذوبة ثم تبرهن على امتنانها بتقبيل يدي . فشعرت في اعماق قلبي بأن كل جارحة في تحبها واني سأثبت على حبها حتى المات . رأيت الصفحة البيضاء ووقفت قلبي على عبادة الله في هذه العذراء الحالقة في سماء الخيال تجتني هناء الحب من ايدي ملائكة السعادة

هنا عادت الى فمي لغة السماء وهبط على قلبي وحي الحب فشعرت

بحقارتي . قلت لها : « انا لا استحق حبك ولست اراك إلا مخطئة في زعمك انني أفضلك . لا بل اني اراك الآن إلاهة منزهة عن العيب يجب ان اعبدها بكل قوى نفسي واكرس حياتي لخدمتها . ارى نفسي عوسجة بازاء وردة وعدماً الى جانب وجود وأرضاً تلاصق سماء . فمني عليَّ بعفوك عَلَى سوء ظني واسكبي عَلَى قلبي من معاني عظمتك فأرتفع من الوهدة — جمالك يسيل نفسي عَلَى قدميك لانه جمال وجه مستمد من نفس راقية فهو صورة ظاهرة تسلب عقلي منعكسة عن صورة خافية قد استرقت قلبي واستعبدت نفسي فأنا لك ما حييت »

فنظرت اليَّ طويلاً ثم طوقت عنقي بذراعيها وأخذت تكلمني بلسانها ونظراتها كما تكلم الام طفلها :

« الامر عَلَى غير ما ذكرت : انت الملك وأنا الملكة — انت الندى وأنا الزهرة — انت الطبيب وأنا العليل — فيا مليكي ويا ندى قلبي ويا طبيبي انا احترمك وأعظمك وأحبك . من اجل هذا انا اقبلك جاثية » . وبرغم جهادي لمنعها جثت عَلَى ركبتيها وقبلتني كأنها تتمم واجباً دينياً

من اجل كل هذا انا اعيش في الحب وأعبد الروح التي ترمقني من الاعالي بعينها الحادة التي تخترق الطبقات الكثيفة التي تفصلني عن الابدية . وأسكر اليوم عَلَى ذكر خمرة النعيم التي رشفتها في زمن مضى وأستعذب احلامي التي تعيدني الى عهد الحب ولو الى حين

يوم الوداع

عادت الى سمائي الغيوم فحجبت عن عيني الكواكب والنجوم وضاقت ارضي واقحلت فحسبتها قد تحولت الى قبر مظلم يتجاوب في انحائه عواء الهالكين . وفارقني العزاء فحسبتني في يوم الدين وقد اثقلت ضميري الآثام فكنت انتظر انقضاض

الصاعقة بفكر شارد وقلب خافق وعزم واهٍ وتمنيت لو تمكنت في ذلك اليوم ن ارد الى الله الحياة التي وهبني بقدر ما كنت حريصاً عليها في امسه ٠ كأنني وصلت الى نتيجة لم اكن انتظرها وصافني الدهر ظلماً لم اعهده من مجاباه قبل ذلك اليوم في حين ان عهدي بنوائبه لم يكن بعيداً ٠ ولكن العبوسة بعد الابتسام تؤذي والبكاء بعد الضحك يؤلم

شعرت بميل الى الاقرار للمادة بالسلطة : قلت لو كنت غنياً لما اضطررت الى مفارقة ملاكي ٠ ثم عدت فافتكرت باني انما اطلب في هذه الحالة نقيضين : مالٌ غنيٌ وقلب فتيّ وهما لم يجتمعا يوماً لانسان

اخيراً اعياني الوصول الى الحقيقة وعلمت دون ان اقوى عَلَى البرهان انني كما يجب ان اكون وما يحدث لي يجب ان يحدث

كل هذا جال في خاطري بينما كنت استعد لموافاة فتاتي والديه في توديعها عند الساعة الثالثة من ذلك اليوم

الوداع

وصلت الى النزل في الوقت المعين فوجدت والد فتاتي ووالدتها جالسين خارجاً وعلى جانبيهما شاب مثرٍ لا اذكر من اية أسرة هو ولكن اسمه « لبنان » وقد رأى ان يكون مزاحماً لي وكان قد عرّفه بالعائلة صديقي

سلمت وجلست وبالطبع دار الحديث عَلَى سفري ذلك المساء فذكرني والد ايزابل بضرورة اجابته عَلَى بعض اسئلة متعلقة بالسودان كان قد كتبها وأعطانيها يوم الاحد ، وسألني لبنان عن بعض اصدقاء له في الخرطوم ٠ وبينا نحن في الحديث اذا بايزابل مقبلة وحسب عادتها جلست بجانبي فملت عليها وسألتها : « مع من انتِ ذاهبة » (لانني اوجست خيفةً من ملاحقة لبنان لها اذ كان قد سبق له ان نصب لها شركاً سيجيءُ الكلام عليه وربما

يكون الآن قد اتاها بدعوة جديدة) فأجابت : « انا ذاهبة معك — معك وحدك »! وهكذا ودعنا وسرنا تاركين وراءنا لبنان متمكناً في مكانه كلبنان

دخلنا حديقة الازبكية المجاورة نقصد مقيلاً بلذ فيه الوداع فسمعنا جلبةً وما لبثنا ان علمنا ان بعض الصناع يحدثون إصلاحات في المكان فاكتفينا بالجلوس عَلَى مقعد خشبي متسائلين بأعيننا عما اذا كان من الواجب ان نتكدَّر ام نُسر لهذه الصدفة، وأخيراً اتانا الفرج بتذكري روض الفرج

روض الفرج مكان نزهة عَلَى ضفة النيل يطل عَلَى النهر العظيم حيث يتسع ويتشعب فتتخلله جزرٌ صغيرة منتشرة في انحائه يقصدها الناس بزوارقهم وبواخرهم . وأجمل ما فيه السفن الشراعية التي كانت تظهر عن بعد كأنها حمائم تلوّح باجنحتها للشمس علامة الوداع لان هذه كانت آخذةً في الانحدار والعصافير تأوي الى اعشاشها ووجه السماء يزداد عبوسةً بينما كانت ابتسامة الافق تتحول الى ضحك ، وكأنه لم يهمس في آذاننا قائلاً : « اضحكوا اليوم فزمن البكاء قد اقترب »

تحت تأثير هذا المشهد العظيم كانت ايزابل تقرأ عَلَى وجهي وأقرأ عَلَى وجهها ما يرتاع له كلانا فتتنهد وأتنهد ثم يسود دنا سكون رهيب تأخذنا بعده هزة تعبر عن ازدياد الالم وتمكن اليأس . وكنا كلما ازدادت الطبيعة جموداً نزداد يأساً كأن تحقق امانينا كان متوقفاً عَلَى هياجها فتدوي الارض دوياً هائلاً ثم تتحوَّل عن مركزها فتتناثر الى هباء ونذهب معها الى الابدية متعانقين

انتبهت من ذهولي فوجدت لساني . قلت : « الوقت كما ترين يا ايزابل يطير وبعد ساعات قليلة تبحثين عني فلا تجدينني . ولكن اتوسل اليك بحق حبي الثابت لكِ ان تتغلبي عَلَى الم البعاد بأمل اللقاء القريب ، والآن اطلب منكِ ألاّ تشكي في اننا سنلتقي لانني اذا تركتك عَلَى هذا الاعتقاد اكون قد سررت عنكِ وفي صدري آيــة من العزاء تتغلب عَلَى يأسي فعديني يا حبيبتي

بان يكون أملك باللقاء القريب راسخاً »
— ولكن أين نلتقي ؟ ...
أليس هذا صوت ايزابل الذي يسيل رقة ؟ او ليست هذه النظرة نظرتها الساحرة ؟ وهذا الوجه المنير ، أليس هو الوجه نفسه الذي عبدته مصباحي في ظلمات الابدية الى النعيم الدائم ؟ — بلى . ولكن ما لي اسمع دوي الرعود وتخطف بصري البروق وأرى كلما حولي مكفهراً كأن السماء قد غضبت علي غضبة ابدية ؟ ما هذا الهلوع الذي يشبه الارتعاش تحت سيف الجلاد ؟ اليوم اعلم ان ايزابل كانت تقرأ مصيرها في لوح المستقبل ... !
دهشت وتلعثم لساني ثم علا وجهي اصفرار الالم وشعرت كأن الارض تفتح فاها لتبتلعني . قلت في ذهولي : « سوف نلتقي في اميركا يا ايزابل — وأية غرابة في هذا ؟ » ...
فالتفتت الي وكأنها انتبهت من غفلة ، وبلهجة المستغفر الشاعر بذنبه او الام الجازعة على طفلها او المستدرك الحكيم الذي يرى ان يصلح بحدة ذهنه خطأ جناه عليه سهوه . قالت لي : « نعم سوف نلتقي هناك وسوف يكون عندي امل باللقاء الى الابد » ومالت علي بنظرة ملائكية كأنها تشهد اللانهاية على صحة ما تقول
اذ ذاك شعرت بظماء محرق الى قبلة منها ولكن حال دون ذلك وجود بعض الناس على مقربة منا وكان الغسق قد خيم على الوجود فذكرت حديقة الازبكية فنهضت واياها وعدنا ادراجنا قاصدين تلك الحديقة
ولجنا الحديقة وجلسنا على مقعد خشبي تستره عن الاعين اشجار متقاربة وتظله اغصانها وأمامنا بساط من العشب الاخضر وفوق هذا كله سماء صافية ينيرها بدر لطيف يظهر تارة وتارة يحتجب كأنه يحاول ان يستلفت انظارنا

بداعبته وحولنا سكون عميق لان آذاننا صمت عن سمـاع الجلبة في الخارج كأن لم يعد لنا شغل مع العالم الذي انفصلنـا عنه الى حين وبودنا لو كان انفصالنا ابدياً

بعد ان افنينا حيلنا في التزوّد الى امدٍ بعيد ودعانا الواجب الى ترك سمائنا نهضنا وفي صدرنا مجلدات وظماً لا يُروى الى ارتشاف خمرة النعيم

مررنا الهوينا تارةً رأسها عَلَى صدري وتارةً رأسي عَلَى صدرهـا وبعد كل خطوة نقف ونقول : « هنا مجال لآخر قبلة » الى ان تركنـا الحديقة وأحاطت بنا امواج النور وتصوّبت الينا الوف الابصار

وبلغنا المنزل ووقفنا امام باب مخدع ابوَيها فقرعته وأنبأتهما بأني ابغي توديعهما قبل سفري فخرج كلاهمـا الى الردهة حيث ودعاني وداعاً رقيقـاً وسألا لي الفوز بكل ما اتمنى . واما الوالدة زادت عَلَى هـذا قولها : « ونقدر عَلَى تحصيله » — (جملة تمثل المرأة)

بعد ان عادا الى مخدعها عادت اليَّ ايزابل وبعد ان تمليت من النظر اليها وتملت من النظر اليَّ تعانقنـا العناق الاخير ونهدنا آخر تنهدة معـاً وأخذت انحدر في السلم وهي تتبعني حتى لم يعد مردٌ اللانفصال

— متى تكتب اليَّ ؟

— بعد غد

— اياكَ ألاَّ تفعل

— يجب ان تؤكدي بان إخلالي مستحيل

— هذا ما انا عَلَى ثقةٍ منه

— ماذا ترَين هنا بعدي يا ايزابل ؟

— لا شيء . انا عائدة الى غرفتي لكي ابدّل ملابسي وافتكر بك

— وداعاً ! . . . — وداعاً ! . . .

القطار ايضاً

شيعتهـا بنظري الى ان توارت عن عيني
ورأيت باب النعيم يقفل دوني فوقفت هنيهة كالتائه
ثم اخذت امشي كأن رسول الفراق يحضني على الاسراع

كيف وصلت الى القطار لا أعلم ؛ ولكن عندما قرع الجرس وابتعد المودعون وابتدأ القطار يتحرك ببطء وجدت نفسي بين المسافرين

أجلت نظري في من حولي فلم أرَ احـداً ، وفي تلك اللحظة ذكرت رفيقتي في سفري من الاسكندريـة الى مصر — ذكرت معـاني الصافيـة بالامس المتلبدة بالغيوم اليوم فمرت بي غيمة من الحزن حجبت عن عيني احلامي اللذيذة وآمالي العذبة فأخذت افكر :

بحثت عن سعادتي في الشباب ولذة ايام الشباب ، في الجهـاد لاتمـام الواجب ، في الصداقة والاصدقاء المخلصين ، في اللهو والجد ، في درس اسرار الطبيعة أو جهل مـا تعلمه ، كفيلسوف حكيم او كقروي ساذج ، في الاجتماع ، في العزلة ٠ كل ما وجدته فراغ يتخلله اليأس وتسوده الوحشة

وراء كل هذا ، في ابعد نقطة يصل اليها الفكر وحيث يبتدئ مسرح النفس ، عذراء فتنها تاج الحب فألقت في سبيله سلاح الجمال الى الحضيض وأقفلت قلبها دون حنـان الام والاب والاخت واحتجبت عن كل صديق ٠ اسكرها الحب فأبرقت عيناها بنور السرور وداعب قلبها الطاهر فأرقصه على هينمة نسيم الصباح ثم افاقها بنظرة حادة فشعرت بضيق لا تزيله الا الدموع وهز قلبها بعنف فأحست به كأنه يحاول الطيران مع العاصفة ولا يكبح جماحه سوى التذكار فاعتزلت في مخدعها وهناك اطلقت عنان الفكر وعنان الدمع فسار ذاك في اثر الحبيب وأطفأ هذا جذوة الحزن فـكـانت الزوبعة وصفا الجو ٠ عند هذا تنهدت تنهدة ارتياح اذ شعرت لاول مرة بلذة الحب وأدركت قوة شوكته على القلوب — عظمة يؤخـذ بهيبتهـا القلب فيخشع

تحت اجنحة السلام ويرفع صلاته الزكية بدقات تشبه انفاس الطفل الراقد

في الطريق

حسب العادة استغرق سفري في القطار الى مرسى الباخرة النيلية ثنتين وعشرين ساعة على أنه كان سفراً مملاً مضنكاً ، وكيف يكون غير ذلك والمسافر محب صادق مودّع نعيمه وجادّاً السير بعزم البخار الى جحيمه ؟

على انني لم اكن اعدم تعزية ، فاذا كنت في وقت معاً أسير جسمي وأسير القطار الذي يقله مقصياً اياه بسرعة هائلة عن نعيمه فقد كنت طليق الفكر ولم اكن احتاج الى اكثر من طرفة عين لكي اتصوّر نفسي الى جانب الفتاة التي انتشلتني من وهدة اليأس ووضعتني قمة الرجاء وأرتني العالم وكل ما فيه هباءً منثوراً بازاء الجوّ المشرق بانوار الكمالات الذي يحيط بي فأقمت فيه متغذياً من اثيره مترشفاً حياه ثملاً بعبيره

ولكنني عندما ركبت الباخرة النيلية التي اخذت تسير بي صعداً في طريق حلفا وهي المحطة الاولى في السودان انفتحت عيناي على جمال لم اعهده من ذي قبل في هاتيك الضفاف السكامي بعضها خالاً من الرمال البيضاء تتخللها الصخور الجرداء حتى ليخيّل لرائيها كأنها اجزاء جسم حسرت عنها جانباً من ذلك الغطاء الشامل لكي تتمتع بنور الشمس وحرارتها وتنعم بالنسمات البليلة التي تهب من اعماق ذلك الوادي وتمشي فيه دلاًّ صافية الرمال على الضفة اليسرى وهازّة اعطاف النخيل ومحركةً اوراقه وعناقيده على الضفة اليمنى حيث الاحداث يلعبون ويمرحون في ظلّ النخيل والفتيان والفتيات يتهامسون ويتغازلون ويتناشدون الذكريات العذاب والكبار ينتشلون المياه من النهر ويسقون الزروع سدّاً لحاجات الاجساد لكي تظل هاتيك الارواح الغالية عليهم ناعمةً في سلامها وطالما نبتتها ولهوها محتبيةً في ذلك

الجانب الظليل كل ما زكا عرفه وطاب طعمه من ازهار الحب وأثماره

نعم لم يكن ذلك بالوادي الذي اجتزته مراراً وقط لم يتمتع فيه بصري برأى هاتيك الحلل الانيقة الخلابة التي يرفل فيها ، وما ذلك إلا لان النور الذي استعارته عيناي من محيا فتاتي الوسيم لم تكونا تشرفان بمثله قبل ذلك اليوم . وأين النور الضئيل من المصباح الساطع في ابداء المحاسن وإبراز معاني الجمال من وراء حجب الجبال

هناك لم اعد في حاجة الى إطباق جفنيَّ لاتصوَّر فتاتي فقد كانت في كل ما يقع عليه بصري من دقائق وتفاصيل ذلك الجمال الكلي الذي زانت به يد الخالق ذلك الوادي الجميل : في هاتيك الصفحات الناصعة من الرمال في انسياب الماء الحيي وقوام النخيل المختال ، في كل غصن مياد ، في الزهر المتهادي والثمر الجني ، في النسمات البليلة التي تهمس في الآذان الحان علوية تطرب العشاق وتداعب قلوبهم وترنح اعطافهم

هناك لا عودة ولا معاكسة لسير الباخرة بل تحميل كلّ قطرة ماء جارية نحو القاهرة غصة وكل نسمة قبلة وكل طير ينتحي الشمال رسالة اولها شوق وحنين وآخرها شكوى وأنين

وفي تلك الباخرة اللطيفة ، في سكون الفجر ، محاطاً بطهر انفاسه ، مقتنماً غفلة اجفانه ، مستلهماً اسرار جماله وجلاله ، كتبت رسالتي الاولى الى ايزابل وكأني بسطت لها على القرطاس قلبي الخافق بحبها المتعشق كالاتها النابض بالنفحة العلوية التي اودعتها فيه وبها وحدها حولته الى هيكل للعبادة لا يدخل اقداسه سواها

هذه الرسالة اودعتها صندوق البريد في حلفا واستأنفت سفري الى الخرطوم في القطار الذي يقطع الصحراء الكبرى في ست وعشرين ساعة قضيت جلها مطبقاً جفنيَّ متذكراً

في الخرطوم

وصلت الخرطوم فاذا بي ارى كلّ شخص فيها صغيراً وكل شيء حقيراً فكأن كل عظمة قد صغرت امامي او هي تلاشت وعدت لا اجد تفسيراً لهذا الانقلاب الذي طرأ عليّ سوى اني عكست الآلة المكبرة التي كنت انظر من خلال عدسيتها الى كلّ ما حولي فازداد كلّ شيء بعداً وصغر حجماً

رأيت الناس يسكنون الارض وانا اسكن السماء ، يعيشون بالمادة وانا اعيش بالروح ، يسيرون عَلَى الاقدام وانا اطير في الهواء ، فكأن الحب قد حوّلني الى جبار اودع صدره عزيمة اسد وركب في قدميه جناحي نسر

والذي زادني ثقةً بتحوّلي أن الامر لم يقتصر عَلَى تغير نظري في من حولي بل أن جميع من عرفتهم تغير نظرهم فيّ . إني ما عدت فلاناً الذي عرفوه ، واذا كنته فكيف تجليت وما الذي اوجد فيّ تلك الشعلة التي يشرق بنورها وجهي وينبعث من عينيّ شعاعها وتتمشى في عروقي عزيمتها ؟

هذا السر جلوته للاخصاء من اصدقائي وبت انتظر البرهان المحسوس الذي اتوقعه من القاهرة في شكل رسالة تريني ايزابل بعد أن باتت تفصلني عنها مئات الاميال فأتثبت ما اذا كانت برغم بعدي مقيمة عَلَى عهدي وكما ارعى ودّها ترعى ودّي

وفي ذمة الله تلك الحلقة الصغيرة بمبناها الكبيرة بمعناها التي كانت تحيط بي اتلاقف باسماعها كل كلمة اقولها في وصف النعيم الذي وجدته ، وبقلوبها كل زفرة أطلقها حزناً عَلَى مفارقتي اياه وإن اكن عَلَى امل من العودة اليه ، وفي كل صدر من هاتيك الصدور المخلصة ثقةٌ لا تقلّ عن الايمان الراسخ بصحة كل ما ارويه لان اصحابها كانوا يحبونني عَلَى علاتي ولا يجهلون شيئاً من سيئاتي اذ كانوا قد احتملوا قبل ذلك ما فيّ من نور قائماً الى جنب ما فيّ من ظلمة تزيده وضوحاً وسطوعاً

وما هي إلا ايام اربعة حتى اجتلت عيناي حال دخولي المكتب صباح اليوم الخامس رسالة موضوعة على منضدتي لم يألف شكلها فبلا نظري فهرعت اليها وفضضت غلافها قبل سواها من الرسائل واذا بها من ايزابل متوجة بشعارها وهو الحرفان الاولان مقتطعين من اسمها ومذيلة بتوقيعها فاكتفيت بضمها الى صدري وجلست اتلوها بقلبي ملتقطاً كلماتها بأجفاني ومترشفاً معانيها بشفتي روحي

ايزابل تكتب الي نحو الساعة الثالثة بعد منتصف تلك الليلة التي ودعتها فيها ، وهذه ترجمة رسالتها الحرفية :

القاهرة — ليل الاثنين ، في السادس من ديسمبر

توفيق ...

لست اعلم ما اذا كنت تفكر بي . الساعة الآن الثانية والثلاثة الارباع وانت بقرب اسيوط . وعندما امر من هناك يوم الاربعاء سيكون ذكرك في خاطري كما هو الليلة

اني مسرورة لانك أبيت عليّ ان ارافقك الى المحطة لانني على ثقة من انني كنت بكيت

... ان قلبي يشتعل بفعل القبلة التي طبعتها عليه هذا المساء وسيظل مشتعلاً بحبك

اني اشعر بوحشة في بعدك

هذه الليلة جاء شافقة ولبنان الى النزل فجلسنا في زاويتنا الصغيرة في الحانة مصغين للموسيقى التي كان تأثيرها عليّ محزناً فهل للموسيقى احياناً التأثير نفسه عليك ؟

يجب ألا تفكر بك ... إذ اخشى ألا استطيع إمساك دموعي ومع ذلك لا استطيع أن افكر بشيء سواك

انا أحبك ... وأعلم انك تحبني لذلك سأظلّ دائماً متمسّكة بحبل الرجاء ما دمت تحبني وسأحاول بان اكون جذلة لانني واثقة من ان الله سيجمعنا ثانيةً . ألا تظنه فاعلاً ؟

لا استطيع ان اكتب رسائل بالغة حدّ الجمال ... إذ يندر أن تخطر عَلَى بالي الكلمات الصالحة لأعبر بها عن شعوري

ولكنني واثقة من انك تفهمني وتعلم اني أحبك وإذن فسيان كتبت اليك او لم اكتب . أليس الامر كذلك ؟

يجب أن اقف وأنهي ترتيب حقيبتي لذلك استودعك الله ...

كم اودّ لو استطعت ان أمسك بقبلة

محبتك ايزابل

أما ترجمة الرسالة الثانية التي تلقيتها منها فهي في ما يلي ، وكلاهما خير ما احتفظ به من الآثار :

عن الباخرة النيلية « مصر » — الجمعة في ١٠ ديسمبر

... توفيق

لا تستطيع أن تتصوّر كم كان سروري عظيماً برسالتك التي تلقيتها هذا الصباح . انا كسولة كما تعلم فلا عجب انني كنت بعد في فراشي عندما جيء بها الي

علامَ لم تكن مستغرقاً في سباتك فجرَ يوم الاربعاء بدلاً من ان تكتب الي ؟

ليس ما يجعلني سعيدة كقولك إنني مسببة هنائك ومتصبة شقائك . وأنت ايضاً ... الشخص الوحيد الذي يسوق الى نفسي الهناء واني اشعر بوحشة مضحكةَ في بعدك

عندما كنت قريباً مني لم اتكلم كثيراً ، ولكن الآن وقد اصبحت عَلَى هذا البعد فاني ارى في الكتابة صعوبة لم اكن اجد مثلها في الكلام . ولكن سيان تكلمت او لم اتكلم ، كتبت او لم اكتب ، فاني واثقة من شعورك بان روحي تظل ملاصقة روحك وانك تستشف ما يجول في ذهني . وإنك عَلَى حق في اني لا يمكن أن أضن عليك بالسعادة ما دام في مقدوري أن اهبك اياها

اطوي رسالتي هذه عَلَى بطاقة تتضمن رسمي آملة أن تعجبك وإن لم تكن من الجودة حيث اردتها ولكنها كل ما لديّ في الوقت الحاضر . لا تنسَ بان ترسل لي رسمك في اقرب فرصة وليكن بالطربوش إذ لا يروق لي ان اراك إلا عَلَى الشكل الذي جمع بيننا

هل وصلتك الرسالة التي كتبتها اليك من القاهرة ؟ اني سلمتها للبنان ليودعها صندوق البريد وربما لم يفعل سهواً . ما احسب إلا اننا ملاقونه في الاقصر وهذا مـا لا اريده إذ تزعجني منه محاولته حملي عَلَى حبه وهذا مـا لا استطيعه

امي وأبي وجوليا يودون ان اذكرهم لك وجوليا تأسف لانها تأخرت ففاتها واجب توديعك

ما اصعب ان أدرأ عن قلبي عائد الحزن كلما فكرت بالمسافة التي تفصل بيننا ولكنني ألطفه بتذكري ان روحينا تظلان ابداً متلاصقتين وان شفاهنا لا بدّ يوماً ملتقية

سأكتب اليك يوم الاثنين من الاقصر حيث اتوقع أن اتلقى منك رسالة ثانية

وداعاً يا احب الناس الى ايزابل

بعد ثلاثة وعشرين عاماً

في ما تقدّم رسالتي التي كتبتها منذ ثلاثة وعشرين عاماً والآن ارى انني قد اغفلت او تحاشيت قصداً او سهواً بعض الحوادث والتفاصيل التي لا بدّ من ذكرها إتماماً للرواية فأقول :

جرأة ايزابل

إن خير تفسير للجرأة التي ابدتها ايزابل ، وهي الفتاة الادبية المهذبة ، هو انها كانت قد عرفتني من صدبقي وادركت ما احمله لها مما شعرت بانها تحمله لي

الشاب النمسوي

لم يكن هذا قاصداً القطر المصري كما ذكرت بل هو كان قد فتن بايزابل مدة إقامتها في نزل ابيه وأراد مرافقة اسرتها بتلك الحجة طمعاً بأن يفوز بعطفها لذلك كان استياؤه شديداً من العلاقة التي نشأت بينها وبيني في الباخرة ولكن طبيعته السكسونية اعانته عَلَى كتمان غيظه وإظهار تجلده تعللاً منه بأني عقبة وقتية لا تلبث أن تزول حتى يخلو له الجوّ عَلَى أنه لسوء حظه لم يكن يستند الى اقل تشجيع من جانب الفتاة

عندما ركبنا القطار من الاسكندرية قاصدين مصر لحظت لاستغرابي الشديد ان والدَي ايزابل اختارا الانفصال عن بنتيهما فدخلا حجرةً غير تلك التي جلسنا فيها انا والنمسوي والفرنسوي سان ماكصان والبنتان فعلمت ان الاميركيين يعتبرون التعارف جوازاً يفتح كل باب ويولي ثقة

غير محدودة ، وأنهم يطلقون لبناتهم الحرية التي يطلقها الشرقيون لبنيهم غير واجدين في ذلك امراً إدّاً بل معتبرينه واجباً لكي تشعر البنت بانها مستقلة ومسؤولة عن كل ما تأتيه ولها وحدها غنمه وعليها وحدها غرمه

جلس سان ماكسان وجوليا اخت ايزابل على المقعد المعاكس لسير القطار وجلستُ وايزابل والنمسوي طرداً ولكنها اختارت ان تجلس الى جانب النافذة وأجلستني بجانبها ففصلت بينها وبين النمسوي

ويا لله كم مالَ عليَّ وهمس في اذني توسلاته بأن احملها على الجلوس مكاني وكم تنصلت من ارتكاب تلك المخالفة دون ان اصارحه بشيء من اشمئزازي لتكليفه اياي تلك المهمة وليس فيه إلا كل دليل على ان تدلهه اعماه فصار لا يميز بين ما يجوز ولا يجوز في قواعد الآداب واللياقات

على انه ابى الارعواء فاعتذرت بخلوّ يدي من أية سلطة تخوّلني حق تكليفها ما اراد فنسب اعتذاري الى عدم رغبتي فقط اذ كان في رأيه أنني لو شئت لأجلستها في اي مكان اردت ، واذ ذاك شعرت بانه جاني من قيود المجاملة والتأدب فصارحته برأيي فيه منتحلاً له عذراً وحيداً هو أنه قد جُنّ وبات لا يعلم ماذا يطلب

وفي احدى الليالي التي قضيناها في حديقة الازبكية أصرّ على مرافقتنا ولم نشأ صده بخشونة ولكن بعد أن توغلنا قليلاً في الحديقة فتقت لي حيلة خلصتنا منه وكانت انني تظاهرت بالقلق على ايزابل لاعتلال طارئ يقضي عليها بالعودة الى النزل وأشرت اليها بضغطي يدها ان توافق على ما اقول وهكذا عدنا ادراجنا وبلغنا الباب الذي دخلنا منه . إذ ذاك سألته ان يعود تكرماً الى النزل وينتظرنا في الردهة بحجة ان لي كلمة أسرها للفتاة فلم يجد مناصاً من تلبية طلبي وعدت وايزابل وكلانا حبور وثناء على حسن تخلصي ولبثت واياها في الحديقة حتى منتصف الليل . على ان النمسوي كان لا

يزال في انتظارنا فأشار الي بانه يود مخاطبتي عَلَى حدة فودعت ايزابل وعدت اليه فأبدى لي استياءه ورغبته في ان يبت حبل صداقتنا فلبيت طلبه وأعدت اليه بطاقته كما اعاد الي بطاقتي آسفاً في الظاهر وشاكراً في الباطن

والدا ايزابل واختها

كان والد ايزابل شخصية بارزة وذا مقام بين قومه بدليل ما عَلَى بطاقته التي لا ازال احفظها من الرتب والالقاب . اما والدتها فكانت عَلَى جانب من الادب والترصن واللطف مع المحافظة عَلَى البساطة في الكسوة والبعد عن التصنع تبرجاً او تزيناً وكان ايزابل اخذت عنها كل ما وصفتها به . اما أختها جوليا فكانت مثال الطيش واللهو والتبرج والتزين والتطرف في استعمال الازياء النافرة لذلك كان من المعقول ان تجد في سان ماكسان الفرنسوي خير رفيق وكان الاثنان يضحكان من ايزابل ومني لبساطة سلوكنا ورغبتنا عن اجتناء اللهو والمسرات واعتزالنا كل اجتماع وضجة وانزوائنا الساعات الطوال في قاعة او خميلة

وكان والدا ايزابل عَلَى علم بما تضمره لي فلا تجد منهما اعتراضاً او تنديداً وكل ما كانت تحذرني منه والدتها هو التأخر الى ما بعد منتصف الليل . ومساء السبت دعواني لتناول الغداء ظهر الاحد التالي في نزل كونتيننتال فلبيت الدعوة شاكراً ولكن بدلاً من ان نجلس جميعنا الى مائدة واحدة رأيت ان سان ماكسان قد جلس الى مائدة الاسرة مع الوالدين والاخت وخلى مائدته التي اعتاد الجلوس اليها منفرداً لايزابل ولي فتضاعف سروري بان كانت هي وحدها مضيفتي

لبنان

أما عيون الحساد فكانت اوفر عدداً من عيون التماسيح التي سبق لي ذكرها في رحلاتي السندبادية ولم يكن

اصحابها دون هـذه الزحافات بطشاً واعتداء حتى خيل الي كأن الرجال بأسرهم اصبحوا عشاقاً لايزابل ولكن ليس بينهم واحد يعرف خفايا قلبها ويعبد جمالها الروحاني مثلي

وفي جملة من تعشقوها شاب مثر اسمه « لبنان » عرفه بها صديقي في الباخرة فآلى على نفسه ان يغويها ، وهي فوق كل إغواء بمال او جاه ، ويحملها على حبه والاقتران به . وقد استعان عليها بصديقي واختها جوليا التي كانت تعتبرني وايزابل من الجانين وتنحي عليها لاختيارها دون كل من وقع عليه بصرها من ذوي المكانة والغنى والجاه في بلادها وسواها شاباً سورياً يعيش في السودان ولا يملك من حطام الدنيا سوى راتب بالكاد يكفيه ليعيش وحده باقتصاد وربما بشيء من التقتير ولكن ايزابل كانت تقول لها إنها مستعدة أن تعيش معي ولو في كوخ ومع ذلك تجلني عن ان ارضى لها بذلك المصير وتؤكد لشقيقتها اني مسافر قريباً الى الولايات المتحدة حيث اظفر بمنزلة تمكنني من ان اعيش واياها عيشة سهلة لا تريد هي افضل منها ، وتمني هي نفسها بأن استعدادي واجتهادي مقترنين الى نفوذ والدها لا شك مبلغاني ما تريده لي ولها . والحق يقال انني عندما عدت الى الخرطوم كنت على نية إنهاء علاقاتي بحكومة السودان والسفر الى اميركا وقد كنت اشعر قبل أن التقي بها اني اقوى الناس واقدرهم على فتح طريق لنفسي ولو في جبل صخري

الحاصل ان لبنان بالاتفاق مع صديقي وأختها احتال على دعوتها عصر الاحد الى نزهة في سيارة على أن لا اكون انا من الركب ولكنها ابت القبول إلا اذا انا ابديت رضاي التام عن ذهابها ، كاتمة في صدرها اشمئزازها من عدم دعوتي وموجعة من ذلك الإغفال المقصود على ما تعهده من ميل صديقي الي

وجاءتني مستأذنةً فتنصلت من كل سلطة لي عليها وخيرتها في البقاء او الذهاب عَلَى ما تشاء ولكنها ابت إلا أن تثبت لي تلك السلطة الى اقصى حدودها وجعلت بقاءها او ذهابها وقفاً عَلَى كلمة ألفظها . فعندما رأيت منها ذلك الحث عليها بالذهاب رغبةً مني في ان تجرب سواي من مواطني لعلي اكسب شيئاً من اختبارها وقد صح ظني اذ لم اكن احتاج الى منجم لينبئني بأن شاباً يحاول استمالة فتاة عِلم علم اليقين انهما لسواه ، أيًّا كان ذلك السوى ، لا يمكن ان يكون عَلَى شيء من سمو الخلق وعلو الهمة وتهذيب النفس ولو كان في طليعة السراة وذوي الثراء

وكانت النتيجة ان تلك الرحلة زادتها تعلقاً بي بعد أن عتبت عليَّ عتباً مراً وأنبتني بشدة لانني لم امنعها من الذهاب مع علمي ، عَلَى زعمها ، بما ينطوي عليه صدر لبنان او عَلَى الاقل باخلاق صديقي الذي كان عتبها عليه اشد واستياؤها منه أوفر لانه لم يرعَ عهدي بل هو شايع لبنانا وآزره لكي يحملها عَلَى القبول به دوني

عَلَى ان لبنانا لم يرعوِ ولم يؤثر فيه إعراضها البات عنه بل ظلَّ يزور الاسرة مع صديقي وبقي عَلَى رجائه باستمالة الفتاة بواسطة اختها حتى أنه دعا الاسرة لزيارته في مزرعة له بجوار الاقصر عند ذهابها الى هذه المدينة الاثرية . وبمناسبة تحميل ايزابل لبنانا رسالتها الاولى اليَّ لم اتمالك ان قلت : يا له من عاشق لم يعلم انه في الواقع حمل قلب الفتاة التي هامَ بها وبعث به اليَّ ولبث في القاهرة ينتظر منها ان تبادله حبه !

وفاة ايزابل

في مصر العليا انتقلت عدوى الحمى التيفوئيدية الى ايزابل وأختها ووالدهما بواسطة الماء فأسعف الثلاثة بأفضل معالجة وعَلَى ما ابلغني صديقي بذلت في سبيلها هي حيل الطب

الحديث دون مراعاة اي عناء او نفقة ولكن عبثاً فأبلّ ابوها وأختها وماتت هي

وأتاني بلاغ من أمها بذيب الجاد تقول لي فيه ان آخر ما تلفظت به كان اسمي فكتبت اليها معزياً ولكن اية رسالة كتبت ؟ اني سكبت فيها روحي وكأني كتبتها بدم قلبي ولكنني عثرت فيها عثرة اورثتني من الحزن ما يضارع حزني على النعيم الذي فقدته ذلك اني اعتمدت على طهارة عاطفتي ونقاء سريرتي فسميت ايزابل « زوجتي الروحية » فلم تعلق في ذهن الوالدة الجريحة القلب على ابنتها المعبودة سوى الكلمة الاولى فكتبت الي رسالة كلها تكلف وجفاء تسألني فيها ان ابعث اليها بما كنت احفظه من آثار ايزابل فكان تأثير تلك الرسالة علي انني صعقت ولم اعد ادري ماذا افعل . ولم اعتم ان ادركت ما الذي غير تلك الام عليّ بعد ان اولتني عطفها وأقصى ثقتها فكتبت اليها تفسيراً بليغاً وافياً متهماً اياها بفقدان المنطق إذ لا يمكن ان يصدر الاعتراف على الشكل الذي اولته لها حزنها وشتت فكرها بسبب مصابها الكبير حتى عن شر الناس وأسفلهم وما احسب الا انها عادت الى رشدها وكفرت عن سوء ظنها لخالقها لانها لم تكتب الي على الغالب لحماقة فيها جعلتها تخجل امامي من سوء ظنها

ومع اني اصبحت اليوم زوجاً محباً ووالداً عطوفاً فانني لا ازال ولن ازال زوج ايزابل اوزبورن بالروح حتى تضمني واياها الابدية

. . . .

والآن اتساءل ماذا كان من الممكن ان يكون من امري مع ايزابل اوزبورن لو هي ظلت في قيد الحياة . كان من الممكن ان ينسيها البعد الشاب الذي كنته . او أن تعود الى بيئتها فتؤثر فيها فتضحك من نفسها كلما ذكرت حماقتها في وادي النيل . او أن اسافر الى اميركا فلا أصيب النجاح الذي

كنت ارجوه فلا يتم لي حظ الاقتران بها . أو ان اقترن بها ثم تندم هي على إطاعة هوى قلبها لما تراه من التباين بين طباعي وميول محيطها الذي ألفت السير بوحيه

قد يكون هذا او ذاك او هذاك ولكن بقصر نظري الى كل هذه الامور الفرض التالي :

قد تكون الثروة وبالاً على الكثيرين وكم من حامد للفقر بعد أن ملك ناصية الغنى لان الغنى جر عليه متاعب ومصاعب لم يكن يحلم بها فبات يتمنى لو هو عاد الى فقره لانه كان فيه اسعد حالاً وأهنأ بالاً وأوفر صحة ومع ذلك ومع تكاثر الامثلة على ان الفقر كثيراً ما يفضل الغنى يظل الناس يسعون الى الثراء

كذلك انا لا أريد أن أعرف سوى اني كنت في نعيم ولست اسمح لنفسي بان ألقي ولو ظل شك على الفتاة التي ذهبت الى عالم البقاء واسمي بين شفتيها وعندي على اخلاصها وصدق ودها الف دليل .

قد يوجد من يفاخرني بان قد تم له فوق ما اصبت ومع فتيات اميركيات في مثل منزلة ايزابل اوزبورن او فوقها ولكن ما لا يجوز ان يفاخرني به احد هو الحب الروحاني الذي نشأ بينها وبيني والذي لم اجد له تفسيراً من جهتها إلا بالاعتراف بالتقمص وأن نفساً شرقية استعارت رقيها من كل ما في الشرق من جمال وسمو وإلهام قد حلت هيكل تلك الفتاة الاميركية التي ما احسب ان يكون لها بين الاميركيات صنوة على ما نراه من مادية ذلك الشعب الكبير وما هو منغمس فيه من التبذل واللهو وكل مسببات الطلاق الى حد اصبح معه المفكرون في تلك البلاد يخشون تفكك عرى الاجتماع والاسرة فيها

كلمة اخيرة

ما هذه رواية ، بل شعر مسبوك في قالب نثري ، او نفس مسكوبة في كلمات

انا شرقي لا يعبد الجمال ولكنني أعدو العرض الى الجوهر وأعتقد ان الجمال الحقيقي هو ما استقر في اعماق النفس استقرار الدرّ في اعماق البحر

السطحي يجتذب السطحي ، في الرجل وفي المرأة ، اما الجاذبية الحقيقية الخالدة فكامنة في الشعلة الالهية الكائنة في هيكل النفس الداخلي

لقد اجتذبني في البدء جمال ايزابل الخارق ولكنني ما لبثت ان احببتها ، او بالاحرى عبدتها ، ليس لانها كانت جميلة بل لانها بلغت من العظمة حداً جعلها تستصغر شأنها وتنكر امتيازها الحي . لذلك اعتقد انه لو حدث ما افقدها جمالها لازدادت جذوة حبي لها اشتعالاً . وبرهاني انها بعد أن ذبلت ووارتها ظلمة اللحد ما برحت انظر اليها كزهرة سماوية يزداد عرفها الطيب مع الايام سطوعاً

ان ثلاثة وعشرين عاماً قضتها نفسها في التحليق المستمر لم تكن كافية لتغيب عن نظري تلك النجمة المتألقة ، إذ ان عين النفس تقطع كل مسافة مهما تكن سحيقة وتخترق كل مادة مهما تكن كثيفة

كذلك عجزت السنوات المديدة التي قضيتها زوجاً اميناً ووالداً عطوفاً عن ان تمحو من ذاكرتي ايزابل الفتانة . وانما انا اقصد النفس لا الجسد ، وأعني الملاك لا المرأة

من اجل كل هذه الاسباب اعتبر ايزابل زوجتي الروحية وأرجح حقي بنفسها النبيلة على حق اي بشري آخر مهما تكن صلته بها مكينة وأقدم لذكراها الغالية هذه الرواية التي ضمنتها حوادث وتفاصيل أنق وأقدس حب ، وهذا الكتاب الذي اودعته كياني وشخصيتي وأماني

توفيق ضعون

فهرس المواضيع

اما المواضيع الفرعية لهذه الابواب فقد حالت كثرتها دون تدوينها

قبل مطالعة هذا الكتاب الرجاء إصلاح الاخطاء التالية :

صفحة	سطر	
٣٧	٢	كلمة « توراة » بنقصها في بعض النسخ ة
٣٩	٣	كلمة « الآخر » تحتاج الى مدة
٤٥	١٨	يستبدل حرف « في » من في
٤٥	٢٣	تقرأ كلمة « نطافي » نطاقي
٧٢	٥	« جامداً » صحتها جامدة
٦٨	٤	« مرتب » صحتها راتب
١٢٦	١٩	« والمدومة » صحتها والمعدومة
١٦٣	١٨	« التملظ » صحتها تلمظ
٢١٣	٢٢	برهوم من « شمروخ » صحتها شمروخ من برهوم
		حيثما ترد كلمة براس تقرأ برئس